إسماعيل يبرير

مولى الحيرة

رواية

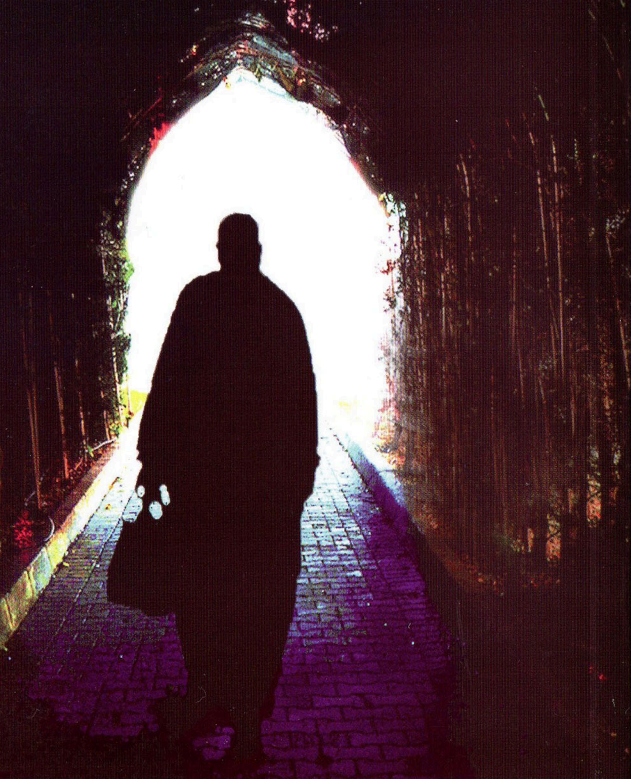

مكتبة نوميديا 99
Telegram@ Numidia_Library

Hibr حبر

عنوان الكتاب : مولى الحيرة
المؤلف : إسماعيل يبرير

© جميع الحقوق محفوظة لحبر للنشر - الجزائر 2016

ر.د.م.ك : 978-9931-514-49-7
الإيداع القانوني : السداسي الثاني ،2016.

إلى أمينة

تحرير
(مفتتحٌ بمثابة مُداعبة)

يقول الشّيخ الأبيض الرّائي : «اعلم يا الدّيلي أنّ الأسرَ نيلٌ من الوجودِ فلا باعثَ للحُلم لدى أسير، والحريّةَ فعلُ وجودٍ فلا كابوسَ يصلُ سدّتها، والحكايةَ وحشٌ متعدّدٌ مُخيف لا يهدأُ شكلهُ وكنههُ إلاّ بتحرير، والتحرير مُنكرٌ ما لم يكن مشروطا، والشّرط اغتصابُ حقٍّ ما لم يكن متاحا، والمتاح قليل متى بحثت عنه، فاكتف بالمباح من عبورك، اكتف بالحكاية، الحكاية يا الدّيلي معلّقةٌ منذ البداية لا يطيقُ إملاءاتها إلاّ بارعٌ صهرتهُ التجاربُ والمحنُ والأحلام وتذوّقَ الفشلَ ورعى الأمل ولم يهلك في صحرائها أو يغرق في مائها أو يجمد في صقيعها، ودون ذلك تصير الحكايةُ وحشًا يتّسع فيبتلعُ أيَّ شيء، وتصير الرؤى محنًا، وتُخنق المتع كلّها. فلا تدع الوحش يخنق متعك. حرّره يا الدّيلي، حرّرهُ وتحرّر منه.

«بعد سنوات قليلة ستصابُ بالشّلل النّصفيّ، على الغالب بعد إصابتك بجلطتين متلاحقتين، وستكون عاجزا عن كتابة رواية أخرى، يهلّل لها الجميع دون أن يقرأها أحد»، يقول الكاتب الشابّ للكاتب العجوز في رواية «بقع غامقة في حياة بيضاء». يقرأ بشير المقطع غير مرّة ويتوقّعُ أنّهُ بلغ السنّ التي يسمع فيها خطابا مماثلاً.

داخل الرّواية التي أحضرها مينا صورةٌ قديمة، يعتقدُ أنّ طفلها السّابع الجالس مقرفصا على اليمين هو بشير الدّيلي حين كان تلميذا. قلبَ بشير الصُّورة بعد أن أمعن النّظر في وجوه التلاميذ الذين جلسوا في غير اتّساقٍ يرتدون ملابس مختلفةً رثّة، فقيرةً، لا لون لها إلاّ الأبيض والأسود، وقرأ على ظهر الصّورة «مدرسة غوستاف مارتين: 1961». أعاد الصّورة إلى داخل الرّواية وألقى بها على فراشه، فأطلّت من الرّواية وتوقّفت عند الطّفل السّادس على اليمين، وانزلق هو كظلّ نحو مرآة طويلة ثبّتها مالك الشقّة الأوّل. انتصبَ يتأمّلُ وجههُ ويحاول أن يستعيدَ الطّفل الذي كانَهُ فلم يعثر على الكثير. لم يعرف أيّهم كان في الصّورة. لاحقا أخبرهُ مينا أنّهُ الثالثُ الواقف على اليمين، وليس السّابع الجالس. لا اختلاف، فليست هناك ملامح مشتركة بين الطّفل الرّماديّ في الصّورة، وبين العجوز في المرآة. لم يكن يصدّقُ أنّهُ كان بذلك الضّعف وتلك الهشاشة حدّ غياب الملامح. الطّفل المقرفص بدا أقوى وبعينين أوسع. مسحَ على لحيته ووجهه غير مرّة، ثمّ مشّط رأسهُ بكفّيه ما دام قد توقّف عن استخدام المشط منذ غادر القرابة. أمسكَ أرنبة أذنه بأصبعيه وحرّك قليلا حبّة داخليّة سكنت الثّقب الذي حمل قرطا في صغره. استعاد الدّيلي صوت جدّته وهي تردّدُ دائما «لقد

ولدتَ من النّار، ولدتَ في النّار يا ولدي»، «على الأقل بدأ اليوم مختلفا، صورة ورواية، مساءً أعرف مصير الكاتبين الشابّ والعجوز» ردّد في داخله وهو يسحب الباب الأول خلفهُ.

أمضيا سنوات يلتقيان على سلالم العمارة دون تواصل، يتبادلان نظرات ترقّب، نظرات تستقرُّ ما بين التحيّة وتجديد اتفاقيةٍ سلام، لا يدري بشير ما سبب المعركة الموعودة بينه وبين جاره، رغم ذلك لا يتصوّرُ حياتهُ في نأيه دونه، لو أنّ يوما مضى دون أن يطالع وجهه الأسمر لبدّد ساعاته. كان السّايح مثل الآلة بحركات منظّمة وخطى مقدّرة ورأس صغير دقيق، عيناهُ أصغر سنّا من وجهه، تضيءُ كأنّها لفتى في العشرين. كان حليقًا على الدّوام، لا يُرى إلا وهو جادّ الملامح كأنّهُ مقبلٌ على أمرٍ عظيم. ظلّ يرتدي سترتهُ البنيّة طوال ثلاثة فصول قصيرة، فإذا حلّ الشّتاء الذي يلتهمُ أغلبَ أيّام السّنة ارتدى معطفاً بنيّا. ورغمَ أنّه رغب في تفتيش دواخل هذا الجار البنيّ، إلا أنّهُ لم يجرُؤ على الاقتراب منه، ولا سؤاله عن سرّ انحيازه لهذا اللّون، خاصّة وأنّ سمرتهُ تحتاج إلى بعض الألوان الفاتحة، بينهما أكثر من نقطة تشابه، أوّلها أنّهما ابنا القرابة المتنكّران، وليس آخرها شغلهما شقّتين متقابلتين في الطّابق الثالث من عمارة مشدوهة أمام شروق الشّمس بجنوب المدينة بحي شي غيفارا. اكتفى السّايح بباب واحد خشبيّ أبيض، في حين أحكم الدّيلي إغلاق شقّته ببابين أسودين، الباب الحديديّ الأوّل كتلة لا تسمح لذرّة غبار بالعبور، ثمّ باب خشبيّ خشن انتقلَ به خلال السّنوات الأخيرة من اللّون الأبيض إلى الأزرق فالبنيّ –على مذهب جارِه– وفي النهاية استسلمَ للسواد. ولكنّ أمرا مّا جعل منهما رجلين يمشيان في خطّين متوازيين، حتّى صباح خريفيّ حزين قذف ببشير إلى الشّارع مسكونا بصورة الطفل الذيّ

كان وبيطلي رواية مجهولة الكاتب صادفها مينا في سوق الجمعة بلا غلاف فأحضرها. كان بشير كالحَجر، تقريبًا بلا عمر، أقربَ إلى شيءٍ يعيشُ دون حاجة إلى تأكيد ذلك في عيون الآخرين، منكفئًا داخلَ ذاته ومُكتفيًا بها.

وكان جارهُ البنيّ يتسلّقُ السّلالم مجهدًا، توقّفا فجأةً على غير عادتهما في اللّقاء، تبادلا نظرات متشابهة، تحدّثا وربّما لم يفعلا، بدا وجه السّايح شفّافا يكشفُ ما خلفهُ، وسمعَ بشير كلماته قبل أن تتدحرج من شفتيه الزّرقاوين، ثمّ راحت الكلماتُ تتكرّرُ بعد أن ينطق بها في رأس بشير، أحدثَ هذا صُداعا رهيبا، ورغم أنّهُ لم يستوعب موضوع حديثه، فقد التقطه من كتفيه وعانقه عناقا خفيفا ثمّ ساعده على الصّعود. فُتح باب شقّته الأبيض قبل أن يقرع الجرس، كانت زوجة الجار البنيّ الذي أصبح أصفر تقفُ أعلى توتّرها، تلفُّ شعرها بخمار أخضر بينما تتدافعُ شعرات بيضاء تتطلّعُ مرعوبة إلى عالم خرب. هزّت رأسها تشكر جارها، وأخذتْ دورهُ في إسناد زوجها، التفتَ السّايح وهو يدخُلُ شقّتهُ ولم يقل شيئا، وكأنّ كلمة مّا علقت بين عمقه ولسانه. كانت سمرتهُ تستعيد وجهه ولم يعد يكشفُ عمّا خلفه ولا تُسمعُ كلماته، بدا ظلاّ لزوجته التي ترتدي ثوب صلاة أبيض.

قبل ذلك اليوم لم يكن قد رأى زوجة جاره اللّدود، لهذا فقد كان مُفيدًا لوحدته تخيّل حكاية زوج قاتل يخفي زوجتهُ ويقوم بواجباتها كي لا يلحظ النّاس غيابها. التجربة تخبرهُ أنّ المرأة تكون غائبة بوصفها وجهًا، وحاضرة بوصفها كائنًا خرافيًّا. وهي ملهمةٌ في الحضور وفي الغياب. غادرَ وهو مستاءٌ لأنّ وجهها الجميل أفقدهُ مُتعَ التخييل ووَضْعِها في مواقع وأشكال. لم يكن قاتلا ولم تكن زوجته بشعةً. نزل خائبا سلالم العمارة.

كان عليه حثّ خُطاه مسرعا نحو سوق الخضر والفواكه الأقرب. اقتنى بعض الفاكهة وقطعة كبد خروف ودجاجة. بات من واجبه أن يكفل جارهُ الذي عاشَ معه خصومة غير معلنة. حالة لا هي بالسّلم ولا بالحرب. لم يرُق أحدهما الآخر. شعرَ أنّ الرّجل بحاجة إليه، ربّما لأنّهُ كان يُشبههُ، وليس وضعُه بالغريب عنه. وهو يتسلّقُ نحو الطّابق الثّالث تساءلَ عن سبب النُّفور الذي تبادله والجار لسنوات؟ ما من سبب واضح. «كلّنا صرنا نخشى كلّنا» استنتج وهو يسلّم الزّوجة الكيسين وعاد إلى شقّته يرغبُ في البكاء بشدّة. أفرغَ علبة سجائر في صحن وتأهّبَ لينقضّ عليها. أخذَ مكانهُ قبالة التلفزيون في غرفة الصّالون، وأوقدَ سيجارة. توهّجت على شفتيه وتوهّجَ قلبهُ معها. ها هي وحدتهُ التي قهرها طويلا تتطاولُ حتّى تبلغ مداها، وها هو ينكمشُ حتى يذوي تماما فلا يظهرُ تحت دخانه، أخيراً هو ليسَ مجرّد حجر، بل رجل بعمر ما، لديه جارٌ يعنيه أمرهُ، جارٌ خارج مدار القرابة الذي عاشَ فيه، وأحبّ، وكبرَ، وماتَ بسرعة، ثمّ خرجَ كحجرٍ أصمّ ساعيا للتجرّدِ من خطوط الحيّ ونقوشه في ذاكرته الملعونة. مدّ رجلهُ يدفعُ الرّواية، فانتظمت الصّورة داخلها، وسقطت عن الفراش. لا تملك صدرا ولا ظهرا. كم هي عارية الكتب بلا أغلفة، مثل البشر بلا أحبّة وبلا منازل. شعرَ الدّيلي أنّ الشقّة تضيقُ به، وبطلَيّ الرّواية مختلفان ولا يعزّيان الوضع، غير أنّهُ كان مشغولا بمداعبة شرسة مع سيجارته.

* * *

الفجرُ في القرابة أقربُ منه إلى الأحياء الأخرى. يبدأُ من هذا الحيّ لينتشرَ. ينزلُ متعجّلاً الحضور، وينصَرفُ منتموه متعجّلين العودة. لعبةُ أطفال كبار، يعرفُون أنّهم كلّما افترقوا باكرا التقوا

باكرا، لهذا فإنّهم يصغون بكثير من الطّمأنينة لدورة زمن القرابة أوّل الأحياء، وهو يخطفهم بسرعة من السّمر، ويشتّتُ نزقهم، ثمّ يمرّ النّهار ببطء، مفصولا عن العالم، كأنّهُ يتلذّذُ بمللهم وتوقهم لليل. في قرابةِ السّبعينيات كان اللّيل سحرًا لا يمكنُ التّنازل عنه. كان زين العابدين يحتسي نبيذه منذ عصر اليوم حتّى لقائه بالشلّة، ويقُولُ: «لم يكن بوسعي مقاومة صحراء روحي، انتظرتُ طويلا، وقطعتُ وحدي كلّ تلك المسافة، ولم يجنّ اللّيل، أيّ عقل عنده وأيّ حكمة يحوزُ؟ لهذا قرّرتُ أن أجنّ». وكان ناصر يردّ عليه: «المهمُّ أنّ اللّيل ما زال متوفّرا يا صديقي، كان عليك تأجيل سُكرك». ويبدأ صراعٌ مألوف لتدشين الحفل. الزّين يرفضُ نعتهُ بالسّكران، وناصر يبرّرُ لهُ، ويتحدّاهُ أن يمشي معتدلا إلى غاية عمود كهرباء زقّاق بن عمران. يقفُ في كلّ مرّة مردّدا الجملة ذاتها: «ليس من أجل أن أثبتَ لأحد أنّي صاح، ولكن لأثبتَ ذلك لنفسي». ثمّ يتعثّر غير مرّة، ويقبّل جداريِّ السّقيفة، مرتطما يمينا ويسارا. يلتفتُ، يستطلع أنظار البقيّة. ولأنّهم ألفوا ردّات فعله، فإنّهم يمحون ملامح الضّحك والسّخرية، كلّما التفت، وهكذا، وفي نهاية تحدّيه، يجلسُ أسفل العمود، ويطلقُ إلياذته المعهودة التي يفتتحها بسباب ناصر، ثمّ بشير وعبد الحميد، وفي النهاية كلّ سكان القرابة والجلفة والجزائر والعالم أجمع. وسرعان ما يتمُّ تخطّى هذا المشهد الافتتاحيّ، وينخرطُ الجميعُ في سمرهم الذي يتشنّجُ في كلّ مرّة، بسبب ناصر والزّين وخلافِهما الأبديّ.

ناصر كان جادًا أكثر من الجميع، روحُ النُّكتة عنده عمياء، كلّما حكى نكتة تقطّبت الحواجب، وتبادل الجميع ابتسامات باردة. يوفّر وقته لجمع الكُتب وقراءة السياسة. كان ماويًّا، وبعد أشهر صار تروتسكيّا، ثمّ جمع المذهبين وقرّر أن ينتقدَ لينين! وهو خلال كلّ ذلك

لا يعرفُ إن كانت الشّيوعية ستنتصر أم مذهب عبد الحميد. يتواصل مع حزب شيوعيّ محظور، دون أن يروقه فكرهم الذي يصفه بالضيّق والمحصور والمزيّف أيضا.

كانوا رفاقًا يجمعهم اليسار، إلا عبد الحميد الذي أراد تيارا جديدا وتمنّى تأسيسه يوما. يقول إنّ اليسارَ يُلغي الاختلاف. إنّهُ نموذج يُلغي التّفاوت بين النّاس. وظلّ يؤكّد أنّ لقب «رفيق» يشعرهُ باستنساخ ممل للوجود، وفضّل أن نلقّبه بـ«سي» كما يفعل الجزائريون مع المحترمين، مضيفاً أنّهُ ليس كلّ بشر «سي». لطالما اعتقد أنّ رفاقه أقلّ احتراما. كان اللّيل مدرستهم ومنتداهم وغطاءهم. لم يكونوا محبّين لبومدين ولا حاشيته. حتّى الكولونيل بن شريف لم يمثّل توقهم. عبد الحميد اعتبر أن بومدين عروبيّ وقوميّ واشتراكيّ، لكنّه يواجه دولة حديثة النّشأة وشعبا ليس له نمط واضح. وناصر لا يفتّش عن مبرّرات للعقيد الانقلابيّ، ويتوقّع أن يصل إلى الهاوية؛ لسبب وحيد، هو إلغاء دور المثقّف. يصنّف نفسه كمثقّف يمكن أن يكون عضوا فاعلا في صناعة مشروع نهضة ثقافية في الجزائر. رغم ذلك، لم ينتج شيئا أكثر من محاضراته التي أصغى الجميع إليها طوال ليال. أمّا الزّين، فهو يساريّ المؤسّسة، يمضي يومه في المنطقة الصّناعيّة، وباحتساب آخر منصب شغلهُ يكون قد مرّ على مصنعين وشركة في سنة واحدة، يناضلُ داخل الحزب والنّقابة الوحيدة، ويتسلّقُ الجميع حتّى يستقرّ في قلبهم. يساريّ شعبويّ متديّن، يحتسي النّبيذ ويرتدي لباسا أبيض أنيقا لصلاة الجمعة، «عمامة حاج وخزرة[1] قط» على حدّ تعبير بشير. الوحيدُ الذي كان قلبه شاهقًا ولم يصلهُ الزّين هو ناصر، وهو لا يتوانى في وصفه بمثقّف «منتصف اللّيل» الذي لا يشارك في المجتمع

(1) نظرة.

بأيّ دور، سوى التسلّل إلى خلايا الحزب.

أربعتهم أحيوا ذكرى رحيل الرّفيق غيفارا. حضّروا لذلك، كما لو أنّ الأمر يتعلّقُ بخامسهم، والتقوا في بيت الدّيلي، أصغوا إلى أغنية الشّيخ إمام «غيفارا مات». وبكى ناصر كما لو أنّه فقد أهله كلّهم، كاد بشير يقول له: «العدالة لا تموتُ بموت غيفارا»، لكنّ شيئًا مّا تغلغل إلى حلقه وحوّل العبارة إلى تساؤل، فمزّقَ رهبة صمتهم وهو ينطق ببلادة: «هل يكفي العالم غيفارا واحد إذا مات بكيناهُ؟ ألا يجبُ أن يكون لكلّ دين ومذهب وحيٍّ وبيت غيفارا خاصٌّ به؟»، وبدا وكأنّهُ نسفَ السّهرة التي يُبكَى فيها الرّاحلُ بعد ستّ سنوات من مصرعه. قفز ناصر مذعورا وغادر. وبعد قليل، لحق به عبد الحميد وهو يعلّق: «يبدو أنّ غيفارا هذا ملعون بالقدر نفسه الذي أصاب القرابة». أمّا الزّين، فقد بقي مع بشير، حيادي الوجه والمشاعر، ثمّ ما لبث أن طلبَ منهُ أن يَقليَ له بيضتين، وواصلا سهرتهما التي التهم فيها أكثر من عشر بيضات، وهو يحكي عن أمله في مغادرة القرابة. كان بيتهُ في أقصى الحيّ، لم يعرف الكهرباء إلا أواخر السّبعينيات، وقد اختفى كوخهم سريعا بمجرّد نزوحهم إلى أحد أروقة القرابة. عاش ردحا من الزّمن على ذكريات ذلك البيت، والبقية على أحلام التفوّق. وفي نهاية السّهرة، ومع اقتراب فجر سبعينيّ هادئ، كان بشير يرى غيفارا ماثلا في زيّ رجل القرابة المميّز الحفناوي، وراقهُ أن يُضفي عليه نجمةً حمراء فقط ليكون. ثمّ غادر وهو يغنّي «الحفناوي مات... الحفناوي مات».

في النّهار، كان بعضُهم ينامُ استعدادًا لليلة أُخرى، والبعضُ يقاومُ حيث يعملُ أو يُدرّس. عبد الحميد مدرّس متدرّب، وشغوف بمنصبه الجديد. الزّين يعملُ بشركة بناء حكوميّة جديدة، ويقودُ فرعها النقابي، طالما لا يفهم أغلبَ عُمّالها من خطاباته سوى كلمة: «حقوقكم

مضمونة». ناصر ظلّ متفرّغا لجمع الكتب، فارًّا من والده الذي يريدُه إلى جانبه سائقَ شاحنة بكرش مستقلّة عن باقي جسده، الأمر الذي جعله يقتاتُ على هبات الزّين اللّدود. أمّا بشير الدّيلي فاكتفى من الدّنيا بعمله موظّفًا في البلدية، يحفظُ النّاسِ وآباءهم وأجدادهم، يعرفُ الجميعَ ويمضي إلى وحدته. كان يقرأ مثل رفاقه، أفضل بقليلٍ من الزّين «الجاهل»، وأقلّ من ناصر «الفيلسوف الشّيوعيّ»، وعبدُ الحميد «المُنظّر».

كان هذا في سنوات الصّبا الآفلة. هكذا كانت الحياةُ، فكيف انسحبَ الشّباب من الزّوايا؟ لم تبق اليوم إلا أطيافٌ تتراءى عبر الأزقّة، ضحكات وأحلام ونزق جماعيّ. الشّيوخ يخرجونَ نحو المسجد بخطى مطمئنّة، وقد انتشر الإيمانُ بين بعض الشّباب الملتحين والحليقين. وها هو بشير منبوذٌ، يبلغُ منتهاهُ بلا حكمة، يرجو كشفا بلا رياضة، لا يعرفهُ الكثير من النّاس، لقد غابَ حدّ النّسيان، يزورُ الحيّ أحيانا، يفتحُ بيتهُ، يتنشّقُ غبارَهُ، ويخرجُ متنقّلا بين بعض البيوت. يرى عبد الحميد ويجالسُهُ قليلا، ويفتّشُ عن ناصر ليتبادَلَ معه بعض العتاب المعتاد، ثمّ يكرّر الجميع إهمال الجميع، يمرّ مسرعا ويرجو صادقًا أن ينجوَ وأن ينجوَ الجميع منه، يرجو أن تكون هذه آخر زيارة له إلى الحيّ أو أن يزول. لا أثر للزّين، بعد سنوات قليلة انسحبَ من المجموعة، الأمر الذي جعل ناصر يخرج من مخبئه ويضطرّ للعمل مُعلّمًا للّغة الفرنسية، رغم أنّه لا يتقنُها تماما. الزّين اختار أن يدخُلَ مغارة علي بابا. هكذا كان يسمّي السّياسة، وقد نجح فعلا في الحصول على مقعد برلمانيّ في نهاية الثّمانينيات ثمّ في التّسعينيات، ما يعني أنّه نجح في الفرار من القرابة ومن الرّفاق ومن ذاكرته المتخمة بالفاقة والعوز. لكنّ لصوص القصّة أكثر من أربعين.

باحتساب سيجارته التي أشعلها الآن، يكونُ قد دخّن علبةً كاملةً خلال جولته من الكرسيّ الخشبيّ ذي الأرجل الحديديّة إلى غاية القرابة. يفتحُ العلبةَ الثانية، والسّيجارة الأخيرة من العلبة الأولى تتلوّى على شفتيه منتشية، يأخذُها أنفاسًا متتالية ويدفعُها من أنفه، ويسحبُ سيجارةَ أولى من العلبة تدشينا لها ولفجر يوم جديد، يطعمُها النّار من شقيقتها، ويسلّمها فمه، بينما تدوسُ قدمهُ الضّالةُ السّيجارة الأخرى. ينتبهُ إلى وجود إنارة جيّدة في هذا الشّارع الذي كان آخر الحيّ والمدينة، حيثُ يكتشفُ أنّ حذاءهُ يفقدُ لونه، يقبع بين الأسودِ والبنيّ، بفعل اللّمّاعين المختلفين اللّذين تداولا عليه، ها هو مزيج الأسود والبنيّ يرسّمُ خطاه، ينقُصهُ حذاءٌ للبقيّة؛ فالزّمن شقّ خطوطا في جلدِ هذا الحذاء الذي اقتناهُ لهُ مينا من عند منصور بن جلول المرعوب، وليس من داعٍ للخوضِ في تفاصيل منصور أو والده جلّول المرعوب، طالما يخفّضُ من وتيرة خطوه، بعد أن تسرّب إلى جوفه الموجوع شعور بالرّعب من تمزّق الحذاء وضياع الطريق.

* * *

الجوّ صارم وباهتٌ في الوقت نفسه. السكّان يتغيّرونَ ويرحلونَ باستمرار. أصبح يشعرُ ببعض الغُربة، ورغم ذلك يمنعهُ حنينهُ الذي يجتاحهُ من كلّ الجهات أن يُغادر الأزقّة وحكاياتها المتناسلة. أمعنَ في إعادة اكتشاف المكان، تلقى آخر سيجارة متّقدة مصرعها أسفل خطوته القادمة. لم تعد معهُ ولاعة، ، ولن يعثرُ الآن على محلّ في هذا الصّباح الباكر بحيّهِ العتيق. سيضطرُّ إلى انتظار أحدهم ليوقدَ القادمة، فشلَ في الاحتفاظ بالنّار. يعرفُ سلفًا أنّهُ ما من مدخّن بين هؤلاء الشّباب الذين يسابقونَ الخُطى نحو المسجد، لكنّهُ قد يكونُ

بين الشّيوخ. اتّكأ على جدار غير رحيم، حوّلته يدُ الرّداءة إلى حبّات إسمنت قاسية، وانتظرَ طريدتهُ. مرّ شيخٌ بقندورة عربي[1] زرقاء وعمامة صفراء. حيّاهُ رافعا يدهُ، لتَميُّزه. عرفَ أنّهُ الحاج بن مشري الذي كان سائق تاكسي قبل عقود. هو الآنَ يصلّي بعد تاريخه الحافل بالمغامرات مع النّساء في كلّ ولايات الوطن. يذكُر أنّهم أحضرُوه في كهولته من وهران بين الموت والحياة، بعد أن تصادم مع عشيقته، فكلّفت من يسدي لها خدمة، وقدّموا له جلسة استرخاء تغيّرت بعدها ملامحه. يقولُ من عرفه قبل الواقعة إنّ العملية التي قام بها أتباع عشيقته أتت على أسنانه وفكّه وجبهته، فتسبّبت في إعادة ترتيب ملامحه. بعدها امتلك الحاج بن مشري فمًا معدنيّا بأنياب من ذهب وأضراس من فضّة، ووُلد من عشقه السّابق، ليجد نفسه مستعدّا لعشق آخر وثالث وعاشر. اليوم يمضي إلى المسجد في هيئة عجوز ورع لا يريد من الدّنيا إلا رضوان الله. سعدَ من أجله، فقد تعبَ كثيرا في رحلات عشقه الألف.

كان عليه القفز من مكانه وهو يرقبُ تلك القندورة العربي البيضاء المرقّطة بثقوب السّوفي[2]. ها هو شيخ مدخّن يقتربُ منهُ. أمل باكرٌ يلوح في القرابة. أسرعَ يَعترضُ طريقهُ ويبادره بالسّلام: «كيف حالك يا حاج؟». مدّ يدهُ ورأسهُ يُسلّم عليه، وتلقّفهُ الشّيخُ بكثير من الفرح، كأنّه خال أو عمّ، خدٌّ، خدّان، ثلاثة على يمينيهما، من جهة واحدة على مذهب أهل الجلفة. «أنا بخير يا ولدي وأنت وأهلك إن شاء الله بخير؟». وأجابهُ أنّ الجميع بخير، ثمّ غيّرَ حاجتهُ، وأصبحَ يريدُ سيجارة. منحهُ سريعا ورقَ «الماصّة»[3]، وأخرج كيسا جلديّا صغيرا

(1) قندورة عربي: عباءة رجالية.

(2) السُّوفي: نوع من التبغ الذي يلفُّ في ورق التبغ «الماصة»، وهو نسبة إلى منطقة سُوف.

(3) الماصة: ورق يلفُّ فيه التبغ.

مُعبَّأ بالسُّوفي ليملأ ورقة بشير. غادر وهو يسأل «عندك النار؟»، ويجيبُه «لا، في قلبي وفكري بلى»، فيترك لهُ علبة ثقاب وينسحب. مسحَ لسانهُ على الماصّة، لفّ السّيجارةَ وألهبها وقد قرفصَ في مكانه، كانت أوّل سيجارة سوفي منذ سنوات. وفي الحقيقة لم يعد يذكُر منذُ متى؟ من هو الشّيخ الذي التقاهُ؟ أحدُ السُّكّان الجدد الذين حلّوا بالحيّ، لكن أيقيمُ شيخ في وطن مختلف كالقرابة دون أن تكون له صلة به؟ راقهُ أن يجدَ له قصّة، كأن يكون عاشقا لإحدى مُعمّرات الحيّ وقد عاد ليتزوّجها بعد رحيل خاطفها، لكنّ وقاره وهُدوءه جعلاهُ يُغيّر الخيار، ليصبح شيخهُ ذاك مجاهدا ارتقى في الحياة مراتب، وهو الآن يعود إلى حيّه الأول. تساءل وهو ينتفض من جمرة سيجارته التي سقطت على فخذه: «تراه يعرف أبي؟».

* * *

يستفيدُ من تقاعد مسبق يكاد لا يفي بحاجاته، ويمنحهُ مينا بعض الاهتمام، فيزُروهُ، أو يرسل إليه قارورات عصير، أو أكياس فواكه، وأحيانا دجاجا محمّرا أو مشويًا، ومؤخرا بعض البيتزا والسندويتشات، ولا يبخلُ عليهِ بعلب السّجائر في كلّ مرّة. لهذا فهو لا يقتني الفاكهة والمشروب، ويتركهما لزياراته التي تتباعد حتى تكاد تنقطع، ثمّ تعاود كثافتها وخبوها بشكل ميكانيكيّ. مينا هو طفلهُ الذي نقلَ إليه من أصدقائه بعض صفاتهم. كان يلتقيه غير مرّة في الأسبوع، وأحيانا يراهُ في اليوم مرّتين أو ثلاثًا. كان أكبر من أن تكون بينهما علاقة غير الصّداقة أو المعرفة العابرة، ورغم ذلك لا يتردّد في السّؤال عنه والجلوس إليه، بل تنتابهُ رغبة حقيقية في احتضانه، هو أكبر من شاب وأصغر من شيخ. فكرته عن الحياة تصالحيّة حدّ

البياض. يبتسمُ كأنّ الغد اتّضح له، وينظّر كأنّه عالم أو فيلسوف، من أين أتى بكلّ هذه المعرفة؟ ربّما هي هبة أمّه، أو يقينٌ وصلت إليه العارفة وأودعته ابنها.

بين أزقّة هذا الحيّ «القرابة» أو «البرج»، كما يحلو لهم أن يُسمّوه على الوثائق الرّسمية، فتحَ عينيه وحلمَ بكلّ شيء ولم يفعل شيئا على الإطلاق. كانَ يُراقبُ الجميع وكأنّهُ يُريدُ أن ينتبهوا إلى وجوده. أذان حيّ الضّاية المرادف لحيه يصلُ قبل أذان المسجد الأوّل في المدينة، ربّما لأن حيّ الضاية أكثر حداثة من حيّه الرّث؟ لكن من أين جاء سكّانهُ أ ليسوا من القرابة؟

غريبٌ عن شوارعه، ما عاد يُفتّشُ أسرارها منذُ قرن أو أكثر، وألوان البنايات التي أصلحها الزّمن معطوبة، تؤيّدُ غربتهُ بوقاحة. الواجهاتُ الصّلبة للجدران غيّرت من شكل الحيّ، سلبته دفء العناق وبساطته. الكثير من السّكان انتقلوا إلى أحياء المدينة المتفجّرة. والقليلُ من الشّيوخ قاوموا وما زالوا، حتّى أنّهُ لم يعرف ممّن صادفَ إلا القلّةَ. الشّبان الذين رآهم في طفولته تحوّلوا إلى عجزة، والشّيوخ ماتوا جميعا، والعجائز اختفين وغلّفتهن برودة الجلفة كما فعلت مع حكايات كثيرة.

* * *

لسبب ما، استمتعَ بشير بوجوده الغريب في فجر هذا اليوم من نهاية سنة 2015. وقد مرّ على غيابه عن الحيّ ربع قرن بالتمام، منذُ بدأ النّاس يكتشفونَ إسلامهم مجدّدا، وتحوّلَ هو إلى مشبوه. حملَ أمتعتهُ وكتبهُ وشيوعيّتهُ التي التصقت به وإلحادهُ القسريّ، وسكنَ في الطّرف الآخر للمدينة. أغلقَ بيتهُ ولم يعد إليه. تركَ ابنهُ الوحيد

رجلا في الخامسة عشرة يُنكرهُ، ويناديه. كمعظم سكان الحيّ. «بشير الدّيلي». لم يشعر يوما أنّ هذا النّداء يؤذي الأب فيه. على العكس، تمنّى فيه صديقا يعوّضهُ وحدة العقود وغدر الأصدقاء، وربّما مخرجا من عبء الأبوّة الذي لا يتحمّلهُ، إذ كيف يمكنهُ أن يكون أبا ولم يكن ابنا؟ لا أحد يعرفُ إن كان مينا صديقًا له، أم هو عدوّهُ الذي يتربّصُ به مبتسما؟

الحيّ وأثاثه من أهل الجلفة صور تتحرّك أمام عينِه، ومشاعر تتأجّج داخله، وحالات تتكرّر في ذاكرته. كان عليه أن يعيدَ ترتيبَ أولويات وجوده المضطرب، وهو يعود في الثالثة والسّتين من العمر. لا يعرفُ هل يسمحُ النّاس لمن في عُمره أن يشرع من جديد. صحيحٌ أنه هرم، وأنّ عمر أفكاره المتناقضة أكبر من عمره الحقيقيّ، وأنّ فشلهُ المتراكم أصبحَ أكثر سُمكا من الحُلم مهما كبر، غير أنّهُ يبحثُ عن مدخل مّا، لا إلى قلوبِ النّاس أو عقولهم، ولا إلى خيبته أو تفوّقه، بل مدخل ليهدأ، ليقولَ ما يريد وما عجزَ دائما عنه.

أصبحَ الضّوءُ أكثر فضحًا للحيّ، تماما كستار يكشف عن ركح غير مألوف، لقد تخرّب باسم ترميم الواجهات وإصلاحها. لقد بلغ أقصاهُ. وبعدها لن يصبح له من الاسم شيئا. هذا ليس حيّ القرابة الذي أسّس الحياة. الشّمس أقسى من الظّلام، كأنّهُ شبحٌ أو مصّاص دماء يخشى الضّوء ولا يعرفُ له ظلاً. على عتبة باب حديديّ مشرع، يسيلُ ماءٌ بلا وجهة، يسرعُ أمامهُ في كلّ اتّجاه، يقفُ ليتأمّلهُ، ويستعيدُ وصفَ جدّته لهُ، بينما كان يخبط عشواء. ظلّت تردّدُ: «إنه يُغربل عليك الماء»، وظلّ جدّه يعلّقُ عليها: «ابني لا يُغربلُ عليه الماء، ابني مغربلُ ماء». ولعلّهما صدقا الرؤيا، فهو يغربلُ الماء ويُغربَلُ عليه، وليتهُ فعلَ أمرًا آخر، فليس أقسى من ضوء النّهار إلاّ أن تكون مُغربل ماء.

كأنّهُ كرّر حركة واحدة طوال عمره دون نتيجة. هذا ما كابدهُ الدّيلي وما يزال.

* * *

يرتدُّ إلى سؤال المراهقين القاسي «من أنا؟» ويضيفُ إليه «في الغياب؟»؛ ليرحم الشّيب اليافع على رأسه. ودّ لو يرى نفسهُ من خارج غيابه، كيفَ كان فضاؤهُ الضيّق؟ هل احتلّ أحدُهم غيابَهُ؟ هل فكّر النّاسُ في ابن الحيّ الذي اختفى من يومياتهم، من صدمتهم، من سحرهم، كي لا يكون شاهدا على تلاشي كلّ شيء؟ وماذا عن الخونيّة؟[1] الضّوء يربكُ علاقتهُ بالماضي، هي كانت تؤمن بأنوار أخرى، غير التي يعرفُها النّاس عادة، كانت تقيمُ خلف التوقّع، كلّما أراد الاقتراب انتفضت كملاك، يحوز -بالإضافة إلى قلبه- قدرة الانسحابِ والتجلّي في آن.

«يبدو أنّ ذكرها كذكر الغياب يجعل الكلام أكثر شعرية»، يقول وهو يمرّر يدهُ على جدار أصفر تمسّك بصفائه ووجهه، وأحاله على خطى عشقه الأولى، ويضيف: «الشّعراء وحدهم من يفهمُ هذا التيه، الشّعراء وحدهم من يقرأ خطاب الغياب». كانت تقول لهُ خلال أيّام زواجهما الأولى: «أنت تتحدّث وكأنّك شاعر، من المؤكّد أنّ الكتب التي تقرؤها أثّرت فيك»، ولم يقل لها مثل من كانت تتحدّث إليهم، لم ير لها مثيلا. لكن من هم الشّعراء؟ تساءل في وجه الجدار: «هل هم الذين يكتبون كلاما أعلى من الكلام، أبلغ من المحكيّ؟ هل هم الذين يشعرون ضِعفَ ما نشعر به أو أكثر؟». أمضى عمرا يطرحُ أسئلة كهذه،

---

(1) الخونيّة: (الخوني) هي العارفة، الزّاهدةُ، وقد انزاح اللّقب ليصبح صفة للدّراويش والمجذوبين ومريدي المزارات.

وعمرا آخر يحاول أن يكون شاعرا، والعمر الثالث وهو يغيبُ ويتوارى وينساها. هي لم تكن في ضُعفه. خلخلته والتفتَتْ فقط فاختفى، وظلّ يُفتّش عنها سرّا في خطاه الوحيدة، وعن القصيدة التي ترسّمهُ شاعرا، واتخذ لهُ شعارا يعزّيه، فردّدَ: «هل غادر الشّعراء من متردّم؟»[1].

لو لم يكن يطوفُ الحيّ لكان يُفتّش فيه عن ذاكرته، لو عثرَ عليها لكان يهدم تاريخها المجيد ويلوّثه بفشله العظيم. لهذا فإنّ الجولة التي يقوم بها في الحيّ العتيق هي محوٌ لوجعها، تخط لتاريخها بجغرافيا اللّعنة، الجغرافيا التي أوجدت هذا الحيّ نواةً لمدينة، فتحوّل إلى هامش لها. أمّا الدّيلي فقد اقتنع قبل سنوات أنّهُ بلا تاريخ، ثابتٌ بلا حراك، قارّ في اللاّمكان واللاّزمان، فقط خيالهُ من يتأمّل ممكنات وعوالم، ويؤوّلها كيفما اتّفق. لكن لا بدّ أن نكون في زمن مّا ومكان مّا؛ ليعثر علينا كلّ هذا العذاب، يصحّح اعتقاده لبعض الوقت، وسرعان ما يرتدّ.

* * *

ولدتْ القرابةُ من رحم الصّدفة المحض. أحدهم قرّر أن يحفر أسفلَ مرتفع، ثمّ سقّفه، وقطَنَه، وتنازل عن الخيمة، وتبعهُ آخرون، فأصبحَ هناك تجمّع سكّانيّ أوّل، وولد هو من فوضى، من مزيج عشوائيّ بين الخوف والجوع والحقد والاستسلام. ولد قبل اندلاع الثّورة بسنة. والحديثُ عن الثّورة يعجزهُ؛ إذ لا يعتقد أنّها حدث عابر أو عظيم، ولا يجزمُ أنّها قداسة حلّت على الوطن. وما فكّر يوما أنّهُ لو شهدها لكان في صفّها. فقط يعجزُ؛ لأنّها كانت بداية لمسار وطن، ونتائجها على الغالب عكسية، «سيطر علينا من فجّروها وأتباعهم إلى

(1) مطلع معلّقة عنترة بن شدّاد.

اليوم، وها أنا شيخٌ يأسَى لما فات بلاده». هكذا واجه الجميع متى تعلّق الأمر بثورة التحرير الكبرى. فُطمَ بشير قبل عقود ستة، هذا يعني أنه يقترب من سنّ الشيخوخة. رغم ذلك، لم تتملّكهُ مخاوف الشّيوخ، لا يشعر بدنوّ أجله، لا تتفاقم غربتهُ من سلوكات الشّباب والأطفال، ولا يتحرّجُ حين يلبسُ الجينز والجاكيت الجلدي والقبّعة البيريه. تقريبا هو مقيم بين الشّيخوخة والطّفولة. معلّق. بعض صفاته الجسدية في الثانية والستين، كلّ صفاته الفكرية ومواقفه من الحياة نزقة، ومذعنة لصدمات الزّمن.

بدأ النّاس ينشطون، وفي لمح البصر تحوّل الحيّ من شوارع أشباح إلى صخب عارم. عربات وسيارات وخطى متداخلة. وجوهٌ يستعير بعضُها ملامحَ بعض، فلا تعرفُ الأصل من الصّورة. وهو جاهل كمن نزل من التاريخ لتوِّه، يتفحّصُ نفسهُ في ملامح العابرين وفي حركاتهم، لعلّهُ يعثرُ على ما يضمّهُ إلى النّاس. أو ينسبهُ إليهم، يمشي ولا يدير رأسهُ إلى الأزقّة، كأنّهُ يخشاها. عشقَ هذا الحيّ حتى أصبح العالَم، ولم يعد يرى مكانا سواه.

* * *

القرابة حيّ نهض من تلقائه، لم يعترف بوجود فرنسا ولا غيرها، مكانٌ لا مؤسّس له، وكلّ من يدّعي أنه سليل مُلاّكه كاذب وحقير. تفتحَّ يُتمُ بشير هنا. كان الحيّ أزقّة تتسلّم النّاس برفق جمّ، ثمّ تلفظهم نحو المدى. وكان النّاس عائلة كبيرة واحدة، بعضُ أفرادها لم يتبادلوا أكثر من جلسة أو تحيّة طوال حياتهم. القرابة التي يعرفها مكان ممنوع عن

المتفاخرين، يحبُّ من يفترش الأرض ويلعب الخربقة[1] والسّيق[2]، ويشربُ قهوته مقرفصا، ويدخّن السّوفي في شبابه، ويزور بيت الخونية لأكل الرّوينة[3]، ويحبُّ سرّا ويبكي ليلة تُزفّ حبيبتهُ، ويتزوّجُ أخرى يبكيها حبيبها. القرابة هي النّواة الأولى للمدينة. عبد الحميد يقول إنّه حيّ تأسّس على مسجد، ويعتقد أنّ قداسته تمتدّ من يوم بُني المسجد، فهو مُخرج الناس من كهوفهم ليبنوا حوله بيوتا وأكواخا. ولم يعارض في هذا، مثله مثل ناصر وزين العابدين. إنّهم متطّرفون في انتمائهم، لهذا فلا غرابة أن يعتقد بعضهم وهمًا لا أثر له. هنا بدأت حكايات الجلفة القديمة. فحتّى منتصف القرن العشرين كان سكان وسط المدينة من أهل الجلفة قلّة، وكانت القرابة خارج سور المدينة، بدت مثل أكواخ، كلّ قربيّ[4] يجاور الآخر ويشدّ أزره في مواجهة المدينة التي أعلن ميلادها نابليونٌ ما. ثمّ تفرّق أبناؤها، كما يحصل مع كلّ الأمّهات، يُنجبن الأبناء ويربّينهم، فيرتمون في أحضان أخريات.

* * *

كان مشغولا بنفسه، يؤلمهُ أنّهُ فقدَ طعم النّوم تدريجيا، ولم يعد الشيخ الأبيض الرّائي يزورهُ في المنام ليسديَ إليه النّصح أو ينفخَ

---

(1) لعبة شعبية تستخدمُ فيها نواة التمر وجدول يرسم على التراب، تعتمدُ على الحساب، كانت منتشرة في مدينة الجلفة وضواحيها.

(2) لعبة شعبية منتشرة في بعض مدن الجزائر الداخلية من بينها مدينة الجلفة، تبنى على الحساب والحظ وتستخدم فيها أعواد قصب وجدول حساب غالبا يرسم على التراب.

(3) الطّحين المحضّر من القمح المحمّص والمطحون ويضاف إليه سمن وسكر أو عسل ويختلف تحضيره، يقدّم كوجبة بركة لدى بعض المجذوبين وكذلك كعطية وصدقة، بالإضافة إلى كونه أكلة شائعة في يوميات أهل الجلفة.

(4) قربيّ: اصطلح أن يكون تسمية للكوخ في الجزائر، حتّى أن تصغيره «قريبي» معروف، بالفرنسية gourbi تعني الكوخ وتعني أيضا حيّ الفقراء في بعض المعاجم، لكن الغالب أن اصل الكلمة ليس فرنسيًا.

تفاصيل الحكاية. كانت غربتهُ في الحياة مقبولة، إذ يجد حياة ومعنى في زياراته وكلامه القابع بين الحكمة والغموض، لكنّه انقطعَ عنهُ منذ أشهر، أيموتُ ذلك الكائن الذي اخترعتّهُ وحدتهُ وحاجتهُ كما اعتقدَ؟ أم إنّ وحدته تماهتْ معهُ ولم يعد بوسعه مُداراتها؟ ثمّ ما المانع لو عُكست النّظرية، فيكونَ هو فكرةَ الرّائي؟ والرّائي يكونُ معناهُ، إذ يستحيل هو المبنى، هذا ينفي وجودهُ الفيزيائيّ، وينقذهُ من أعباء غسل الجوارب، وحلق اللّحية، وسلق البيض والبطاطا، والموت الجنسيّ، والرّغبة في البكاء، وكتم البول عجزا... أصبحَ ينام متقطّعا، وقد زيّنَ رُعبَهُ بأحلام يقظة. تعلّمَ أن يبدأ الحلم فاتحا عينيه كأمنية، ثمّ يُغري النوم فيلتقطهُ بسرعة ليواصل تفاصيلهُ. مذّاك، وهذه العادة حيلتهُ لتشتيت رعب الإفاقة المكرّر في كلّ ليلة، ولكنّ هذا الأمر لم يعد ينجحُ. مُؤخّرا، وقبل يومين، أرقَ صباحين متتاليين، هو ينام الصّباح كخفّاش، ويعرف أنّ اللّيل حُبلى ليس تدري ما تلد[1]، فلا يحضرُ وضعَ اللّيالي طالما يلتقطهُ الفجر عادة، كطفل عثر على حضن أمّه، بينما تكون اللّيالي تضعُ مولودها.

آخر مرّة، صحَا على صوته. كانت العادةُ أن يُفيقَ على الفراغ، ولم يكن ناطقا في غير منامه، رجلُ نهار هو، وساهرُ ليل بشير. كلّما أسلمَ الوعيَ المجروحَ للوسادة أملَ أنْ يلقاهُ، ولم يكُن يجيءُ إلا في أوقات ينسى أمره، وينزلُ إلى أسفله. سمعهُ يقول: **«ولتكن موفدا يا بشير الدّيلي، فلا تكتف بالإبلاغ ما أبلغت، ولا بالصّمت إن فرغت. وكن مرشدا للتّائهين، معينا للقُساة، شارحا للرّموز. ولتكن اللّغةُ بعض بلا هتك، والبعض ما في القلب من إخلاص، ما في الرّوح من أنفاس، وما في العقل من رؤى. هذا آخر القول، وما يتلوه قولك. هذا آخر**

(1) الليل حُبلى ليس تدري ما تلد... ما أقصر الليل على الراقد!

العهد، وما يعلوه عهدك. ولقد بلغت شأوا لم يبلغه أحد من القرابة قبلك. فلا تغمط نفسك حقّها. وامضِ يا الدّيلي، فلا مانع لخطوك، ولا صادّ لبوحك»، لكنّه تحدّث خارج إغفاءته! تحدّث وهو فاتح عينيه حدّ الدّهشة، تحدّث وهو ينظر إلى السّقف الأبيض كشاربه وشعره، ولم يكن صوتهُ يأتي من نومه ولا يقظته، لم يكن يأتي من غرفة الصّالون حيث ينام، كان صوتا يُسمع ولا يَصدرُ من أيّ جهة، لعلّهُ نائم! رأى بعينه مجدّدا التلفزيون يرغي ويتحرّك بلا صوت، عادةً لم يكن يكتم الصّوت وينام فلا يزعجهُ. فركَ عينيه ثمّ هرع من مكانه إلى كلّ مكان. تحقّقَ الشيخ الأبيض الرّائي أم تلاشى الدّيلي وضاع؟

* * *

خرجَ إلى وسط المدينة. جلسَ في عليّة مقهى الأمير وحدهُ، قبل أن تدخل سيّدة مفرطة السّمنة رفقة زوجها، ويملأ بُكرتهُ نقاشا عن وضعهما. كانا يتكلّمان دون أن ينتبها إلى وجوده، في صيفه التّعيس هذا. واصل ارتداء قميص أبيض وسروال جينز أزرق باليين، لا يعرف إن كان جوربه الممزّق يظهر في جلسته أم لا، لكنّ الجدار الذي خلفهُ يمنحهُ كلّ الحرية في التحرّك دون أن يُغطّي قدما بأخرى في تقاطع خلفيّ. هل بدا كأثاث أو كطاولة، أم كان متّسقا مع الجدار وألوان المقهى الزّرقاء والبيضاء؟ سكنتهُ الأسئلة دائما بخصوصِ وضعه، ولم يقترح جوابا يربك عواصفه. كان الرّجل يتحدّث بعنف وعصبيّة، رغم حجمه المتواضع، بينما تسحّ عينان جميلتان دموع السّمينة. ظلّت تحشرج كلماتها وتمسكُ يده، وبشير لا يكاد يفهم ما تقول. أمّا الرّجل فلم يتوقّف عن تبرير رجولته وفحولته، وكيف لا يمكنه التّسامح أبدا. ودّ لو ألقى بينهما كلمة عن قصر اللّحظات الجميلة واتساع التعاسة،

ودّ أن يملك سلطة أمرهما بأن يكفّا عن تكثيف التعاسة التي احتشدت كلّها عند باب المقهى. ترقّبهما بعين وترقّبهُ بالأخرى، لكنّهُ عجزَ عن الحركة، ولم يكن النّعاس يسمعُ نداءهُ، ولا حبّات نوم تتدحرجُ من عينيه، يبدو أنهُ اكتفى تماما من النّوم، أو أنّ التعاسة التي تقفُ على عتبة مقهى الأمير تخشى من جلسات الشيخ الأبيض الرّائي، إن هو نام.

عندما جاء النادل بخطاه الباهتة، وقف قليلا على مسافة مترين عند الدّرج ينظر إليهما، ثمّ حرّك رأسه، كأنّه شهد ما يسيء إليه، وطوى شفته السُّفلى على أسنانه، ضاغطا عليها بالعليا، وأخرجَ نفساً غاضباً من منخريهِ، وتوجّه صوب بشير: «وش تشرب الدّيلي؟» ردّ بشير دون أن ينظر إليه: «عصير برتقال بالاك نفطن، وشوف هذو الحيرانين وش يدوا؟» مشيرا إلى السّمينة ووديعها اليابس. قال النّادل بسوء، متقصّدا إسماعهما: «هذوما داروا القهوة برلمان، كل يوم مناقشة قوانين وتعاليم، الناس كامل يعرفو أنّ بلي عندهم مشكل مع أم السّمينة اللّي مضيفتهم في بيتها، والراجل يا سعدي بيه ما عادش يحمل العيش مع نسيبتو، بالمختصر يحوّسها تسكن عند واحد من اولادها وتخليلو الدار، والعجوز شادّة في دارها». رفع بشير عينه نحو النّادل، وسأله بدهشة، وبصوت خافت: «هل هذا هو المشكل؟». أجاب النّادل بعد ضحكة ساخرة: «الرّجل يحوّس على امرأة بوزن ثلاث نساء ودار؟»،ثمّ غادر دون أن يسألهما حاجتهما. حمل نفسهُ إثره مشفقا على المرأة البيضاء السّمينة التي تتبع هذا العظم الأسود البائس، ولم يأخذ شيئا بالمقهى. ولعلّ النّادل وضع كوب العصير على الطّاولة منتظراً عودة الدّيلي.

ألقى الخُطى عند تقاطع فندق الأمير، نحو تمثال الكبش، أحد

أردأ التماثيل المكنة، مصنوع من الجبس، ولا همّ للسلطات إلا ترقيع خصيتيه في كلّ مرّة، كأنّ المدينة ترقّع فحولة كبشها، تماما كما تفعل تلك السّمينة بمقهى الأمير مع كلبها. مشى هادئا ومتردّدا لا يُحدّدُ وجهة. على يساره حديقة صغيرة، تحوّلت من حديقة عمومية مرئية إلى حديقة شبه سريّة تابعة لمبنى حكوميّ. شعرَ بالغثيان وهو يشهد توافُد العشرات على مبنى البريد المركزي، منظر مقزّز. في الحقيقة افتقد معاوية الذي اتخذَ من البريد مقاما له بعد تقاعُده، وظلّ يُسعفُ الشّيوخ بتحرير صكوك البريد للحصول على منحهم وأجورهم الهزيلة بمقابل زهيد. كان رجلا محبّا وفيلسوفا، بنى فلسفته على الضّحك والمزاح. حصل معه أن ذهب ليعزّي، ولم يستطع النّطق بكلمة؛ بسبب نوبة ضحك عارمة. اعتقد أهل الميت أنه يبكي بحرقة رفيقه الرّاحل، فتحلّقوا حوله يواسونه. معاوية خلّف فراغا غير مرئيّ، كان فتى القرابة، نشأ فيها ودرسَ وتزوّج، ولكنه مات بعيدا عنها، بعد أن أقعده المرض عن جولاته اليومية الطّويلة. لا أحد يفتقده، بينما يأخذُ مكانه في البريد وجهٌ حادٌّ لا يتمنّى أن يتعلّم أحدٌ الكتابة.

نفر إلى الطّرف الآخر من الطّريق. كان يواجههُ شارع جانبيّ على يسار مبنى البلديّة. لا تروقهُ بنايتها الجديدة، لا انسجام بينها وبين محيطها، لا يهمّ. ليست لديه رغبة في تكرار صوت مينا الذي يتذمّر من كلّ شيء في المدينة، بما في ذلك والدهُ. مقابل البلدية أوّل المقاهي التي تقدّم قهوات تقليدية، لا يروقهُ هذا المقهى أيضًا. يسلكُ شارعا يفضي إليه هذا المعبر، حيث تتصادمُ المقاهي، طاولاتها، كراسيها، زبائنها ونادلوها... في معركة سوريالية. يقتنصُ مقعدا بلا طاولة، بين طريقين يشقّان الشّارع، ويلقي بثقله وأرقه وضياعه عليه، فيسمع أنينه. هذه المقاعد البلاستيكية لا تلائم برد الجلفة ولا حرّها، لا أحد

يعرف كيف اهتدى إليها أصحاب المقاهي. يطلب فرارة[1] من بعيد بصيحة نحو النادل، فلا يكلّف نفسه عناء الردّ، ولا محاولة التأكّد إن كان الكرسيّ الذي يُقلُّه بشير ضمن نطاق مقهاه. يقفُ أحد رواد مقاهي الفرارة، مغادرا في عجلة، فيلتقطُ كرسيّه الخشبيّ ذا الأرجل المعدنية كغنيمة. كرسيُّهُ أرحم، يحفظُ بعض الحرّ في البرد وبعض البرودة في الحرّ. يجلبُ النّادل الفرارة، ويسحبُ هو سيجارته، قبل أن يصلَ إليه تكون قد توهّجت. يدفع دنانير الفرارة التي يلتقطها هو دون التّمعن فيها. يمكنكَ شرب فرارة بعشرة دنانير، بأقلّ أو أكثر دون أن يحرجك النادل. يضعُ كوب الماء العفن والفرارة على طاولة بلاستيكية بيضاء، فقدت بياضها لصالح نقوش وخطوط وتعرّجات. يحلّق بصينيّته المليئة بالفرائر والشّايات والمشروبات التقليدية الكثيرة في جولة سريعة. يجمعُ الطّلبات التي لا يخطئها؛ لأنّه يضعُ حساب الطلبات المحتملة دائما، ويختفي قليلا ليعيد الكرّة، وهكذا يبدو أنّ النادل أذكى في تسيير أمره من حكام هذا البلد.

تسمّرَ في الكرسيّ. انتابه شعور لئيم وهو يستولي عليه، في حين لا يعثر البعض على مقعد. استغرقَ ساعتين في تناول فرارته تلك، ودخّنَ معها سبع سجائر، محاولا كفّ نفسه عن التّدخين وشغلها بقراءة خُطى اللامعقول لقاصدي ذلك المكان. كانت تلك المقاهي أقرب إلى سوق عبيد في نظره. النّاس جالسون بلا انتظام في كلّ مكان، وفي أيّ جهة. تصوّرَ لو أنّ أحدهم يقتنيه ويحمل عنه عناء الطّعام والشّراب واللّباس والإقامة، لكان خدمه بكثير من الوفاء. «لكن أيّ نوع من الخدمات سأختصّ به، وأنا لم أكن يوما في حياتي فلاّحًا، ولا أعرف الرّعي، لم أحرّك يدي إلا على الورق، قرأتُ آلاف الكتب، ولا شك أنهم

(1) قهوة تقليدية من بين أنواع أخرى تقدّم في المنطقة.

لا يحتاجون إلى عبيد مثقّفين لقراءة الكتب، ربّما لكتابة قصائد مدح، سأفعل سأنظُمُ لهم مدائح تليقُ بهم وأعيشُ شاعرا». راقه الأمر، غير أنّهُ كان يخشى شيئاً واحدا، خاف فقط لو يخصيه مولاه، ورغم أنّهُ لا يستخدم فحولتهُ، ولا يطمئنُّ عليها منذ سنوات، إلاّ أنّهُ يرفضُ أن تُسحب منه.

قليلا ما خان ذكرى الخونية في خياله، ليس قبل رحيلها عن الدّنيا. في حياتها لم يُفكّر يوما في امرأة، ولا فعل بعدها. في الواقع كاد يفعل مرّة، وما حصل معهُ كان ترهيبا ضدّ ترغيب مصطفى ابن القرابة الذي تخصّص في عالم الدّعارة ولم يفقد خفّة روحه. لسبب ما زارهُ غير مرّة، ثمّ بدأ يحفّز مخيّلته، وعندما شعر أنّهُ مراهق نزق، أنّهُ نضجَ للتجربة، حدّد الموعد، وكان يسايرهُ وقلبهُ يفرّ منه في البداية، لكنّه هدأ بمجرّد دخوله منزل كبيرتهنّ. لم تكن العاهرات تقمنَ في وسط عفن، ليس في البيت ما يجعلهنّ أقلّ شأنا، ترتيبٌ جيّد وذوقٌ معقول، أثر انتماء وهويّة، كتيّباتٌ، ومصحفٌ، وسجّادة صلاة، لا بدّ وأنّ إحداهنّ أو كلّهن يصلّين. تشعّب حديثهم حتّى وصل حيث لم يرغب. شعرَ أنّ الحديث عن العارفة في بيت مشبوه يوازي اقتراف كبيرة فصمتَ. كان مصطفى يعدّ الشّايَ كأنّه خبر المكان، ومحافظ الشرطة الذي يرافقهما - أو يرافقانه - يتفرّس في المومسات كلّما تحرّكن، ويطلبُ غير متحرّج أن يتخفّفن من ملابسهنّ، وقد يلمس ثدي واحدة أو شعرها، ويضحك وهو يدير رأسه نحو بشير أو مصطفى. كان مصطفى يغمز بشير في كلّ مرّة، ويبتسمُ. أمّا العاهرات الثلاث فكنّ غير مباليات به، كأنّه يلمس جهات ميّتة لا روح فيها ولا حياة.

العاهرات الثلاث اللائي عرفَ وأمضى بينهنّ ليلة -بلا جنس- قُتلن.. نُحرن قبل أن يلثم إحداهنّ، قُطعتْ رؤوسهنّ الجميلة في واد

بعيد، ولفّ أمرهنّ الغموض. مصطفى الذي أرشدهُ إليهنّ ورافقه مع محافظ شرطة يؤكّد لهُ أنّ محافظا آخر -كان يستخدم إحداهنّ استخداما خاصًا- وراء التّصفية، وهو لا يريد تصديق ذلك، لكيلا يتسلّل إليه رعب أكبر من رعب وجوده، لعلّه يفعل معهُ الأمر ذاته. لم يكن هناك عقاب على القتل. فقط ينبغي أن يكون القاتل قادرا على ذلك، في نوبات شبقه. وتلك هي الدّعارة. السّرقة والسُّكر العلنيّ والتزوير كلّها جرائم ممكنة، إلا القتل.. كان مألوفًا ومقبولا جدّا. من السّهل قتلك، من السّهل أن تقتُلَ. لو أنّ المحافظ الغيور خصاهُ لقبلَ، على الأقلّ يبقى ليعيش مخصيا ويكتب قصيدته التي حلم بها. «ألم يكن الكثير من المبدعين منقوصين؟ ولكن سرير من سأحرس؟». أنساه الشّعر رعب موت رفيقاته، لولا أن شاهد فيلم «أزهار الحرب» الذي حكى محنة العاهرات الكوريات مع الجنود اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، وليلتها تذكّرهنّ بحرقة وبكى لأجلهنّ وحيدا، في حيّ شي غيفارا اللّيبراليّ.

* * *

يحلو لهُ أن يكونَ شاعرا. قرأَ الشّعر العربيّ كلّه، كلّ ما وصل إليه في شحّ الكتب الذي لازم الأرض. قرأ بعضَ الشّعر الفرنسيّ والعالميّ المترجم، التهم ملارميه ورامبو وبودلير، لامارتين وبول فاليري ولويس أراغون... وغيرهم من أساطير الشّعر الفرنسي. قرأ إليوت وميلتون مترجَمَين إلى العربية في أكثر من ترجمة. قرأ رباعيات الخيام مَترجمة إلى العربية والعامية، وراقته العامية أكثر من الفصحى فراح يبشّرُ بها. في السّنوات الأخيرة، صار يحبّ قراءة الشّعر المترجم من أيّ لغة، فعرفَ قصائد الرّوسيَّيْن، ألكسندر بوشكين وسيرغي يسنين، وحزن

لانتحاره شابّا، شعر أنّهُ قد فاته أن يفعل مثله. قرأ الشّاعر الهندي طاغور، والهولندي روتخر هويلاند، والسويدي توماس ترانسترومر. أعجبتهُ مكابدات الأمريكي والت ويتمان، وتضامنَ معه حين طرد من عمله بسبب إصداره «أوراق العشب»، بالنّسبة إليه كان عملا مُعيبا، تماما كما حصل معهُ حين ألقى أوّل قصيدة لهُ. قرأ الهايكو الياباني مرّة فنفرَ منه، وبعد أسابيع وجد نفسهُ يقرأُ ويغنّي ويرقص فرحا بهذا الاكتشاف. أحبّ «من دفتر العودة» للمارتينيكي الكبير إيمي سيزار. غاص في الشّعر تماما حتّى أصبح كلّ حاجته، ونسيَ العالم الذي يعيشُ فيه لسنوات. الشّعرُ أكبر ما يسحبهُ من هذا العالم، لكن دون أن يفصلهُ عن توقه العظيم إلى العارفة، أو ذنبه العظيم مع مينا، أو شيخه الكبير الشّيخ الأبيض الرّائي. حفظ الشّعر الشّعبيّ للمنطقة، والأصحّ أنّهُ اكتشفَ أنّ أكثر النّاس يسمعونَ الشّعر ويحفظونهُ، لكنّهم يعتبرونهُ أمرا أقلّ بكثيرٍ من الحكمة، وأرفع بقليلٍ من الشّهوة.

طالما فكّر كيف يكون شاعرا؟ وشرعَ يصوّبُ الوزنَ والقافية، لكنّهُ -سريعا- تركَ التدرّب على القصيدة العموديّة، وبدأ تجريب قصيدة التفعيلة. كان الأصدقاء مشغولين عنهُ، ولم يكن الشّعر أمرا ذا بال، لا أحد كلّف نفسه عناء الإصغاء إلى ما يعتملُ داخلهُ. في بداية التجربة، أطلق الزّين العنان لضحكته وهو يستغربُ أن يطلعَ عليه بقصيدة. كان يافعا يكتشفُ سببا لوجوده ويحلّقُ عاليا، وكان الزّين يمزّقهُ بضحكته تلك، ويلقي به في هوّة سحيقة. في البيت، بكى بحرقة، ومزّقَ القصيدةَ، ولم يعد لتكرار التجربة لسنوات. قاومَ رغبتهُ في كتابة قصيدته الثانية. قرأ كثيرا خلال تلك الفترة، ولم يكتب شيئا سوى ملاحظات متفرّقة بشأن القصيدة العربية، بخصوص بنائها وتغيّراتها التي كان يستخلصُها من قراءاته في النّقد والشّعر. كان الشّعر يقتلهُ ويحييه،

يقرأُ فينتشي ويتمدّدُ سعيدا، ثمّ يتعذّبُ لأنّهُ عاجز، والقصيدة داخلهُ تصرخ «حرّرني»، فيشعرُ بعذاب المخصيّ ويشعر بقسوة الخاصي.

حين يصل عذابه ذروته، يزورهُ الشيخ الأبيض الرّائي، فيستعيد بعضهُ. وكان يراه في المنام، فيعرف أنّهُ في حلم ويرجوه سرّا أن يواصل حتّى يقظته. ولعلّهُ لم يجرؤ يوما أن يكون محاورا له. كان يملي عليه ما يريد برهبة، ويختفي. رغم ذلك أراحتهُ زياراته. قال لهُ حين غصّت قصيدتهُ وقلّ جلدهُ: «اعلم يا الدّيلي، أنّ الأسرَ نيلٌ من الوجود، فلا باعث للحُلم لدى أسير. والحريّة فعلُ وجود، فلا كابوس يصلُ سدّتها. والحكاية وَحشٌ متعدّدُ مخيف، لا يهدأُ شكلهُ وكنههُ إلا بتحرير. والتحريرُ منكرٌ، ما لم يكن مشروطا. والشرط اغتصاب حقّ، ما لم يكن متاحا. والمتاح قليل متى بحثت عنه. فاكتف بالمباح من عبورك، اكتف بالحكاية. الحكاية يا الدّيلي معلّقةٌ منذ البداية، لا يطيقُ إملاءاتها إلاّ بارعٌ، صهرتهُ التجاربُ والمحنُ والأحلام، وتذوّقَ الفشلَ، ورعى الأمل، ولم يهلك في صحرائها أو يغرق في مائها أو يجمد في صقيعها. ودون ذلك تصير الحكاية وحشًا يتّسع فيبتلع أيّ شيء، وتصير الرؤى محَنا، وتُخنق المتع كلّها. فلا تدع الوحش يخنق متعك. حرّرهُ يا الدّيلي، حرّرهُ وتحرّر منه. وانظر ما أنت فيه، فإن كنت قادرا فحرّر أمرك، وإن خفت فاكتم إلى حين. الأمر جللٌ، وليس القول كالفعل». وتركهُ الشيخ الأبيض الرّائي، فلم يعد متذمّرا من تململ القصيدة العجوز داخلهُ بعدها، وكتمَ عذابهُ، فلم يترك له حقّا فيه، وتصالحَ مع حيرته، أو أظهرَ ذلك كي لا يُجنّ.

يحلو لهُ أن يكون شاعرا فيسمع النّاسُ قصيدتَهُ. أصبح هذا حلّهُ اليوميّ، كلّما استرخى شرعَ في تركيبه كما يجب. نجوميّتهُ تلكَ كانت تنفخُ صدرهُ وتملؤهُ نشوةً. ومن فرط إصراره على الحلم وتكراره، نجحَ

-أحيانا- في كتابة مقاطع من قصيدته المأمولة، كانت كتابة ذهنيّة لم يجرؤ على تحريرها، لكنّها صور جميلة علت به حدّ الفرح. كفلتْ لهُ تلك الأوقات الحالمة ساعات من الدّفء والنّشوة، وسمحت لهُ بكتمان أمر الشّعر. يعرفُ الرّفاق اهتمامهُ، لكنهم لا يعتقدون أنّهُ يكتبهُ أو يُفكّر في الأمر. الزّين الوحيدُ الذي سمع منهُ شيئا، وقد كتم الأمر، ومن يومها أصبحَ يُعاملهُ باحترام مضاعف، لعلّه شعر أنّ تصرّفه الفظّ قد جرحَ رفيقهُ الرّقيق، وكان مهتمًّا بأمره، لهذا فقد أهداهُ ديوان شعر لشاعر لم يقرأ له من قبل. الآن صار يعرفُ جيّدا مُعين بسيسو، وقتها كان يُفتّش داخل ديوان «الأشجار تموت واقفة» بكثير من الدّهشة والغيرة والاضطراب، إلى درجة أنّهُ انتقمَ من تفوّقه، ووجدَ أنّ العنوان مسروق من مسرحية أليخندرو كاسونا[1]، «لم أكن لأفعل هذا يا معين، لو أنّي شاعر بحجم قصائدك لغيّرت العنوان كي لا أكرّر خيار كاسونا». كتبَ الدّيلي في الصّفحة الأولى أسفل إهداء الزّين الذي صيغَ كاعتذار مضمر «من أجل بشير أكبر شاعر في القرابة». وبقدر ما سرّتهُ العبارةُ، أذتهُ، لم يكفهِ أن يكون أكبر شاعر في القرابة.

لم يعرف مسعود بلخضر، لم يلتقه، ولا يذكر أنّهُ فعلَ غير مرّة، عندما وجّهه إليه عبد الحميد ليحصل على ديوان نزار قباني، لكن يبدو أن هذا الوجه الطّفوليّ كتبَ قصائد جميلة تداولها المراهقون، لم يقرأ منها شيئاً، ولعلّهُ تحاشى أن يقرأها فيُصابَ بالهلع من كون القرابة قد نصّبت شاعرها الذي يصغُرهُ بسنوات طويلة. تحاشى الفتى، حتّى تحوّل إلى شابّ ناضج، وشغلَ النّاس برؤاه ومداه وشاعريّته، ثمّ أصبحَ ملتحياً، وتحوّل من شاعر جميل إلى داعية وشيخ كتّاب، ثمّ قفز فجأة ليصيرَ أمير جماعة مسلّحة، عندما التهبت الجزائر. بعدها شعر

---

(1) ألخندرو كاسونا (1903/ 1965) كاتب وشاعر إسباني.

بالكثير من الأسى، واعتقد أنّ محاولة منه لجلبه ربّما حفظت الشّاعر فيه ووسّعَتهُ، لكنّ أنانيتهُ وغيرتهُ دفعتاه إلى التطرّف. لم يدم أساهُ طويلا، إذ قُتل مسعود على يد قديرو جارِهِ القاسي الذي خلفَه على الإمارة. أصبحَ مسعود أسطورةً، وتطوّرت الحكايات بشأنه، فتداول البعضُ تركهُ كنزا مّا في غابة حواص. أمّا بشير فلم يُرد الدّخول في احتمالات الجماعة، واكتفى بشعور سريّ بالفرح، فقد زال من أمامه هذا الشّاعر الكبير الذي يصغرهُ، وتركَ فرصة للشّاعر الصّغير الذي يسكنهُ، لقد قال مسعود في صباه المخطوف:

أتفتّشُ الآنَ الطّريق لعلّها دلَفَت من العطر المثير وراءها؟
أتسحُّ دمعكَ فاغرا لرحيلها عبثا وتُدرِكُ كم أذيت مساءها؟
وتُجنُّ حتما حين تأمَلُ ظلّها تنهارُ إن سمِعَ الرّحيلُ نداءها
لا ظلّ للأضواءِ يحبسُ شكلهاَ تنأى الحياة إذا استبحتَ بهاءها
لا ضوء للأشباحِ يُسكنُ رعبها والرُّعبُ غيّبَ نجمةً وسماءها

لكن متى ستتحرّر قصائدهُ؟ في آخر الثانية والسّتين، ولم يكتب قصيدتهُ الثانية بعد، عدا منظومات تدريبية مبكّرة، لا شيء يوحي بأنّهُ شاعر. وفي كلّ منعطف من حياته، توقّف ليسأل: «لكن ما الشّاعر؟».

* * *

عندما غادرَ المقهى، كانَ يقطعُ وجوه الجالسين. كلّ هؤلاء نموا في المدينة فجأة، يعرف بعضهم، لكنّ الأغلبية حلّت في غيابه، في غياب أبناء المدينة. أصبح الدّيلي واحدًا من القلّة التي تحوّلت إلى مجرّد فئة قليلة، تُقيم طقوسها السريّة في طغيان الفئة الغالبة. لم يكن الغياب يَعدُ بشيءٍ كثيرٍ، مقارنة بما يمنحه لهُ الآن، لأنّهُ أوغلَ في

الغياب، ولا يمكنهُ النّوم منذ ساعات طويلة. فقد قرّرَ أن يزورَ هذا المساء القرابة ليمضي السّاعات الباقية. فكّرَ أن يذهب إلى شقّته بحيّ شي غيفارا، حيث أمنَ السنوات الماضية، وهجرَ مرتعَ فشله وأحلامه. وبما أنّه يعرفُ أنّ الأرق يقاسمهُ الشقّة الصّغيرة، فقد فضّل أن يتسكّع في المدينة حتّى يحلّ الظلام، لعلّه يُصاب بقليل من الخيبة أو التعب؛ فيترك لهُ الفضاء. مشى باتجاه شقّته أقصى جنوب المدينة. عبرَ بين السّوق الدّائرية والسّوقِ المغطّاة بهدوء، نحو شارع سيدي نايل، لينعطف يسارا في مسلك واضح عكس أفكاره وحياته. مرّ على دار البارود التي تجلسُ كعجوز عاقر، كأنها غير موجودة، وتساءل في داخله، كيف لا ينتبه الناس لها، رغم أنّهم يردّدونها يوميا في مواعيدهم وتنَقّلاتهم؟! لقد أصبحت غائبة من فرط الوجود، أمّا هو فيسعى للوجود من فرط غيابه. يا للمفارقة التي تُرافقُ خطاه عند تقاطع «حمّام الحرفة». مشى طويلا ليصلَ إلى شي غيفارا. توقّفَ عند مطعم دجاج اتّخذ من غرفة ضيّقة مساحة لتدافع الزّبائن. التهمَ فخذ دجاج وبعض البطاطا المقليّة، وشربَ مشروبا غازيا محليّا لا يمكن التعرّف على منتجه. ولم يستعجل خطاه في المغادرة؛ لأنّهُ زبون مبكّر قبل حلول منتصف النهار. وجدَ صاحب المطعم فرصة ليحكي عن غلاء الدّجاج ومأزقهم، واتخذها هو فرصة ليصغي إلى شكواه التي لا تتناسب وحجمه. اتّساخُ يديه، أصابعُه الزّيتية، وأظفاره التي سكنها سواد سيظلّ مُقيمًا حتّى لو تمّ اقتلاعها، كلّها علامات قرف لا يلقي لها بالا. بدأ الخطاب الدّرامي لصاحب المطعم يخفّ بدخول الزّبائن، وأصبح متطرّفا في إبداء حبّه لهم، يُريدُ أن يُفهم كلّ واحد أنّه حصلَ على القطعة الأفضل من الدّجاج لهذا اليوم. «هذه نضُجت على نار هادئة وهي القطعة الأفضل في دجاج الأيّام الأخيرة الذي لم

يعد إلا حماما» ردّد العبارة للجميع. وبعد أن يأخذ الزّبون نصيبهُ، لا يهمُّهُ إن أصغى لعبارة التّسويق تلك وهي تُردّد للآخرين. دفعَ ثمن استراحته وقطعة الدّجاج والمشروب السميّ، ثمّ دفعَ بنفسهِ نحو شقّته وهو أثقل من ذي قبل. تصوّر أنهُ سيحظى بقيلولة طويلة بالنّظر إلى سهره وعبوره اللّيل ووجبته الدّسمة. أراد أن يمدّد في يقظته، فقرّرَ أن ينزلق مع أحد الشّوارع يسارا نحو مقهى عصريّ حديث، مقارنة بالمقاهي القذرة التي تقدّم الفرارة، رغم أنّها لا تروقهُ. تلك المقاهي تستخدم الآلات، فتتحوّل إلى حالة استنساخ أو صور متشابهة ومكرّرة. جلسَ على كرسيّ، واستعمرَ طاولة، ينتظر النّادل الذي ارتدى مئزرا أحمر. وكاد يسألهُ عن سرّ توقه إلى الأحمر، لكنّهُ اكتفى بطلب قهوة لافازّا، متحديّا الدّنانير القليلة التي تخشخش خجلاً في جيبه. تمعّن الوجوه، فإذا هي أهمّ، أنظف وأقرب إلى الحياة، لكنها تعيسة على نحو مّا، مغدورة في جهة مّا، مملوكة لسلطة مّا. كان يفضّل رواد مقاهي الفرارة، فهناك الحريّة والتحرّر من أيّ قيد، «لكنتُ أخذت صفّاي[1] في مقهى العروسي وسط المدينة، وأصغيت مليّا لأمّ كلثوم، لكنّهم أزالوا المقهى القديم وغيّروه غير مرّة، وتغيّرت معه ذاكرة الكثيرين»، يقولُ وهو يشعلُ سيجارة أخرى، بعد أن استهلكَ نصفَ العلبة الأولى لهذا اليوم، إنّهُ يقلّل من تعاطي السّجائر على أمل أن يتوقّف عن التدخين قريبا. جالَ ببصرهِ في المقهى، فلم يكن ذوقه الفنيّ جيدا وليس متوسطا، كان متواضعا جدّا. قرأ تلك اللّوحة التي توسّطت أحد الجدران، مرّة أخرى أبيات الشافعي الشهيرة التي تعلو العيادات والمقاهي ومكاتب المحاسبة والمساجد، كانت المعاني جميلة، لكنّهُ وجدها ركيكة، لم ترقهُ، فلو أنها نثر لكان وقعها أفضل، طبعا

---

(1) صفاي: قهوة تقليدية تحضّر بالمصفاة والماء السّاخن وبالبنّ المحمّص تقليديّا في البيوت.

احتفظ الدّيلي بانطباعه، وداخله ما يشبهُ الاعتذار، لم يكن يدّعي أنّهُ أشعر من الشّافعي. عصفت به لافازا، وطردت كلّ خلايا النّوم، واستبدت به رغبة في الجري، بعد أن أفرغَ الفنجان في جوفه المفجوع.

وهو يدفعُ ثمن لافازا، الكاعب الشّبقة التي هيّجتهُ، كانَ يسحبُ النقود من جيبه تدريجيا ويضعها على طاولة القابض المبتسم والصّبور، عشرة، خمسة عشر ، خمسة وعشرون... سأله: «كم أضيف أيضا؟»، فأجابهُ، وكأنّه يغازلهُ «خمسة وسبعون دينارا فقط». عاد يستجدي جيوبهُ، فلا يحصل على أكثر من ثلاثة وأربعين دينارا، «لا أطلبُ قصيدة ليصمت العالم»، قال في نفسه، وهو يشعر بكثير من الحرج، ويرسُم ابتسامة نحيلة صفراء، لولا أنقذهُ أحدهم ودفعَ السّعر كاملا،.كان عبد الرحمان باكر عضو المجلس البلديّ إلى جانب مينا، شكرهُ وتظاهر بأنّهُ من سيفعل عنهما معا، بينما راح يُفتّش جيوبهُ دون أن يفقد الابتسامة النحيلة الصّفراء، لكنّ الرّجلَ أقسم أن يدفع، ووضع ورقة من فئة خمسمائة دينار لقهوته وقهوتين أخريين، وطلب من القابض أن يحتفظ بالبقية. في المخرج كان قلبهُ يخفقُ للبقيّة التي حازها القابض، ودّ لو اقتسمها معهُ. ودّعَ عبد الرحمان الذي عرض أن يوصلهُ بسيارته ورفضَ، وعاد يلقي خطاهُ، ناظراً إلى الواقعة من جانب إيجابيّ، لقد شربَ قهوة عالية القدرة، واحتفظَ بثمانية وستين دينارا، هي كلّ ما تبقّى ـ منذ يومين ـ في جيبه، بعد اقتناء بعض الأكل المغذّي لجاره.

* * *

أمام تقاطع روبني، زيّن له تيههُ العودة إلى وسط المدينة، إلى المقاهي، ولكنّهُ تسمّرَ في مكانه ووقفَ يتأمّلُ العابرين من كلّ جهةٍ،

السّيارات وهي تقطعُ الجلفة نحو العاصمة والبليدة؛ قادمة من الجنوب، والسيّارات التي تقطعُها قاصدة الجنوب، النّاسَ وهم يمشونَ في غير اتجاه، المراهقين الذين امتلكوا وجوها أكثر وقاحة وجرعة من تحدّي العدم، الشّيوخ المندثرين... لم يعد في الجلفة الكثير من الشّيوخ، والرجال الذين يظهرون بين الحين والآخر لا يضعون عمامات، لا يرتدون قندورة عربي ولا سترات تحمل السّاعات. لم ير أحدا بسروال عربي وهو منتصبٌ يتأمّل المشهد كالتمثال. أمضى أكثر من ثلاث ساعات بين أطراف التقاطع. ظلّ يشاهد الشّرطية الجميلة التي كانت تُحاول جاهدة أن تبدو صارمة، تصفّر للسيّارات، وتحذّر البعض بعينيها الجميلتين، ولعلّها تدفعهُم إلى ارتكاب أيّ مخالفة للحظو بدردشة معها، عكس رغبتها في دفعهم إلى الخوف. كان اللّباس الأزرق يضفي عليها جمالا مختلفا، وتدويرة مؤخّرتها أقرب إلى تدويرة ختم الجمهوريّة السّاحر. تصوّرَ أن حبيبها أو زوجها محظوظ، فهو يعاشر رمزا من رموز السُّلطة. ما أجمل أن تعتلي السّلطة فتحدّق إليك الحريّة في وجلٍ! لكنّ السّلطة لا تناسبُ خصيًا، فكيف تقبل البلاد العربيّة بكلّ هؤلاء المخصيّين؟

الوقت يمضي دون أن ينتبه لهُ. المساءُ يتهيّأ لمسح الضّوء. وهو لا يرغبُ في دخولِ الشقّة بعد، ليس في جولة أخرى. يواجه تيه مراهق في هذه السنّ المتقدّمة، وتقفزُ وجوه الرّفاق والأهل تباعا إلى ذهنه الملتهب، فلا يعثر على وجهة أو انتماء. كان واقفا يرعى الحيرة عندما شقّ فأسٌ صدرهُ أعلى جهة القلب. وقفَ يتعرّقُ متعبا. مدّ يدهُ إلى لوحة إشهارية ليتكئ عليها. لم ينتبه أحد لألمه، لهذا فقد شعرَ بالموت يحدّقُ فيه وحدهُ، ويحميه من نظرات الغير. بضع ثوان فقط اعتقدها ساعة كاملة. عندما هدأتْ روحهُ النّافرة وعادت إلى جسده، قصدَ محلّ

حلويات بالجوار، وطلبَ كأس ماء. جلس على كرسيّ أسود بديع دون استئذان. منحهُ الشابُّ كأس الماء وهو يسألهُ إن كان بخير. شرب ثمّ حكى له ما حصل معهُ. اعتقد بائع الحلوى أنّ الأمر يتعلّق بأزمة قلبيّة، وأنّ عليه أن ينتقل سريعا إلى المستشفى. أخافهُ قليلا، لكنه منحهُ برنامجا جديدا يمكنهُ أن يلجأ إليه في انعدامه وضيق خياراته. خاف على الشّعر في غيابه، وخاف على القرابة وعلى مينا وعلى ذاكرة العارفة، ولم يخف أبدا على نفسه، على بشير الدّيلي.

خرجَ إلى الشّارع، وأشار لأوّل سيارة تاكسي متجهة إلى المدينة الجديدة: «الجلفة الجديدة». توقّفَ عندهُ مزهوا بأغنية نايلية إيقاعيّة صاخبة، وهو يغني معها، محرّكا وجههُ الأسمر الدّائريّ «يا النّخلة الضوّاية ترقصُ في رقص العجب»[1]، والعجبُ كلّه كان في آدائه. ألقى بجسده إلى جانبه متأهبا لموت ما، وانطلق الشّابّ يقودُ سيارته، ويقرعُ على المقود ومغيّر السّرعة وعلى فخذه في أقصى سعادة، كأنّهُ يحتفلُ برحيل الشّاعر. عندما اقتربا من مبنى الولاية، طلبَ بشير أن يوقفهُ، ونزلَ، بعد أن أخذ من ماله عشرين دينارا، أضافَ إليها ثمانية دنانير، إذ لا حاجة لهُ إليها. كان متّجها إلى المستشفى، لكنّهُ غيّرَ رأيهُ ومشى نحو حديقة النّباتات المأهولة بالعائلات. دخلَ دون أن يوقفهُ الحرّاس الذين منعوا الشّباب والمراهقين، ومشى في أرجائها قبل أن يختار مقعدا يستقبل جسدهُ المرصود للفناء. ربّما يليق به أن يموتَ هنا في هذه البهجة التي يصنعها الأطفال وصخبهم. يا لها من ميتة شاعريّة يتوقُ إليها وحيد كالدّيلي. كانت شمس خريفيّة حارّة تعلو السّماء، في حدّة تُعجزُ شمس الصّيف.

على ذلك الكرسيّ حلّ وضعهُ. قالَ في نفسهِ: «دخّنت سبع عشرة

---

(1) أغنية نايلية لحميدة النايلي.

سيجارة منذ الصّباح، ومشيت كثيرا وشربتُ قهوتين متعايشتين، واحدة تقليدية: «فرارة»، وأخرى عولميّة: «لافازا»، وتناولتُ وجبة مشبوهة، وبقيتُ واقفا لساعات في تقاطع الرّويني، وفوق كلّ هذا لم أنم منذ ستّ وثلاثين ساعة، منذ التقيت السّايح باهتا ومتعبا، هذا يعني أني بخير، وأن الأمر لا يعدو أن يكون إرهاقا، ولو أنّ شابا في العشرين بذل ما بذلت لأصابه ما أصابني». هدأ واستبشر، وقرّر أن يُدخّنَ سيجارة أخرى احتفالا بصحّته الحديديّة، ولمّا همّ بذلك تساءل، إنْ تَعلّق الأمر بهبوط في منسوب السكريّ في دمه؟ وتحجّجَ بأنّهُ لا يأكلُ السكّر، ويشربُ القهوة مُرّة بسبب اشمئزازه من حركة الملعقة المكرّرة داخل الفنجان. رغم ذلك أشعلَ السّيجارة، ووضعَ الولاّعة أعلى الكرسيّ، وركّز ليجعلها تقفُ، وبما أنّه فشل، فقد عرفَ أنّ الكرسيّ لم يكن في وضع مستو، تماما كما حصل معهُ، العالم كان مائلا، ويريدهُ أن يقف منتصباً. دخّنَ سيجارتهُ، وسعدَ أنّهُ بخير، والأطفال من حولهِ والعائلات السّعيدة، وتمنّى لو أنّ السمينة في عليّة مقهى الأمير أحضرت كلبها السّلوقيّ إلى هنا وتجاوَزَا غباء رؤاهما. وانتظرا في هدوء موت أمّها العجوز في مساء بارد.

باعدَ بين السّجائر كثيرا، وقد بدأ النّاس يغادرون الحديقة. لم يُدخّن طوال اليوم إلا ثماني عشرة سيجارة. قرّرَ أن يُواصل المقاومة. كانت علبة السّجائر الأولى بحجره مستعدّة لهجومه المنتظر، والولاّعة واقفة تعرفُ أنّها ستنهارُ على يمينه. أرادَ أن يُقسم أنّهُ لن يُدخّن مجدّدا، «لكن لمَ يجب أن أقسم؟ ولمَ يجب أن أتوقّف عن التّدخين؟». لم يكن عندهُ جواب، لهذا فقد وقفَ مغادرا مع الجموع، وسقطت الولاّعة مرهقة من وقوف عسير. مشى نحو حيّ الحدائق. أغراه انتشار باعة الشّاي. فقطع الطّريق نحو أحدهم وطلبَ شايا، أرادهُ بالعسل ليرفعَ

قليلا منسوب السكّري في داخله المرّ. جلسَ على جدار حوض نباتيّ بلا نبات، وشربَ الشّاي سعيدا. لم يشعر بالجوع. على العكس، يبدو فخذ الدّجاجة وكأنّه ينمو في جوفه، يتبارك ويملؤه تماما. دفعَ عشرين دينارا عن شاي الحدائق، ومضى لا يحمل إلا عشرين دينارا أخرى. مضى بهدوء، والمساءُ جميل ومناسبٌ لسكتة قلبية، لكنّهُ قام بدورتين لولبيّتين حول المركّب الإسلاميّ، وبصعود ونزول نحو الجامعة، كلّ ذلك وهو يزدادُ يقظةً. هاهي الشّوارع تفرغُ من خطى النّاس، وتتفرّغُ له بعد منتصف اللّيل. ولم يعد هناك إلا بعض الشّباب أو المتجوّلين من أمثاله، وطبعا سيارات الشّرطة التي تمارسُ جولات حيرة، لا علاقة لها بحفظ الأمن.

خاطرٌ أوعز لهُ أن يمطّ الخطى نحوَ القرابة. شوقٌ داهمٌ جعلهُ يعتقدُ أنّهُ إن فعلَ فسيستجيب لنهايته، ولم ينجح في مقاومة هذا الشّوق كما نجحَ في مقاومة رغبته في التّدخين. قادته خطاهُ من مبنى الولاية إلى حيّ السعادة، ومرّ من هناك إلى باب الدّزاير، عبر خصيتي الكبش المنتصب في فحولة منقوصة، وتوقّفَ بعد ساعة ونصف أمام نافورة عظيمة في مدخل الحيّ، وقرأَ لافتة كُتب عليها: «حيّ البرج». هذا اسمٌ رسميّ يريد التنصّل من الاسم الشعبيّ، لكنّهُ اسمٌ ينسبُ الحيّ إلى برج شيّدهُ الفرنسيّون قبل قرن ونصف القرن أو أكثر. هذا هو حيّ القرابة الذي يسكنهُ وتسكنهُ كلّ أحلامه وانتكاساته، هذا هو الوجعُ والفرحُ. بنايات الواجهة تتغيّرُ، وما زال المسجدُ يطلّ في حياءٍ، بعد أن نهضت بعض المباني أعلى منه. في القرابة هناك شارعانِ واسعان، والبقيّة هي أزقّة ومعابر تلقّنُ الحياء. لهذا فهو يمضي دون قصد، ويعرفُ أنّ أيّ زقاق يمكنُهُ أن يكون صورة عن الآخر، لا يمكنُ أن تحصل على آلاف الحكايات التي يكتمها، إلا إذا فهمت لغة المكان.

عندما غاص تماما في الشّارع، صادفَ شابّا يدخّن ويتملّى وجه كلبه. ألهبَ أوّل سيجارة في الحيّ من عنده، وقد عرفَ -دون أن يفتّش جيوبهُ- أنّ ولاعتهُ تفشلُ في الوقوف بكرسيّ معوجّ بحديقة النباتات، يسحقها مَيلانُ الأرض مثلهُ، وسريعا انتهى يحرقُ أخرى، ويتحسّسُ علبة الوينستن لايت الثانية، فيجدها جسدا غضّا.

مضى عبر الأزقّة، فيما كانت الوجُوهُ تتشكّل تباعا مع حكاياتها. كان يقفُ مبتسما لأطياف البعض، يعانق بعضها، كانت حقيقيّة أو أقرب إلى الحقيقة، فيها دفء وقبول. لم ينبس ببنت شفة خشية أن تتلاشى أطياف المكان. رأى كلّ الذين عبروا القرابة تباعا، قابلهم في أبهى صورهم، ولم يكن عليه أن ينتبه إلى الوقت، ولا إلى الجسد المنهك الذي يرفضُ تلقّى إنذار الرّمق الأخير.

تحاشى أزقّة تفضي إلى زقاق الحمامة. عرفَ أنّهُ سيُصاب بنوبة ما إذا دنا، فأحال نفسهُ سريعا نحو زقاق السّلالم، زقاق الكوابيس والأشباح والخوف. وتوقّفَ قليلا عند دار التبن، حيث صيغت قصص الحبّ أو شهدها الأطفال. كان زقاق الزّقايق[1] يتحوّل إلى نقطة تلاشٍ في الظهيرة، لا أحد يمرّ ولا حركة تدبُّ. لم ينتبه أحدٌ إلى أنّ الجميع كان يتحرّكُ فيه بحثا عن حركة. كان الدّيلي وأصحابه من الأطفال يقطعون ترابهُ بخطى حذرة، وعند منتصفه يصيحُ أحدهم، فتنطلق أرجلُ الرّعب بأقصى سرعتها. أما زال الطّفل يسكنهُ إلى درجة أنّ الرّعب ذاته تسلّلَ إليه وهو يقطعه، بعد أكثر من خمسة عقود؟ قصصُ الحبّ كلّها تعود إلى هذا الشّارع، حتّى وإن كانت الفتاة وفتاها قد تحابّا في زقاق آخر؛ فإنّه من قبيل العادة أن يُعاد كلّ الحبّ إلى مرجعه المعتاد «زقاق الأشباح»، ماذا كانت العلاقة بين

(1) الزقايق جمع زقوق وهو الميت الحيّ، أو الشّبح أحيانا.

الحبّ والأشباح؟ كيف يخشى الصّغارُ المكان، ثمّ فجأة يتحوّل إلى زقاق مأمول؟ ربّما لأنّ الحبّ والشبح -كليهما- عالم سريّ ومجهول على الدّوام. عالم تحيط به الأساطير والخرافات أكثر من الحقيقة. نجحَ في عبور القرابة عبر عدّة جهات، ولامسها من الخارج بهدوءِ جَدٍّ يمسّحُ جبهة حفيدته.

الصّباحُ لم يمهلهُ كثيرا، وجسدهُ المرهقُ يُقاومُ ويمضي دون إصغاء لتفكّكه واندثاره المتكرّر. القرابةُ تبتلعُ ذاكرتها، وتتوجّسُ من غدها، كأنّها وطنٌ عربيٌّ، وهو بفم علقت به نكهات متداخلة للفرارة واللافازا وسجائر السّوفي والوينستن لايت، وبمشاعر ممزوجة بالخوف والرّهبة والرّغبة والانتشاء، لا يريد إلاّ استعادة الدّيلي الأوّل ثمّ ينام...ينام...ينام.

ينشدُ الخروج من القرابة، كأنّهُ يفرُّ من جريمة. بعضهم يحيّي رحيلهُ بنطق اسمه دون إضافة، وبتنكير مُخز لتاريخه العاري «بشير ديلي» وفقط، كأنّهم يعرّفونهُ إلى أنفسهم أو إلى التراب أو الجدران التي تبدو كامرأة عائدة من عرس، لا تصلحُ للتعامل اليوميّ، والبعضُ يلقي تحيّة صباحيّة، أمّا هو فقد احتمى بابتسامته وحركة من رأسه. مرّت التالية كساعية لإطفاء نار مسرعة. تبعها بعينيه السّاهدتين. توقّفَ قليلا في مكانه، ثمّ استدارَ ليعجّل الرّحيل. كانت صورها تتلاحقُ في رأسه مثل شريط ضوئيّ. قريبا منها كان فاتح الباقي يذعنُ لطمطم الذي يقودُهُ من يدِه، ويمضي فارغا على مذهب الدّيلي في الحيرة والتّيه. تقاطعا دون أن ينتبه أحدُهما للآخر. عبد الحميد واحد من الثلاثة المقرّبين يقفُ مبتسما. سعيدا، ومنتشيًا، يلوّحُ فيردُّ، ويكتشفُ أنّه لا يراه ولا يقصدهُ، يمرّرُ يديه على صدره، ثمّ على رقبته، متسلّلا إلى أذنه، يمسك أرنبة أذنه، ويعبثُ قليلا بحبّة سكنت ثقب

العيّاشة[1] كأنّهُ يؤكّد وجودهُ. في زقاق جانبيّ يمضي يحيى بانثناء ملحوظ في كتفيه، صامتا كما وُلدَ. بدا أكبر سنّا وأقلّ أناقة. سيلتقي التاليةً إذا واصلا المسار نفسهُ. في آخر الشّارع منفذٌ إلى خارج الحيّ. سيّارة مينا تقطعُ الطّريق المقابل للقرابة، نزولا نحو نافورتها، وفي غضون ذلك يلقي التحيّة على البعض.

كان دخولهُ القرابة بلا شاهد، وخروجهُ منها انسحابٌ؛ كأنّهُ يُداري فضيحة. كانَ يَمرّ كروح أو كأنّهُ في عالم آخر يفترض وجود هذا الفضاء، يفترضُ وجودهُ فقط. لم يَشعر أنّ شيئا قد ترمّم داخلهُ، ولا صوتًا لكسور جديدة، كأنّهُ خرجَ من نفسه وأخرجَ الحياة لتكون آخر يقفُ أمامهُ ويتأمّلهُ، كأنّهُ نجا قليلا.

دنا من حيّ شي غيفارا، مُرهقا في هذا الصّباح الباكر، وقليلا ما مشى في الصّباح؛ لهذا فإنّ رحلتهُ من القرابة استغرقت طويلا. كان خطّا واحدا طويلا بين نقطتين، لكنّه تمطّطَ حتّى حسبهُ لا نهائيا. عزم على الاستلقاء والاستسلام لنوم عميق. في صدرهِ شيء يتململُ ككائن، وهو يثقلهُ حدّ الموت. كان عاجزا عن الحركة، وبدت شقّتهُ شاهقةً، ومدخلُ العمارة بعيدًا جدًا. هناك حركة غريبة أسفل المبنى. وضعَ احتمالات سريعة، كأن يكونوا بصدد إعادة طلاء العمارات، غير أنّ خيمة بيضاء حطّت، جعلتهُ يُغيّرُ الاحتمال. فكّرَ أنّ الأمر متعلّقٌ بحملة ما، أو ربّما احتجاج من نوع مختلف، لكنّ اقترابهُ أكثر أكّد لهُ أنّها خيمة عزاء، فالوجوه واجمة والأجسام متطرّفة في الحركات، والخطى صارمة وحادّة ومبالغة، والجميع يستقرئ تضامن البقيّة عبر العيون. «من الميّت يا بشير؟». كبر السّؤال بسرعة، فلم يجد فرصة للعثور على

(1) العياشة: قرط يوضع للأطفال جاء من اعتقاد أنّه يمكنُ لحامله أن يعيش، بعض النساء اللواتي فقدن بطونا كثيرة تفعلن هذا، وعادة لا ينزع من أذن حامله إلا في سنّ متأخرة.

ميّت مناسب. عرفَ أغلب الجيران رسمًا والقليل منهم اسما. رشّحَ الهرمين، المرضى، المحظوظين والتّعساء، وأعادَ قراءة وجوه الجيران، من كان أبعدهم عن الحياة الرّاغب عنها؟ لا أحد سيموت قريبا، كان الأولى بالموت، أيستعدّون لجنازته باكرًا؟ بدا لهُ أنّ انهيارهُ الوشيك ليس فقط تعبًا وأرقًا، إنّما هو موتٌ يتحقّقُ بهدوء ووثوقٍ، كأنّه قصيدة.

- صباح الخير.. إن شاء الله خير؟
- الحاج السايح، الدّايم ربي، إذا كنت تسكن هنا.
- الله أكبر، تركته متعبا في الصّباح
- لا لا.. مات البارحة في اللّيل
- لكنّني رأيته قبل أن أنام، لستُ أعلم متى، قبل وقت لا يمكنني أن أحدّدهُ

فقدَ قدرتهُ على التّركيز، ولمْ يعد يذكُر شكل الذي حدّثهُ ولا جنسهُ، كائن مّا وقف وأسندهُ كما أسندَ السّايح قبل زمن ما. ووصلَ إلى شقّتهِ وتسرّبَ من مكان ما إلى فراشه، واستسلمَ تماما لموتٍ شهيّ قد يجمعه بجاره، فيتبادلا محبّة أكبر من نفورهما في الحياة.

كان مرهقاً وبلا محفّزٍ، ومنحهُ نومهُ فرصة الدّهشة عندما سمع صوت جرس الباب. قام وفتحَ فلم يجد أحدا. أسفلهُ كانت عيدان ثقاب تمشي في صفّ واحد، وتتّجه إلى غرفة الصّالون. نظر إليها فإذا هي تتحرّك خلف مرشدها الذي لم يكن إلا السّايح، بقبّعةِ بُنيّة وجسد من ثقاب. لم يُغلق الباب وتبعها. جلست العيدان في دائرةٍ حول المرشد، وجلسَ بشير صغيرا بحجم عود، إلى جانب جاره الذي تحوّل إلى عود مبتهج، بعد أن مات. وفجأة اشتعلتْ رؤوس كلّ العيدان، إلا قبّعة المرشد، فابتعد بشير مرتبكا قليلا، لكنّه هدأ عندما وجد العيدان والسّايح مبتسمين في اطمئنان جمّ. لم يكن هناك مرعوب

سوى السّجائر التي نأت ووقفت مرعوبة ومبلّلة على الجدار، كانت تخشى النّار، إذن كانت النّار نهايتها التي ترعبها؟ استمرّ الحلم صامتا، وطقوس أعواد الثّقاب الفرحة تملأ الشقّةَ. شعر بشير أنّ جارهُ سعيد بموته وفرح بعالمه الجديد. لكنّ ريحاً مفاجئة مرّت بين باب الشقّة وباب شرفة الصالون، وبعنف صفقتْ الباب ثمّ باب الصّالون، ما أحدثَ دويّا رهيبا أطفأ العيدانَ.

من حظّ بقيّة السّجائر التي تركها على صحن بقرب وسادته أنّه لم يمُت، ومن حظّها أنّ الرّيح أطفأت عيدان الثقاب قبل أن تنهي حفلتها. أفاقَ بشير مبلّلا بالعرق، وعطشانَ ومرعوبا من دويّ ما. سحبَ الغطاء، ولفَّ جسمهُ المنهك بقمّاط. مدَّ يدهُ يُفتّش أرجاء فراشه عن جهاز التحكّم، وعثرَت عليه إحدى يديه، وبادرتْ إلى زرّ الصّوت ترفعهُ. ركّزَ في البحثِ عن برنامج ينقذهُ من الحياة، بدرجة التركيز نفسها في دفع العطش أو القبولِ بالموت عطشا. حدّقَ في السّجائر، ولم يسعهُ العثور على برنامج يستحوذ على بقاياه. التقطَ سيجارة، ووضعها على شفتيه، أدركَ أنّ السّيجارة مقلوبة، ولكنّ لسانهُ استغرقَ في ملامسة التّبغ بانتظام. لم يَجد طاقة لالتقاط علبة الثّقاب من جيب معطفه، ولا طاقة للوقوفِ والخروج من قماطه. وعندما شعرَ برغبة في قضاء حاجته، تجاسرَ على فشله وموته، وانتفضَ قاصدا المرحاض. رغم أنّهُ فتحَ شفتيه إلا أنّ محبوبة شفتيه بقيت تتدلّى من شفته السُّفلى. دخلَ المرحاض وخرجَ أنشط بقليل، وأراد غسل وجهه أو محو بعض الضّياع المكدّس، لكنّهُ ظلّ أمام المغسل يَنظر إلى وجهه في المرآة، ويسألهُ ما الذي أراد أن يقول الرّجل قبل موته؟ ولمَ لمْ يقلهُ عندما كان أميرًا على عيدان الثّقاب؟ كانت السّيجارة تتدلّى، وشفتهُ قد جفّت تماما، وانتمت إليها تلك السّيجارة كأمّ حنون. سحبها قليلا

فوجدَ أنّها التصقت تماما. كرّرَ الأمر بلطف دون جدوى، وفقدَ صبرهُ، فسحبها بعنف، ويبدو أنّ شفتهُ أضعف منْ حركته الفالتة تلك، لهذا فقد نزفَ دماً فاتحا كأنّ الماء خالطهُ. أمّا السّيجارة فقد واصلت رغبتها في شفتيه، لولا البلل الذي نال منها. غسلَ وجههُ واستعاد بعض النّشاط، وتجاهلَ حريقا مركّزا على شفته السّفلى الدّامية. رغبَ في الاستحمام، لكنّهُ أراد أن يقوم بالواجب تجاه جاره المرحوم. غيّرَ ملابسهُ الدّاخلية والخارجية، وارتدى قشّابيّته[1] البنيّة الوبريّة، القشّابيّة التي أهداها إيّاه مينا، وخرجَ قاصدا خيمة العزاء. كان اللّيلُ قد لفّ المدينة، والنّاس يتأهّبون لمغادرة المكان. دخلَ الخيمةَ وأخذَ كرسيّا، بدا الأمرُ أشبهَ بمقهى. هذا النّمطُ الجديدُ من العزاء على مستوى من الخدمات. في السّابق كانت الجنازات فرصة للمساواة بين الجميع، مثل حيّ القرابة. أمّا الآن فقد تحوّلت إلى فرصة للاحتفاء بالأحياء، كأنّ أهل الميّت يحتفون بقدرة المعزّين على البقاء أحياء. بالنسبة إلى الدّيلي لا يهمّ، طالما هناك فرصة لمجالسة بعض الشّباب الحيويين في غياب الشّيوخ.

لم تتح لهُ فرصة لقول شيء، كانت الخيمة مثل تربة زلقة تحرّك الجميع، فبمجرّد جلوس أحدهم يأتي من يطلبهُ، وبمجرّد دخول أحد يغيّرُ رأيهُ ويخرجُ. بقيَ ثابتًا في خيمة متحوّلة، بلا دورٍ واضح، حتى شكّ أنّ هناك خللاً مّا، كأن يكون أخطأ في قراءة النّصّ، وأدّى دورا آخر منذ البداية.

أحضروا لهُ صحن كسكسيّ وقطعة لحم خروف ومرقًا. تردّدَ قليلا، لكنّ إصرار شابّ، ثمّ التحاقَ رجل آخر بالصّحن، جعلاه يُقبل عليه. كان يأكلُ دون تذوّقٍ، أو بالأحرى يدافعُ التلذّذ بهذه الوجبة الشهيّة،

(1) القشابية: الجلابة.

ويتظاهَرُ بحزن شديد، رغم أنّ رغبته في معرفة الكلمة التي غرقت في امتقاع وجه السّايح، أكثر من حزنه على رحيله. كانت حبّات الكسكسي مثلَ أيّام العمر، تتلاحقُ إلى فنائها بفمه، وكان الرّجلُ النّهمُ الذي يشاركهُ وجبة الرّاحل لا يكفُّ عن الترحُّم عليه وتذكّره، واكتفى بشير بهزّ رأسهِ موافقا، وعندما توقّفَ عن الأكل نهَرهُ: «كُل... المعروف[1]، هذا أجره يصل إلى المرحوم»، أرادَ أن يقسم لهُ أنّهُ شبعَ، وأنّ اللّحم والكسكسيّ قد نظّفا معدتهُ من بقايا سمّ الدّجاج الذي التهمهُ البارحة، لكنّ إصراره وصوته العالي لفتا انتباه المعزّين، فاضطرّ إلى العودة. التقطَ ملعقَتهُ وأنفاسهُ، وراح ينحتُ جهته متظاهرا بالأكل، وعندما وضعَ سلاحهُ الأبيض مكتفيا، تركَ الملعقة المسكينة تنامُ إلى جانب الملعقةَ المحفّزة لشريك المعروف. تراجعَ قليلا وعينهُ على كوب شاي، ويدهُ تتفحّصُ جيبهُ أسفل القشّابية لتحرير سيجارة.

«أنعم يا سي الدّيلي وش تحكي لنا؟» قالها وهو يمسحُ شاربه وشفتيه معا بكفّه، ويتّكئ على الكرسيّ مُنتظرًا الردّ.

صعقهُ ذكر اسمه بعد غربته الطّويلة. تأمّلَ وجه الصّاعق، فلم يقفز له اسمٌ من الذّاكرة. هو في سنّه تقريبا، لكنّه لم يلتقه من قبل، ولا يذكر أنّهُ كان جارا أو صديقا أو شريك لعب. تردّد في السّؤال عن هويّته، واكتفى بهزّ رأسه، بينما كان هو يذكّرهُ بالزّين وناصر وعبد الحميد، ويردّد: «تلك أيام زينة ياسر يا سي الدّيلي»، «هل أكون ناسيا لخامسنا مثلا؟» شكّ الدّيلي، أرعبهُ أن يُصاب بالزهايمر قبل أن يكتب شيئا أو يخلّد عبورهُ الشقيّ فسأله: «من أنت؟»

- مدني

- مدني من؟

(1) المعروف: الصّدقة.

- مدني حسان

- متشرفين يا سي مدني، لكن لا أذكر متى تعارفنا، الذّاكرة أصبحت ضعيفة جدّا، أرجو من قلبي أن تعذرني...

- لم نلتق أبدا

- ومن أين تعرفني وتعرفُ رفاقي؟

- حكايات سمعتها من القرابة

- هل تسكن القرابة؟

- نعم أنا من اقتنى بيت المرحوم السايح

شعرَ برغبة كبيرة في لطم وجه مدني الواسع بصحن الكسكسيّ، لكنّهُ تردّدَ بسبب هيبة الخيمة البيضاء، وودّ أن يُغادر سريعا، لكنّ الرّجل انتفضَ معهُ، كأنّ وجهتيهما واحدة، فجلسَ ليدفع عنهُ بلاءهُ، ولم يتردّد ثانية بعدهُ فجلس أيضا. أشعلَ السّيجارة فقرّب رأسه، كأنّ الدّخان سيشفي عَتَهه. عرضَ عليه سيجارة فابتسم وقال: «لقد منّ عليّ الله بتركها منذ دعت لي الخونية رحمها الله قبل سنوات».

كانت الخيمة تهتزّ مفصولة عن زلزال الأرض. هذا الغريب وكأنّهُ حلّ ليوقظ عمقهُ الخرب. تأمّلَ مدى وجهه المبتهج، فلم يجد زيفا أو دجلا، وكان يعزفُ موسيقى روحه، فلم يجد الدّيلي وقتا ليقرّر بشأنه. سريعا تحوّل عبوسهُ في وجهه إلى تبسّم ودعة، ثمّ دعاهُ إلى شقّته فهبّ مسرعا، وفي دقائق قليلة أصبحَ صديقا مقرّبا يتنقّل في الشقّة بحريّة ويبادلهُ الكلام. كان يُريد أن يسمع منه أخبار العارفة التي دعت له، أرادَ أن يعرف ما جهلهُ خلال الهجر الطّويل، أن يُكمل تشكيل مشهده معها ومأساته إثرها، أرادهُ أن ينطقَ بكلّ ما يعرف، فبدأ هو من تلقائه، قال له: «عرفت أنّ سي السّايح رحمة الله عليه كان خاطبا

للخونية قبلك...». وهنا امتقع وجه بشير، وكره مدني هذا أكثر ممّا أحبّهُ قبل قليل. شعرَ أنّهُ قدّم لهُ أقسى طعنة ممكنة، كيف لهُ أن يؤلمهُ كلّ هذا الإيلام وقد أدخلهُ بيتهُ ووثقَ به؟ طلب في أثناء ذلك الماء ولم يُجبهُ، وقام يلتقطُ ماء كان يَضعهُ على مائدة يمين فراشه، ولتوتّره وعطشه داس السّجائر العارية على صحنها، وكسّر الصّحن. كان يخبرهُ أَنّ جارهُ اللّدود أحبّ العارفة قبلهُ، ولم يخبره أنّه مات قبلهُ، غادر العالم الذي غادرتْهُ العارفة قبلهُ، كأنّهما في حرب كسبَ معركة وخسرَ أخرى، والآن يحتاج الطّرفان إلى معركة فاصلة. لم يُصغ لكلّ ما قالهُ. قامَ مسرعا إلى علبة الثّقاب، وأخرج العيدان كلّها وأحرقها، الواحد تلو الآخر، وألقى بها على بلاط الصالون. وعندما عاد من حنقه وغضبه، وجدهُ يشرحُ كيف نزلت بركات العارفة عليه منذ اقتنى بيت السّايح المجاور لبيت والدها، وكيف انتهت حياة الرّاحل إلى نكبة متواصلة بسبب «عدم الرضا». قالها بصوت خافت، كأنّه يخشى أن يسمعهُ الميّت. باحَ الدّيلي موجوعا: «هل تعرف يا مدني، لقد أمضينا سنوات نلتقي على سلالم العمارة دون تواصل، نتبادلُ نظرات ترقّب، نظرات تستقرُّ ما بين التحيّة وتجديد اتفاقية سلام، لم أكن أدري ما سبب المعركة الموعودة بيني وبينهُ، رغم ذلك لم أتصوّرُ حياتي في نأيي هذا دونه، لو أنّ يوما مضى دون أن أطالع وجهه الأسمر لبدّدت ساعاته، ولولا أنّك هنا لتبدّد سببي في الحياة».

لم يفهم كيفَ انسلّ الغضب منهُ سريعا. تعافى وعاد يخدمهُ ويُحضّرُ لهُ قهوةً، ربّما لأنّه يقدّسُها، وربّما لأنّه بديلهُ في القرابة. فبينما فرّ هو والسّايح والكثيرون، قصدَ هو الحيّ، وعاش سعيدا به بجوار العارفة. ظلّ مدني يعتذرُ وينظرُ إلى السّجائر بأسًى، كأنّهُ يعتقدُ أنها بأرواح، مثل الدّيلي الذي بحثَ طويلا عن نقطة لقاء بينيهما. فجأة، سأله

إن كان يعلم بعودة التالية، فوجد الدّيلي الأمر فرصة ليحكي تفاصيل الآخرين، آملا استدراجَ ضيفه ليحكي لاحقا شيئا يسيرا لا يعرفه عن العارفة.

الطّبقة الأولى

ما أخلفَ الغياب!

1/ معزوفة القصب

بسطُ الغياب

(1)

رأى التالية ورأتهُ. مرّت تتستّر عن حكايتها. خطفت التفاتة من صلابتها، لتتأكّد إن كانتْ واجهتْ بشير الدّيلي منذ لحظات حقّا. كان قد انعطفَ شمالا، وانتصبَ - كمالكِ للمكان - أعلى مفترق أزقّة، فلم يتأكّد لها شيءٌ. كم رعت الحيرة والتِّيه في قفزتها المهولة نحو النّضج! آخر مرّة رآها كانت تدرسُ في الثّانوية، جميلة ومتّقدة، عيناها تضيئان المكان وترقصان بلا تردّد، كانت أصغر بقليل من مينا. واصلتْ بسرعة كبيرة نحو الخراب، هذا اعتقدهُ عندما تزوّجت بايزيد فجأةً، الرّجل الذي أصبح عصبة وحدهُ، يحبّ الجميع الاحتفاءَ بحضوره، ويحقدون عليه غائبا، على الرغم من افتقارهم لأيّ مبرّرا لكلّ ذلك الحقد. قال عبد الحميد للدّيلي عشية زواجها: «تبدو منزعجا كأنّك زوّجت ابنتك مُرغما؟». فردّ بشير: «فقط اختلاف بايزيد الذي علا المدينة، أمّا نحن فغلّف أفقنا الخوف يا رفيقي». سألهُ: «ما الذي يفعله بايزيد ويجعلنا نحقدُ على وجوده؟». فقال بشير: «لا يُصغي لإملاءات البؤس التي حفظناها جميعا، هاهو يحثّ الخُطى نحو الجهات الأربع في الوقت ذاته، يتجزّأ ويتولّد، يقتني بيتا هنا وأرضا هناك ومحلاًّ تجاريا في الجهة الثالثة والتالية من هذه الجهة». وفي نفسه قال: «لعلّه إفلاسنا نحن الذين وقفنا في اليسار ثمّ نسينا أن نقف أصلا، وبسرعة البرق صرنا غير معنيين بالوطن ولا بالحياة، ونريد امتلاك مصائرنا

رغم ذلك». وقفلَ عائدا إلى شقّته، حزينا على فقدان الحيّ للتّالية أكثر من الحزن الذي اعتراه في غيابه عن الحيّ. تحسّسَ سراب الموقف كلّه، ولم يعرف شكل البوصلة؛ لهذا فقد حفظ الطّريق بين مثلّث المقهى والشقّة وحيّ القرابة.

إذن، التالية زوجة ثانية، ثمّ اختفى يحيى، وتمّ تقليص الدّراما في الفيلم لتصبحَ غريبة على متلق رجعيّ مثل الزّين مثلا. كان يمشي في أزقّة البرج ويتحسّسُ أنفاسهُ، إنّه روحٌ تتألّمُ، لا أحد يعرفُ هذا الألم مثلهُ. كان يمشي ويلتقي الوجوه الغائبة كلّها مبتسمة أو حزينة أو صارمة، كما اتّفق لها أن تلقاهُ.

عادت إلى المدينة بابن في العاشرة وقلب مثخن بالجروح، مرّة بفقدان يحيى، مرّة برجل آخر يحوزُها قسرا فتكرهُه، ثمّ تجبرها طيبته السريّة على احترامه، قليلا، فكثيرا، ثم تحبّه جدّا، كأنّها تقتل فيه يحيى كي لا تخونه. عادت بقلب مجروح بمشرطِ جرّاح فتّش مكتومه، قلب مجروح بغياب الجميع عن الحياةً.

أمّا غياب يحيى، فكان قد تكثّف حدّ الحضور. صارت تراهُ في وجهها كأنّه الرّوح التي تسكنها، وتقرأ تحوّلاته في أبطال الرّوايات، وتربّي عبقريّته في خطوات ابنها. صار يطغى على الغياب، وتلك هي مفارقته العُظمى. ظلّت جولاته الجميلة تجعل من أزقّة القرابة المسالمة جنانا بالنسبة إليها. وفي غيابه اكتسبَ النّاس وضعهم المضطرب هذا. لم يعد بوسع الكثيرين الجزم بأنّ الشّوارع هي الشّوارع، الحيّ هو الحيّ، والمدينة هي المدينة ذاتها. لقد توّجَهُ الغيابُ سيّدا فلمَ قد يُفكّرُ بالعودة؟ كانت تقولُ داخلها: «واصل فقط توغّلك في التيه الشّهيّ الذي اخترته، وسنواصل تردّينا بشكل لم يسبق أن قمنا به على امتداد تاريخنا». يقولُ بشير لرفيقه الطّارئ: «ليتك عرفتَهما يافعين

يا مدني، لكنتَ أحببت الحياة من أجلهما، كانا يمضيان في هدوء وحكمة، لم تحاصر ثرثرات العاشقين حكايتهما، وبدت كأنّها نموذجُ الحبِّ الأهمّ». رأى في تفوّقِ حبّهما تفوّقا لرؤاه، تعويضًا لإخفاقه المدوّي مع العارفة، وفي حضورهما محوا لغيابه وغياب العارفة، لكنّه الآن يعيشُ خيبتهُ الصّغيرة هذه دون أن يبدي منها شيئا. هو حاوي الخيبات، لهذا فاقترابه من يحيى والتالية لم يكن انفعاليا، ولأجل هذا ظلّ مستقرّا ولم يعتره أيّ اضطراب. والأصحّ أنّهُ أتقن في هذا العمر القفز على الاضطرابات العابرة والإخفاقات الصّغيرة، ألا ينجح ملكٌ كالدّيلي في أمر كهذا؟

كان الإنسانُ يفقدُ معناهُ ويحنّ إلى بداياته، يقدّسُ الوجبات البدائية ويقرفُ من أطباق حديثة أو عصريّة، يطربُ للدفّ وإخوته ويتشنّج للبيانو والكمان وحتى للعود، يمضي وقتا طويلا في تأمّل قدراته الجنسية ولا يملك وقتا للحبّ أو المعرفة. لقد ارتدّ الإنسان وفقد أسباب الحضارة. لكنّ التالية انتمت دون توجيه إلى نمط مختلف، دخلت في صراع مع البقية من جنود الردّة. هي أحبّت أن تصدم الجميع بلباسها الذي ينزعُ نحو الألوان، لم تكن لتتخلّى عن تلك الألوان الملفتة، لولا الانفلات الأمني، واشتغال آلة التقتيل. أحبّت موسيقى أخرى ليس أمّ كلثوم ولا مغني السبعينيات الذين ملؤوا العالم رومانسيّة غير معقولة، لم يثرها بيار باشلي وشارل أزنافور وخوليو ولا حتى بارزوتي، قليلا ما سمعتهم، وقفزت على موسيقى الثّمانينيات الملوّنة الواثقة قصيرة العمر. اختارت أن تُكسّر المسار الهادئ والحكيم الظّاهر بالموسيقى الصّاخبة، هذا في حدّ ذاته أمر غريب. في القرابة تُقدّس القوانين، ويُحرمُ الآخرون من فعلِ نزقٍ، إلا في حدود السرّ أو الجرأة التي تُتحمّل عاقبتها. ما العاقبة؟ لقبٌ جديد، أو تداول على الألسنة، وانكسار

عظيم للمتمرّد قد يعصف بحياته السّابقة، قد يزرعه في منحى آخر.

بعد أن انقضى الأمر، تصالحت مع غيابها وغيابه. كانت تخشى أنّها تتمنّى من يحيى البقاء في غيابه، أن تغبطهُ عليه، أن تمقُتَ الحضور المزيّف المخدوعَ. مرّة اعتقدت أنّها مودّعة الحياة، أسلمت الأمر وابتسمت كما يفعل منقاد الموت، ألا يبتسمُ في وجهِ النّاس؟ أم يجهل العابرون كم هو نبيّ وشهيّ وملاك؟ منحتْ نفسها السّلام الكبير المنشود. سرى المخدّر في عروقها، شعرت به يعدو بأقدام كثيرة لا أصابع تمنحُها إيقاعا، ولم تملك الوقتَ لتفكّر في شكل هذا العدّاء، اكتفت بأقدامه البرتقالية، لا تعرفُ لمَ كانت برتقاليّة أقدامُ المخدّر العدّاء. لكنّه تعدّد وأصبحَ أمّة في كلّ جسدها الجميل، وانتهت غيمة. كان عالما أبيض، أبيض حدّ الجرح. الطّبيب الجرّاحُ الأشيب مستعدّ بكثير من الحماسة ليمنحها تأشيرة السّلام. سألَتْهُ: «دكتور كم نسبة النّجاح؟»، فضحك، وقال لها: «هي ذاتها نسبة نجاحي في البقاء»، وأشاحَ بوجهه يتحاشى وجهها الباهت، ويُقلق هدأة أوراق انتظمت على مكتبه.

ابتسمت، وبدأت تتأهّبُ للرّحيل. داخلها كانت تردّد: «قلبي الذي أحبّك مملولّ يا يحيى...». يوشكُ قلبها أن يُفتح، وسيرى الجميع كم ضَعُف وهو يتمنّاهُ سرّا وعلانية. كانت الدّنيا تبيضُّ كثيرا وهي تذوبُ وتذوي ككومة ثلج بيد طفل دافئ. حتى تكاد الدّنيا لا تشعر بها، تتقطّر، تتجزّأُ، تتشكّلُ وتتبخّر. الثانية الأخيرةُ من وعيها كانت أكثر كثافة من كلّ الوجود، من التّاريخ والمستقبل. رأت فيها الكثير من الفرح، أكثر ممّا اعتقدت، كانت حياة كاملة دون فزع، كأنّها حياة أخرى غير التي عرفت، ولم يشغلها في غيبتها إلا شوقي. كان طفلها الوحيد موسيقاها التي تنشّط بقاءها. فكّرتْ فيه وهي تمرّن نفسها على المرور من الثانية

الأخيرة إلى الأولى، لا بدّ وأنّ الأبناء سببُ وجيهٌ للبقاء، للمقاومة. جرّبَ الدّيلي أن يكون أبا في الأوراق، كثيرا ما عرفَ أنّ أحدهم يحملُ اسمهُ، لكنّهُ لم يكن يرى في هذا الابن سببا للبقاء. كثيرا ما خشيَ أنّ بقاءهُ أكبر أذيّة ممكنة لابن مثل مينا.

يسألهُ مدني إن كانت التالية أجرت العملية فعلا، فهذا الأمر مجهول تماما في القرابة، ولم يبد من سؤاله أنّه يريد أن يعرف خبر العملية الجراحية على قلبها، بل كان يريدُ أن يسحبهُ من تغيير المسار نحو حكاية شخصيّة، كان يسحبهُ من الغوص في حكاية خاصّة لا حدث يبرّرها.

يحيى ملّة من المحبّة. يدخلُ من الباب أم يهبط من السّماء؟ هو أيضا ارتدى الأبيض، نزع عن فمها مضخّة المخدّر وأخذها من يديها. هل بوسعها أن تصغي إليه متكلّما؟ كان في عالم أعلى من الحقيقة وأقلّ من النهاية بقليل. ورغم ذلك لم تجرؤ على منحه لسانا، فقط ليقول لها «أحبّك». فعل دون كلام. أخذها إلى شرفة غرفتها، رغم أنّ الغرفة التي كانت بها بلا شرفة! وهناك كان يضمّها، وفي كلّ اشتداد لضمّته الهائلة تخترقُ سماءً من سماواته، حتى صارت فيه تماما وصار فيها. «ما اللّغة يا يحيى وأنت أنا؟» هكذا هذتْ. لم تشعر أنّ يد الطّبيب تُقلّبُ قلبها. لم يكن لتجربتها تلك أن تمرّ دون أن تعيدَ ترتيب وجودها وتشكيله من جديد. «كم بقيتُ هناك؟» تتساءل ولا تدري هل استغرقت سنة أم رمشة عين، لا تعلمُ كم من الزّمن عاشت وكم محت منه، ليست بحاجة إلى لغة، إذ يجعلها هو معنى، ونجت. قالت عندما فتحت عينها: «لقد نجوتُ يا يحيى». ثمّ أغرقت في إغماضهما تنشدُ البقاء إلى جانبه، وها هي تفتّشُ عنه الأرض، ويسكُنها أمل أن تراه ليعرف أنّه أنقذها. هدأ الدّيلي وتنهّد، وقبل أن يخرجَ كلّ تنهيدته

الطّويلة، قفز به مدني: «واصل!». فردّ مبتسما: «أنا أفعل».

- بدوت لي وكأنّك ستختم الحكاية.

- لا أعتقد أنّه عليّ التوقّف عند التالية، هناك يحيى، وأنا والخونية ومينا والقرابة، بكلّ أثاثها الخرافيّ من بشر وظلال، كما أنّي أتشوّق لسماع شيء منك، أنا أبادل حكايات كثيرة بخبر وجيز عن الخونية.

- واصل فقط.

لم يكن مدني يريدُ أن يعدهُ بشيء، وقد تحوّل في هذه المرحلة المبكّرة من الحكي إلى طفل مشدوه، لا يرمش عينيه، ولا يتنفّسُ جيّدا، لقد قضت الحكاية على طبيعته، وكلّما أنهاها الدّيلي باكرا صار حظّهُ أوفر في أن يسمع منه شيئا، وإلا فإنّه قد يقضي في شقّته وعلى أريكته. استمرّ يسوّي جلسته، ينتقل من الجهة اليسرى إلى اليمنى، حاملا الوسادة التي يطويها تحت يده. لذّة ما تتسرّبُ إلى وجع الحكاية.

هل تعرف المدينة الآن.. هل تعرفُك المدينةُ؟ يتحدّثُ عبد الحميد عن يحيى، كأنّه التفصيلُ الأهمّ للمدينة والحيّ. في كلّ مرّة يلتقي ابنة أخته يسألها قليلا عنها وعن شوقي، ثمّ ينخرطُ في تحرير يحيى وإطلاقه. يقرّرُ البقية كما يشتهي. بالنسبة إليه سيبقى هو أهمّ منجز، أجل، عبد الحميد يصرّ في داخله أن يحيى منجزُهُ، وأنّ الشرّ سلبه إياه، كما فعل مع طفلته قبل عقود مضت، هو يحكي بينما تردّ سرّا، يقول فقرة وتواصل عنه، كانت متحفّزة للبوح، تودّ أن تجد صديقا آخر يمكنه أن يصغي إلى هذرها، لكانت تكتّمت قليلا عن شوقها إليه، وربّما أسعفها وجود آخر - هو خالها - يمكنه أن يمنحها وقته.

عثرَتْ على فتيحة مجدّدا. لم يتطلّب الأمر سوى المرور ببيت عمّي مبارك، بائع الجلود لتسأل عنها، ولسبب ما سيجيبها طفل

بسرعة: «إنها في بيت زوجها». كان الطّفل يلتفت عندما تناهى إليها صوت الخالة خديجة -أمّ فتيحة- تسأل حفيدها عن الطّارق، وردّ عليها وهو يصفقُ الباب في وجهها: «لا أحد». مشت متثاقلة تتساءل: «أ لهذه الدّرجة لستُ مرئية؟ ما الحضور إذن؟»، وغيّبت رغبتها في التقاء الخالة خديجة التي رعت نزقها هي وفتيحة، وأطعمتهما المذكّر والمسمّن والبغرير السّفنج[1]. لم تكن مساءات بيت عمّي مبارك تخلو من روائح الأكلات التقليديّة. بركات ذلك الرّجل الصّالح تنزّلت - في غير شحّ - على جميع زوّار زقّاقه. زيّنت المكان عربته ذات العجلتين، العربة التي طالما حمّلها بالجلود. لم يتخلّ عنها بعد أن تحوّل إلى حمّال في سوق حي بن جرمة، وبقيت الجلود علامة بيته، فلم يتوقّف عن معالجتها كلّما أتيح له ذلك.

عودتها كانت شاقّة. لم تجد التّرحاب الذي أملته. غادرت طفلة تتنطّط، وعادت أرملة تطلّ على الأربعين. لهذا فإنّ الحيّ لم يتعرّف عليها. ليس على شوقي الذي ظلّ محلّ سخرية من أطفال المدرسة بسبب لهجته المختلفة، وكان ـ لسذاجة ورثها منها ـ يردّد كلمات يطلبها منه الأطفال ليضحكوا من نطقه، وينقلبُ يائسا ومستاء. لم يطلب يوما العودة إلى مدينة دخلتها أمّه عابرة وأقامت بها، وأبدى صبرا في مواجهة وضعه. كانت تنام معه في غرفة أبيها، وحافظت شقيقتها منى على غرفتهما السّابقة وسريرهما المشترك، وواصل شقيقها منصور التطرّف في البيت وفي حياته، ولم يحرّر الصّالون أبدا، بل حوّلهُ إلى مخزن لسلعه التي يسوّقها في طاولة وسط المدينة. رغم أنّ كلّ واحد من أهل الحيّ كان يؤوّل مصير التالية في الجلفة كما يحلو له، إلا أنّها جاءت مدينتها الأولى لتعيش كما كانت، ليس أمامها من شيء تفعله

(1) أكلات تقليديّة ليست وجبات بقدر ما هي مكمّلات تؤخذ مع القهوة.

سوى البحث عن أثره. داخلها إيمان كبير أنها ستجده يوما. ورغم أنّه لن يكون معها، فهو عَالمٌ لا يحتاج إلى البقية، إلا أنّها تفضّل أن تكون قريبة منه؛ لتشهد تحوّلاته على أن تكون بعيدة وتعيش تحولاتها.

حافظت على هدوئها وهي تشقّ الشّارع من أعلى إلى أسفل، بينما يصرّ كثير ممن تلتقي بهم على التّحديق فيها، بكثير من التّشهي. يعرفُون أنّها ترمّلت، ولعلّها تعتبرهم من أهلها وذويها، بل إنهم بقيتها التي ستعيد بناءها في كلّ تصدّع. الأرملة والمطلقة كابوسان بأرداف وأثداء. كأنّ المدينة تتراجع. قبل سنوات كانت هنا السّعدية، أرملة في الأربعين ببنتين شابتين وطفل، وكانت تخرج متجهة إلى عملها بالمستشفى كلّ يوم، بينما يتحوّلُ بيتها إلى مأوى لكلّ الأطفال في غيابها. كثيرا ما فتحتهُ جويدة والزّهرة ليحيى ومينا والتالية وشقيقها منصور وفتيحة وغيرهم... غادرت السّعدية الحيّ واختفت، وبقي الجميع بمحاذاة ظلالهم، إلى أن التهمهم الغياب.

عبد الحميد يعرفُ كم أحبّ كلّ عاشق في هذا الحيّ، كم أحبت التالية يحيى وكم أحبّها، ويقرأ هذا بكثير من الدّهشة في كلّ مرّة عبر عينيها. كانت فتيحة تقولُ لها إنّهما تصبحان أوسع كلّما ذُكر يحيى. ولعلّ هذا ما يسمحُ لخالها أن يقرأهما بنظّاراته السّميكة. والدها رفضهُ، لا أحد يعرف كيف ذلك ومتى، لكن الأمر أصبح معروفا.

كانت تتخيّلُ عذابات حبيبها وهو يستعدّ لخطبتها، وتعمّق من عذاباتها. إنّها الخطبة، الموعد الذي يحتاج إلى خطيب حقيقيّ هنا، حيث يحتفي الجميع بألسنتهم اللّولبية، حيث يُملك النّاس وتُحرّرُ القلوب والأرواح بالبلاغة. كيف قال يحيى للأب إنّه خاطب التالية؟ كيف صدّهُ بـ «لا»؟ أ هزّ رأسه ومضى بينما كان ينهار؟ أشفقتْ عليه من لعنتها، كانت تقرأ في كلّ حجَرٍ تمرّ به شهادة عن حبّها العظيم،

وتشعر في كلّ صوت تسمعه أنّه يقول لها: «اعذري غيابي». تململ مدني في مكانه، وسأل: «ألم تفكّر في الاستنجاد ببعض كبار الحيّ؟»، صمت الدّيلي برهة، وانشغلَ قليلا بجمع زجاج الصّحن الذي داسه مدني. اعتقد مدني أنّ الدّيلي سيكفّ عن الكلام، لكنّه ردّ عليه أخيرا: «لا كبير أكبر من حبّها، لقد استنجدت بحبّها».

- ألم يكن بوسع يحيى أن يفعل شيئًا؟ هل عدم الحيل؟
- كانت حيلتهُ أن يطرقَ الباب ويعلن حبّهُ دون كلام.
- ثمّ تخلّى عنها وتخلّت عنه؟
- شيء أكبر من هذا وأقلّ من الهروب معا، زوّجوها الرّجل المهمّ، وغادرت طفلة لا تعرف إن كانت ناجحة في البكالوريا، فجأة وجدت نفسها هناك في الثامنة عشرة من عمرها قبل ثماني عشرة سنة استغرقها زواجها من بايزيد، نصفها طفلة والنّصف أمّا، وكلّها حالة يعتني بها بايزيد في الحضور والغياب معا، وترعى ذكرى يحيى في الغياب.

(2)

لم يحدث معها شيء كبير قبل أن تبلغ السّابعة عشرة. مرّت خفيفة في الشّارع والمدرسة والبيت، بنتا ضمن عائلة مختلطة. أبوها جلول المرعوب، تزوّج أكثر من امرأة، وطلّق بعضهن بأبنائهن، فانتشر نسله دون عناية ولا شأن، لهذا فليس بالوسع دائما إحصاء عدد إخوتها، هذا الأمر شكّل حرجا بالنسبة لها في المدرسة، ولغاية اليوم لا تعرفُ سبب السّؤال عن عدد الإخوة من قبل المعلّمين؟ فهم لا يقومون بأيّ دراسة أو إحصاء، ولا يعدو الأمر أن يكون فضولا شخصيا. في البداية كانت تُجهد نفسها لتحصلَ على عدد تقريبيّ، أربعة عشر ذكرا وسبع

بنات، أو ربما تسع بنات وخمسة عشر ذكرا... لم يكن بوسعها معرفة العدد الحقيقيّ، ولا شكّ أنّها لا تعرفهُ اليوم، بعد كلّ تلك السّنين من إحصائهم دون جدوى.

أبرز حدث مرّ بها هو اكتشافها له. عندما تمرّ أمامه ينظرُ إليها بكثير من الاختلاف. لا يشتهيها؛ ولكنّه يتلمّسها من مكانه. كانت تشعرً بيده تمسحُ على شعرها، ثمّ يقلبُ يدهُ فتمرّ أصابعه على وجهها، كلّ هذا في خيالها النافر من أزقّة الحيّ وغرف بيتهم الذي يلفُّ خلف بيتين على اليمين وبيت على الشّمال. لهذا فهي تلقي بالخطى متثاقلة لتطولَ لمساتُه. بدأتهُ مشتهية وبدأها هادئا. أمضت قرابة السّنة وهي تتردّد في النّظر إليه، ملامحهُ كانت بين الخياليّ والواقعيّ، ولعلّها أضفت بعض التفاصيل من خيالها، بسبب المسافة التي كانت لا تسمحُ بتأمّله جيدا. كان يخشى الشّارع وكانت تخشى القبيلة. عرفت منذ البداية أنّه ليس مجرّد عابر في حياتها، هو شقيقُ فيّالة، الجارة التي يلتفّ بيتهم خلفها شمالا، والتي ستصبح أهمّ جار على الإطلاق. مذّاك تعدّدت زياراتها لها بسبب أو دونه، ولكنه لم يبادرها يوما بتحيّة أو سلام، اكتفى بنظراته النّدية، من الوقاحة أن تبدأه بالتحية، لكنّها فاجأته يوما عند باب بيت أخته وهو يهمٌّ بالخروج. ألقت عليه ما يشبه التحية. فكّرت في لحظتها هل هم في الصّباح أم المساء؟ أضاعت الوقت، لهذا قالت له بفرنسية الثانوية: salut[1]. واكتفى هو بكوكب الصّمت، ليلتها باتت على الجمر. اعتقدت أنّ صمته يعني أنّها ألقت تحيّة استهجنها، وتمنّت لو أنّها قالت له: «مساء الخير» أو «صباح الخير» أو ربّما «السّلام عليكم»، على اعتبار أنّه ملتح. كان عنقه مطوّقا بعقد فضيّ خفيف، الأمر الذي جعلها تعتقد أنّ تحيّتها تلك تناسبه.

---

(1) salut : بمعني تحية أو سلام بالفرنسية.

يهاجر جلول المرعوب من حيّ إلى آخر، ويعبثُ بالجميع كما يشاء، فيمكنه أن يغيّر الأمّ وأبناءها بزوجة من زوجاته وأبنائها، في أيّ لحظة تبدو له. هكذا كانت تعرف عن أخوتها وأخبارهم من جيرانهم السّابقين أكثر ممّا تعرفهُ عنهم من معاشرتهم، وبدا أنّ الجميعَ يرفُضون دراستها، إلا أنّ والدها أصرّ أن تواصلها.

عندما وصلوا إلى القرابة، سُمحَ لها بسهولة أن تواصلَ في المدرسة الابتدائية المجاورة، لكنّ الدّراسة سرعان ما تحوّلت إلى مغامرة، بسبب بعد المسافة عن أقرب ثانوية إلى البيت. ولم تتوقّف، ومشت المسافة طوال ثلاث سنوات. لم يكن برد الجلفة يرُوقها. بيد أنّ بحثها عن نجاح يرمي بها خارج دوّامة هذا الرّجل- الذي يسمّونه أبا، رغم رفضها أن يكون موجودا - يستحقّ التحدّي. تمنّت أن يرحل لترتاح محظياتة الحاليات والقادمات منه، لكنّه كان عصيّا على الموت، وصل حافّته ثلاث مرّات، وعاد مسرعا كأنّه يفرّ من حيوان متوحّش. التقاهُ الموت مخنوقا بالغاز المحروق الذي يطرحهُ الفرن التقليدي المصنّع بالقرابة، كان يجد دائما فرصة أخرى، وتفتحُ غرفته فيبعث مجدّدا. امتلأ رأسه بالمرعوب[1] ثلاث مرّات، ولم يفقد يقظته وقسوته، ولم يكن لينجو من لقب المرعوب الذي لازمه بعد الحوادث المتتالية.

قرّرت أن تعيد تحيّتها لذلك الصّامت الذي يمر بها كطيف في كلّ الأماكن، هذه المرّة التقتهُ في زقاق جانبيّ، احتاجت إلى جرأة أكثر لتقفَ أو تكلّمه، وهو تردّد مثل تردّدها، تمهّلت قليلا وفعل مثلها، كانت تنظر إلى الأرض وإلى اقترابه، ولم تتمكّن من النظر إليه، تصوّرته يزداد ضخامة ونورا ووسامة كلّما دنا، بقي لون التُّراب عالقا بذاكرتها حينما أسرعَ هو في الانصراف، ولمس سريعا نقطة التلاشي، بينما

(1) المرعوب: غاز أحادي أكسيد الكربون

تدحرجت كلماتها كغصّة إلى الوراء، وتناسلت أسئلتها قبل أن يختفي: «هل كان منزعجا مني؟ ترى هل في سلوكي ما يجعله يرفُضني؟». شعرت أنّها تقطر عرقا، وأنّ الحرارة ستنفجرُ من وجهها، لكن، وبمجرد تجاوزها الزّقاق، حتى تحوّل الأمر إلى برد يجمّد أفكارها ورغباتها، ويشلّ خطاها.

عندما دخلت البيت كانت شفتاها بيضاوين، وكانت تشعرُ بدوّار. أرادت أن تمرّ مسرعة إلى غرفتها، لكنّ صوت والدها جاء مجلجلا من كلّ الجهات: «أرواحي يا طفلة شوفي قهوة مُك ماء موسخ»[1]، كان كلّ همّه أن يشربَ قهوة بثقلِ دمه، وكثيرا ما أتقنت تحضيرها له، فهمت أنّه عليها أن تمرّ إلى المطبخ لتحضر البديل، أصبحت لا تهتمُّ كثيرا بعبء الوقوف في المطبخ. تحوّلت صورته من حالة ضبابية إلى حلم يتّسع، من سؤال إلى يقين.

في ليلتها تلك سمعت صخبَ العيد الحسّ الذي لم يتوقّف عن العزف بآلته التي اخترعها. كان ظاهرةً غريبة في الحيّ، قاوم كلّ السُّكان الذين أرادوا إسكاته، ومازال يعزفُ على آلته ويغنّي نشازهُ غير مبال. خرج جلول وطردَه، لكنه كان يمشي ويدندن ويتوقّف مستديرا لطارده، يعزف ثمّ يمشي قليلا ويرفعُ صوته بمقطوعة مع العزف، آلته تلك سمّاها سكان الحيّ «الحسّ»، وتحوّل العيد إلى العيد الحسّ، أيّ العيد الفوضى. الوحيدُ الذي لم يشكُ منهُ ولم يتضايق كان يحيى، بل كان يغنّي له أغنية خاصّة؛ لأنه يبتسم في وجهه. صنع الفنّانُ آلته قبل سنوات بعصا مكنسة ودلو صغير، وربطها بخيوط تصدر إيقاعا، وظلّ يطوّرها إلى أن أصبحت تشبه القيثارة. والحقيقة أنّه بعد سنوات، استطاع أن يقبضَ على إيقاع بعينه يكرّرهُ، بل تأتّى له أن يغيّرهُ لإيقاع

(1) تعالي وانظري قهوة أمك... ماء وسخ.

آخر، لم يبق له مشكل إلا مع صوته الذي لم يتطوّر كثيرا، ورغم ذلك يريد أن يكون نجم القرابة، لهُ فنّه الفريد الذي هو مزيج من كلّ الفنون، ولا ينتمي إلى فنّ سوى إلى الحسّ.

رغبتْ أن يتركُوه يصدر إيقاعاته المتداخلة وأغنياته الفلسفية الغامضة. كان يؤنس حيرتها ودهشتها، لكنهم يريدون النّوم، وهي والحسّ يريدان البوح بشدّة

«وين غبت يا العقل

كل زقاق بمشكل

هذا البر راه مرهوج

ما فيه كيف ما فيه روج

الناس تسكر وتصلي

وين رحت ياو قلي

قلي.. قلي..قلي»

أغنية تستجدي العقل الغائب، من بين أغانيه التي تمثّل ريبرتوارا صادما وصارخا وغير مألوف. كان يملكُ بعض العبقرية، والكثير من الغرابة والطّرافة. عندما يضعُ عنه «الحسّ» - وقليلا ما يفعل - يكونُ صديق الجميع، وعندما يرفعُها يصبحُ صديق الأطفال الذي يتحلّقون حوله، بل الكثير منهم يتأثّر به ويحترمهُ، عكس الكبار. كان مبهر الأطفال في غياب الملاهي وفضاءات التسلية في كامل المدينة التي لا تبدو جادّة.

(3)

لطالما امتلك جلول حدسا غريبا، ففي كلّ يوم كاتبتْ فيه يحيى أو ابتسمت له سرّا، جاءها محدّقا أو متّهما دون تصريح. أربكها هذا

الأبُ غير الطّبيعيّ، ربّما من كثرة معاشرته للنساء، والتقاطه للأخبار أصبحَ يخبرُ ما لا تخبر، فكّرتْ على هذا النّحو، كي لا تعتقدَ أنّه عراف أو ساحر، أو أنّه يتجسّسُ عليها، لكنّه لم يكن يبعث فيها من الخوف ما يكفي لتقطع علاقتها بيحيى، لا أن تفكّر في نسيانه. انتظرتهُ دائما وسعدت برؤيته. عرفت من أخته، التي كانت تكبرُه وتبدو كأمّ له، أنّه أحبّ ممرّضة قبل سنوات قليلة، وتواصلَ معها عبر الرّسائل، لكنها لم ترُق له بسبب إصرارها على الزّواج والتوقّف عن العمل، بدت له ضعيفة، قالت أخته إنّه ازدراها وشعرَ أنّها تهربُ من أمر ما، بل تأكّد أنّها تريدُ أن تحتمي أو تستتر به.

كانت تتألّمُ وهي تسمعُ منها هذه القصّة، شعرتْ أنّه خدعها، فهي لم تكُن لتحبّ قبله أحدا، وأتعبتها حكاية الممرّضة لأسابيع، كيف يمكنُه أن يحبّها الآن، بحذر أم بتحليل؟ وقرّرت أن تبدو قويّة وأن تتظاهر بأنها لا تبالي به. مرّت عليه في كلّ مرّة وهي تتجاهلُ وجودهُ، بيد أنّ وجهها لم يفلح في تجنّب امتقاعه واحمراره، فكانت تتحوّل إلى حالة غريبة كلّما شمّت رائحته، كلّما التقطت وجهه أو رأته، بل أصبحَ قلبها يعرفُ الشّوارع التي مرّ منها، فتعيشُ حالة الحرج تلك حتى وان كانت في زقاق وحدها، فقط لأنّ حدسا ما أخبرها بمروره.

عرفت أنّ هذا الرّجل الذي تحلم به لن يحكي معها عبر الهاتف في غرفة والدها، وحتّى إذا كانت في غرفتها فهو لن يتّصل. لهذا اتّخذت موقفاً من أغاني الهاتف. فهمت من فيّالة أنّهُ معزول عن الجميع، وأنّه ضحيّة إهمال الأطباء لدى مولده، فقد ولد، مثل السّبع، بوجه ضاحك ومهيب، بوزن دبّ، وبقامة جمل وبروح ملاك، لكنّ حمّى لعينة غدرت بتلك الحديقة، وحوّلته إلى لوحة صامتة، انتزعتْ منه سمعهُ. كانت هذه الحكاية سببا في تعاستها لأيّام، بل إنها تأكّدت أنّه لم يعد يهمّها

في شيء، في النهاية هي لم تفكّر في رجل تُعينه، بل في رجل يحتوي ضعفها ويطلبُ منها قهوته بلطف يمحو فظاظة الأب، برجلٍ يحكي لها الكثير من القصص والتجارب ويبهرُها بلسانه، لا من يحيل سمعها على البطالة.

بدا يحيى غائبا عن الوجود، ساهما. في كلّ مرّة تلتقيه تشعرُ أنه يضْمُر، وأنّه آخر غير الذي أحبّت، وتراجعت وسامته التي شدّتها إليه، وبَهتتْ، لتصبح لحيته وسام تشرّد بعد أن كانت تبدو لها أنيقة، وقامته طولا غير مبرّر، ونظرتُه بلهاء لا سحر فيها، وفي غضون ذلك أصبحت تقارنُه بأيّ فتى يبتسم لها. بعد وقت قصير تأكّدت أنّهُ ليس وهما، وأنّ الجميع أقلّ شأنا منه، وعادت تفتّش عنه فلم تلتقه لشهر، وكان اللّقاء الأخيرُ في ملتقى الرّويني، عند تقاطع الطّرق، لمحتهُ من بعيد وهي خارجة في موجة طالبات وطلبة، خشيت أن يضيع منها فانسحبت عن الوفد الثانوي، مضت في خطّ مواز من جهةِ مقهى الرّويني، حيث بدت أبعد وأوضح، كانت صديقتها فتيحة تمسكُ بها، وتغالي في الالتفات بحثا عن يحيى، ولاحظ هو انسحابها قبل أن تصلَ إلى طرف الشّارع، كان قد قطعه واتخذ مكانا له، عندما وصلت إلى حدود «دشرة الخونية»[1]. كان قد ألقى إليها برسالة، ومضى كطيف. أرادت أن تنظُر إلى عينيه، أن تقرأ ما فيهما، أن تصغي إلى أنفاسه، أن تفسّر حركات أصابعه ويديه، أن تملك بلاغة تبرّر بها لنفسها غزلا واحتفاءً بأنوثتها، ولكنّه لم يمنحها الوقت، ابتسامة سريعة، وحركة من رأسه، ورسالة، فغياب...

رفضت فتيحة أن تنفردَ صديقتها بالرّسالة في بيتها، وأصرّت أن تقرأها معها، لكنّ التالية شعرت في داخلها أنّها لو فعلت فستكون

(1) حيّ العارفة.

خائنةً، وإذا رفضت فستخفي عن رفيقتها عمرها ما لا يخفى عنها. تردّدت وهي تغالبُ شوق الرّسالة، وفي النهاية كانت فتيحة تفتحها وتقرأ بصوت عال

((العزيزة التالية.

تحية وبعد، أرجو أن تجدي فرصة لتقرئي رسالتي هذه وحدك، ولا أريد أن يطّلع غيرنا على ما بيننا، وأن تعرفي بعدها مقاصدي كلّها..))

قفزت التالية على الرّسالة وهمّت تسحبها من يدي صديقتها التي تمسكت بها فتمزّقتْ الرّسالة نصفين غير متّسقين. أظلم وجهها واحمرّ وجه فتيحة، استلمت النّصف الذي لم تحصّله، وانطلقت مسرعة، وكانت صديقتها خلفها لا تلوي على شيء، تحاول فقط أن تجاريها، بينما يلفّها حرج، وكأنّها دمّرت الحكاية كلّها. دخلتا القرابة محبطتين، قالت للتالية: «تصبحين على خير غدا إن شاء الله وأرجو أن تسامحيني». ولم تجبها سوى بابتسامة وهزّة رأس، كأنّ يحيى يلبسها.

في البيت صلّحت التالية الرّسالة، ووجدت أنّها لم تفقد شيئا، لم يضع منها أيّ حرف. واصلت قراءتها وهي تشعر ببعض الأسى على صديقتها **((ولعلّ أهمّ مقصد لي هو أن أكون رجلا يحظى بمكان إلى جانبك، أن ابادلك الرّعاية، ربّما لأسباب كثيرة ليس عندي شرحٌ للطّريقة التي سأكون بها إلى جانبك، ليس معي الكثير من الحيل، ولكنّني أقول لك ما لا يمكنني دفعه، أريد أن نكون معا، أن نتعلّم كيف نكمل بعضنا، كلٌّ بما له من اكتمال حتى يختفي نقصان الآخر.**

العزيزة،

لا أدّعي أنّي الأفضل، وأنا أعرف ما بي من نقص، بل ويعرفه الجميع، لكنّ أملا يحذوني في عالم جميل يمكن أن يكون لو التقت

أحلامنا وتوحّدت، أريد أن تقرئي أبيات الشعر التي أرفقها بالرسالة، وأنتظر ردّك بشغف وشوق كبيرين.

يحيى))

قرأت القصيدة مرّات عديدة ليلتها تلك، وقرأت الرّسالة حتّى حفظتها. أربكها خطّه البارع، ولغته الجميلة، هل هو مثقّف كخالها عبد الحميد وجماعته التي تفرّقت؟

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضابُ
ليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الودّ فالكل هين   وكلّ الذي فوق التراب ترابُ

قرأت الأبيات[1] حتّى حفظتها، ردّدتها لأيّام. أرادت أن تحضّر له جوابا ملائما، لكنّها تراجعت خشية أن تجرحهُ بتواضع لغتها وخطّها، ولو تأخّرت عنه فربّما أساء فهمها. في النهاية لجأت إلى ورقة بيضاء وكتبت بقلم حبر:

((يحيى العزيز،

أنا جدّ مسرورة لأنّك أرسلت إليّ بكلامك الكبير، إنّها اسعد لحظة في حياتي، فقط لأنّ الحبّ هو الحلم الجميل الوحيد الذي ظلّ يرافقني دائما، وقد أصبح هذا الحلم أكبر عندما التقيتك. سوف أعمل من أجلنا معا، وسأحفظ عهدنا إلى الأبد.

الغالي يحيى،

لست أملك شيئا أهديك إيّاه مثل الأبيات التي أرسلتها لي، لهذا فأنا أطلب سماحك، وأعتذر أيضا لأنّ خطّي لا يضاهي براعتك،

(1) الأبيات للمتنبّي.

وأنا أسامحك على أيّ شيء اقترفته قبل أن نلتقي، على أيّ شيء كنت ستقترفه لو لم نلتق.

المخلصة إليك

التالية))

كانت تكتب له رسالتها، وتتخيّل كيف كان يتلقّى رسائل الممرّضة التي أحبّها، وتنتابها مشاعر مزيجة من الغيرة والغضب، وخلال ذلك قاومت رغبتها في تأنيبه على الحبّ الذي مضى، وقرّرت أن تمنحه صكّ غفران. كتبت رسالتها وهي تسمعُ ستيفي وندر يغني أغنية «أنت نور حياتي»[1]، فكّرت أنه يمكنها إرفاق كلمات هذه الأغنية كهدية، وفعلت..

You are the sunshine of my life
That's why I'll always be around
You are the apple of my eye
Forever you'll stay in my heart

في الصّباح كان يوما بلا دراسة. خبأت الرّسالة بين كراريسها، ويحيى بقلبها، وانتظرت السبت لتلتقيه، لكنّها لم تره طوال الأسبوع. كانت تقرأ رسالتها كلّ يوم، وتعيد كتابتها سعيا لتحسين خطّها، وتلوّن أسفلها أو ترسم بعض العلامات، وفي الوقت نفسه يكبر شكّها وخوفها. فتيحة التي تطير فرحا لأنّ صديقتها حافظت على عقلها بعد واقعة الرسالة، تُشجّعُ حبّها، وتبدي انبهارها برسالتها، بل وتستنسخها تحضيرا لحبّها الموعود.

(1) You are the sunshine of my life.

أقفاص العطر

(1)

هذا البنك الذي يمتدُّ ويتّسعُ في كلّ الجهات، يريدُ أن يجدَ لها دورا في عالمه، ولا يتّفقُ له إلا أن تكون ضرّة وربة بيت يرتمي في حضنها كلّ مساء، بعد أن يلهث ويلعق أحذية الخراب ويجمع ما يكفي ليشيد أو يشتري بيتا جديدا. إنه يحاصر المدينة مثل طاعون، هكذا يعتقدُ الجميع حال بايزيد. إنّهُ عالمٌ يرفضُ أن يغادر نموذجهُ أحدٌ. وضعٌ ماركسيٌّ متوارثٌ. الغنيُّ يعاقبُ البقيّة باختلافه. يعتقدُ كلّ شباب الحيّ أنّه خطف التالية، أمّا هي فما زالت تردّد: «هذا ما تركتني عليه»، ولا تجرؤ على النطق باسم يحيى. تخشى الخيانة ولو سرّا. تناورُ حضوره القويّ داخلها بغيابه القاتل.

كانت فتاة حالمة تتنشّقُ عطره الذي يسردهُ، ثم صارت زوجة ثانيةً تعدُّ العطور ولا تضعها. لم تتوقّف عن عشقه، ولا عن التفكير فيه، ولا عن كتمه حدّ الغياب. الذي يدفعها لتفعلَ ليس غدرها لزوجها؛ بل وفاءها ليحيى.

في بداية انتقالها إلى بيت الزّوجية، لم تغادر الجلفة. ابتعدت قليلا عن الحيّ، لكنها كانت تعيش في مدينتها، لم يكن بإمكانها أن تقاوم هذا الزّوج الذي يحرّر بيان خراب رفقة أترابه، أليس هذا ما هو عليه بايزيد؟ لكنها كانت تجدُ عزاءً في التقاء بعض المعارف، زيارات أمّها

وفتيحة والجارات المتحمّسات لفضح أزواجهن وأسرارهن الزّوجية. وخلال أشهر قليلة وجدت زوجها يرسلها إلى العاصمة، بعد أن دبّرت الزّوجة الأولى أمر نفيها.

كان يزورها في بيتها بالعاصمة مرّات متباعدة في الشّهر، ويحصل أن تكون زيارات قليلة متقاربة لأسبوع أو أسبوعين، واكتفى برعايتها عبر الهاتف. تزوّجت مقهورة من رجل لا تعرف عنه إلا ما يعرفه الجميع، هو غنيٍ له علاقات واسعة، أخطبوط حقيقيّ، ولعلّه من بناة المساجد، لا يعرفُ الناس من حياته إلا القليل، رغم أن المرأة التي ربّته كانت أشهر من أن تُكتم تفاصيلها. كان بايزيد حفيد أحد الأئمة، وفي حالة غريبة لا تتكرّر، نزحَ من أسرة العلم والتقوى إلى اليتم بين يدي عاهرة معروفة، ربته إلى غاية العشرين ثمّ تحرّرَ منها. في البداية عمل مساعدا للكرموس الخضّار بالسّوق المغطاة وسط المدينة، وسرعان ما استقلّ بتجارته الخاصة، ولم يتوقّف بعدها عن التوسّع. يعرف الجميع أنّه لاعب كرة بارع، كانت هذه الموهبةُ تمنحهُ عفوا جماعيا، يكفي أنّه يمتّع الأبصار في الملاعب، وبدا هو وكأنّه يهربُ في كلّ مرّة تصله الكرة. بدا وكأنّه يفلت من عقدته المحبوبة ربيحة، لا يكاد أحد يذكرها الآن، اعتزلت الرّجال عندما بدأ الطّفل بايزيد يعي العالم. بعدها بدأ ضنك العيش وضيق الحال، وواصلت هي في حفظ نفسها، لا توبة نصوحا؛ بل رغبة في توفير بعض الكرامة لطفلها الذي التقطته من التيه. كان الطّفل الوحيد لثامر بن عيشة، وأحد الأحفاد الكثر لواحد من فقهاء المنطقة. مات جدّه قبل الثورة، وولد هو أواخر الثّورة. ولم ينظر أحد إليه كبُشرى خير، فأمّه لا تعدو أن تكون أم الخير، شقيقة ربيحة التي انتشر خبرها. كان الشّيخ بن عيشة يعطف على الجميع، ولم يرض يوما أن تحتقر أم الخير، وحتى بعد رحيله ظلّ

الجميع يعيّرها بعقمها ويسعون لدفع ثامر للزّواج من أخرى، أمّا هو فقد لزم وفاءه، وانتظر معها الفرج الذي جاء بعد سنوات. ارتدى خبر حبلها الأسئلة والظّنون، ولدى ولادتها لم تحصل على الاحتفاء اللازم، بل اعتبر أغلب من رأى الطّفل أنّ شكلهُ ولون بشرته غريبان، وتردّدت عبارة: «إنه لا يشبه ثامر ولا أحد من العائلة». كانت أم الخير تعرف أنّ الجميع يشكّك - بخبث - في نسب طفلها، إلا أن وليدها أضاء رغبتها في الغد. وسّع بايزيد من حضور ثامر داخلها، ورغم أن زوجها أقلّ شأنا من إخوته الذين توزّعوا في حالات مختلفة بين التجارة والفقه والإدارة، إلا أنّه كان أهمهم في عينها وهو يعود متعبا من بناء الجدران وتهيئة المباني المتواضعة، في القرابة وخارجها.

لم تكن التالية تعرف من تاريخ بايزيد ما يقرّبها إليه. ظلّت تحاكمه كظلّ أسود غطّى الشّمس على الجلفة وحيّ القرابة وعلى الحكايات الجميلة. لم يقترب منها إلا بعد أن هدأت وقبلت أن تسلّمه نفسها. كان ودودا في هذا، فلم يجبرها على شيء. هي كانت حضّرت نفسها للاغتصاب، ولعلّه صدمها عندما تلقّفها بكثير من الفهم، احتفى بها وبشبابها. عندما اقتربت منه أكثر زاد طيبة، وكلّما ابتسمت في وجهه اشتعل أكثر، وتحوّل إلى ملاك. كانت فريسة الحيرة: «هل يكون الأخطبوط القاسي دلفينا؟»

عندما شرّع لها باب تاريخه السرّي كانت مفجوعة، إذ اعتقدت على الدّوام أنه لا أقذر من تفاصيل والدها الذي فرّخ نزقه في كلّ جهات المدينة. رغبت أن تمسح عنه غبار السّنوات، تملّكها إحساس بأنه رجل نبيل لم يجد وسطا يحقّق له ذلك. وتدريجيا تحوّلت من نافر إلى مرافق له. أصبحت تخرج معه في جولات كلّما زارها، تقدّم له واجبها كزوجة، ولكن يحيى ما زال يعمّر جهة في قلبها، وكلّما غاب

بايزيد اتّسع يحيى، كلّما حضر تقلّص وتوارى.

ماتت أم الخير، بينما رضيعها يجلسُ لأوّل مرّة وحده، وتعهّده والدهُ بكثير من الحبّ، فتزوّج سريعا ليجد من ترعاهُ، غير أنّ التي جاءت لرعاية الطّفل أسرعت في غزو الكوخ بأطفال يشبهونها أو يشبهونه، وهكذا ظلّت العائلة تتأمّل النّسل الطّيب، وتتهامسُ حول النّسل الخبيث. وجد بايزيد نفسه منسيّا ومنبوذا، لم يكن أرحم عليه من ربيحة. عندما تدهورت صحّة الأب بدأت الزّوجة الولود في الاهتمام بنفسها أكثر. أصبحَ الرّجل قعيدا اثر سقوطه من مبنى كان يعمل به، ولم يعد يسعه الحصول على قوت العيال، أمّا المرأة فقد جهّزت نفسها لرحيل محتملٍ، وهو ما كان. بدا أنّ الأبَ لا يرغب في البقاء أكثر، اتّجه دون أن ينتبه له أحد نحو الموت، صمت وانكفأ وأسلم الرّوح. اعتدّت أو حاولت الزوجة ذلك، وسريعا خرجت من أجل قوت عيالها. كانت في الثالثة والعشرين بأربعة أطفال وجسد متفجّر، ولم تكن بحاجة إلى وقت لتتزوّج أولا، ولا وقت أطول لتتطلّق من الرّجل، ثمّ كرّرت ذلك غير مرّة وأنجبت من رجلين قبل أن تستقرّ زوجة ثانية في بيت شيخ. دخلته لترث فعمّر العجوز والتهم شبابها.

منحت ربيحة لبايزيد كلّ ما فقدهُ، نام بحضن دافئ وحظي بالاعتناء، ثمّ أدخل المدرسة وتدرّج فيها إلى أن سئمها، كان ذكيا ولمّاحا، ولم يرغب في اتّباع مسار الجميع، أراد أن يتفوّق في أمر لا يحتاج الصّبر. ومن سوق الخضار إلى إمبراطورية العقّار والتجارة لم يكن الوقت قصيرا. عاش بكثير من الألم؛ لأنّ خالتهُ رفضت أن تترك بيتها وتتخلّص من بقايا تاريخها السّيّء. أصبح من المؤلم والقاتل لمقامه أن ينزل إلى بيتها، ثمّ حصلت قطيعة بينهما، إذ رفضت أن تزور ابنها ما دام محرجا من زيارتها، وعظم عليه أن يفعل بعد تجربة قاسية.

فآخر مرّة زارها فيها في قلب اللّيل لم يتعرّف عليه أحد الشّباب، صاح به: «ربيحة ما عادتش تخدم، طابت روح شوف في دار البارود». وجد نفسه بين يدي الشّرطة بسبب الشجار العنيف الذي انخرط فيه مع شباب الحيّ، وعندما أتمّت الشرطة إجراءاتها عاد إلى خالته مصرّا على إجبارها أن تترك البيت. طرق حتى أرهق قبل أن تسمعه، لقد أصبحت هرمة وثقل سمعها. عندما دخل انتعشت روحه بعطورها، كان بيتها يفوح بعطر شهيّ يتسرّب إلى الرّوح، لم يعرف هو نوعه ولا مصدره. تسمّر يتأمّلها وهي تكابر وتريد أن تظهر صلابة لا تملكها. بكت بحرقة، ولم يجد سبيلا ليخرجها من بيتها. عاد متعبا، وقرّر أنها لن تستسلم، وأنه لن يزورها. بعد أيام قليلة كان خبر وفاتها يأتيه من الشّارع بالصّدفة، ومشى في جنازتها كأيّ غريب. بكى سرّا ولم يتلقّ أحد التعازي في ربيحة. بعض العمّال لديه أطعموا كلامهم عبارات غامضة ملتبسة، طالما خشوا أن يردّ عليهم تعزية صريحة.

رغم أن رحيلها كان أقسى عليه من رحيل أمّه أم الخير التي لا يذكرها، إلا أنّه أراحه كثيرا، لقد تحرّر من عقدة الذنب التي رافقته لسنوات، ولم تبق من عقده إلا عقدة الشبه الكبير بينه وبين جدّه بايزيد، ووالده ثامر بن عيشة، وكان يفضّل ألا يملك من سحنة آل بن عيشة شيئا، وأن تَعْلَقَ به شُبهة النسل الخبيث تلك، مادام من آمن بها مات أو لم يعد يذكرها، لكنه تحوّل إلى صورة أرستقراطية عن والده البنّاء المعدم، داخله اعتقد أنه تصحيح لوضع ما فقط.

(2)

في بيتها الضيق على قلبها والواسع بأثاثه ووحدته كانت التالية مرهقة، ما من سبب للحياة خارج أسواره، كانت كالضّائع في العاصمة.

أقامت بحيّ بئر خادم كضيفة لسنوات. اكتفت بعلاقات عابرة مع الجيران، وفي حدود مغلفة بالخشية. ظلّت تطلّ من النّافذة أو تجلسُ في الشّرفة منتظرة الفراغ. كان يحيى يأتي بين الفينة والأخرى فراغها فتبتهج. يلتزمُ الصّمت كعادته، فيطوّعه المكان سريعا. اعتقدت أنّه لو نطق بكلمة واحدة لامتلك المكان وأنقذها من تيهها. العمّ عيسى الجرديني[1] الذي كان يهتم بحاجياتها اعتاد التواجد في الحديقة الصّغيرة للبيت، كلّما طلبته طلَع كَنبتةٍ مسقيّة للتوّ، مبتهجا. أغرتها هذه البهجة غير المبرّرة التي تراقصُ شواربه البيضاء، فقرّرت أن تزور عالمه.

اكتشفت الحديقة الصّغيرة التي يربّيها عيسى بكثير من الحبّ. جاء عيسى الجرديني من حديقة تابعة لمقرّ حرّاس الغابات، بوسط مدينة الجلفة في السبعينيات. أحيل على التقاعد، وتحوّل إلى مزرعة بايزيد، بمنطقة زكّار، أسفل الآثار الرّومانية ونقوش ما قبل التاريخ. ومنذ اقتنى الرّجل بيته بالعاصمة كفل له البقاء فيه والاعتناء بحديقته. لم يكن متزوّجا ولا حاجة له في النّساء، ولم يعرف عنه ما يثير الشّبهة. التحق بالمجاهدين في أواخر الثّورة، ولم ينعم بوضع المجاهد؛ لأنّه لم يحتف بهذا. كان ابنا بارا لحيّ القرابة، يعيشُ في بيت والده الذي غادره أشقاؤه، في حكايات الأزقّة يتحدّثون عن إخصائه من قبل الفرنسيين بعد أن سقط جريحا في معركة، وقد نجا من المؤبّد بخروج فرنسا من الجزائر. لا يبدو عليه ضعف، فعضلاته وقامته ويداه وساعداه ملأى بالقوّة، رغم أنّه يتخطّى السّبعين.

تسرّبت الحديقة إلى داخلها، أورقت برُوحها وتسلّقتها النباتات تماما. هكذا اكتشفت أنها عثرت على ما يشغلها قليلا. في البداية كانت

---

(1) عيسى الجرديني «الجنائني» LE JARDINIER

ترافق عيسى وهو يمسح على الأوراق، ويسقي النباتات، ويرعاها كأنّها أطفاله، ثمّ أصبحت تسأله عن الأنواع والأسماء والأصول، وهو يجيب بما أدركه من تجربة لا بعلم. احتلّها هوسٌ بالخزامى، كانت شجيرتا الخزامى أوّل ما يرتقي بالحديقة على الشّمال واليمين، البنفسجيّ لونها الأثير، ظلّت طوال حياتها مشدودة إليه، حتى رسوماتها لوّنتها في طفولتها بالنفسجيّ. لزمن طويل عاشت الجلفة وحيّ القرابة في الأبيض والأسود، هل كان العالم يعرف الألوان ويترك تلك الجهة بلا لون؟ لم يرتد الجزائريون الألوان كثيرا في الستينيات والسبعينيات، اكتفوا بالرّمادي والأبيض والأسود، حضر الأخضر والأزرق قليلا، لكن تدرّجات وأمزجةَ الألوان كانت محبوسة كأنواع العطور، لا أحد ارتدى البرتقاليّ أو الأصفر في العصور الأولى للمدينة.

التقطت غير مرّة أزهارَ الخزامى واحتفظت بها، أسعدتها رائحتها وشكلها، وشعرت أنّها مثلها نوع غريب عن هذه الأرض، لم يخطر لها أن تفعل شيئا بهذه النبتة النبيلة سوى عقدِ اتفاق محبّة، تطوّرت العلاقة إلى أن وصلت إلى توليد النبتة وصناعة العطر، بعد أشهر قليلة تحوّلت إلى صانعة عطور خزامى، وبعد أن وجدت حاجتها في الأمر شعرت بلذّة الاكتشاف، ورغم أنّها عرفت لاحقا أنّ الأمر مسبوق منذ القدم، إلا أنّها واصلت منجزها، وتحوّلت إلى إكليل الجبل، لتصوغَ منه عطرا آخر، وفي غياب بايزيد ويحيى والقرابة كانت أسيرة العطور وآسرتها.

ظلّ بايزيد سعيدا باهتماماتها. اجتهد ليحضّر لها عددا كبيرا من المستحضرات العطرية والكحول، وقارورات العطر بأحجام مختلفة، وهكذا حوّلت يومياتها إلى مخبر عطر، وكأنّ العطر له لغة، كأنّه يحكي لها ويُقزّم غربتها. لم تستمرّ في تعطير وجودها كثيرا، وجدت نفسها مرهقة، وعاجزة عن المواصلة، واستسلمت للنوم والكسل والغثيان،

واكتشفت أنها حبلى.

الحمل من بايزيد كان أكبر وقعا من الزّواج منه. لقد دخلت مجدّدا في دوامة أسئلة. كانت تنظر إلى بطنها وكأنّه كائن مفصول عنها: «هل يقبل هذا الجنين أن يكون جزءا من بايزيد؟». ثمّ تتوقّف وتسألُ نفسها: «أيقبل أن يكون جزءا مني؟». ارتبك وجودها المضطرب مرّة أخرى، أرادت أن تصلح شيئا بالعطر فلم تفلح، وبدأت حدّة العطور تهدأ في المنزل، إلى أن عادت رائحة اتّحاد الجدران والندى تغلّف المكان. تخرجُ إلى عيسى وتجلس إليه وتصغي إلى أحاديثه عن الجلفة، لكنها لم تسمع شيئا عنه، ولا عن والدها أو بايزيد.

تَحرّجَ عيسى من طلبها أن تسمع أخبار بايزيد ووالدها جلول، كان مستعدا أن يحكي بعض تفاصيل بايزيد وليس علاقته بوالدها، يعرف أن جزءا بسيطا من واقعتهما وصفقة زواجها سيجعلها ناقمة وقد يقتلها، لهذا فقد تكتّم واكتفى بسطحيات عن تجارة وأعمال بايزيد ومساعدته الفقراء وحبه الخير. لم يتحدّث عن زوجته السّابقة، ولا عن ضرّتها أمّ الأبناء بالجلفة، والتي نفتها إلى بئر خادم، ولا عن رحمة التي ما تزال عشقهُ الأوّل والأخير. رحمة هي نسخة معدّلة عن ربيحة التي ربّته، وهي سرّه الذي يفعل المستحيل ليحميه، وتعرف زوجته الأخرى أنها خطّ أحمر لا يمكن التحرّك بصدده.

حصل عيسى على مؤنسه، ولكنه ليس رجلا حكاءً، كان كتوما وكثير الصّمت، يبتسم حتى وهو وحده في الحديقة. يناسب يحيى في رفقة عمل أو رحلة، لم تره التالية يوما بلا حذائه الطويل ولباسه الأزرق ومقصّه الحادّ الذي يصطك حتى وهو بعيد عن النباتات، يؤدّي مهمّته بكثير من الحبّ وكأنّ بايزيد صاحب أفضال بقائه. ظلّت تراقبه من النافذة وهو يتحرّك ببطء، يقفُ أمام نبتة ويتأمّلها وربّما

يكلّمها، ينظر ما يلزمُها برفق، ويقومُ بالواجب بمقصّه أو بيده، ويمرّ إلى النبتة التالية، حتى عشب الأرض ينزلُ إليه برفق ويعدّل قامته ويزيّنه.

نزلت إليه تحمل كُوبيْ جور[1]، اقتربت منه وهو منهمك في حديقته، ألقت التحية فانتفض مرحبا، وسلّمته كوبا فالتقطه بكثير من الفرح. جلست على عتبة الباب بينما بقي واقفا يتأمّل الحديقة يمنة ويسرة ويسأل عن حالها. جلس واعتدل على العشب وسط الحديقة، وراح يرتشفُ الجور، ويحكي من تلقاء نفسه عن رحمة. هي تصغي إلى حكايته، وتعتقد أنّ فصيلة دمه هي ذاتها فصيلة يحيى.

(3)

رحمة أجمل امرأة ممكنة في خيال بايزيد، التالية أجمل امرأة حقيقية في واقعه. لم تكن رحمة سيدة عبور، كان يحملها معه أينما حلّ. كانت بوصلة وأيقونة وأشياء كثيرة جميلة. التقطها فاكهة أوّل النّضج، يقال: إنّ أحدهم عضّ أولا، لكنه احتفى بها. كانت فاكهة القرابة الأجمل، لم يعد لها تاريخ. في حيّ كالقرابة لا يمكنك أن تكون بتاريخ مشترك مع البقية، إلا إذا كنت شبيها، أمّا في حال اختلفت فأنت عرضة للنفي من تاريخ الجماعة. مفهوم قاس اتّفق عليه الجميع دون أن يدوّنوه أو يتحدّثوا فيه. هذا تماما ما حصل لرحمة. نُفيت أوّلا، ثمّ أصبحت شبهة في العلن، وحلما في السرّ. كانت جميلة وغضة وفرحة العينين، كأغنية تمرّ على الشّوارع فتلوّنها، بهجة المقيمين والمهاجرين معا. وفجأة، أصبحت العار الذي لا يتبناه أحد، والفضيحة التي لا تعرّي غيرها.

---

(1) الجور: منقوع أعشاب يحضّر بالجلفة وضواحيها.

الحبّ هو الذي علّقها من رجليها على شجر الفضيحة العاري اليابس. الحبّ هو الذي ألقى بها إلى الهاوية. كانت قد تعلّقت بجنديّ مرّ بالحيّ ضيفا، وغرقت في أحلامها. مضت معه إلى نهايتها وإلى غيابه. تركها حاملا بجنينه واختفى، ولم يكن بوسعها أن تداري فضيحتها. أخرجها شقيقها من البيت وطردَها أمام الجميع. كانت في السّادسة عشرة من عمرها، بالكاد تفتّحت وتورّدت، ولم يكن بوسع أحد أن يفعل شيئا، لا يفعل النّاس شيئا على الإطلاق في أوضاع مشابهة. عبد الحميد أخذها من يدها وزار في نهاية النهار بيت حليمة القابلة، طلب منها أن تعتني بها، فعلت على مضض، شريطة ألا يعرف أحد بأمرها، حتى أقاربها، إلى أن تضع مولودها. أقامت رحمة عند حليمة ثلاثةَ أشهر قبل أن تصاب بحمّى شديدة، وتُنقل إلى المستشفى، حيث أُجهضت وبقيت بجسد واهن. وقتئذ، كانت زوجةُ بايزيد تضعُ طفلا من أطفاله. رأى وجعها وقرأهُ وفهمهُ وأوجعهُ، ولم يكن لزوجته - وهي تحكي تفاصيل الطّفلة المغدورة - أن تضيف شيئا، فقد تسرّب إلى عمقها. قرّر أن يأخذ بيدها، كان هو في بداية رحلة المجد، وكانت هي في نهاية مرحلة. مدّ يده فاستجابت سريعا، ومنحها الحقّ في الفرح دون مقابل. كانت تنعمُ بالراحة والأكل والمأوى، وظلّت مصونةً في حِماه، لا يطمع فيها أو يكتم رغبته. كان عيسى هو موفده إليها، يرسله في كلّ مرّة ليتفقّد مطالبها، بينما اكتفى هو بزيارتها مرات متباعدة.

في ذلك اليوم الخريفيّ، كان بايزيد قادما من سفر. جاء متعبا إلى رحمة، دخل شقّتها ليتفقّدها بعد غياب، وجدها نضِرة، جميلة، فرحة، وقد استعادت الكثير ممّا ضيعته. حضّرت له شوربة فريك، فلم يرفض، بل التهمها بكثير من الفرح. حكى معها ومازحها وتبادلا

الضّحك، وخرجت لتجلب له القهوة، ولدى عودتها كان خشبة ممدّدة على السّرير. نادته: «سيدي...سيدي بايزيد...سيدي!» لا جواب. اقتربت منه ونزعت حذاءه، غطّته بلحاف خفيف، وانصرفت إلى غرفتها الدّاخلية. كان البيت لسيدها ومولاها بايزيد، ولم تكن هي إلا أمَة في دولته، لكنه لم يشعرها بأيّ من هذا. لقد ظلّ ضيفا على الدّوام، وقليلا ما كان يجلس أثناء زياراته الخاطفة.

سهرت رحمة تسمعُ الرّاديو، وتفكّر في اللاوضوح. تشتاقُ الحيّ العتيق وأجواءه، وتتمنّى أن تعود لتعانق الجميع، ثمّ تعود فتحقد عليهم كلّهم. كان اللّيل طويلا ، وكانت هي مستعدّة لمجاراته مهما طال. تحمل همّا يُحتضر في حضور بايزيد، ويتعافى في غيابه. لم يتحرّك الرّجل، وبقي على وضعه يتوسّد يده اليسرى، فاغرا فمه كأنّه ميت، وكانت هي تصغي إلى أنفاسه في كلّ مرّة، تودّ لو أمكنها أن تقترب منه، أو أن تغوص في عمقه.

خطفها النّوم من فجرها إلى عمقه، وعندما أفاق بايزيد كانت هي تغطُّ في نومة صباحيّة لذيذة. نادى عليها غير مرّة فلم تردّ، تفقّد المطبخ وهو يكرّر المناداة دون جدوى. اتّجه إلى غرفتها فوجدها مستلقية بلا غطاء في دعة ملاك. اقترب منها دون أن ينتبه، تأمّل وجهها وتفاصيله، كانت جميلة وصغيرة، طفلة لا يمكن أن يُرغب فيها. ثدياها يتدافعان في حياء جمّ نحو الأعلى، وقد أطبقت عليهما بضمّها يديها معا أسفل خدّها. ساقاها المرمريتان يستحقّان أفضل من زوج. وتدويرة وسطها مذهلة. عرف أنّه عليه الذّهاب قبل أن يكتشف أكثر قيمة الجسديّ في رحمة، همّ بالخروج، لكنّ نفسه حدّثته بقبلة على جبين الطّفلة. ارتدّ من باب الغرفة بخطى مسرعة ليطبع قبلته الرّاعية. وبينما هو ينحني كانت قد فتحت عينيها حتى منتصفهما،

واستسلمت لقبلته قبل أن تلقي بذراعيها تطوّق عنقه وتسحبه لعناق طويل. لم ينته العناق قبل المساء، وتحوّل من مجرّد تعبير عن الأمان الذي تشعر به إلى طقس عشق عنيف. مارس الجنس مع طفلته التي أسى لحالها، وكانت هي شغوفة بالعبث على سريره أو سريرها، فكلّ منهما كان يظنُّ نفسه على سرير الآخر.

طلبت منه أن يساعدها لتنعتق من هذا الوضع. قالت له إنّها تشعر بكثير من السّأم في قفصها ذاك. أرادت أن تخرج لتشمّ الهواء خارج هذه الشقّة في الحيّ المسمّى «البابور». كانت تحدّثه كفيلسوفة صغيرة عن شعورها بأنّها عطر جميل لا يستخدمُه أحد، بينما يبتسم هو ويتشظّى بين شعوري الذنب والمتعة.

وُجوه

(1)

تُسافر عبر اتجاهات كثيرة، إلى يحيى، إلى الجلفة، إلى بايزيد، إلى العطر وإلى ابنها شوقي، ولكنها ترتدُّ في كلّ مرّة إلى التالية التي كانت. تؤوبُ إليها كما غادرتها، محمّلة بالسّؤال والرّغبة، وتُرافقها الحيرة كتوأم، أو كلباسٍ يستر سرّها. تعتقدُ أنّ الذين حولها هم في الغالب وجوهُ حبّ محتمَلة، وتجهلُ لمَ هي تعيسة كلّ هذه التعاسة. تحدّثها نفسُها أنها لو التقت يحيى فستكون بخير فيما يلي اللّقاء، فقط لو اطمأنّت أنّه موجود على هذه الأرض. وتعرفُ أنّ هذا لا يداوي همّها العظيم، فلا تعود تصغي لنفسها.

ليس للحياة طعم، والمرض فرصة لتأمّلها، فرصة ليقرأ البقيةُ معانيها في عيون المتأهبين للرّحيل الكبير. مرض بايزيد، وأدركت هي أنّ زوجها مستعجلٌ الرّحيل كوالده، مخلّفا ابنا وحيدا من امرأة وأبناء أربعة من أخرى، كوالده. لقد تذبذبت حياتها، وهي لا تعرف إن كان عليها أن تغادر لترعاه في بيت ضرّتها، أم إنّ واجبها هو أن ترعى ابنها بالعاصمة. لم يحصل اقتراب كبير بين بايزيد وشوقي. كان ينظر إليه كجدّ أكثر من كونه والده. لدى بايزيد نظرة غريبة نحو الجميع، لقد تسرّب إليه شعور بالعظمة وبالقدرة، ولكن أيضا بالرحمة. أراد أن يكون الأقدر حيث يوجد، وسعى ليساعدَ الآخرين. ولأنّ شوقي لم يكن

طفلا كثير الحركة أو شهيّ التّعامل، فإنّ أباه لم يكن يملك لا الوقت ولا الدّافع للاعتناء به، وانشغل هو باللّعب والتلفزيون في حضرة والده. وعندما مرض، أراد أن يكفّ الجميع عن الحديث عن مرضه، أراد أن ينتهي الأمر سريعا. وحصل الأمر، وبلغه أنّ والده قد مات. لم تتمكّن التالية من رؤية الرّجل وهو على فراش الموت. ليس وهو مريض، كان ذلك قاسيا عليها، كأنّها زوجة في السرّ، رغم أنّ الجميع يعرفُ بالأمر. وحتى خلال الجنازة كان حضورها عابرا، وكانت الزّوجة الأولى مشغولة بجموع المعزين، ولم يمنعها ذلك من إرسال نظرات متتالية نحوها تخبرها أنها في المكان الخطأ. تكثّف الحزنُ حولها، ولم تجد طريقة لتقول للذين تجاوزوا واجب تعزيتها: «أنا أيضا ترمّلت». كان الوضع قاسيا، أقسى من أنها فقدت زوجها الذي احترمها وقدّرها، رغم أنه اقتناها مجبرة.

انتهت الجنازة، واتجهت هي إلى بيت جلول المرعوب، الذي كان يستسلم للزهايمر، بعد عقود من الصّلابة والتحدّي للعدم. كان استسلاما عنيفا حوّله إلى رجل يلاحقُ الجميع بأزواج الأحذية التي يجمعها، ويحدّثُ التلفزيون، ويبكي في حضن ابنته مُنى التي يعتقدها أمّه غالبا. لم يسعها العودة إلى العاصمة؛ فالبيتُ تحوّل إلى بيت الورثة كلّهم، ولا يمكنها التصرّف في أيّ من العقارات، لا هي ولا الزوجة الأولى. القانون يمنعُ ذلك؛ لأنّ الرّاحل ترك أطفالا قصرًا، أصغرهم شوقي.

في بيت العزاء، اكتشفت ـ من خلال صورة بايزيد في صدر غرفة الصّالون ـ أنّه كان وجه حبّ، ولم يكن حوتا يبتلع الآخرين، كما صوّره الناس. رأت في تقاسيم وجهه المتألّم والمكابر تفاصيل كثيرة، لم تتمكّن من الاقتراب منها، وتساءلت: «ماذا كان سيحصل معي لو أنّي أفلتت

منه؟». وكانت تجيب نفسها: «لكنت فقدت وجها آخر من وجوه الحب».

أشاحت بوجهها نحو شوقي، وهو يرافقها إلى بيت جلول المرعوب. لم يكن يشبه والده إلا في النظرات. تذكّرت أنها كلّما ردّدت ذلك أمام بايزيد ضحك وعلّق: «هذا دليل أنه سيكون شبيهي عندما يكبر، وهو أيضا دليل مريح أنّه ابني». لم يكن يشبه والده، لكنه في الدّاخل صلب قليلا، ربّما هو يتشكّل ببطء؛ ليصير صورة أخرى عنه. توقّفت عند مدخل القرابة، أمام محلّ عليّة، وضمّته بكثير من الحبّ. كان اللّيل يغلّفها وضمّتَها الطّويلةَ وابنَها، وكان شوقي يطلقُ دموعه التي حبسها طوال الجنازة، يبكي والده الذي لم يرتبط به أكثر من شهر طوال سنواته الثماني التي عاشها.

في بيت والدها راحت تتأمّل أمّها التي صبرت على أبيها طوال عمر من النّزق، كانت تُظهر الكثير من القوّة، وتداري الضّعف والخوف اللّذين عمّرا بداخلها، وها هي الآن تراعي زوجها كأنّه معافى. كان جلول معروفاً بزيجاته الكثيرة، لكنه يعود إليها في كلّ مرّة؛ ليصرخ في وجهها، كأنه يحمّلها فشله المكرّر. يصرخُ الآن باسمها فتهبّ مسرعة «أنعم... هاني جاية». كأنّه لم يفقد ثلاثة أرباع عقله. «كم كانت وجه حبّ هذه المرأة»، تقول داخلها، وتودّ لو أنّها تقفُ لتعانقها، لولا أنّ أمّها مشغولة على الدّوام، ما تزال تتنطّط في السّبعين، وتقوم بواجباتها، دون انتظار إسعاف من أحد.

(2)

لم تعرف أنها ستواجه أكبر من غربتها في العاصمة لسنوات، اعتقدت أنها كانت سجينة تلك المدينة، وهاهي الآن تجدُ نفسها سجينة العدّة. الأشهر التي أمضتها في بيت أبيها علّمتها أنّها لم تكن

كسيرة ونازفة وبلا معنى، بل كانت تفتقد نفسها فقط. أمّا وهي أرملة فقد اكتشفت الحاجة إلى سند. لقد ظلّت مطمئنّة أنّ هناك من هي مسئولة منه، أما الآن فهي مسئولة عن ابنها.

خلال فترة عدّتها، قامت التالية بمراجعة كلّ الوجوه التي عبرت والتقتها، وكأنّها تفتّش عن قيمة مفقودة، عن بلاغة ملامح الآخرين، بعد أن جفّت ملامحها عن قول شيء واضح. وكانت لا تفكّرُ في وجه إلا وتشكّل أمامها وجه يحيى، ثمّ انطفأ. كان وجه الحبّ الأكبر، أرادت أن تهدأ وتُمنهج فكرتها عن هذا الصّامت أبدا، أن تبدأ من نقطة لتصل حيث هي، فلم تفلح. كان وجهه يحضر ويكتمل أمامها قليلا، ثمّ يبدّده بايزيد بابتسامة أو عبوس، أو بوجهه وهو ميت هادئ، كمحارب أفنى عمره في ساحات الوغى. أيّهما وجه حبّ أكثر؟ يحطّ عليها سؤال أكبر: «ترى من أحببت.. يحيى، أم بايزيد، أم خلاصتهما معا؟»

لم تغفر ليحيى تراجعه، كانا قد وصلا حيث يجب أن يلتقطها. هو سلك الطّريق المعهود، ووقف كعمود كهربائيّ حزين في أزقّة القرابة، فلم يكن في وسع جلول - الأب الذي لا ينظر بقلبه أبدا - أن يفهم خطاب عينيه، هكذا وجد نفسه يدخل ويخرج بيتهم دون أن يحصّل شيئا. ربّت المرعوب على كتفيه وهو يحرّك شفاهه، ما الذي يكون قد فهمهُ يحيى؟ غادر حزينا، وبدأت غياباته عن الحيّ تطول في كلّ مرّة. التالية كانت تقبض على وهم، هذه هي النتيجة التي وصلت إليها. كان الخاطب قد احتُفِي به، والموعد حُدّد، ولا صوت ليحيى.. لا وجه للحبّ.

وجه فتيحة، وهي تبكي بحرقة معها، كان الصّورة العالقة بموسم الخيبة. كانت الصّديقة شاهدة على الحبّ تماما، كما كانت شقيقتها منى التي بدت سعيدة أن تراها تزفّ لغير حبيبها الأخرس. تدافعت الوجوه كأنّها في منافسة على مخيالها، وجوه من الماضي السّحيق،

تلاميذُ وأطفال الحيّ... الجميع تداولوا الحضور والغياب. كانت تُراجع ذاكرتها البصريّة للوجوه. بعض الوجوه لم تكن قد التقتها إلا مرّات قليلة، كالباعة والأطباء والممرّضين. طبيبها الذي اعتقدته ملاكا أقام كثيرا في ذهنها. كان طيبا ومغامرا وجريئا، كيف أمكنهُ أن يفتح قلبها ويغلقه ويواصل عمله دون أن يصاب بلوثته؟ رأت وجوه إخوتها الكثيرين من زوجات وطليقات والدها. رأتهم يتدافعون، بملامحهم المختلفة، كأنّهم قبائل وشعوب. لم تجد فيهم من هو قريب إليها، لا وجه يدين بالحبّ. رأت وجوه الأطفال الذين نشأت معهم، كفتيحة بنت عمي مبارك بائع الجلود، وفوزية بنت سالم الميكانيكي، بدوا عارفين بلغة الحبّ في طفولتهم، لكنهم سرعان ما تحوّلوا إلى خاضعين، مستسلمين، كاتمين أسرارهم. رأت وجوه الذين يكبرونها بقليل أمثال يحيى ومينا يصلح بعضهم ليكون وجه حبّ، لكنهم انشغلوا باليوميّ وأجّلوا أمر الحبّ. يحيى بلى، لم يسعفه خوفه وتردّده، لم ينقذ عشقهُ الأكبر، هكذا اعتقدت التالية. اصطفت أوجه أخرى، وجه إدريس الذي تحوّل إلى معتوه المدينة مؤقّتا، كان عاشقا عظيما في صباه، كان من الممكن أن يكون المحبّ وسيّد الحبّ، وجه فاتح الباقي وزليخة، وجه فوزية ومسعود بلخضر، وجه ضياء وخالها عبد الحميد، وجهُ العارفة، كانت تغبط وجه العارفة المليء بالحبّ، وتنسى أنّ لها نصفًا محتملاً، فلا يتشكّل وجه الدّيلي في غمرة الاحتفاء بوجه الخونية. رأت وجوه العجائز والشّيوخ وكلّ الوجوه الممكنة.

السّابعة صباحا. الحركة في فناء المنزل بلا ترتيب. كان والدها يبعثرُ الحياةَ كما اعتاد، هو مقيمٌ في عمق خرفه، يتنقّل ببطءٍ شديد، وكثيرا ما جلس على الأرض أو تمدّد، وربّما أخذته عينه ونام. شعور ما دفعها لتخرج، فتجد أمّها تنظّف الفناء، بينما يتبعها والدها، رأت

فيهما طفلين شاردين، كم كبرا في غيبتها تلك، وكم يضعفُ الجبّار حين يشيخ. وقفت تتأمّلهما، وشعرت - للحظة - أنهما معزولان هنا دون اهتمام. شقيقتها مشغولة بدراستها الجامعية التي بدأت قبل سنوات ولم تنته، ولا علامات على محطّة الوصول في رحلة الدّراسة المكرّرة، وشقيقها بغيابه وضبابيته. أرادت أن تحملهما طفلين وتعتني بهما، لكنها أفلتت من فكرتها، واتجهت إلى والدها الذي كان يدفعُ نعله بعصاه في مشهد عبثيّ قاتم: «أنت من بعثرني، أنت من هدّني، أنت من اقتلعني من أرضي وزرعني في الخراب... كان بإمكاني أن أكون أجمل، أبهى، أهمّ، كان بإمكاني أن أعيش كما أريد، لكنك أمضيت كلّ حياتك تخرّب مسارات الآخرين، بعد أن خرّبت مساراتك الممكنة، ثمّ ها أنت تتظاهر باللامبالاة، تريد أن تختار نهايتك عكسنا جميعا، عكس بايزيد ويحيى، وعكسي أنا، وعكس هذه المرأة الخاضعة التي تدعى قسرا زوجتك، تريد أن تكون نهايتك بهذا البهاء، بهذه البراءة المفرطة، لا يحقّ لك، عليك أن تعود إلى وجهك الأول، وانزع هذا القناع، عد إلى رهبتك وجبروتك، عد ... عد...عد...». كانت التالية تهزّ والدها الذي نحُل وصار ورقة بالية، وبقي هو مستغرقاً في تحريك عصاه بما أوتي من حريّة قليلة. عندما أعتقته مشى خطوة واحدة، واستدار إليها بوجه مجهول، بين الخوف والفرح، ونفرت دمعة من عينه قبل أن يعود إلى العبث بحذائه.

عادت هي إلى غرفتها، تزرعُ وجهها الموجوع في فراشها وتبكي بحرقة. تبكي بايزيد ويحيى ووالدها الذي نسخهُ آخر، قبل أن تقتصّ منه. وتبكي تعاستها التي لا مبرّر لها، وسعادتها التي لا سبب يجيء بها. أغلقت اليوم باكرا واستسلمت. كانت أمّها غير مبالية، وكأنّها تقف إلى صفّها. شعرت أنها فعلت ما عجزت أمّها عن فعله، لهذا

فالعجوز التزمت الحياد. احتلّها شوق كبير لشوقي الذي بدأ يتأقلم مع أطفال القرابة الجدد، وهو الآن يفضّل البقاء في الشّارع، والتنقّل إلى مدرسته الجديدة بكثير من السّرور، كأنّ يتمه منحهُ السّعادة، كأنه اكتشف طفولته.

(3)

أجمل ما حصل في مساء ذلك اليوم زيارة عبد الحميد بيت أخته. كان عرّاب حبّ، وقد أمضى كلّ حياته يخدُم الآخرين ويشهدُ حكايات الحبّ دون أن يفضحها، ويرقّع خَطايا العشّاق. كان معلّما حقيقيا، ليس فقط في مهنته؛ بل في كلّ حياته. استطاع وحده أن يواجه جائحة الإسلاميين الذين غيّروا كلّ العادات والملامح. حافظ على هدوئه في قلب العواصف التي مرّت على القرابة. والأهمّ أنه ما زال إلى جانب ضياء زوجته الجميلة. هاته المرأة لم تنجب بعد أحلام. ورغم ذلك، لم يفكّر في الزّواج من أخرى. ظلّت زوجته تحمّل نفسها وزر بتره، لكنه ظلّ يحتفي بها. هو الرّجل الوحيد في القرابة الذي يغسل أواني المطبخ ويطبخ لزوجته ويقاسمها الحياة فعلا. كان أسطورة حقيقية في نظر الجميع، فرغم أنّ الأنثى كائن محبوبٌ ومحتفى به، إلا أنّ كلّ الممارسات كانت سرّية، لا أحد يعلن حبّه أو يغازل حبيبته أمام الآخرين، إلا هذا الرّجل القادر. يقف أمام الجميع ليقول: «توحشت ضياء» ويغادرهم إلى البيت. كان صديقا حميما لكلّ من التقاه، يوزّع الابتسامة والاحتفاء. التدريسُ لم يجعله يملّ رعاية الأطفال فاتخذ من مرافقتهم سلوكا يوميا، ولعلّ أقرب شخص إليه كان يحيى، فقد علّمه في المدرسة لست سنوات، ثمّ رافقه إلى أن فرّ من حصاره. أدرك أنّ هناك حبّ كبير ينمو بين التالية ويحيى، وعمل على حمايته، هو

الأعرف بقلب وروح يحيى، بعمقه. لقد كان معلّمه الأوّل في عصر الكتاب والكتابة، حيث لم تكن شَفاهة في عصر يحيى الطويل.

زال قسم كبير من إرهاقها الذي استمرّ ثلاثة أشهر وبضعة أيام. عانقت خالها بكثير من الحبّ، ومازحها هو عن تضخّمها الذي أصبح يمنعه من حملها. ضحكا قليلا، وكانت هي تتأهّب للخروج من قارورة العدّة. أرادت أن تحدّثه وأن تشكو الزّمن إلى حكمته، أن تأخذ منه زادا لتلقي بعض الخطى في اتجاه ما، وأراد هو أن يسمعها، لكنها رفضت أن تفعل قبل انقضاء عدّتها، بعد منتصف اللّيل، وقرّر أنه باق إلى غاية ذلك الوقت. اجتمعت العائلة المكوّنة من الطّفلين الكبيرين جلول وزوجته، والطّفل الصّغير شوقي، والتالية وشقيقيها الغائبين عن آلامها وأفراحها. تعشّى الجميع كسكسي بالخضار والدّجاج، وكانت ضياء تتجنّبُ الجلوس إلى جانب عبد الحميد؛ احتراما لمشاعر الفقد التي تعتقد أنّها تحكم التالية الآن. اقترب شوقي كثيرا من عبد الحميد واستأنس له، كان قد علّمه الأحرف المضارعة بسرعة، وأصبح الطّفل يفرّق بين الأفعال في أقل من ساعة، الأمر أبهج التالية كثيرا. تذكّرت طفولتها وقدرات خالها العجيبة في تبسيط المفاهيم الغامضة، قواعد اللّغة كانت غامضة جدّا في المدرسة، وبسيطة جدّا لدى عبد الحميد.

السّاعة تتدحرج نحو منتصف اللّيل ببطء، والتالية لا تهتمّ بقدر اهتمام عبد الحميد. كان يحترم الخيارات وإن كانت تبدو مجنونة، يوجّه بالحوار لا بالأمر، بإمكانه أن يكون أفضل أب على وجه البسيطة، لكنّ الحياة مركّبة، لدرجة أنّ عبد الحميد لم يكن أبا منذ رحيل أحلام في طفولتها الباكرة. هاتفه الذي كان بيده، يعلنُ أنّ الوقت قد حان. يطلبُ من الجميع العذر؛ لأنّه سيتّجه والتالية إلى الصّالون، ويتمنّى أن لا يزعجهما أحد. عندما دخلا الصّالون كان يبتسم مسهّلا عليها

البوح، وكانت قد وصلت إلى أقصاها، بحيث لا تحتاج دافعا. «ما الذي يجب أن أفعله لأنساه؟» تقول في وجل. «اكتميه أو كرّسيه أنت أدرى» يردّ عبد الحميد. أرادت أن تشرح له عمّن تتكلّم فرفض.

- أريد أن أشرح لك، ربما نتحدّث عن شخصين.
- لا أحد غيره، الذين يتحدّثون لا يمرون بحكمة متى عشقناهم.
- أشتاق إليه وأخشاه.
- هو يفعل الأمر ذاته.
- هل يجب أن أحبّه أم أن أحقد عليه؟
- هل يمكن أن تفعلي شيئا منهما؟ الذي يمكنك الآن أقرب.
- خالي... أنا في التيه.
- وهو يقاوم ما تقاومين أيضا.

أراد عبد الحميد أن تكون التالية أقوى، أن تكتشف قدرتها على محو أو بعث حبها، وكان يدرك داخله أنّ بعض الحبّ لا يعدو أن يكون بحثا عن موقعٍ، سعيا لتتويج الوجود السّائد بوجود عبقريّ مثير ومختلف. يعرفُ ـ وهو العاشق القديم ـ أنّ الحبّ قد يكون وهما أو تملّكا، وقد يكون حاجات أخرى. يعرف أن التالية أحبّت يحيى كما تصوّرته، ويخشى أنها لم تتصوّره كما هو. حدّثها بقليل من الرّمز وكثير من العطف، ولم تظهر تيها أو عجزا عن فهمه. قال لها: «يحيى لم يعد يحيى السّابق، لقد عاد بوجهٍ وروح متعبين، وبقلب أقلّ احتمالا، لقد عاد يحملُ وجعا ورغبة في العزلَة، غادر وحيدا وعاد متعدّدا».

كانت تضع رأسها على ركبته وهو يمسحُ على جبينها، ويسدلُ شعرها الكستنائي، بينما تلقي بنظرها في البعيد، وترتّب وجه يحيى كلّما تلاشى. كانت تصرّ على التعلّق به وهما أو يقينا، ورطة أو نجاة.

كبريد لا يُقطف

(1)

تفاجأت وهي تتسلّمُ آخر رسائلها إلى يحيى من شقيقتها. قالت منى إنّها فعلت الكثير لتحميها. وتساءلت كيف لها أن تراسل رجلا وهي على ذمّة آخر؟ لم يكن هذا هو المأزقُ بالنسبة للتالية، الكارثة أنها استطاعت الاحتفاظ بها كلّ تلك السّنوات. «أين البقية؟» سألتها، وهي توشكُ على الانفجار. تلكّأت قليلا قبل أن تصدمها: «لم يكن هناك يحيى منذ سنوات، البقية التهمتها النار»، «نار تاكلك يا وجه الشرّ» أجابت التالية، وهي تدفع شقيقتها، وتجحظ عيناها من حدقتيها حقدا.

اشتاقت دفئا أو شمسا. شعرت أنّها تعفّنت دون أن تصل إلى محطّة ما. وكان شوقي المزهوّ بحياته الجديدة يبتعدُ عنها. هذه المرّة التقطته من الباب وقرّرت أن تخرج معه. أرادت أن تعيد اكتشاف هذه المدينة التي تخلّصت من أشيائها الجميلة سريعا، غيّرت في ثلاثة عقود وجهها أكثر من مرّة، ولم تفلح في تغيير عُمقها. الشّارع لا يقيم أيَّ اعتبار لأحزانها أو أفراحها، لم تعُد القرابة فضاءً متّحدا، هناك الكثير من الوافدين المختلفين عن جوهرها، الكثير من أهلها ممّن يمتعضُ من أزقّتها. كانت تشقّ الشّارع وهي تعدّد السّكان الذي عرفتهم، وتتنبّأ بمصائرهم. الفتيات كلّهن إلى أزواجهن ربّات بيوت

بارعات وزوجات مطيعات. الأطفالُ يكتشفون عالم الكبار باكرا فيشرعُون في التّخطيط لحياتهم الآسنة على منهج أهاليهم. الكبار يفكّرون في التقاعد منذ منتصف الأربعين أو قبل ذلك.

كان شوقي مبتهجا وهو يطوفُ معها مدينتها، وكانت هي مفجوعة من الخراب الذي حلّ بها، عرفتها صغيرة وجميلة، الآن هي امتداد عشوائيّ في كلّ اتجاه. وسط المدينة توقّفت تتأمّل الأمواج البشرية وهي تتداخل بلا هدف. الوجوهُ التي تسلكُ الطّريق دون مقصد لا تستمتع بجولتها. النّاس معذّبون ومتألّمون من وجودهم. الحياةُ آسنة وراكدة ومملّة جدّا. تذكّرت أنّها فكّرت في الانتحار أوّل أيام خطبتها لبايزيد، وأنها وقفت في المكان ذاته لنصف ساعة دون أن يدفعها أحد أو تزعج أحدا، الآن هي تقفُ حيث تدفعُ المارّة إلى الالتفاف حولها أو الاصطدام بها، وتهرّبُ ابنها يمنة ويسرة. حين فكّرت في الانتحار لم يكن في وسعها أن تلقي نفسها من بناية عالية؛ لأنّ المدينة لا تحوي مباني أعلى من الطّابق الخامس، أعلى بناية كانت فندق الأمير الذي كان مشروعا لم يكتمل. كانت المدينة هادئة ومسالمة، متصالحة مع آمال وجنون أهاليها.

سأل شوقي عن الكثير من الأماكن، وبادرت هي تشرح له تفاصيل بالكاد يفهمُها، وتتوقُ لزوايا الدّراويش، فتحدّثه عن «عمر العيفاوي» وأسطورته مع النّوق، وكيف كان يمكنه أن ينحر الناقة في دقيقة، لم يعد له أثر، آخر مرّة في زيارتها للجلفة رأت أنّه شاحبٌ وضعيف، كان أهزل من أسطورته، يودّعُ الجميع ولا أحد يودّعه، لطالما التقط بطيخة واهتمّ بها، جولاته في السُّوق المغطاة كانت بركة على التجار، ما أخذ من أحد إلا وأشعل يومه خيرا، ثمّ نسيته المدينة ونسيت هي أن تسأل عنه، كان قد غادرَ يقينهُ واختفى.

حدّثته عن صميدة، الفنّان الكسير، كان يجلس في زاوية أمام السّوق المغطاة، يحملُ كمانه على ركبته ويعزفُ نشازه أو بكاءه، لا أحد انتبه إليه، لم يفهم حزنه ووحدته أيّ من العابرين على جراحه طوال سنوات. كانت تحبّ أن تصغي إلى عزفه، تمرّ غير مرّة ذهابا وجيئة كي تقرأ هذا السرّ المكتوم داخل حشرجة كمانه. لطالما احتجّت باقتناء كتاب من البائع الذي يضعُ عناوين لا تتناسق فيما بينها قرب صميدة، هناك حيث يمكنك العثور على روايات كلاسيكية وكتب طبخ وكتب دينية للإخوان أولا، قبل أن تظهر كتب الفقهاء الجدد. يستفزّ صميدة الجميع بنوتته المكرورة، لا يبذل جهدا كبيرا في حركته الواحدة التي يصرّ عليها منذ سنوات، ولا يهمّه تفاعل الآخرين. الذي يقف يتأمّل صميدة مطوّلا هو زائر للمدينة أو مقيم جديد بها. عندما رحل وحده في بيته في أقصى المدينة لم يترك فراغا، ليس في قلب أحد. المدينة وحدها تفقد من روحها بذهاب هؤلاء. أي سرّ كبير أخذه معه الفنان النجم صميدة؟ أيّ ألم لفّه قلب المغنّي الأعور طوال سنين؟

حدّثته عن عمر الغياط[1] الذي كان يحمل نايه ويعلنُ توقا ما، يُخفي خلف نزقه وغرابته وجعا كبيرا، كان يغمزُ بعينه للجميلات، ويميل برأسه بثقة كأنّه الرّجل الأوسم في المدينة، عمر توقّف عن العزف ولا أحد اشتاق أغنية منه، انسحب فجأة من المشهد وتوقّف الأطفال الذين طالما تحلّقوا حوله عن السّؤال عنه، المدينة تتنكّر لمعالمها.

كان شوقي يُصغي بكثير من الانتباه إلى بورتريهات أُمّه، أراد أن يتوقّف عند تفاصيل هؤلاء، من أين جاءوا وما حكاياتهم؟ لكنها لم تكن تسمعه، كانت تحدّثه بما بدا لها، كانت تخطبُ فيه أو تحرّر رسالة عبره.

---

(1) الغياط عازف الناي، الغايطة هي الناي.

جولتها لم تكن كما اشتهت، عادت محمّلة بالأسى. ترى لمَ يحبّ الجميع هذه المدينة ويسيئون إليها؟ كانت المدينة عند أهل القرابة هي القرابة أولا، البقية مثل امتداد أو خلاصة أو حاشية عليها. لكن القرابة تحوّلت إلى شوارع باردة، بعد أن ألبسوها هذه القسوة.

العيد الحسّ يحمل آلته، ويشقّ الشّارع أمامها، ويلقي تحيّته على الجميع، واثقا أنه يشرّف جمهوره. تحسّن ذوقه كثيرا ولم يعد نشازا، يمكن أن تصغي إليه وتعثر على معنى، لا أحد يعرف من يكتب كلماته الغريبة، حتّى آلته حسّن منها إلى أن أصبحت أقرب إلى الآلات الموسيقية الحقيقية.

كانت تمشي خلفه وتقول لابنها: «هذا العيد الحسّ هو أيضا معلم صغير ينمو، إذا انتبهوا له فسيجمّل وجه المدينة». وكأنّ العيد يُصغي إلى التالية، التفت وأرسل لها ابتسامة من أعلى الشّارع، وانزلقَ إلى زقاق فرعيّ. واصلت مسيرتها تمسكُ يد شوقي وتصغي إلى نبض قلبها الذي يواكب خطواتها الخفيفة على أرض القرابة، أرض السرّ واليقين.

(2)

الفراش يطلق رائحة الكسل، تضعُ رأسها على الوسادة تنشدُ السّلام، وتعجزُ عن ذلك طالما تحوّلت الوسادة إلى هضبة. اعتدلت تكتشف الأمر، فعثرت على كومة من الأظرفة مغلّفة بخيط. كانت رسائلها إلى يحيى كلّها محفوظة هناك. أنارت الغرفة وغرقت في تفتيشها كأنّها تقرأ خطابات غيرها، حتى رسائل يحيى كانت هناك، قليلة، لكنها موجودة، متباعدة التواريخ، لكنها مستمرّة، إلى أن أصابه اليأس وكفّت هي عن الكتابة إليه.

رسائلُه ليست خطابات طويلة تحمل أخباره، ليست تأنيبا لا سؤالا ولا وعودا، كانت لوحات فنّية صغيرة، أوراق مقوّى بحجم الظّرف تحمل عبارات أو أبيات شعر أو مقولات، وأحيانا بوحا غامضا منه، لم تر هذه الرّسائل من قبل، كانت في بداية عهدها بالكتابة إليه تقرأ رسائل موجّهة إليها، تقرأ عتبا أو غزلا، تقرأ خوفا أو شكّا، تتحسّسُ توقا ورغبة، أمّا هذه الرّسائل فهي حكيمة وعامّة، يمكن أن تكون لأيّ شخص آخر، قرأتها بسرعة أكثر من مرّة وأعادت تأمّلها، وفي كلّ مرّة تعجز عن تذكّر ما قيل في السّابقة فتعودُ إليها، تشرّدت بينها ولم يقرّ في ذهنها أيّ معنى منها.

لم تحرق منى الرّسائل، ولم توصلها إلى منتهاها، فعلها هذا كان أقسى من الحرق، لو أنها أعدمتها لما قرأت الآن ألمها، حبّها، خيبتها وخيانتها، لو أنها أعدمتها حقّا لمنحتها القدرة على المواصلة والهرب إلى الأمام. كانت عينها تطلقُ دمعا حارقا، وقلبها يتمزّقُ، لا تعرف ما الذي يؤلمها أكثر من بين خيباتها الكثيرة.

يزحفُ الصّباح على الغرفة، وهي تقلّبُ بطاقات يحيى أحيانا، وتقف تذرع الغرفة أحيانا أخرى. أمّا شوقي فقد كان نائما يعانق ابتسامة بحجم قلبه. كانت تمشي وتلتفت إلى البطاقات على فراشها، وفي يدها إحداها، تقرأ ما كتب عليها بخطّ جميل قبل أن تضعها، تسحبُ أخرى وتعاود طوافها الغرفة.

أخذت من البطاقات ما لم يذكر اسمها وجمعتها. قفزت كالمذعورة إلى محفظة شوقي. التقطت الشّريط اللاصق والمقصّ، وجمعتها كلّها في شريط واحد وعلّقتها عند رأسها. هل كانت تستعيد صوت يحيى؟ أم أنها أرادت فقط أن تحتفي بالقيم التي يكرّسها خطّ يحيى العبقري؟

قرأت في رسالتها إليه: «كنت أتمنى أن أعثر عليك، أردت دائما

أن يصلني خبر سعيد عنك، فقط خبر زواجك الذي كان بوسعه أن يسحقني، أيعقل أني أحببتك كلّ هذا الحبّ لتتزوج؟». لكنه أحبّها كلّ ذاك الحبّ وتزوّجت. أربكتها حالتها تلك، كيف أمكنها أن تخاطبه بخطاب مشابه؟ شعرت أن رسائلها صدمات متتالية، وهي تقرأ أيضا: «لا تنس أن تهتمّ بنفسك، سأكون سعيدة وأنا أعود إليك قريبا». كان هذا قبل ثلاث عشرة سنة، أكانت تفكّر في الهرب من بايزيد؟ في الطّلاق منه أم في موته؟

كان عليها أن تضع رسائلها على حدة، وراحت تتأمّل رسائله وبطاقاته، لم يذكّرها أنّه يحبها ولا أنها تحبّه، كانت خطابات حياة بالمطلق. أراد أن يترفّع عن الخيانة، ألم يكن فعل الكتابة لها وهي زوجة لبايزيد خيانة؟ «على الأقل أرحم من خيانتي» تقول مجيبة عن تساؤلها، وتعيدُ قراءة ما كتب[1]:

ولو أنّ مابي في الحصى فلق الحصى أو الرّيح لم يُسمَع لهن هبوبُ
ولو أنني استغفر الله كلّما ذكرتك لم تكتب علي ذنوب

لم تطفئ نور الغرفة، ولم تكُن من اهتم بشوقي في صباحِه الذي وجد فيه محفظته مبعثرة الأدوات، كانت منى من فعل عنها، وواصلت هي نومها العميق إلى منتصف النهار حين أيقظها الطّفل، متسائلا عن الأشغال التي تقوم بها ليلا. بالكاد استطاعت التنصّل من فراشها، وكانت مشتاقة إلى تلك البطاقات السحرية، فراحت تحدّق فيها وتقرأ تعليماتها.

ما زلّ ذو صمت وما من مُكْثر إلاّ يزلُّ وما يُعـاب صموت[2]

هو حقّا رجل صموت بلا زلل، وهي والكثيرون يحكون الكثير، ولا

---

(1) مجنون ليلى.

(2) علي بن أبي طالب.

يعرفون متى ولجوا الخطأ ومتى طرقوا الحكمة. خطّه ينطق أعلى السّكينة، ألا يمكنهُ أن يكون نجما بهذه الحروف التي يراقصها؟ تساءلت وهي تمرّر أصابعها فوق البيت الشعريّ، تسلك الحروف كطريق حتى سكون الكلمة الأخيرة. ما أقرب الصّمتِ من الموت، وما أبعد يحيى عن الموت! رغم أنه يقيم في السُّكات. تقرأ أيضا لوحة بطاقة صغيرة كان بإمكانها أن تكون لوحة ضخمة، كتبَ بخطّ نسخ حديثا نبويا، واحتفى بأمر الصّمت، فكتبه بالدّيواني أعلى البقية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». كم كان لمّاحًا! واصلت تقرأ ما يكتب وتحاول حفظه، فتردّده أكثر من مرّة.

تقرأ التالية[1]:

وحفظتُ عهد ودادها متمسّكًا في حبّها برشاده أو غيّه
ولها سرائرُ في الضّمير طويتُها نسيَ الضّمير بأنّها في طيّه

وتقرأ:

إذا لم يَجِدْ صبرًا لكتمانِ سرِّهِ
فليس له شيء سوى الموتِ ينْفَعُ[2]

كان الحبّ يبدأ وينتهي في القرابة بالرّسائل. هناك من يلتقي حبيبه، ولكن مع احتمالين، فضيحة أو وصال. أما بطاقات يحيى فهي أشبه بحيلة عاشق، إنه يحبُّها، هذا ما لم تشكّ فيه، لكن لمَ اختفى طوال هذه العصور؟ تتساءلُ لمَ لمْ يكتب لها صريحا عمّا يشعر به؟ لمْ يحك التفاصيل في غيابها؟ ستكون الحياة أهدأ في حضور بطاقاته تلك، على الأقل ستجدُ سببا يجعلهَا تحلم أو تتذرّعُ بالحلم في وجه الواقع البائس.

---

(1) مجنون ليلى.
(2) الأصمعي.

قبل أن تُغادرَ، ثبّتتْ عينيها العائمتين على بيتي شعرٍ خطّهما يحيى بالأحمر على خلفيّة سوداء:

وَبينَ الرّضَى وَالسُّخطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى
مَجَـالٌ لـدَمْعِ المُقْلَـةِ المُتَرَقـرِقِ
وَأحلى الهَوَى ما شـكَ في الوَصْـلِ رَبُّهُ
وَفي الهجرِ، فهوَ الدّهرَ يَرْجو وَيَتّقي[1]

وتفيضُ عيناها وهي تلقي بخطوتها المجروحة خارج الغرفة، تهربُ من المكان أو الزّمان أو منهما معا، إلى ثانية واحدة آمنة وبيضاء بلا ذاكرة، تهربُ لتلقى ما تركتهُ في كلّ جدار يراها، في كلّ أرض تعبرها، في كلّ سماء تخشاها.

(3)

عندما جلست تحملُ دفترا لتكتبَ رسالة إلى نفسها، تذكّرت بيتا كان يحيى قد جعلهُ لازمة يفتتح به الكثير من الرّسائل، ثمّ كفّ عن ذلك. فدوّنته أعلى الورقة:

إذا لم يكُنْ في الحبّ سخطٌ ولا رضا
فأين حلاوات الرّسائل والكُتْبِ[2]

تعرف أنّها فقدت رسائله إلى الأبد، فهو- رغم أنّه عاد إلى الحيّ- لم يكلّف نفسه جهدا ليلتقيها أو يكتب لها. تعرف أنّه قد تعرّض لخيانة عظيمة، فالعاشق الكبير لا يتنازل بسهولة عن عشقه، الذي يحبّ يموت قبل أن يخون حبيبه، وهي تؤنّب نفسها لأنّها تركته. استسلمت لسطوة بايزيد على جلول المرعوب وسطوة جلول المرعوب عليها. قرّرت أن

---

(1) المتنبّي.
(2) العباس بن الأحنف.

تكتب رسالة وحسب، لا إلى يحيى، لا إلى بايزيد، ولا إلى أحد.

((أكتبُ من غرفة تحت سقف قرميديّ، في بيت مقسوم إلى نصفين، جزء منه بالقرميد الأحمر الكبير، والجزء الثاني بسقف اسمنتي صلب. لون الجدار أزرق باهت، والضّوء أصفر رديء. أجلسُ على سرير حديديّ لا تاريخ له ولا موقف، تماما مثل خطاي. وأسفل السّرير إلى اليمين فراش شوقي، وهو ابني الذي يستعدّ لبلوغ سنته التاسعة. في الغرفة فرنٌ جديد يقفُ على مسافة ملفتة من الأرض، كأنّه يتأمّلني أنا وابني، وأنبوب الغاز النّحاسيّ ما زال ينتظر أن يصبغ، إن حظيت الغرفة بطلاء جديد. نار الفرن متوهّجة، ولكنّ الدّم في عروقي شبه جامد. على يميني مدخنة قديمة لم تعد تستضيفُ الحطب ولم أشهد هذا يوما. منذ سكنّا البيت مرحّلين نحوه بقرار من والدي جلول المرعوب، ولست أعثر على وصف لهذا الأب سوى أنّه حاكم شموليّ، لا يمكن أن يغفر محاولة اعتراض، وأيّ رأي مخالف يعتبر محاولة انقلاب بالنسبة له.

أكتب إلى الفراغ لأنّي لا أعرف من سيقرأ ما أهذي به هنا. أنا اليوم أشعر، أكثر من أيّ يوم آخر في حياتي، بالوحدة والضُّعف. كنت مخطئة دائما عندما اعتقدتني ضعيفة، يتوهّم النّاس الضَعف أحيانا لأنّهم بلا همّة، لم أكن ضعيفة حين تزوّجت أوّل وآخر مرّة من بايزيد بن عيشة، كنت أريد أن أبدو كذلك، رغبت أن يعتقد النّاس أنّي ضحيّة، أن يشفقوا على عذاباتي، راقني أن أكون عاشقة ليحيى المميّز وأتزوّج رجلا آخر يصنع حضوره الدّائم الفارق في المحافل كلّها، استسلمت لقرار أبي لأمنح يحيى فرصة أن يكون العاشق المغدور، أو العاشق الذي يملك مبرّرات الجنون أو الخيانة إن أراد، اليوم فقط أنا ضعيفة ومعدومة الحيلة.

لا أريد أن أرى ابني النّائم عادة قريبا منّي، أتحاشاه لدرجة أنّي أشُكُّ أنّه سيبقى ابنا لي خلال أشهر قليلة، لقد استولت عليه شقيقتي تماما، وهو يجد الكثير من المتعة، ويفقد من وزنه الزائد، ويتحرّك بحريّة في غيابي، لهذا فلا أريد أن أكتب عنه بل أن أقرأ ما يكتب عنّي في ذهنه.

أكتب للغياب الذي لا عنوان له كقلبي، ولا أملك لغته ولا خرسه، فكيف يمكنني أن أقول للغياب أريد أن أعود، وكيف يُجيب الغياب وأعرف أنّه أجاب، أبعودتي إلى بئر خادم وتكسير فرضيّة موت بايزيد وتحضير عطر الخزامى؟ هل بإفاقتي من هذا الحلم لأجدني أدرس في الثانويّة مزهوّة برحلتي اليومية من طرف المدينة إلى الطّرف الآخر، وأجدني معفيّة من حبّ يحيى وزواج بايزيد وأمومة شوقي، أيكون الغياب تصحيحاً للوضع أم الوضع هو الغياب؟ بمَ يعدُ الغياب؟ أو ما أخلف الغياب؟))

شرح جديد لغياب قديم

(1)

حدث أن زارت بيت جلول عرّافة، وحكمت على التالية بالزّواج من رجل اسمهُ رشيد، وصدّقت الفتاة في داخلها ذلك، وتظاهرت بالسّخرية من تقديرها، بينما كانت أمُّها تنهرها بنظراتها وتدعوها إلى الإصغاء. قالت العرّافة: إنها ستتزوّج من رشيد صاحب البشرة البيضاء والسيارة السّوداء والبيت الواسع والمال الكثير، وأضافت: إنّ الكثيرات سيحسدنها في رشيد ويسعين إلى سلبها أميرها، وأبدت نوعا من القدرة على حماية زوج التالية قبل أن يتمّ الزّواج، الأمر الذي جعل الأمّ تغدق عليها لباسا ومالا، بل دعتها إلى زيارتهم مجدّدا قبل زواج التالية من رشيد، لعلّها تُزوّج مُنى أيضا، ولكنها لسوء الحظ أو لسوء حظ رشيد، لم تعد أبدا لتؤكّد زواجها المفروض، ربّما كانت تنتظرها عند رشيد بعد أن أخبرته أنّها زوجته المقدّرة.

بقيت لسنوات تتأمّلُ أيّ رشيد تلتقيه، في حياتها صادفت الكثير من الـ«رّشدين»، ولكنها لم تتعلّق بأيّ منهم. ظلّ اسم يحيى هو الأكثر رنينا وجذبا لروحها. رشيد جارهم في القرابة. رشيد صاحب الحانوت. رشيد الذي درس معها في الابتدائي، وتبوّل على نفسه رعبا من الميسيو معلم الفرنسية، قبل أن يصبح مدير مؤسّسة مهمّة. رشيد سائق التاكسي الذي تعاقد معه بايزيد في العاصمة، ليكون سائقا

خاصا. رشيد الخباز في حي بئر خادم بالعاصمة. وأخيرا رشيد شقيق الرّيح الذي لا وجه له إلى اليوم.

كيف استطاع رشيد والعرّافة أن يغيبا طوال هذا العمر؟ تساءلت التالية وهي تضحك أمام المرآة، بعد أن أخذت حمّامها الأوّل إثر انقضاء عدّتها. أعادت إحياء جسدها، وزرعت فيه جمالا يستحقّه ويحتاجُه، تماما كما نباتاتها في حديقة بيت بئر خادم. كانت تدعك كلّ جسدها سعيدة، ألهذا الحدّ تُصاب الأرملة بسعادة عندما تتخلّص من أسباب شقائها، أم أنّه التّوق إلى الفرح؟

في بداية رحلتها مع بايزيد، كانت تعتني بجسدها لا لكي تستمتع به، كان فعلا مرتبطا بالخوف من الحرج الذي قد يصيبها لو اكتشف عيبا في هذا الجسد المكتمل، اعتقدت أنه عليها أن تبدو أفضل رغم أنها لم تودّ أن تكون له، وهو استعجل الرّحيل كأنّه اكتفى منها. كانت تعتقد أنّ الرّجل يملك العشرات منها، وأرادت بإملاءات الأنثى أن تجاريهن، وسريعا أصبحت غريبة وغائبة عن هذا الجسد. لم يكن بايزيد شبقا، كان يعرفُ جيّدا كيف ينظّم علاقته بها، أمّا هي فكانت تابعة استغرق الأمر سنوات، بل استغرق إلى غاية رحيله ولم تملِ شيئا عليه. كان هو القائد والموجّه وهي الخاضعة للأوامر والمطبّقة بقليل من الإتقان.

اكتشفت معهُ الكثير من مباهج الدّنيا، ورغم أنّ الموت كان يرفع صوته أعلى من الجميع، إلاّ أنّها كانت تعيش معه تحديا كبيرا. كانت تُغيّب التالية التي تعشقُ يحيى وتهيم بحالات جنونية بسيطة في حيّ القرابة، وتعملُ على بعث مغامرة مجهولة الهوية والانتماء. من كانت إذن؟ في كلّ مرّة يزورها بايزيد تتسلّح بوجه وهوية، كانت تتوهّم أنها إمرأة بلا أهل أو مطلّقة أو سجينة فارّة أو فاقدة للذّاكرة، وتعيش في

كلّ مرّة علاقة عابرة مع هذا الرّجل الذي تغيّر له هويته وعمله وسبب لقائهما. هكذا عاشت أدوارها معه غريبة عنه وغريبا عنها، غائبة عنها وعنه، رفيقان من أجل البقاء وصدفتان في طريق واحدة.

كان الرّجل يعرف أنها تتحوّل، ولعلّ الأمر راقه، فقد وفّرت له ما عجزت عنه كلّ امرأة ممكنة، لقد منحته أكثر من امرأة، تتحوّل دون أن تكتشف أنها تفعل، تزورُ الحلاقة قبل أن يزورها بايزيد، وتغيّر لون وشكل شعرها في كلّ مرّة، تعمل على اقتراف لوك جديد في كلّ لقاء. وكان هو مبهورا بتفوّقها، وحتى وإن خالجه الشكّ ـ ولو جزئيا ـ في أنها تعاني من اضطراب تغلّب عليه بعد كلّ لقاء. كانت المرأة الوحيدة التي قال لها بايزيد صراحة إنه يحبّها، لكنّها كانت أقرب إلى الوداع. انتظر إلى غاية اللّقاء الأخير ليقول لها إنّه سعيد معها وإنّها منحته الكثير من الفرح والبهجة، وكانت رحمة المرأة الوحيدة التي قالت لبايزيد أحبّك، ولم يتجاوب مع بوحها في لحظة غضب عارم، وصفق الباب، بينما كانت هي تستلقي على عتبته وتصرخ به: «نشتيك يا بايزيد».

خلّف حبّ بايزيد للتالية فراغا كبيرا لدى رحمة، هذه الأخيرة لم تنتظر طويلا بعد غضبة بايزيد، لتقرّر أنه يجب أن تتخلّى عن ارتباطها به، واكتشفت مينا الذي أصبح فتاها المحبّب. كان يزورها ويملأ فراغات الرّجل في حياتها. مينا يعرفُ كلّ حكاية رحمة، كما يعرف سكان القرابة. حتى الصّغار في ذلك الحيّ ينضجون باكرا ويفهمون الأسرار الجنسية قبل فهم الدّين والسياسة، لهذا فإنّه ـ في سنّه المتقدّمة تلك ـ أضحى خبيرا بالحياة، لا ينقصه إلا أن يجرّبها بعمق. التالية تزوّجت بايزيد، ورحمة تعشّقت مينا، ومع كونه في نفس سنها تقريبا، إلا أنه يبدو أصغر منها بسنوات.

هكذا تحوّل غياب بايزيد إلى حضور مينا، وغياب يحيى إلى حضور بايزيد.

(2)

«ستكونين بخير معي وبعدي» هذا حديث بايزيد لها، وهي تذكُره الآن في وقوفها على قمّة الخوف من الحياة، لا تعرفُ ما يجبُ أن تفعلَهُ، فقط تجاري الأيّام تنامُ لتفيقَ وتفيقُ لتنام. «إذا كان حضوريَ يؤذيك وغيابي ينفعُك فلن أتردّد في الغياب»، هكذا كتب لها يحيى في إحدى رسائل الحبّ السّريع بينهما. تتساءل في داخلها لماذا يتحدّث جميع الذين عرفتْ عن غيابهم المحتمل؟ ولا تجد الجواب سوى في حضورها العنيف أو في غيابها القديم، أيكونُ كلّهم حاضرين وأنا الغائبة؟ تضيف إلى قائمة الأسئلة سؤالا، وتمضي نحو الشّارع، لا تعرف أ لها حاجة، أم هي تخرج فقط كي تشمّ رائحة، أو بقيّة رائحة من بايزيد أو يحيى؟

ما تزال شوارع القرابة تتغيّر، الأزقّة الضيّقة فقدت نورها بعد أن زيّنوا واجهات البيوت، أرادوا أن يحوّلوا القرابة، أن يهرّبوا نسقها ونمطها، أن يدمجوها في عالم الجلفة الفسيح، لكنّ الذي حصل أنّها فقدت أجزاء منها، وغبارها الأوّل عالق في ذاكرة محبّيها. التالية تعيش الآن نوعا من الفصام، لا تعرف إن كانت تمشي في حيّها السّابق أم تتوهّم ذلك، لا تعرف إن كان هذا مكان جديد لرعاية غيابها وتأجيل حضورها، فقط تمشي بلا وجهة أو هدف.

في القرابة التي منحت التالية أحلام الصّبا وهي تداوي صدمتها الآن، لا يمكن أن تكون متجوّلا في أزقّتها إلا إذا كنت غريبا. مسار الجميع واضح، بمجرّد التئام الباب خلفهم يطلقون الخطى صوب

مخارجها، كأنّهم يأتون من عالم آخر، ويتدحرجون ككائنات جميلة ومدهشة إلى وسط المدينة أو إلى الأحياء الأخرى. وهذا ما فعلته التالية التي وجدت نفسها تحثُّ الخطى إلى بيت فتيحة. قطعت المدينة لا ترسو على شعور واضح، مزيج مربك من الخوف والترقّب والرّغبة... يقودها إلى صديقتها التي استعجلت الزواج أيضا، وأنجبت طفلا في سنّ شوقي ابنها. فتيحة كانت تؤدي دور الوصيفة بالنسبة لها، تكتفي بالثانية في كلّ أمر، وتسعد وهي ترى التالية تتفوّق أو تحقّق الاختلاف. كانت فخورة فقط كونها صديقة.

أمام باب بيت صديقتها، وقفت تتساءل كيف أمكنها أن ترضى بالغياب من أجل أن تكثّف حضور صديقتها؟ وكانت تدري أنّه لا يتاح لها أن تسألها هكذا أسئلة، ففتيحة رومانسية حالمة ومنقادةٌ، لا قبل لها في الفلسفة الوجوديّة التي تغلّف حياة امرأة بلا رجُلين. فتحت الباب واختفت خلفهُ، لا يمكن أن تقف علنا، هي ذي العادات. وقد أخفى زوجها وجهها، رغم أنّه كان متاحا لكلّ جيرانها وأهلها، ووضع قوانينه الجديدة، مثل ملك يحكم دولة ويغيّر دستورها. كان على التالية أن تلفّ لترى وجه فتيحة المختفي خلف باب حديديّ يحمي دولة مولاها.

جلستا في الصّالون تتأمّل كلّ واحدة ما أصاب الأخرى من تغيّر، كمدينتين أدخلت عليهما تغييرات لا دور لهما فيها. لم يكن العناق الذي جرى خلف الباب يدلّ على غياب سنوات، بدا وكأنهما افترقتا قبل أسبوع، ولا الحديث الذي يدور بينهما يشي بشوق عظيم، كأنّهما خاضعتان لضرورة إلغاء الشّوق العنيف والاكتفاء بشوق متّزن. متّفقتان تماما دون أيّ تحضير لبروتوكول هذا اللّقاء. سألت التالية عن بعض الرّفيقات اللاّئي كنّ معهنّ في الثانوية، ولم تجد الكثير من الأخبار لدى فتيحة، عدا أخبار ماجدة التي تعمل مع زوجها في إدارة

عمومية، وهو لا يكفّ عن نقل أخبارها والحديث معها.

لم يكن هذا ما جاءت من أجله. كانت تفتّش عن أثرها في حضور فتيحة فوجدتها أكثر غيابا. فقدت وجهها النظر، وامتلأ صدرها كأنّها أرضعت قبيلة، وكانت تجلس كعجوز على طرف الأريكة، مستعجلة رحيل زائرتها. أتكون خائفة من زوجها أم خائفة عليه من أرملة مكتنزة الجسد؟ أمام الباب رغبت أن تسألها إن كانت تعرف بشأن يحيى، رغبت أن تعانقها بشدّة، رغبت أن تبقيها قليلا، أن تستعيد معها بعض الذّكريات، كما يفعل الأصدقاء القدامى حين يلتقون، لكنّ يد فتيحة امتدّت مسرعة إلى قفل الباب، وفتحته وهي تلقي عبارات الترحيب.

في طريق العودة، كانت تبتسم وتسخر في داخلها من تراجع صديقتها. الحقيقة هو لم يكن تراجعا، فهي كانت مستعدة لتخدم أحدهم، في البداية أمّها التي لم تكفّ يوما عن ترديد عبارات الشّكر والامتنان لابنتها التي تخدمها وتبرّها، لاحقا التالية التي تحوّلت إلى سلطانتها التي تسيّرها كيفما أرادت، والآن وجدت الامبراطور العظيم الذي يزرع أطفالا ببطنها ويوجّهها حيث يحلو لهُ، وتُطيع وتخدم بكلّ وفاء، لدرجة أنّها لا تنتبه لغيابها ولا لحضور الآخرين. فقط زوجها الذي تعلو صورته جدار الصّالون في أبّهة لا تليق به، ببدلة وربطة عنق وابتسامة بلهاء. ما أبعده عن بايزيد ويحيى، وما أقدره على فتيحة التي لها تاريخ من الغياب!

انتظرت أمام باب مدرسة الكرّ الطاهر الابتدائية، خروج شوقي الذي انطلق كقذيفة من المدرسة، رفقة قذائف أخرى، دون أن ينتبه إلى وجود أمّه. على الأقلّ هو يستثمر الوضع، كلّما انشغلت عنه بالغياب ازداد حضورا وامتلك أمرهُ. أصبح في أشهر قليلة طفل

القرابة النّموذجي، الطّفل الذي يقرّر في أدواته دون العودة لوالديه، ويخرج ويدخل عبر الباب المشرع دون إذن، ويدعو الأصدقاء للغداء أو العشاء أو لمشاهدة التلفزيون دون اعتراض أحد. كانت ترقبه بعين الدّهشة، وكأنّها تكتشفُ فيه طفلا جديدا، لم يكن ينبسُ ببنت شفة في بئر خادم، وقتها اكتفى بالتبسُّم في وجه أمّه كلّما خرج من المدرسة، يمدّ يده إليها ثمّ يواصلان، يجيب على أسئلتها فقط. أمّا الآن فهو شعلة أسئلة مرهقة، وإذ يلتفت لندائها لا يجري نحوها بل يحيّيها من بعيد، ثمّ يأتيها بخطى متثاقلة وهو يواصل كلامهُ مع رفاقه، لا يمدّ يده إليها؛ بل يسألها: «وش علاش جيتي؟». وتجيبه: «جيت نشوف ابني يقرا هنا»، وتشير إلى المدرسة التي تشترك مع أخرى في باب يقذفُ التلاميذ.

مشت خلفه، بينما كان يرافق أصدقاءه إلى القرابة عبر باب الدزاير ومتوسّطة محمد الرّايس، ووصلت إلى مدخل القرابة، حيث تصطفُّ الأزقّة مصوّبة نحو الجنوب والشّمال ومتقاطعة. لا تدري كيف اختفى فجأة أمام عينها. هي هكذا لا تخبرُ لحظة الغياب، لكنّها في البيت وجدته يجلسُ على الأرض، ويلتهمُ الخبز بالزّبدة والقهوة بالحليب في نشوة كبيرة. هل نقصُ وزنهُ أمّ زاد طوله؟ لم تعد تعرف كيف غابت عن ابنها الأشهر الماضية، دون أن تلتقي أحدا آخر!

(3)

لا غائب في قلب إلا وله حضور في قلب آخر.

لدى المجتمع الحسّانيّ عادة غريبة، تُقام الاحتفالات لامرأة تطلّقت عقب عدّتها، وتأتيها العروض تباعا، ويبدو أن المطلّقة كالأرملة، أهمّ وأرفع قيمة وأسهمها في بورصة الزّواج أعلى. هذا

ما قرأته في جريدة منصور الذي ما زال يعيثُ فسادا في الصّالون، وتتشارك هي ومنى محاولة ترتيبه وتنظيفه يوميا. كان منصور غائبا أبديّا عن البيت، مغلّفا بالأسرار أكثر من أبيه، لا قرار له. لم يكن عنيفا، بيد أنّ حضوره لا يعدو الدّخول إلى الصّالون، والنّوم، ثمّ المغادرة إلى المجهول والعودة منه. لم يطلب منصور من والده إعانة، وهو منفصل عن الجميع منذُ وصل الثامنة عشرة، بل قبل ذلك. كان قد اختصّ في بيع الأكياس البلاستيكية في سوق الخضر، وهو في أواخر الطّفولة وبدايات المراهقة، ثمّ أصبح تاجر ألبسة متنقّلاً، وقد استغلّ قليلا والدته وأخته منى في بيع بعض الألبسة، قبل أن يتخلّى عن هذه التجارة ويتحوّل إلى بيع الهواتف النقّالة التي تدرّ ربحا أكبر، ويوظّف شابّا لطاولة الألبسة.

رفض أن يحصل على إعانة من صهره بايزيد، بل لم يخف تذمّره من الأمر. كان شابّا تغلّفه القسوة، نظراته ككلامه، وخطاه كلّها غضب، لكنّ الحديث إليه يجعلُ هذا الحكم متطرّفا، فهو يبتسم أحيانا؛ ليكسر تلك النّظرة الحاقدة. ولعلّهُ يعرفُ قليلا عن حكاية التالية مع يحيى، ويتظاهر بأنّه لم يسمع شيئا.

كانت التالية قد تركت ترتيب غرفة الصّالون. جذبها المقال الذي يتحدّث عن المجتمع الحسّاني الذي لا تعرف عن شأنه شيئا، وتصوّرت الحفلات التي تقام للمطلّقات، والعروض التي تصلها، كأنّ الأمر متعلّق بمزاد علنيّ، كم ستكون قيمتها في مزاد مشابه؟ اعتقدت أنّ هذا المزاد سيمنحها رجلا بقدر ومقدار بايزيد أو يحيى، وأعجبتها اللّعبة، فيمكنها في كلّ احتفال أن تكون لأحدهما، وهكذا تمضي حياتها متنقّلة بين الرّجلين في احتفالات مهيبة، وكلّما تاقت لآخر تطلّقت وأخذت قسطا من الرّاحة قبل أن تدخل عالمه.

وجدها منصور تقرأ مبتسمة، سقطت عينه على العنوان الكبير: «أمجاد المطلقات والأرامل في المجتمع الحسّاني». رقّ قلبه لشقيقته، واقترب منها، لم تنتبه إلا ويده تطوّق كتفها، وكان هذا الطّوق أكثر إرباكا لها من طوق بايزيد؛ فالذي بينها وبين شقيقها خلال سنوات طويلة ليس أكثر من سلام عابر، بل كان يتجاهلها تماما في صباحاته الغاضبة وفي استنفاره الدّائم. تململت قليلا قبل أن تسمعهُ يعمّق صدمتها: «هل أنت بخير التالية؟ إذا احتجت حاجة راني هنا أختي». ولم تتمكّن من إجابته، فبقيت ذاهلة تشعر بذراعه تطوّق كتفها المثقل، وبصوته يفتح سمعها ويستقرّ في قلبها.

عندما وقفت مغادرةً الصّالون، لم يكن منصور هناك، غادر دون أن يسمع حاجتها، ولم تدر هي أكان الأمر حقيقة أم توهّما؟ أيحدثُ هذا في العالم الذي طالما عرفته؟ أم أنّ منصور التقاها في غيابها حيث قضى سنواته الطّويلة دون أن ينتبه إليه أحد؟ في سنّه المتقدّمة تلك كانت أمّه تتابع برنامجا عن المتوحدين، وتكتشفُ أنّ ابنها متوحّد، وإلا فما تفسير تيهه واستقالته من الأسرة دون حجّة واضحة؟! أمّا والده فقد اعتقد أنّه أقرب إلى الجنون، وأنّ الضغط عليه قد يرسّم جنونه باكرا، وكان على أهبة الاستعداد لجنون ابنه. التالية الآن تكتشف أنّه يقيم في الغياب، حيث العالم أشهى من الحضور المزيّف.

عيد ما يدقّ على الباب، ومعه يدخل البيت عدد مهول من البشر، يدّعي كلّ منهم أنّه ابن جلول المرعوب. كانت التالية تمسكُ شوقي وتتنازل لمنى وأمّها عن شرف خدمة آل المرعوب. وجوه مختلفة وقامات متعارضة، ونظرات بلا معنى، هؤلاء أبناء جلول من زوجاته وطليقاته الكثيرات، جاءوا لزيارة والدهم الذي لا يعرف أحدًا منهم، وكلّما اقترب أحدهم ليعرّف نفسه، كرّر اسمه وابتسم، كأنّ نطق اسم

أحد أبنائه نجاح بالنسبة له. بناته كنّ أجمل من أبنائه، لديه سرّ نسويّ في نسله، وكان بين الوفد أحفاد من كلّ الأعمار. «كيف أمكن المرعوب أن يطرُد هذه القبيلة من حياته؟» تساءلت التالية، وهي تعجز أن تجمعهم في نظرة واحدة في الفناء الذي يضيق بهم. «هؤلاء مغيّبون بمرسوم من جلول، فأيّ مرسوم غيّبني؟»، تضيف سؤالا، وتغادر الفناء إلى المطبخ. تشرب كوب ماء ثمّ تدخل إلى سريرها وتنام بعمق، دون أن تسمع نداءات أمّها ومنى المتكرّرة. فقدت السّمع والبصر والوعي وغابت تماما عن عالم جلول المرعوب والقرابة والجلفة، ولسانها يردّد: «المجد للغياب... المجدُ للغياب».

2/ معجم المنسي

عشرون سنة بحثا عن الحبّ

(1)

يجلسُ في «المكان» بعد أن التهمَهُ الغيابُ تماما. لا أحد يذكرهُ؛ لأنّه لم يُحدث ضجّة أثناء رحيله، ولا فعل في حضوره. على أريكة رثّة يغوصُ بلا مقاومة، يعلّقُ رجليه جسرا بين طاولة زجاجيّة وأريكته، ينتظرُ بشغف هذا الموعد مرّة كلّ شهر. بعد قليل سيمنحُ لصديقه القديم شارلي حقّهُ في إمتاعه. لطالما اعتقدهُ البطلَ والنّموذجَ، وسُرّ بعبقريته لدرجة كبيرة.

يضغط على الزّر فيبدأ عالم مثير أمامه. البعضُ يعتقدُ أنّه متأخّر عن النّاس، ما زال بالأبيض والأسود، لكنه يجزمُ أنّ الحياة بكلّ الألوان أشبه باللّغط، إنّها تدين بالأسود سرّا. الأسود والأبيض هما وجهة الصّمت والحكمة. عبد الحميد معلّمه وموجّهه لم يكن يحبّ شارلي ولا غيره، كانت السّينما ترفا بالنسبة له، ظلّ يحشدُ الصّرامة على ذوقه السّينمائي حتّى أصبح من المستحيل أن يجد فيلما يروقه.

عبد الحميد كان حكيم الحيّ وراعي الحبّ بين الجميع. يبشّر به في كلّ مكان، غير أنّ دوره الكبير تراجع بعد التغيير الذي جلبه الجيل الجديد. كان يَلزم الجزائرَ والجلفة والقرابة عبدُ الحميد جديدٌ، واحدٌ يؤصّل للحبّ كما يؤصّل الجميع للغياب، ويلزمهُ سينما على مقاسه بممثلين هادئين، دون صخب، مليئة بالمعارف والأخبار والعبر،

لهذا فيكفي أن يهتمّ بمكتبته، ويقرأ الكتب التراثية والموسوعات.

ها هو في الحديقة التي تواعد فيها عاشقان. كان وحيدا - مثل عاشقه - يدخّن سيجارته، يلتقط يحيى سيجارة ويوقدها بشغف. بالنسبة لهُ هذا ليس مجرّد دور إنها «عشرون دقيقة من الحبّ». إنه واقع، شارلي موجوع جدّا، شارلي مثلهُ يقدّس عالم الصّمت، لكنّه ليس مجبرًا عليه، هو عبقريٌّ عرف كيف يقول الأشياء بلا تبذير. الدّخان الذي ينطلق الآن من سيجارة يحيى بلا صوت. يرقصُ في الغرفة دون أن يُصغي إلى أيّ معزوفة. يتدلّى ويتفكّك. رحلة كاملة لا ينتبه إليها النّاس. يطيرُ ويتلاشى دون أن يكون لذلك أثر؛ لأنّه صامت. شارلي يفعل أيّ شيء ليحصل على حبيبة، صعلوكٌ ببعض شارب وقبعة سوداء وحذاء يكبره، صعلوكٌ بمظهر مميّز، مضحك حدّ البكاء، وبالغ حدّ الصّمت، يتألّق معه.

في الشّهر الماضي شاهد فيلم «أضواء المدينة» مرّتين، وربّما مرّات كثيرة. لا أحد من عصرنا الضوئيّ حدّ العمى يذكر الأضواء؟ كان يُفترض أن يشاهده مرّة واحدة، لكنّه أعاده مرارا، إنّه رجل بصريٌّ جدّا، يحتفي منذ صباه بالحركات والأجساد، يعرفُ ما يقوله النّاس من خلال حركاتهم وليس حركات شفاههم، لم يسمع يوما صوتا، يعرفُ أنّ النّاس يتساءلون كيف يواصل حياته في صمت، لكنه يتساءلُ كيف يتحمّلون أنفسهم؟ كيف يمكنهم العيش بلا تأمّل، بلا سكينة؟

أصبح أكبر ممّا توقّعَ. في الماضي كان يعدّ نفسه ليغادر الحياة في العشرين، كان يكفيه أن يصل ذلك الرّقم، عشرون سنة حبّ أفضل من عمر حاقد، لكنه لسبب ما بلغ الأربعين وأكثر، أصبح كبيرا ما يكفي ليتجزّأ إلى أكثر من صمت. ربما الحياة في السّكات أوسع وأكثر كثافة من الحياة في الصّخب، ولكن أنّى له أن يعرف طعم الحياة الصّاخبة؟

هو رجل يسير في خطّ واحد، والجميع يمضون في دوائر وحلقات.

خلال مراحل حياته العصيّة على الأسواق والجماعات والأفراح وكلّ ما هو جماهيريّ، كان يبحث فقط عن جزيرة نائية لا يُلاقي فيها من البشر أحدا. كانت أخته فيّالة تحبُّه كأنّهُ وحيدها في العالم، وزوجها يشفقُ عليه، أبوه أظهر بعض القسوة تجاهه، يعامله كذلك كي لا يشعر بالنّقص، وكانت أمُّه الحاجة عربيّة مجتهدة لتفسّر حاجاته وتكفلها، حتّى لا يشعرَ بحرج طلبها. لكنه لم يتعلّق بأحد مثل تعلّقه بإدريس والتالية. أحبّهما جدّا، رغم ذلك لم يعد يراهما ولا يشتاقهما

انتظر قليلا قبل أن يشعُر للمرّة الأولى أنّ شارلي لم يعد يكفيه، كأنّه اليوم فقط مات، شعر بالصّدمة وهو يواجهُ إحساسا قذرا كهذا، كان يُقاتل نفسه ليوقف إبهامه العنيد عن ذلك دون جدوى. وقعت الخطيئة وضغط الزرّ الأحمر، فاختفى شارلي العزيز إلى الأبد.

عندما أسودّت الشّاشة، كان يلمحُ عيني شارلي تذرفان، فبكى ساعتها، بكى بشدة، لم يكن ليفعل هذا، ليس من طبعه أن يخدع، ينسحب صحيح، لكنه لا يخدع الآخرين. هذه ليلة أقسى ممّا مضى، إنّه انفصال عمّا كان، فما الذي سيكون؟

(2)

في الصّباح وجد صدره بالون حزن. فكّر أن الأنسب الآن أن يغادر «المكان». ربّما يجب أن يترك رسالة لرقية والأطفال، ماذا سيقول لهم؟ هل تكفي اللّغة لتبرير هذا الانسحاب؟ هل ستكون رسالتهُ بطاقة كما ظلّ يفعل مع التالية دون أن يتلقّى ردّا أو إشارة؟ رقيّة كانت وما تزال تقول له: «في صَمتكَ حكايات لا ينضب ماؤها، وأنا عطشي إليك أبديّ». رقية التي رعت تيهه مؤخّرا، تستحقُّ منه هدية أكبر. عندما حلّ

في «المكان» كانت رقية أرملة بثلاثة أطفال وخوف معمّر على وجهها، جاءت إلى المكان فارّة من طمع وقطيعة أهلها. عرف منها أنّ الجميع بدأ يتحاشى الحديث معها، ورفض أغلبهم أن تدخل بيوتهم، ومنعوا نساءهم عنها، كلّ هذا لأنّها أرملة، وكانت تُقسم أنّ أغلب الرّجال تحوّلوا إلى وحوش تنهشها، حتى أصدقاء ورفاق زوجها. لم يكن في وسعه التوغّل في ألم رقية، فقد التحق بألمه، عندما وصل إلى «المكان». استعدّت لتواجهه بنظرة لبؤة جريحة، لعلّها سبته وهي تحرّك شفاهها وتغادر، بعد أن سألته حاجته غير مرّة ولم يردَّ بشيء. أغلقت باب «المكان»، وخلّفته مرعوبا ويائسا. كلاهما وصل إلى هناك ليحتمي، هل كانت غريزة ما تقودُ إلى ذلك المكان؟ الفرقُ أنّها اقتنت «المكان» بمالها، أمّا هو فحلّ كمأمور عليها. في اللّيل أرسلت سليمان ربيبها الذي ربّته، يحملُ حبّتي بيض وقليلا من البطاطا المسلوقة، مع قطع صغيرة من البصل، وخبز بيت ساخن يدعو إلى الخشوع. شعرَ بكثير من الحيوية وهو يلتهمُ تلك الوجبة الطّيبة. قبل أن ينهي الصّحن أقبلَ الطّفل بكوب لبن، فسكِر يحيى من ضيافة المرأة.

النوم قرب «المكان» منحه روحا جديدة، نفضَ الغبار عن قلبه الذي كان يخفقُ سرّا. الحقيقة أنه افترش الأرض في غياب أيّ معدن قابل للافتراش. كانت السّماء صافية، واستغرق في تأمّلها. ذلك الصّمت هو امتدادهُ الطّبيعيّ، هو فتنة الفوضى. نام مثل طفل هدهدته أمّه وجدّتاهُ معا، ولم يُفق عندما رمت رقية غطاء على كسور قامته.

شمسُ الصّباح أقبلت سريعا، والتقطته من غيبوبته الشّهية. عرف أنّه في «المكان»، وتمنّى ألا يفيق. أبقى على عينيه مغمضتين لثانية واحدة، قبل أن يفتحهما ليستسلم لاحتلال العالم الخارجي دون مقاومة. باب بيتها مفتوح، ولا يعرف إن كان يأتي من الدّاخل صوت

أم لا؟ اعتدل جالسا وانتبه أنّ الغطاء الذي لفّهُ ليلته الماضية هو ذاته الغطاء الذي اعتاده في منزلهم بالقرابة. أراد أن يجنّ، قفز من مكانه ينشدُ غيابا آخر، لكنّهُ توقّف قليلا، معه قليلٌ من العقل. قال في نفسه: ربّما يكونُ تشابها بين الغطائين! اقترب مجدّدا من الغطاء وتلمّسهُ، جلسَ وشمّ رائحته، إنّه هو، الرّعب يغطّي الأفكار، والغطاء يرتدُّ به نحو رحلته الطّويلة في الفراغ.

أراد أن يقول شيئا لرقية التي وقفت أمامه تنظر يمينا وشمالا. لم يكن هناك أنفاس في «المكان». كانا معزولين تماما، هو ورقية والأطفال الثلاثة. سليمان يشبهها كأنّه ابنها، يقترب من الخامسة، يؤجّل دهشة ورغبات بعينيه، تنبّأ أنّه سينفجر يوما ما. هناك طفلان توأمان قليلا التشابه، يتتابعان، يتدحرجان، يتداخلان ويقلّدان بعضهما، هما طفلاها من زوجها الذي مات، يملكان نظراتها وإن كانا لا يشبهانها. بدت مطمئنة له. كان عليه أن يجلسَ لأقلّ من ساعة؛ ليجد نفسه في قلب منزلها محاطا بأطفالها الذين يتأمّلونه في دهشة، كأنّهم اكتشفوا كائنا غريبا. تمنّى امتلاك لسان. ساعتها، هي فهمت حرجَهُ. أمّا الأطفال فظلّوا ينتظرون أن ينطق بشيء، بأعين مسمّرة. أعجبهُ إقبالهم على الحليب والخبز. عندما وضعت أمامهم المائدة الصّغيرة هجموا متلهّفين، وكانت شفاهها تتحرّكُ مبتسمةً. ربّما قالت لهم إنّ هذا السّلوك يحرجُها أمامهُ، لكن كيف تراها عرّفته؟ ومن تظنّه؟ كان يفسّر شوقها إلى رجل يقف معها، فجأة أصبح ذلك الرّجل المفترض. لم تسألهُ من يكون ولمَ حلّ في «المكان»؟ لم تُطل النظر إليه أبدا، أشارت أكثر من مرّة تقترحُ الأكل أو الشّرب، وعند اقتراب اللّيل همّ بالخروج فلم تعترض. اتجه إلى الزّاوية التي ألقى عليها عبء جسده اللّيلة السّابقة، تمنّى فقط لو أنّها تحضرُ له غطاءه الذي

سبقه في الغياب. أمضى قرابة السّاعتين قبل أن تخرج إليه. وقفت تتأمّلهُ قليلا، عندما رفع رأسهُ ابتسمت وهزّت رأسها تقيسُ مدى رضاه، وهزّ هو رأسه وشفتيه يطمئن عينيها الجميلتين، ولدى انتباهه إلى جمال عينيها كان عليه أن يدسّ نظراته في سواد الأرض، لكنها اقتربت وجلست بجانبه، شعر بقليل من الهدوء يتسرّبُ إلى داخله. بقي للحظات معلّقا بلا معنى. كانت يداها تعبثان بعشب الأرض، وكان يحبّ العشب، فأحبّ يديها ساعتها. اتّسع المكانُ والزّمان، وراحَ يصغر في هذا المدى. «إنها امرأة تستحقّ حياتي مقابل هذه الجلسة التي منحتنيها» قال في داخله. عندما أدار رأسه لينظر نحوها فعلت الأمر نفسه. فكّر للحظة لو أنّ له ما لها فما الذي يقوله؟ لكنه رجل لم يأس على لسانه يوما، لا يعرفُ كيف يجدي هذا الثّعلب لأنّه لم يجرّب متعه ولذّاته. أشارَ بأصابعه إلى خاتم ما، ودارت يداهُ مستفهمتين، وأجابت - ببراعة - إنّه مات. فاغرة فمها ومرخية رأسها إلى اليمين. كاد يشكر له موتهُ الذي منحه هذه اللّحظات، لكن الواجب دفعه نحو حالة من الحزن والصّمت الذي يجب في غياب الأحباب. امتدّت بهما تلك اللّيلة نحو حدُود الفجر، وشعرت هي بالبرد، لكنّها كانت سعيدة بقربه. عرف من نظراتها وحركاتها أنها تشعرُ بالأمان في وجوده، فانتصبَ في جلسته ليكون الحامي، وكلّما هدّه البرد وقلّص انتصابه عاد يقاومه. اعتذرت وتركته يتوهّم فروسيته. كان ينأى. خاف أن يعود إلى قصّته اللّعينة. كلّ الألوان والحالات والأذواق التي فرّ منها تتربصُ به، حتى الغطاء فوضويّ الألوان، كمفهوم الكلام، يلاحقه.

كاد يرتدّ إلى داخله المفجوع عندما نما ظلٌّ رقية أمامه. خرجت من بيتها تحملُ صينيّة، واشتعلت داخله لهفة ما لهذا الشراب الذي تحمل. بدا شايا. إبريقٌ يخطب في ثلاث كؤوس. أشعرهُ تصرّفها هذا

بأنه على قدر من الأهمية. أراد أن يشرح لها كلّ تفاصيله الضيّقة التي لم تجد مكانا في هذا العالم. أراد أن يبتسم، فتعرفَ أنه ممتنٌّ بوجوده هنا، بوجودها أيضا. لم يكن مستعدّا على الإطلاق أن يكون محبّا، ليس في أيّ وقت من حياته، ولن يكون يومًا. شعرَ أنّه رجل، رغم بعض النقص الذي لا يأتي على قيمته. جلست إليه تبتسم، تنظر إلى الأرض بعينين مفتوحتين كأنّهما تغتنمان فرصة النظر لآخر مرّة. يتعاملُ مع الأحاسيس ككنوز لا يهدرها، لهذا فيمكنه اكتشاف التركيز في إحساس ما، طالما كان يشمّ العطر كأنه يقرأ كتابا، ويفهم ما يقوله كلّ عطر، قد يفعل هذا لساعة دون ملل، وربما يفترش القطن عاريا ويتقلّب عليه لليلة كاملة. فعلها بعد أسبوع من رحيل أمّه، كان يشعرُ بالوحدة، ويستعيد صورها، فجأة تأكّد له أنّ الوحدة تتحوّل إلى حالة قطنية بياضا وملمسا. ولعلّه تجرّأ يوما واخترع مشروبا لم يعرف له طعما من قبل، وعندما كرّر المحاولة تباعا لم يحصل على الذّوق. كان منهمكاً في تقديس الحواسّ، وبدت رقية تستمتعُ بالنظر إلى الأرجاء، كأنّها تعرف أنّه لا ينبغي أن تنشد فيه متعة.

ذلك المشروب السّاحر دفعه إلى اعتناق مذهب رقية لاحقا. كان مهووسًا بالأعشاب، ربّى عشرات الأنواع، كانت علاقته بها طبيعيّة، خالية من الملاحظات العلمية، واعتمدت في البداية على التجربة الشّخصية، انطلقت من العدس، وانتهت إلى البَروَق الذي لم يشهد مولده. درس العلوم الطّبيعية لدى رجل طيّب أرهقهُ التلاميذ بالصّخب، وأرهقهم بالتجارب والرّحلات الأسبوعية إلى حقل المدرسة لمتابعة النباتات. نفر منه الكثيرون، بينما كان هو يستجيب لنداء النباتات. إنّها تشبهه، واقفة، حيّة، تمارس البقاء دون صوت، شعرَ أنّ بينه وبينها علاقة ما. كان العدسُ الذي زرعه أوّلَ النّباتات

التي تُطلّ عليه سريعا. في ساعات قليلة أخرجَ رأسهُ، واعتبر ذلك نجاحًا. لقد أثمرت فكرة من أدائه، وهنا كانت نقطة تحوّل، هنا أدركَ أنّه يمكنه أن يمارسَ حياة حركية دون الآخرين، وبدأ يعتزلُ النّاس فرحا. لم يتنقّل في البداية إلى «قبب العطايا» أرض والده خارج المدينة. كان يزرعُ نباتاته في غير مكان، أمام البيت بالقرابة، في الفضاء الترابيّ الذي لم يعرف التزفيت إلا حديثا. في الأحياء التي يمرّ بها، في حوافّ الملاعب، ومداخل المدارس والأسواق، في كلّ زاوية من المدينة الباردة... وضعَ له بصمة ونبتة تعلنُ ولاءها. أصبحَ فجأة ملكا وسيّدا لا يحتاج إلى أتباع من بني البشر، واكتفى بأتباعه. في تلك السنّ المبكّرة بين المراهقة والطّفولة كانت اللّحظات الحاسمة في حياته، كثيرا ما اختلطت عليه الأمور، لهذا اعتقد أنّ النباتات التي تقفُ في غفلة منه، في أماكن لم يزرها من قبل، تخاطبه أيضا، أو أنّها من زِرعه غير أنها لم تطلع حيث اختار لها.

(3)

أصبحت رقيّة - بسرعة - سببه الوحيد في البقاء. ليس في المكان، ولكن في الأرض كلّها، كان يجري مع الأطفال ويلعب معهم كأنّهم خارج الزّمن. الأرض التي تحملهم لا تهتمّ للوقت والأيّام. توقّفَ فيها سؤال الوقت، وباركت هي مسعاهُ بانشغالها بشؤون البيت، أو بـ«منسجها» الذي ذكّره بمنسج أمّه قبل أن تعتزله. كان يُمضي اليومَ في تهيئة محيط المكان أيضا. لا يعرف كيف اقتنت رقيّة الأرضَ، لا يعرف بأيّ مال تعيشُ، ولا يفهم الكثير من التّفاصيل. يواصل في دور الخادم.

في مساءٍ ما، زارهم شيخٌ وشابان، ورفضوا دخول المكان. وبينما كان الشّيخ يوجّه خطابا قاسيا لرقية، رزح يحيى تحت نظرات الشابّين

الحاقدة. كانت تبرّرُ وهم يهمّون بالمغادرة، ثم يعود الجميع ليصغي إلى خطاب الشيخ. هذا الصّنف من الشّيوخ يعرفه، يشبه جلّول المرعوب والد التالية. لا بدّ وأنّه من أقاربها؛ فقد قبّلت رأسه. يعرفُ لا حقا أنّه والد زوجها، وأنه مستاء لأنها أدخلته حياتها، ويعرفُ أنه أصبح زوجها؛ كونها لم تجد حجّة لتقديمه. أراد الشّيخ - بقوّة - الحصول على ربيبها سليمان، وكانت تترجّاه أن يتركه معها، وعندما غادر طلب منها أن تحضّر نفسها لتسليم الطّفل. لم يجد يحيى حالة تليق به في وضعه ذاك، أصبحَ منذ ساعات متزوّجا وربّ أسرة، وهو لا يملك إلا اللّباس الذي على جسمه المتعب. لم يكن السّؤال كيف تزوّج وهل يرضيه الوضع؟ بل كان: «كيف سيكونُ مع أسرته الجديدة؟».

لم ير أحد العجوز بعدها؛ لأنه مات سريعا وترك لهم فرصة المواصلة. كان سيفسد الكثير من التفاصيل لو واصل لسنة واحدة، واختفى تماما ابناه، بل إن سليمان كان ابن يحيى ورقية، ولا خال له؛ لأنّ رقية لا تملك أشقاء ذكورا.

تريد بشدّة أن تعرف أصله وفصله، وتسعى إلى ترسيم وجوده، فلا تعثر على صفة أنسب من الزّوج. وهو يتنقّل من وضع لآخر بكثير من الحرج والتردّد، لا يملكُ الشّيء الكثير ليرويه لها.. «هل من المعقول أن أهمّ شيء في حياتي حصل بالصّدفة؟» يتساءل، ويتصوّر أن ذروة وجوده هي ليلة. صُعق وعُذّبَ، ثمّ تُركَ في مواجهة الموت بعيدا عن أرضه. كيف سيقول لها إنّه أمضى سنين حياته هادئا، لم يزعج أحدا، ولا أثار ضجّة ولا كان بارزا؟! غيابه كظهوره، والأهمّ أنّه لم يجد رعاية خاصّة إلا من عبد الحميد الذي ظنّ أنّه بصدد عجينته السحريّة قبل أن ينتهي منه. كيف سيشرحُ لها؟ لا بدّ وأنّ اللّسان عضلة هامة يمكنها إيقاف هذه الهواجس التي تكاد تعصف بعقله، لا بدّ وأن لسانه الميّت

حالة خارج البلاغة والفهم، إنّه غير عاقل، شيء فقط. ليس معه الكثير من العدّة لمجابهة أسئلة امرأته، هي هاربة من خوف قديم، وهو بلسان الهرب يفتش عن المعنى. فجأة وجد نفسه يكتب لها: «أنا رجل بلا لسان، ولكنّ قلبي وعينيّ وروحي ملك لك». وكانت سعيدة وهي تقرأ ما كتب لها، فتجيبه على الورقة ذاتها: «أنا سعيدة بك، خطّك جميل ووجهك أيضا، يكفي الصّدق الذي بعينيك لأشعر أنّه ليس خلفك ما يريب».

لم يصدق اقتناعها، ظلّت الأسئلة مقيمة أعلى شفتيها، أصبحا زوجين بدائيين لم يكتشفا أفقهما الجسديّ، كان يجلسُ في البيت قليلا ويهيّئ محيط المكان كثيرا، ولم تهتم هي بغير الطّهو أو الاعتناء بالمكان، أحيانا كانت تساعدُه في عمله، بعد أقلّ من شهر كان يتوقُ لضمّها، كانت هي تعتني أكثر بنفسها، ربّما وجدت هيكل رجل تعلّق عليه بؤسها الأنثوي؟ ربما وجد امرأة ينتمي إليها طالما لم يعثر على وطن.

عندما تحرّك الرّجل الأربعيني اليائس كانت تكتب له «يجب أن تحضر وثائقك لنتم الزّواج ونشهره قريبا»، وكان يخطّ لها «الأمر ليس بهذه السّهولة»، أرادها أن تصمُت وتحتفظ به كما بدا بلا هوية واضحة، ودون التفتيش في خيبته وخوفه وهربه، لكنّها بدت أكثر تمسّكا باكتشافه، أصبحت تقترب منه وتقرؤه باستمرار، تشمّه وتلمسه وتضمّ أشياءه، كأنّها تريدُ أن تستوعبه فكرة وموجودا بسرعة وتنام بعدها مطولا.

كان يتساءل «هل عثرت عليّ أم عثرت عليها؟» أيُّهما يُدين للآخر بجميل؟

بالنسبة له، كلّ الجميلات هن اقتراف التالية، كلّ الأشياء الجميلة

هي من أنفاسها. ما يزال يعتقد روحه حيث تنقّل نظرها، ويكفل نفسه لها متى أرادت. فما الذي يشعر به الآن نحو رقية؟ هل تحلّ التالية في رقية كما فعل المرعوب مع الشّيخ الصّارم القاسي؟

في تلك الأمسية، خرجَ إلى شجرة بطم كثة، باردة، وشاسعة كأمّ، جلس داخلها، ودفع عنه البكاء طويلا. فكّر بعمق، ما الذي هو فيه؟ هل هي حياة أم دوامة عذابات تتسلّمه خلالها الظّلال والنساء والأماكن؟ كان يتأهّبُ جادًّا للجنون، عندما وضعت رقية يدها على كتفه. سحبَ وجهه نحو صدرها وتركه، ثمّ اجهشّ كطفل حطّموا لعبته أمام عينيه. ظلّت يدها تمسح رأسه، وتطردُ الخوف والشكّ والتيه حتى هدأ تماما. مجدّدا ليس معه لغة. حرّك رأسه قليلا، وقبّل يدها التي ترعاه، ولم يعرف كيف غادر إلى داخله، ثمّ انفرط من الجاذبية. أكان يغوصُ في مداها؟

ثلاث غيبوبات في قبب المنايا

(1)

شارف على الموت، كان يراهُ يقترب رحيما هادئا وحكيما، كان نجاة من العذاب الذي سلّط عليه بكثافة، دون أن يتجهّز له. لقد ظلّت أحلامهُ تلقى تفسيرا في كلّ مرّة. رأى ليلتها أنّ طائرا كبيرا يجثم على صدره، وأفاقَ مفزوعا ليجد إدريس يتحرّك ويلوّي شفتيه. كان يريدُ أن يطلب كوب ماء، لم يشعر يوما أنّهُ بحاجة لخدمة أحد، في تلك اللّيلة أراد حقًّا أن يحصل على الماء دون أن يغادر فراشه، وهذا أمر قلّما يحدثُ معه، فالذي لا لسان له لا يُوقظُ النّاسَ ليطلبَ منهم خدمة، لو أنّ نباتاته التي سقاها دائما عاقلة لسقتهُ قطرة من مائه، لكنّها ممعنة في الهدوء، كأنّها في صلاة أبديّة. مرّت الثّواني دهرا، وإدريس يتقلّبُ ويهذي بكلام ما. كيف كان سيتمتمُ نائما لو كان أخرس؟ ربّما بحركات أو لعلّه يئنّ فقط. دفع نفسه دفعا إلى قارورة الماء التي تحرسُ إدريس، هل للماء صوت؟ هل له روح؟ تعوّد أن ينظر إلى الأشياء باحترام، يعيش ما يصيبها من وجوم أبديّ. يحسّ بالهامش القسريّ الذي تركنُ إليه في دنيا الصّخب.

كان الظّلام موعد الشّياطين، والنّور فكرة الأبرياء. الشياطين تصلُ موعدها، ويبقى النور فكرة يتوارثها الأبرياء. طالما كره يحيى الظّلام، لم يحبّ أن يكون أعمى أيضا، ولولا وجود إدريس معه لنام أسفل

مصباح الفيوز، لو فعل ذلك لتردّدَ الطّائر الضّخم في الاقتراب من أحلامه، ربّما كان الكابوس وقتها صوتا ما يسمعه أو كلمة ما ينطق بها.

بالنسبة له، إدريس هو أكثر من ابن أخت يرعاه بلا إملاءات وأستاذيّة، لا يُريد أن يكون عبد الحميد آخر، يكتفي بحبّه وباحترامه، إنّه أكثر شخص تعلّق به منذُ صغره، كان يشعرُ أنّهُ ابنه، وكلّما رافقهُ في الشّارع سعى إلى منحه أكثر وقت للدّردشة مع الآخرين. لم يُرد أن يدخلهُ عالمه الواسع كلباس عربيّ، أراد منه أن يكتشفَ ضيقَ والتصاق العالم وأجزائه، أرادهُ أن يتحدّث ويسمعَ الآخرين؛ ليعرف كم هم متشابهون، وأن يتجنّب نموذجهُ الذي قد يسبّب له فشلا ذريعا في الحياة، أراد أن يهتمّ بالخطّ متأثّرا به، ولعلّه تعلّم أن يحسّن كتابته، لكنه لم يرد أن ينقل له هذه العدوى. كان يكتب بعضَ الرّسائل والتعابير بكثير من الإتقان، كأنّهُ رجل يتحدّث والمطلوب منه الإقناع. البلاغة في صمته أن تكون العبارات مكتوبة بخطٍّ أنيق ومدهش، اكتشف أنّ ذلك يجعل الكثيرين يقرؤونها مراراً، وبالتالي يذوبون في جمالياتها، واكتشف أنهم لا يكادون يدركون المعنى من كثرة تأمّلهم لفنّه البديع، وقد بالغ في معجزته التي كانت تحوّلُ أغلبهم إلى أغبياء ومشدوهين، بل وإلى معجبين، ليس بمعانيه التي تضيعُ من فرط جمال الخط؛ بل بمعجزة الأخرس التي عوضه الله.

كانت تلك عطية من الله، وكان قد أسكت عطشهُ وعاد إلى فراشه يستعدّ للنوم. فجأة قامت قيامته وانتهت حياته إلى أكثف عذابٍ ممكن. لا يسمعُ شيئا من الضّجيج الذي أحدثه المجهولون، لكنّه يرى الفزعَ يلبسهُ ويلبسُ إدريس. من أين جاءوا بهذا الرّعب المركّز ليقذفوا به مرّة واحدة في الطّبيعة الصّامتة التي عاشها طوال حياته؟ إنّها خيبة فنية كبيرةٌ، تقديرٌ غير موفّق من قبل المجهولين.

كان كرة تعبث بها أرجلهم وأعقاب بنادقهم. أخرجوهُ من المنزل القرميديّ الحكيم إلى عري ليليّ لا رحمة فيه، وانهالوا عليهِ كأنّهُ المجرمُ الأكبر. أمل - للحظة - أنّهُ تطهير وأنّهم من غير البشر، ولم يفكّر أبدا في حياته القادمة؛ لأنّه قرّر عند ظهور تلك الكائنات أنّها آخر ليلة، بل آخر لحظة. تذكّر أنّ أغلب الموتى يطلبون الماء قبل رحيلهم، وهمّ أن يطلبه؛ لكن بأيّ لغة يفهم هؤلاء؟ ركن إلى صمته الأبديّ، وعزّى النّفس بالماء الذي سقى به روحه المرتعشة كحمامة ترى ذابحها، أو كشيطان آثم يسكنُ جسدا طاهرا. لكنّ جسده لم يمسّ النار ولا النور، جسدٌ لا يعرف تفاصيله أحد غير طفولته التي رعتها أمّه عربيّة ثم أخته فيّالة. هل سيكون مصيره الدّود؟ ولم يركّز في ألمه، الوقت كان مخصّصا للحكمة والتفوّق الإنسانيّ الذي أجلّه. كان يقتنصُ نفسه من غيابه قبل أن ينتهي، لأجل هذا فقد سعد أن يتحلّل قريبا فيصير سمادا للعشبِ.

إلى أين يأخذه الغرباء؟ لم يعد يذكرُ إلا الحركات السّريعة التي تحيطُ به. أحدهم اجتثَّ عقدهُ الفضيّ الذي طوّقَ عُنُقهُ لسنوات، أيكونُ مسعود بلخضر يريدُ استرجاع هديّتِهِ بعد كلّ تلك السّنوات؟! شعرَ أنّ الدّم قد نفرَ مع العقد، لو أنّ له سمعاً لكانت مشهديّةٌ أعلى قيمةً في ميزان السّينما، لكنه اكتفى بالرّيح والهواء. أدرك أنّه راحلٌ عن أرضه وسمائه، لم يعد الهواء مألوفا ولا الرّيح أيضا. غاب عنهم وعن الدّنيا وهو يرجو فقط أن يكون إدريس قد نجا.

(2)

«الموت أعظم من أن تدركه أيُّها العمى». هكذا صاح داخله بدواخلهم. كانوا مجموعة من العميان، وهو معزول صوتيّا، لكنّه

يقيسُ حجمه وحقّه ونوعه، يعيشُ بلا جدل ولا نظام، يفكّر في اللّحظة ويقدّسُ بقاءه. وضعوه في جهة أخرى، غير الجهات الأربع، كان الرّجل الأكثر رضا بواقعه ولم يكن يستحقُّ هذه العقوبة. فكّر في معنى الضّوء وسط هذا الظّلام العميق، لو أنّ كوّة نور صغيرة تضيء؛ إذن لشعر بالأمان ورضي بباقي العذاب.

لم يلتفت، ما جدوى الالتفات! ولم يستدع بصره، فلا جدوى للبصر ولا رؤيا! لكنّ روحه كانت تدور وتجري متعبة في أرجاء انسحاقه المفاجئ، كأنها أرملة خرساء. خبر خطاهم وهم ينصرفُون إلى ما وراء الحياة من حيث جاءوا. لم يسألوا عنه، لا يسعهُ سماع صوت لهم، لكنّ الأرض والعشب الظمآن يُخبرانه أنّهم غادروا. لا يعرف كم بقي ملقيًا لصيقا بالتراب، لا يستطيع أن يجزم بشيء سوى يقظته المتأخرة.

كان يحاول أن يبقى في اللازمان، يزحفُ نحو الفراغ واللامعنى. لو عاد فسيجد نفسه في مواجهة ألف سؤال. أين إدريس؟ ألا يكفي هذا ليرسلهُ كرة في ملعب الشيطان؟ بقي هناك مصرًّا. كان في وسعه التحرّك، لكنّ صوتا ما أمره أن يبقى إلى أن يموت. ولأنّه لا يعرف كم مضى عليه من الدّهر ممدّدا بلا اتجاه، فقد استسلم سريعا لغيبوبة أخرى بعد الأولى، وكاد يجزم أنه سيموت فيها، لكن لم يحصل ذلك؛ لأنها أمطرت بغزارة، وأعيد إلى وعيهُ المنهوش. كان المطر مختلفا عمّا عهده، والسّماء أكثر ضوءا. لم يتح ليحيى أن يفتح عينيه، حاول أن يفتح فمه ونجح قليلا. ضربات المطر القاسية، الرّحيمة في آن، آلمته كثيرا. كان جسدا هشّا، لا يحتمل وخز الحشيش تحته، ولا لطم النسيم، وطبعا ليس ضربات المطر العنيفة.

شرب من ماء السّماء، وشعر بتلك القطرات وهي تفتح ممرّها في

جوفه اليابس المشقّق، لا يعرف كم قطرة شقّت كهفا في الانغلاق الذي سكنه. لكنه أنقذ نفسه بفتح فمه المدمى. يظنُّ الماء تسرّبَ مع الدّم وبعض القيح جرّاء تشقّق فمه، كانت أسنانهُ تؤلمه بشدّة، وكان يئنُّ بلا صوت، مقلوبا على نفسه. كلّ شيء يحصل داخله، ولا شيء خارجه، سوى النُّور الرّهيب الذي لا يعادله إلا الظّلام الذي اعتاده. أخيرا هو كمن خبر العمى، ثمّ يخبر استعادة البصر، بدا له أنّ البرد جمّده فلم يحرّك شيئا، عدا فمه الذي يفتحهُ قليلا، ولسانه الذي بالكاد يقبل بعض أسنانه، وعينه اليمنى التي تعتقدُ أنّها ترى سماء تلتهم الأرض.

استغرق المطر سنوات طويلة، ووجد يحيى نفسه ينجحُ في النّأي عنه. أصبح كائنا مفصولا عن نفسه، لم يفكّر في معناه ومكانه ومصيره، كان معزولا عن أيّ حالة وعن أيّ تصوّر، ورغم أنَّ المطرَ يزدادُ هطولا ويضيءُ في كلّ مرّة، إلا أنّه لم يسعَ لتفسير الرّعد والبرقِ وما بينهما عند الفتى الأخرس، اكتفى بتصوّر أنّ المطر له صوت وهو لا، واكتفى هو منه لكنّه لا يكتفي، كأنّه جيش يستعمر الأرض اليباب، لهذا فإنه لا يذكُر كيفَ ولج غيبوبته الثالثة بهدوء أكبر وبألم أقلّ، لعلّه اعتاد ذلك الألم، تلك التشقّقات التي يفتحها المطر، تلك الجراح التي تندى، والكسورُ التي تُسحق، لعلّه بلغ مداه.

هذه المرّة تراجع الضوء، واستعاد الظلام سطوته، قال في نفسه المعذبة: «من عطايا الدّنيا أن تكون أصمّ أبكم أعمى، فأنت ساعتها لا تقدّر الخطر الدّاهم، تسقط فجأة بين فكّي الوحش وينتهي الأمر». وربما كانت تلك العطية التي افتقدها لدى ظهور الوحوش يومها، لو أنّه كان كذلك لما عرفَ بأمرهم وأمره، ولا تعذّب كلّ هذا العذاب.

هل كان للوحوش دين يدينون به؟ هل يدين لهم بدين؟ تمضي الأسئلة مجدّدا إليه كأنها تتحالف مع الألم، خاطرٌ ما يخبرُه أنّ ألما

بهذه الكثافة لا تأتي من ورائه إلا عطايا مقدّسة. أيكونُ الخارقَ الذي ينقذ قبب العطايا والجلفة والقرابة والتالية وإدريس؟ لا يدري إن كان ناجيا وخارجا من هذه الهوّة، غير أنّه يشعرُ بانتفاخ جسده وعودة روحه، إمّا أن يموتَ قريبا أو يعمّر ويعبر بسلام أو ببعضه.

نزعهُ المطرُ من العشبِ الذي تمدّدَ أسفله، وكاد يجري مع عروقه الجافّة. يتحرّك بصعوبة، ويلتقط أنفاسه دون تقصّد. الحجرُ الذي ظلّ جاثما على صدره تفتت بعد مطر ارتدى ثوب الأبديّة. بعد جهد استطاع أن يقتلع يدا لا يعرف إن كانت اليمنى أو اليسرى، ولكنه فشل في طيها نحو وجهه البعيد، أيّ وجه يكون له بعد عبور جهنّم؟ شعر أنّ مصيره سيكونُ النهاية رغم استرجاعه لبعض رغبته في الحياة. لا أحد يمكنه أن يقفَ هنا ليدعمه فيقفَ، لا يد تحملُ ماء دافئا يشرب منه فيتفتّح، لا صحن حساء ترغبه معدته المعجونة فتفيق بقاياه.

يطمئن قليلا عندما يزداد جسمه بردا، به رغبة في التكوّر، ربما كان يفعل ذلك ولا يدري، فصورة جسمه لم تكن واقعيّة وهو ممدّد بقامة معتدلة، هل كان مقلوبا، على بطنه، على ظهره على جهة ما؟ هل كان في وضع طبيعي ليتساءل عن وضعه؟

(3)

تحمّل كلّ ذلك العذاب كي يستعيد نفسه، ليبقيَ بعض العقل الذي يقيس به حيرة أنفاسه. عندما أرسلت الشّمس أولى لسانها على جسده المالح، بالكاد فتح عينه اليمنى، فبدا له العالم مطمئنّا. اليسرى كانت كومة من الدّم وانتفاخا يغمّ الرُّؤيا. أراد أن يتحرّك، لكنّ أقلّ نفس يأخذُهُ يسحبُ ملابسه من جراحه التي جفّ دمُها، فيحدثُ الأمر ألمًا رهيبا. انتظرَ قوّة خارقة تلتقطهُ مرّة واحدة وتضعهُ على قدميه. في

قبب العطايا لا عطيّة إلا الخواء، كفر بنباتاته كلّها، وبالحرف العربيّ الذي ظلّ يغريه بالبقاء ويؤنس صمته بالتواءاته. ظنّ - لسنوات - أنّ الحروف العربية وحدها تملك الأسرار ولها روحٌ، واعتقد على الدّوام أنّ الفرق بين الحرف العربيّ واللاتينيّ أو غيره مثل الفرق بين إنسان وجهاز، لا يمكنُ أبدا أن نفاضلَ بين دقّة خلق إنسان ودقّة صنع آلة. الآن في تمدّده هذا يفضّل صمته الذي أراده الله له.

كلما زاد الوقت تمدّدا ازدادت الشّمس توهّجا، كانت تطلعُ كلّ يوم رغم الإقامة في قلب الحقد، رغم أنّ القتلة يحكمُون المصائر، تبخّر الماء الذي بعثه وجمّده، وانتصب العشب المجاور غير مبال بالحكاية وبنائها الغريب، بل تهيّأ كأنّه أمام عرض مخرجه مجهول، وبطله جسد يُحتضر.

يعتقد يحيى أنّ الزّمن كذبة، نحن من نفسّرُ الوقت ونقيمُ مجدًا للسّاعة، ألم يمُت هنا غير مرّة ويُبعث دون أن ينتبهَ الوقتُ له أو ينتبهَ هو للوقت؟ وإذا كان للوقتِ سطوة ففي أي جهة منه كان؟ بل إنّ المكان يبدو له كتلة واحدة نجزّئها لتفاهتنا فقط، ولو كنّا أكبر في وجودنا لرأينا العالم مسكنا ضيّقا، والأرض حديقة صغيرة، والبشر بعض جيران، لكنّه في عمقهِ وضياعهِ ووحدته البيولوجية لا يملك إلا أن يحاول مجدّدا التحرّك، وهو ما فعله مرّة أخرى غير شاعر بجزئه السُّفليّ ولا العلويّ، ألم فظيعٌ كان ينتشرُ في وسطه بدءا من أسفل العمود الفقريّ ويعودُ لينكمش بعد توقّف محاولته الحركة، كم تؤلم المناطق الوسطى؟ إنه عالم متطرّف.

سرى دفء شهيٌّ في جسده المكسّر، تغلغلت الشّمس المكافحة بعد ماء عنيف وبدأت تحقّق وجودها في ساحة جسده، الآن يشعرُ بلذّة ويقدّرها، أن تتحالفَ آلامك يعني أنّ أيّ لذّة عابرة ستكون مبعث

سرور. ما يزالُ غير متعوّد على فتح عينيه، فكلّما فتحهُما عادتا آليا إلى الانغلاق، وينسى أنهما مغمضتان، فيواصلُ تخيّل العالم بدل مشاهدته. اللّذة العابرة القصيرة دفعته إلى فتح عينه، ولم تنجح في رسم ابتسامة على وجهه غير المرتّب. فتح فاكتشف أنّ ظلا يظلّله، أغلقهما مسرعا، إنه ظلّ بشريّ، كأنّ الحياة عادت على هذه الأرض. شعر بخوف كبير، ولم يتمكّن من الموت حينها ليكتفي من البشر. ليس من كتم أنفاسه التي تسارعت، فصارت بالونا تعبث به رئتاه الباردتان النّديتان. يدُ الظلّ كانت على جبهته الجليديّة، يده ليست ببرودة الظلّ. قال في نفسه: «إنه ظلّ الشّمس، هي الشّمس ترجّلت يا يحيى». ولعلّه رمش بعينه فلم ير إلا ساعة على رسغ مُشْعِر، إنّه رجل إذن، وليس شمسا.

مرّر الظلّ يده على جسمه متفحّصا أنفاسه وحرارته وجيوبه الخاوية، وهو يواصل موقفه السّلبيّ، كان يعرفُ أنه سيواجه مساءلة أخرى من هذا الظلّ، ماذا سيفعل ليفهمه كلّ المشوار الطّويل الذي عبر منه؟ هل يمكن أن يكون خبيرا وعارفا ويكتشف الأمر دون شرح مفترض؟ خشيته المآل دفعته لتمنّي تلاشيه. دعا أن ينزلَ الظّلام سريعا؛ فيغيبَ عنه هذا الظلّ اللّعين، لكنّه - لأمر ما - دفع جسمهُ الرثّ ليقلبه فتأوّه. لعلّهُ صرخ. ابتعدَ الظلّ قليلا. صارت حركتهُ أسرع وهو يعودُ إليه. لا بدّ وأنه يتكلّم، لا بدّ وأنّه يسألهُ عن وضعه وماهيته وانتمائه وحالته قبل وبعد، وعن آماله وأحلامه، وعن التالية وإدريس، ولا بدّ أنّه لا يسمعُ كطبيعته، ولن يجيبه حتى يراه.

سحب الظلُّ ماء، ويحيى منتظر أن يكتفي باللّمس والكلام، لكنه فاجَأ توقّعه بمطر جديد لا يريدهُ في مرحلة الدّفء الصّغير تلك. لم ينعشهُ الماء، ولا أرجأ حكمته، لم يكن سوى سببٍ في تأوّه أو صراخ

جديد ورغبة في الحركة. بعدها راحت راحةُ الظلّ تمسحُ وجههُ ولحيته الشعثاء المغبرَّة. كان يتلمّسه دون أذى. تسرّبت إليه علامات ارتياح، أمل أن يكون ظلاّ صالحا، أيفتح عينه ليراه فوقه هالة، بطوله الخرافيّ وملامحه الغائبة؟ أم يواصل تجاهله إلى أن يغضب فيتركه، أو يأتي على ما تبقى منه فيرسله إلى الغيب؟

انتظر قليلا ليرى ما يبدر منه أيضا فلم يكن من شيء. توغّل الفضول إلى داخله الخرب، فعاد إلى التأوّه ليلفت انتباهه أو ليدفعه لفعل حركة ما، لا شيء يبدر منه، ظنّ أنّ عليه التّظاهر بالرّغبة في الحركة ليساعده أو يمنعنه. فعل، فالتهب وسطه مجدّدا ولم يحرّك الظلّ ساكنا. هنا اضطرّ إلى النضال مرّة أخرى وفتح عينه، والمفاجأة أنّه لا أحد أمامه أو فوقه أو تحته، كأنّ الظلّ فقد الأمل، أو أنّه لا قبل له بمجابهة ظلامه. شعر أنّه طرد مسعفه بخوفه المبرّر، وارتدّ إلى خيبته يرقب انكسار الشّمس وانسحابها.

كان مرعوبا من اللّيل القادم، من البرد المتأهّب، لا يخيفهُ خطر واضحٌ، يخيفه المنحدر السّحيق الذي اعتقد أنّه خرج منه، يرعبهُ أن يلج الغيبوبة الرّابعة، لا يعرفُ كيف ستتعامل السّماءُ معه في ليل محتمل، هل ستمطر؟ ربّما ستُثلج ويتجمّد، ربما سيتحوّل إلى مومياء يكتشفها إنسان القرن القادم ويجري تجاربه عليها، أكيد سيكتشفون ساعتها الوضع الذي كانت عليه المومياء، كسورها الدّاخلية والخارجية، لعلّ العلم يمنحهم قدرة اكتشاف الحالة النّفسية التي انتهت عليها حياة المومياء، «هل سيعرفون رعبي؟ قياسا بما أصاب جسدي فالرّعب مبرّر» يقول داخله.

عاد إلى النّكوص. عيناه مغمضتان ولا سمع له، هو الآن معزول مرّة أخرى، الفكرة الوحيدة التي استولت عليه هي التحلّل أو الالتهاب.

رأى أنّه يناسبهُ أن يتحلّل فلا يُرى لهُ أثر، أو يشتعل كتلة من نار وينتهي حفنة رماد، لا أحد يحفظها ذكرى في قارورة. دمعة يائسة كانت تنفر من عينيه فتلهبُ الجرح الذي انطلقت منه، وصرخةٌ مقلوبة كانت تدوّي داخلهُ فتوسّع الدّاخل المظلم أكثر من الخارج الظّالم.

لم يكن يرى احتمال كوّة نور أو أمل. بدت اللّحظة حاسمة عندما عادت يد تجسّهُ، بل كانت تمسحُ عنه الدّمعة الرّمادية التي تدحرجت في ثقل الألم، إنّها يدُ الظلّ، لم يتردّد ثانيةً واحدة في فتح عينه مجدّدا كي لا يبدّل الظلّ رأيه. عندما فتحها وجد ظلالا كثيرة تحيط به، ولأنّه نظر نحو اليد ولم يحرّك رأسهُ؛ فقد كان هناك ثلاثة ظلال مضيئة تحدّق فيه، لا يسمعُ ما تقولُ، لكنّ شفاهها تتحرّك كلّها في آن، ربما تكونُ هناك ظلال أخرى تُصلّي حوله، اكتفى بالثلاثة وركّز فيها، في حركاتها، نظراتها، توجّسها البادي أسفل الشّفاه والعيون. كان يعرفُ أنَّ لحيته مأزقه، سيتركونهُ هناك، فقط لأنّه رجل ملتح فإنه في حكم الميت في زمن كهذا، لعلّها لحية شيوعيّ، ماركس، شي غيفارا، انرست همينغواي والأمير عبد القادر كلّهم ملتحون. تمنّى للحظة لو أنّه يملكُ لسانا فيردّ عنه التهمة، ولشدّة تركيزه شعر بوهن أعظم؛ فلم تشتدّ جفونه أكثر، وأطبقت على الضّوء. خشي - إن واصل فتحهما أكثر - أن يعود للانخراط في غيبوبة تمنعه من اكتشاف ما يجري حوله. فضّلَ حضورا باهتا، وتصوّر الأحداث، بدل مناقشتها وإبداء الرّأي فيها عبر عينين واهنتين حدّ البياض.

كانت الظّلال تتأهّبُ لوضعه على لوح ما، سيعرف لاحقا أنّه باب، وكان يتمزّق في أثناء فصله عن الأرض وعن العشب الذي نما داخله. كان عذابا آخر مركزا حدّ محو ذاكرته المعذّبة كلّها والبدء مجدّدا. بالكاد وضعوهُ على الباب ذاك، حتى شعر أن جسمهُ الملعون قد تحوّل

إلى اسفنجة متشبّعة بالماء القذر، أينما تمسّها تؤذيك، وأشفقَ على الظلال المضيئة من عفونته ودرنه القديم، لكنه لم يبد رفضا إزاء رغبتهم في امتلاكه.

نام قليلا في الطّريق مستمتعا باهتزاز منظّم، كطفل ولد للتوّ، لم يفكّر في فتح عينه أو اكتشاف وجهتهم في غياب الجهات، هل استغرق الأمر زمنا؟ لا يدري .كان قد وصل حيث تقيم الظّلال، وشعر بالماء السّاخن الذي غمر جسده، غسلوا ما يمكن غسله، كان يقظا، لكنّ خجله أكبر من أن يواجه الوضع. «هل أنا عار تماما؟ هل تراهم يغسلونني غسل ميت؟» تساءل مستمتعا برفقتهم. أكثر شيء يهمُّهُ هو شعورهُ بالحياة تتسرّب مجدّدا إلى عروقه الجافة، أمعنوا في الغسل وأمعن في اللّذة.

عندما وُضع متألّما على الفراش، كانت عينهُ تسترقُ النّظر إلى المكان. شعر بدفء وحميمية. أيقن أن الظّلال لن تؤذيه. مدّدوه على فراش وثير قليلا من الوقت، ثمّ أجلسوهُ محاطا بأكثر من وسادة، رائحةُ الأمّهات تفوحُ من الوسائد، وعينهُ تطلقُ دمعة أخرى يمسحها ظلّ ويربت على كتفه، فيشقّ للألم طريقا. فتح عينيه تماما، وقرّر أنّ يواجه. وجد أمامه رجلين بملامح قاسية وعيون طيبة، كانا يتشاوران في وضعه، وكان يرى بخار صحن يبدو أنه يحوي وجبة ساخنة، سرعان ما قرّبها أحدهم وبدؤوا في إطعامه، كان يحارب لينجح في ابتلاع الحساء، ألم رهيب على شفتيه وداخل فمه، لثّته وحلقه ومعدته تلتهب جميعا. استطاع أن يأكل قليلا، وتعرّق كثيرا، وشعرَ أن الأرض تدور به. ركّز بهدوء كي لا ينخرط في غيبوبة ما، وتوقّف عن فتح فمه للأكل. بدأت الحياة تعود إليه بتثاقل، والظلاّن لا يخفيان سعادتهما.

نام جالسا لوقت، كان يفيقُ ليجد نفسه وحده، وينام ويفيق ليجد

طفلا يتنطّط، ثمّ يعود إلى النوم ويفيق ليجد الظلام. يعدّل ظلٌّ ما وضعه فيتمدّد ويواصل تهجئة النوم. لعلّه قضّى يومين في حالته تلك. وقبل دخول شيخ والظّلال الثلاثة متأهبين لشيء ما، ابتسم قليلا، وقد استعاد من وعيه ما يكفي ليفعل. وبلا مقدّمات، شرع الشّيخ يتحسّس جسمه المهترئ، أراد أن يعرف طبيعة الفحص وسببه، لكنّ الألم كان ينطلقُ من كلّ مفصل وعظم وعضلة. لم يعد هناك ما يصلح فيه.

لم يستغرق الفحصُ كثيرا ليشرعَ الشّيخ في تحضير خلة ما، لطخة صفراء ترابية، ربما تكون طينا أو عجينا. وشدّت الظلال يحيى، مدركة ما هو مطلوب منها، ولم يكن به خوف. سحب سكينا فأدخل الشّكّ إلى قلبه المذبوح، شقّ سروالهم الذي ألبسوهُ، كاشفا ساقه اليُسرى، شدّ على السّاق بعد مسح سريع في نقطة يسكنها ألم الدّنيا كلّه، فابتلّ صدر يحيى وجبهته عرقا باردا، شرع الشّيخُ يقوّم السّاق كأنّه يقوّي الخطى، قبل أن يضع لطخته وقطعا من الكارتون والقصب، ثمّ يربطها بقماش ويتركه يرتاح، ولم يكن يحيى يعتقد أن هناك ألماً آخر. أراد أن ينام، وشعر ببرد يجمّده، ورغبة عارمة في التبوّل. دقائق قليلة ويُسحب السّكين مرّة أخرى، هذه المرّة تمكّن منه الرّعب، كأنه يقترب من عنقه. «أيكون ذابحي؟» يتساءل في استسلام، ويعرف سريعا أنّه كتفه الأيسر. مسح لذيذ وشدّ مؤلم فتعرّقٌ حدّ الإغماء وخلطة فربط. شدّوا يدهُ إلى رقبته ووضعوا لوحا على كتفه صعّب من جلوسه وتمدّده معا.

أمضى بضعة أيّام يتناول البيض المقليّ صباحًا، والرّوينة[1] في الضُّحى، واللّبن والخبز السّاخن في الغداء، والرُّب[2] والمطلوعُ[3]

(1) الرّوينة: الطّحين، قمح محمّص ومرحي، يضاف إليه ماء ساخن وسمن وسكّر أو عسل.

(2) الرُّب: خلاصة التمر، تحضّر في البيوت.

(3) خبز البيت الجزائري.

مساء، والكسكسيّ وباقي الوجبات المعتادة في العشا.، كانت بطاقة هويته لدى الظلّ الذي دخل عليه بسلاحه ليمنحه إياها، ولم يكن مرعبا وقوفه بالسّلاح، فترحيبه ظلّ يعلو ملامحه. بدا له أنهم تحقّقوا من أمره، لكن لدى أيّ جهة؟ ولمن يميلون في تشظينا هذا؟

في اليوم الموالي عجز عن تفسير ماهيته، الظّلال حلّت بأجساد بشر، وهو في هذا الفضاء معروض عليهم، يتبادلون الرّأي بشأنه. حاولوا أن يعرفوا منه شيئا فلم يتمكن من إيصال شيء. وجوههم لم تكن شريرة، ولا أسلحتهم. يشربون القهوة أكثر من الماء، ويتصرّفون بهدوء وحكمة. لم تسعفه إعاقته في اكتشاف العالم خارج هذه الغرفة المفروشة بزربية كبيرة حمراء وسوداء، ولا أسعفتهم بساطتهم في الحصول على شيء منه. فجأة يدخل طفل يحمل دفترا وقلما، يسألهُ أحدهم بيديه مشيرا إن كان يستطيع الكتابة؟ يهزّ رأسه موافقا فيقدّم له الدّفتر، أراد أن يكتب لهم رسالة شكر، لكنه أجابه بسؤال مكتوب أعلى الصفحة الأولى: «من أنت وما حكايتك؟»

دفتر الزائر

(1)

كتب: «اسمي يحيى أنا أصمّ أبكم منذ الولادة، حكاية أطول من أن أكتب ملخّصها، جماعة ما سحبتني من جنتي إلى جحيمها، وبعدها وجدتني هنا».

التقط ظلٌّ الدّفتر وحدّق فيه، ثمّ سلّمه لطفل جرى به وخرج خلفه ظلّ آخر؛ ليعود بالدّفتر وتفسير شفهيّ. يستلم يحيى الدّفتر مرّة أخرى، ويقرأ :«أين تقع جنّتك؟ ومتى حرمك سدنة الجحيم منها؟».

كتب: «في قبب العطايا قريبا من عين معبد، ولست أذكر متى؛ لأني لا أخبر الزّمن، لا اليوم ولا سابقا، أنا أعيش حالة انفصال عنه».

يلتقط الظلّ ذاته الدّفتر، ويسلّمه للطفل ويخرج خلفه، ويعود أسرع من المرّة السّابقة ليُقرئ البقية رسالة يحيى الذي يستلم الدّفتر، ويقرأ: «مرحبا بك حتى تبرأ جِراحك وتهدأ روحك». يبتسم ويحبّ ذلك الدّفتر والخطّ الأنثوي الرّديء.

كتب: «أتمنى أن أردّ جميلكم، وأعتذر لأنّ لساني هرب يوم مولدي؛ فلا قِبل لي بالحديث ولا قدرة على مجاراتكم والتعرّف عليكم».

هذه المرّة يخرج الدّفتر والطّفل والظلال جميعا دون أن يعود أحد. بدأ يرى الحياة والتواصل من خلال ذلك الدّفتر الفقير، والقلم الرّصاص المقطوط كيفما اتفق، ولأنّ الوقت حان للأكل فإنّه يعلم أنّ

اللّبن والخبز السّاخن سيكونان غداء اليوم، ويحنّ إلى أرنب مشويّ شارك الظّلال أكله في عشاء البارحة، مع بطاطا مقلية وسلطة كثيرة وخبز مطلوع ساخن بالسّانوج. رغم أنّه ربّى الأرانب في قبب العطايا، فهو لم يلتهم منها ولا مرّة، ولا عرف لم رعاها؟ ولا لمَ لمْ يفكّر في استغلال تكاثرها السّريع؟ يحضر الطّفل الورديُّ الذي تكفّل به منذُ قدومه، وكثيرا ما يجلسُ يراقبه وهو يلتهم وجباته تباعا، ويدلّه على المرحاض وهو ينسحبُ يتنطّطُ متّكئا على الجدار. كان يحضر عود البخور كلّ يوم ليعبّق الغرفة، في البداية اعتقدها رائحته العفنة التي دفعتهم لهذا، لكنّهُ اكتشف لاحقا أنّ الأمر عادة وفقط. هذه المرّة يحملُ الأكل، يسحبُ من أسفل معطفه الدّفتر سرّا، ويمنحنه يحيى وهو يلتفت خشية شيء ما.

يقرأ: «أنا سعيدة، كنت أدرس بالجامعة قبل أن تجنّ الجزائر لأعود إلى بيتنا، وهؤلاء إخوتي، الكبير موفق والأوسط بن يحيى والأصغرُ رابح، أنا صغيرة العائلة، والدي مات قبل أن أتذكّر ملامحه، وبقيت أمّي سيّدة الجميع، وأنا مدلّلتهم التي لا يرفض لها طلب، للمفارقة المؤلمة جميعهم أميّون إلا أنا، وطبعا مالك الذي أواصل تعليمه، محتملة أن يعود يوما إلى المدرسة، مالك هو هذا الطفل الذي أمامك، هو ابن أخي بن يحيى، وهو متوقّف عن الدّراسة بسبب العاصفة السّوداء، أرجو أن تكون إقامتك طيبة وأن تعود إلى أهلك بخير».

يكتب: «أنا أيضا سعيد أنّ الله منحني الوقت والحظّ لألقى أشقّاءك وأهلك، أنتم ملائكة على هذه الأرض الخربة، أرجو أن أجد طريقة لأردّ جميلكم، وأن تجدي طريقة لتواصلي تعليمك وتنجحي، أنا لم أدرس في الجامعة، توقّفت في الثّانوية، ولم أعمل يوما في حياتي، كلّ ما أملك هو خبرة في تربية النباتات ورعاية الحُروف، وطبعا مطالعة

الكتب وتكرار مشاهدة أفلام شارلي شابلن، الآن أملك صفة جديدة وهي الشّعور بالدّين تجاهكم».

تكتب: «ليس هناك دين، نحن نعيش الخوف وإخوتي يرفُضون مغادرة الأرض وينامون بالتّثاوب، ويعملون في النّهار على رعاية الماشية والأرض، بالنسبة لهم أنت حدث مفرح، وهم يتمسّكون بك كأنهم يتمسكون بسبب للمقاومة.

ملاحظة: خطّك جميل جدّا وأنا سعيدة طبعا، لكن أقصد أنّ اسمي سعيدة»

يكتب: «شكرا، أعتذر أرجو أن لا أكون ثقيلا وأن لا أورطك بشيء مع أهلك»

كتب هذا لأنه لاحظ أنّ الطّفل الورديّ يخبئ الدّفتر في كلّ مرّة تحت معطفه.

تكتب: «لا أجزم أنّهم يفهمون ما أقوم به، ليس سهلا أن تقنع إخوتي أنّه يمكن لامرأة، أيًّا كانت، أن تتحدّث بحريّة مع رجل أيًّا كان، إنهم طيبون جدّا ويحبّون الخير وغير عنيفين، لكنّهم لا ينتمون إلى المدينة، ولا يفهمون الكثير من جزئياتها، حتى أنا لم أكن كذلك رغم أنّي تابعت دراستي بالمدينة، وأقمت فيها، كنت بالنسبة لهم الأذكى والأدرى والأعلم، بل إنّهم يشاورونني ويأخذون رأيي في كلّ شأنهم، لكنهم رغم ذلك لا ينسون أني أنثى، ربما ينزعجون، لكنهم لا يملكون القدرة على أذيتي».

كتب: «إذن فكّري في أنا».

كتبت: «لا تقلق لن يصلك أذى منهم».

كتب: «أرجو ألا أكون قد أسأت التعبير، فأنا كما تعرفين بلا لسان

ولا أفهم اللّباقة؛ لأني لم أعهدها».

بعدها عاد الطّفل بلا دفتر، يحملُ القهوة، وأعطاه فنجانا. أمسكه وهو يسألهُ، مشيرا إلى تحت معطفه، فأجاب بيديه أن لا شيء، نافضا المعطف. شعر أنّ المتعة الصّغيرة التي عاشها قد انتهت بسبب تهوّره وقلّة نباهته، وشرب قهوته مرّة.

في العشاء كان محرجا من الظّلال الثلاثة. كان بن يحيى الأقرب إليه دائما، وكثيرا ما شعر أنّ «موفق» و«رابح» أكثر صرامة وخشونة منه. أكل خائفا ومرتبكا وكأنّه أقدم على جريمة. لم يهدأ، وطلب أن يخرج قليلا، فبدا موفق وكأنّه ينهرهُ ويجبره على الأكل. عاد يتظاهرُ بمشاركتهم العشاء، لكن تمثيليّته لم تنطل على رابح الذي كرّر ما فعله موفق، فاضطره إلى التهام ما يلتهمون بشراهة، وأسلم أمره للظلال القوية.

عندما اتكأ معافى على فراشه، دخل عليه موفق يحمل الدّفتر. وهنا استعاد كلّ كسوره، وتأهّب لمضاعفتها قريبا. اقترب الظلّ، ومنحه الدّفتر، وهو يحاول أن يبتسم، وغادر ملتفتا غير مرة. أمّا هو فلم يجرؤ على فتحه إلا بعد دقائق من انصرافه. اعتقد أنه يطلب منه الاحتفاظ به، وسعد بذلك، لكن أ تراه عنّف شقيقته؟ هل يكون سببا في ألم لهذه العائلة التي أنقذته؟ فتح الدّفتر خائفا ومتردّدا. قرأ: «أخي موفق يعلم الآن أني أتواصل معك، أفهمته أنّ الأمر ضروريّ لأنّك معزول بلا لغة، وأني أخبرك تفاصيل الدّنيا التي غبت عنها لوقت، كما أني لا أجالسك أو أراك ولا أخرج عن الحدود، والظّاهر من خلال ردّك أنك متعلّم ومتخلّق وأهل ثقة، لم يعارض ذلك وسمح بالأمر، سيجيئك مالِك صباحا ليسترد الدفتر، وسنحكي بلا شعور بالذّنب يا لسان الهرب».

كتب: «أنا سعيد أن أتواصل معك بقدر ما أنا خائف أن أعتاد هذا النّمط الغريب من التواصل، وأغادر فأعود إلى عالم مظلم يائس، فيه صوت واحد مقلوب لا يسمعه أحد، لكنني سأظل مبتهجاً بهذه الفرصة، وسأبقى ممتنا لموفق وبن يحيى ورابح، وطبعا لمالك الورديّ ولسيدة الظلال سعيدة».

كتبت: «هل وراءك حكاية ما؟ لا يمكن أن يكون لعينك التي ترقب النّاس منذ وعيت القدرة ذاتها التي لدى أعيننا، أظنها عين بسمع، أحك قليلا».

كتب: «ليس لي حكاية واضحة، لديّ قصص قصيرة متناثرة، مرّة ولدت، مرّة لم أكن أسمع، مرّة لم أستطع الكلام لأنّي لا أستطيع السّمع، مرّة أحببت، مرّات هزمت ومرّات أخرى عشت وحدي مضاعفا، أو متّ بلا سبب، ومرّة واحدة بعثت في بيتكم».

كتبت: «حكايات إذن، أفضل أن نبدأ من الحبّ».

كتب: «هل عليك أن تختاري؟ هل مجبر أن أبدأ؟».

كتبت: «لا تضيّع الوقت وترهق الطّفل الورديّ، احتفظ بالدّفتر واحك لي كيف أحببت وأين وصلت، ألا يستطيع الحبّ أن يقلّل من خوفنا وشكّنا وانشطارنا؟».

كان الدّفتر مع يحيى على فراشه، يشعرُ بتحسّن، وقد أصبحت حركته أسهل من قبل، كأنّهُ أمام طبيب نفسيّ يخضعه لتداعٍ حرّ ليغوص في دواخله. بدأ يتخيّل ملامح سعيدة خلف الحجب، ولسببٍ ما تداخل وجهان جميلان في وجه، امرأتان في امرأة، ولم يعد يعرف إن كان يتملّى وجه سعيدة أم وجه التّالية أم هو وجه آخر يحتمل الآتي؟ تسرّبت إليه رغبة في قول حبّه مرّة واحدة. كان يحبّ ويكتم، هذا لأنّه لا يملك سببا لفعله، لا يعوزُه حرفٌ في غياب اللّسان؛ لهذا فسيحكي

لسعيدة عن التالية، سيحكي للتالية عن الممكن، وسيحكي للوجه الجديد ما يكون.

كتب: «كنت قادما بقامتي الموجوعة ملفوفا بصمتي، وكانت هي قادمة من طفولتها مسرعة نحو التفتّح، كنتُ وحيدا جدّا وكانت متعدّدة، في البداية رأيتها تقفزُ أمام بيت أختي، تلعب لامارين، كانت أطول وأكبر من بقيّة البنات، جميلة، ممتلئة، أنيقة، شعرُها المسدُول على كتفيها يحفظُ أكثر من لون، وعيناها ترسلان ابتسامات عديدة للجميع، كانت تتدفّق فرحا وتقبل على الفرح، رأيتُ فيها ما لم أره من في غيرها، أنا كنتُ أضعُ رجلي خارج الدّراسة، فشلت عن قصد، الفوضويُّون الثرثارون يمضون السّنوات بسرعة، أمّا أنا فقد استغرقت دراستي دهرا، كان الفصل يمرّ سنة، وبحساب بسيط أكون قد قضيت أضعاف ما قضاه أترابي من المتحدّثين، شعرتُ أنّ الدّراسة فكرة تشاركيّة أهمّ مني، وأنّ أفقي داخليّ وحيد، انسحبتُ بهدوء ولم يتدخّل أحدٌ في خياري سوى عبد الحميد الذي ظلّ يرسلُ لأختي أن تساعده لردعي عن فعلتي تلك، ولُذت بالصّمت المقدّس، واصلتُ جلوسي اليوميّ لساعات في ملعب «الحضر» بمحاذاة حيّ القرابة، كنت أقبعُ هناك أتأمّل وأفتّش في خياراتي، ليس أمامي الكثير، خشيتُ أن أطيلَ الجلوس في الملعب فيتحوّل من فضاء تسلية إلى مدرسة، فعدلت عنه، وقصدتُ بيت أختي، تكوّرت عندها وكانت لا تبخلُ بصفائها وطيبتها، كانت بمثابة الأمّ الثانية لي، وراحت تحميني من مساعي عبد الحميد الذي أصابه الفتور فاليأس، رأيتهُ يكبر بضع سنوات بسبب خياري ذاك، وأمام بيت أختي، رأيت التالية تكبر بسرعة وتستحوذُ على الألوان والنّجوم، وكانت هي تكتشفني متأخّرة عن قرون حبي لها، وسريعا فقدتها وفقدتني، وانتهينا ذكرى عاشقين، لم أعد أعرف كيف

اختلفنا أو افترقنا، ولا إن كنا معا حقّا، لا أعرف تماما مدّة الوقت الذي أمضيناه حبيبين».

كتبت: «هذا مقدار لا يطاق من الألم، هل تعرف مذ عرفت بأمرك قفزت إلى رأسي أحجية قديمة لعلّك تعرف لها حلّا (كيف يقول الأعمى للأخرس إن أباه قد مات؟) لا بدّ وأنّك تعيش غربة كبيرة».

كتب: «لا أعرف، لا بدّ أن هناك وسيلة لحلّ هذه الأحجية، بخصوص الغربة لا أذكر متى كنت في وطني».

كتبت: «لا تكن مستاء مني، لقد ظلّت هذه الأحجية عالقة في ذهني منذ زمن».

كتب: «لن أفعل».

بدت سعيدة وكأنّها قد تعبت من الكتلة الرّمادية التي ألقى بها يحيى، لهذا فقد حاولت التّخفيف من حدّة الموقف، شعر كأنّه أخبرها بما يقبض عليه في أعماقه، لكنّها لم تتفاعل معه، ربّما يروق للفتيات تجاهل الحديث عن أخريات من قبل رجال عشاق.

كتبت: «أتعتقد أننا سنلتقي يوما؟»

كتب: «سأكون في مكان ما وتكونين في مكان ما، إذا اتّفق أن يكونا واحدا فسنلتقي».

كتبت: «كأنّك لا تريد التقائي».

كتب: «كأني أخشى أنّه ما من فضاء يحملني بعد هذا».

كتبت: «سأكون في الجلفة يوما».

كتب: «سأكون حيث يقدّر لي، صرت أشكّ أنّ هناك مدينة الجلفة فعلا، لعلّي افتعلتها لحاجة ما، لهذا فأنا لا ألوي على شيء، أترك الأمور وأستسلم لما هو آت».

كتبت: «اكتب لي أشياء أخرى، هل لك يوميات لتحكيها؟»

كتب: «لي أيام كثيرة متشابهة».

كتبت: «أيّام أخرى غير قبب المنايا والنهايات المفزعة، ماذا عن الجلفة؟»

تردّد يحيى أن يجاريها في أسئلتها، شعر ببعض الملل. استلقى ليلته تلك غير مبال بالدّفتر الذي يتمدّد كجرو ثعلب إلى جانبه، غير أنّ ذاكرته تحفّزت ونشطت، وتدريجيّا بدأ ذلك الجرو في النموّ ليصير دبّا أزرق بنقاط بيضاء، ويصير يحيى الرّجل الجالس على كرسيّ الاعتراف. سوّى جلسته والتقط الدبّ ووضعه على حجره يروّضهُ. كان قلم الرّصاص يحتاج بعض التسوية، وكانت الأرض مناسبة لتساعد على قطّه، لم يفكّر كثيرا من أين يبدأ ترتّبت الأيّام سريعة في رأسه فسكبها على الدّفتر.

(2)

كتب: «لا أحد يريد أن يحكي الجلفة، أنا ممتلئ بها حدّ صمتي، ربّما ينبغي أن تتعرّفي إلى مينا، هو ذاكرة جيّدة للجلفة، مينا كان صديقي الأقرب، هو في سني تقريبا يفوقني بسنتين وبضعة أشهر، أصبحنا صديقين حقيقيين باكرا، كان الأقربُ إليّ لم أفقدهُ إلا حين اعتنق مذهبه الجديد، مرّة غاب عنّي لأسبوعين شعرتُ للمرّة الأولى أنّي معاق، خلال الأسبوعين كان قد التقى بأحد التّجار المتنقلين وتحوّل إلى نبيّ يتبعهُ فنسيني، علّمه ذلك الرّجلُ القفزَ على عمره، كان مراهقا عندما اتّخذ له نابا من الفضّة، لبس أكبر من حجمه وقرّر أنّه نضج تماما، ثمّ عندما عاد إليّ أصبح أصغر بكثير من سنّه التي غادرني فيها، شهر واحد قلب مينا مرّتين، كان كثير الضّحك

والمزاح، ولكنّه بعد هذه التجربة تحوّل إلى فتى كتوم، أجزم أنّه أخفى الابتسامة وتحاشى الضّحك بعد أن زرع ناب الفضّة، لم يكن مينا يملك أمّا، أمّه الخونية امرأة ماتت وخلّفت الكثير من الأساطير حولها، وقد اختفت عن الأنظار قبل سنوات طويلة، منذ طلاقها من بشير الدّيلي الذي لم يتزوّج بعدها، ولا أحد يعرف سرّهما، مينا لم يتربّ عند أمّه ولا عند أبيه، كان ابن الحيّ الأكثر التصاقا به، يعرف البيوت من الدّاخل والعائلات وأسرارها ولا يكشف شيئا منها، كان عميقا كالبحر وشفّافا كالسّماء.

كانت الخونية قد تحوّلت فجأة إلى مجذوبة، اعتزلت النّاس وسخّرت وقتها لطقُوسها التي يختلف النّاس حولها، منهم من روّج أنها تزوّجت جنيا، ومنهم من قال إنّها ملكة على «محلّة جنّ»[1] توجه الجنّ كيف تشاء، والبعضُ قلّل من حدّة الأسطورة وأوقفها عند إرث حلّ عليها من العارفين وسرّ وصلتهُ، أصبحت النّسوة يقصدنها للتبرك بها، ولم تكن تردّهن، لكنّها خصّتهن بيوم في الأسبوع تسمعهن وتنصحهنّ، ويخرجن ليطبقن ما أشارت عليهن به، مينا كان الوحيد الذي يمكنه أن يلتقيها متى أراد، لكنه لم يكن يحكي عنها كلمة، لا يشير إليها كأمّ، في العادة يقول أنه ذاهب إلى الخونية وفقط، كان يدخّن سيجارة عندها ويشربُ قهوة مخلطة، وقد يأكل روينة من يديها، ويهمّ بالمغادرة بعد أن يسمعها وداعه المعتاد (رضاوتك يا الخونية ويقبّل رأسها وتقبل يده).

في السّنوات الأخيرة ما عاد الرّجل ذاته، ومنذ رحيل والدته أصبحت له أحوالٌ، ولم يعد بالوسع اللّحاق به، استطاع أن يجدَ طريقا غريبا لسنتين وأكثر، عندما تحوّل إلى مهرّج يطوفُ المدارس لإضحاك

(1) محلّة: جيش.

الأطفال، ولكنّه عمل بكثافة أرهقته، زار كلّ المدارس الابتدائية بالولاية، كلّ مدنها وقراها، حتّى التي تعجّ بالمسلّحين، كان ينجو في كلّ مرّة، ولم يعرف الخوف أبدا، ربّما كانت كرامات الخونية ترافقه، وربّما كان محظوظا فقط، شاركه فاتح الباقي في بعض العروض، وفاتح الباقي عاشق من القرابة يحبُّ زليخة التي لا تهتمّ لأمره ويتوهّمُ أنّها تهيم به، فاتح شريك منصور شقيق التالية في تجارة متغيّرة وفق الظّروف، فاتح كان بديلي فجأة لدى مينا، ولا أعرف كيف نسي مينا أن يكون صديقي، ولا كيف شغلتني النباتات والتالية عن تذكّر ذلك.

مينا أصبح رجلا ثالثا منذ التحق برحمة، لقد أصبح شخصا مختلفا تماما، كان مينا يدخّن سيجارته مع والده بشير الدّيلي ويناديه باسمه بشير أو بلقبه المعروف «الدّيلي»، والديلي ورغم أنّ الجميع يعتقد أنّ به لوثة الخونية أو جنونًا عبقريًّا، إلا أنهم يحترمونه كثيرا حتى في انسحابه وابتعاده عن القرابة.

جميعا ندين لعبد الحميد بكثير من الحبّ، هو معلّمنا، حتى الذين لم يدرسوا عنده كان يرافقهم ويتدخّل في مساراتهم، طبعا لا يفعل مع الدّيلي وناصر والزّين وهم رفاقه الذين شاعت عنهم أخبار كثيرة، هم الشّيوعيون، اليساريون، الكفرة، المثقفون، المخابرات، العشاق، السكّيرون وأخبار أخرى كثيرة لا يمكن حدّها، رغم ذلك واصلوا حياتهم وما زالوا يتفرّعون في غير اتّجاه.

أكثر شخص ابتسم في وجهي دون سبب كان مسعود بلخضر، عاشق آخر ماتَ قبل سنتين ونصف، وحزنت عليه الأرضُ كلّها سرّا، مسعود حكاية مستقلّة لا يمكنني أن أسوّد بها الدّفتر، حكايتي الآن أهمّ، على اعتبار أنّ بي بعض الحياة، كان شاعرا، شاعراً كبيراً، تكتّم عن حبّه ومضى، لم يعرف أحدٌ من الفتاة التي فطرت قلبهُ، ثمّ تحوّل

إلى ضوء هارب أو نجم يهاجر بين قمم، مسعود لم يترك شيئا عدا صور متفرّقة في المدرسة أو مع بعض الأطفال، حتّى قصائده التي أشعل بها الجلسات لم يعد لها أثر، في فترة فراغي تلك كان صديقي مسعود بلخضر بديلا، منحني عقداً فضيّا كان يطوّق عنقهُ، ألبسنيه وابتسم، عانقني بشدّةٍ وتركني جالساً في ملعب الحضر، من يومها لم أنزع العقد حتّى نُزِع منّي، كتب في العقد «فمٌ» ولست أفهم ما يعني الأمر!

كتب لي قصيدة وسلّمتها بشير الدّيلي، لكنّهُ قرأها ممتقع الوجه وحرّك رأسه يمينا وشمالا، وعندما عدت إلى مسعود لم أجد ما أقول له، كتبتُ له (الدّيلي سيقرأ قصيدتك ويقول رأيهُ لاحقا) وكتب لي: (الدّيلي لن يقول شيئا، ذوقهُ أعلى بكثير)».

كان يحيى يخطُّ ذاكرتهُ على الدّفتر ويرتاح، استغرقَ الأمرُ أيّاما، وكان الطّفل مالك يأتي في كلّ مرّة ليحصل على الدّفتر فيؤجّله. لم يعد يكتب ليحكي لسعيدة، أصبح يكتب ليتذكّر ويفسّر ما انقضى، أراد حقّا أن يواصل؛ فقد استهوته التّجربة، وجدَ أنّه يستعيدُ نفسه، يُراجع خطاه وتاريخه الذي صنعته القرابة، هذا الحيّ الذي يشبهُ عجوزا بقوّة فتاة، كجسد مترهّل وصلب في آن.

اقترب موسم العودة، لم يسأل منذ وصوله إلى عالم الظّلال الطّيبة عن مصدرهم، كيف خرجوا إلى الدّنيا، ولكنّه عرف هذا المساء أنّ أمّهم ستعود غدا من حجّها رفقة أخيها، سينزلون في حاسي بحبح ببيت الخال، ويصلون المكان لاحقا. أخبرته سعيدة عبر ورقة خارج الدّفتر، لهذا فالمكان لحفلة الاستقبال الضيّقة التي أقيمت للأمّ، ولا مكان أيضا للتغيرات السياسية، فيحيى معزول ولا يعرف بشأن انسحاب الرّئيس زروال، والأيّام تمضي لتجلب الرّئيس الجديد

عبد العزيز بوتفليقة. هو كان يعتقد أنّ عالمه داخله، العالم الخارجي مجرّد سبب لاكتشاف داخله، هذا إذن موسم عودة الرّجل الذي لم يكن معنيا بالجزائر لسنوات طويلة، موسم رحيل الأخرس المعطوب طالما بدأ يتعافى. تخلّص من «الجبيرة» وأصبح بإمكانه الاعتماد على رجله واستعادة الخطى.

جلست إليه العجوز وكأنّها تشتاقهُ، لم يفهم الطّيبة التي كانت تتقاطر منها، كانت ملفوفة ببياض رهيب، سرّبت إليه خشوعا ورهبة، كانت مهابة في حضور أبنائها الظلال. وللمرّة الأولى رأى يحيى سعيدة، بعد أن سُمح له بالجلوس في وسط العائلة كابن لها، أعجبه امتلاؤها حدّ النضج وكمالها، كانت هي صاحبة المأدبات الشّهية التي التهمها وغذّت ضعفه، شعرَ أنّ هذه الشّابة المتّقدة، التي تنظُر بعينين قافزتين، أمّه على نحو ما، أحبّ أن يقلّدها وساما، لكنّه لم يجد سببا لفعل ذلك. أحبّ العائلة في تلك السّهرة، ورغم أنّه لم يفهم الكثير من أسباب الضّحك أو الابتسام، إلا أنّه غبطهم على السّعادة التي يتبادلون. كانوا قد بدؤوا يؤمّنون وضعهم، لم تزُرهم الجماعات المسلّحة منذُ فترة، ولم يضطرّوا لإطعامهم، بدؤوا يستعيدون الحياة والرّغبة في الغد، بعد أن كانوا يائسين ويسيّرون اليوم بما اتّفق.

حين شرعوا في الانسحاب، كانت سعيدة أوّل المنسحبين؛ بابتسامة تلقائية أوسع من المعتاد، ردّ عليها البقية ممتنّين كأنّها منحتهم ورودا، وأشارت إلى الطّفل مالك أن يسلّم يحيى الدّفتر. كان يغرق في خوفه ويعتصرُ خجلا. تسلّم الدّفتر ووضعهُ خلفه بعد أن كوّره كبوق، ودّ لو ينسى الجميعُ أمر الدّفتر، لكنهم لم يبالوا مطلقا.

تصوّر أنّه من الواجب أن يغادر ويتركَ لهم مساحة من الذّكرى، بدل البقاء كشيء، ولكنّه كان مستعدّا لمقاومة هذا الشّعور، بل ووأده

ليبقى أيضا لأسبوع أو أسبوعين. ارتبط بهذه الغرفة وهو يريد أن يعبّئ عمقَهُ السّحيق بسحرها، لأجل هذا فتح الدّفتر

قرأ: «دعنا نحك عن مينا وباقي أسماء القرابة لاحقا، كيف كانت أيّامك؟ ماذا فعلت؟ إلى أين كنت تمضي؟».

كتب: «كدت أجد طريقي، تماما كما فعلت الخونية ومينا، عثرتُ على مذهبي في الحياة، لكنهم خرّبوا فكرتي، كنتُ قد أصبت بهوس الخطّ تماما، شعرتُ أنّي تفوّقت وأنّي أمضي إلى فتح ما، بالمقابل رحت أرعى النباتات التي منحتني سرّها، لها لغة وهويّة ووجود مستقلّ، ألبستني وكنت عارياً، غرقت في عالمي لسنوات قليلة قبل أن يقتلعوني منه، والآن أشعرُ أني عضو مبتور من ذلك الجسد، شلوٌ فقط، فلا آسف إن قُبرت في أيّ مكان، لا ينبغي أن أثقلَ على هدوئكم ودعتكم بما أصابني من لعنات، لهذا سأرتدّ إلى بعض يوميات الجلفة، يوميات القرابة وما جاور القلب».

(3)

لم يجد يحيى الكثير من اليوميّات عالقة بذهنه، أراد أن يحكي لسعيدة ما رأى وما رأت التالية وما رأى النّاسُ الذين عرفهم، لكنّه شعر بالعجز. تمنّى لو أنّ هناك وسيلة تنقلُ كلّ ما يجيش في صدره وفكره إلى الآخر، وسيلة توقف رعبهُ من الأذن كلّما رآها، هذه الحالة جعلتهُ يعرف أشكال آذان الكثير من النّاس، وإن كان الانتباه لشكل الأذن ليس حالة منتشرة، فإنّهُ اهتمّ بالأذن متى التقى أحدهم، واكتسبَ خبرة سريّة تجعلهُ يفرّق بين أذن وأخرى، رغم الفرق الضّئيل الذي لا يبين.

كان يعرفُ أنّ يومياته متشابهة، فانتقى ستّة أيّام من حياته

عاشقا، وكتبها لسعيدة كي يشفي نهمها لحكايته التي لا يبدو أنّ فيها ما يجعلها تسلّي وحدتها:

اليوم الأول مارس 1997

السّاعة الرّابعة والنّصف مساءً: الجوّ ربيعيّ، منتصف النّهار أرتدي لباسا رياضيّا رثّا بطلاء أزرق وأبيض، أجلس على الرصيف أمام بيت أختي بالقرابة، أدخّن سيجارتي غيرَ مهتمّ بالعابرين، يحلو لي أن أتظاهر بأنّي أسلمُ من الجميع، أكون في وضعي ذاك عاملا صباغًا، ربما هي صفة أستحقها، أختي تزين بيتها لسبب تعرفه هي، وتردّد: «من يدري ربما يحلّ فرح مفاجئ». أعتقد أنها تستعد لتفوق ابنها إدريس، لعلّه يفعل، لم تكن الحالة المادية لشقيقتي- التي ورثت عن أمّي شغفا بالأمومة ومبالغة في العاطفة- تسمح لها بطلاء البيت الكبير نسبيا، ولهذا فإنها لجأت إليّ لأفعل، سوف يستغرق العمل أيّاما، إذ أني أقضي وقتا قصيرا في العمل وكلِّ الوقت في تأملي، وقد كتبت الكثير من الأشياء على الجدران قبل أن ألوّنها فتمّحي كلماتي، راقتني التّجربة، فكنت أكتب لوحات وكلمات تتداخل، كنتُ تجريبيّا، وكسّرتُ قواعد الخطّ غير مرّة، ملتفتا خشية أن ينتبه أحدٌ لهذا الشذوذ الذي أنا فيه.

تركتُ غرفة سكرانة بكلماتي المتداخلة على جدرانها، وخرجتُ إلى الفناء، وضعتُ السلّم على الجدار المفضي إلى الزقّاق، ارتقيتُهُ وأشعلتُ سيجارة ورحتُ أتأمّل العابرين، أقرأ خطاهم وأجمّلُ مصائرهم من سلّمي، خطى التّالية لم تكن بحاجة لقراءة، كانت تحفرُ في عيني آثارها، كلّما ألقت خطوة زادت نزولا إلى عمقي عبر سلّم الرّوح، مرّت هادئة ومبتسمة، وملوّنة، أطفأت الجميع وعبرتني

أكثر من مرّة، رفعت رأسها ورأت إطلالتي المعتوهة، ما الذي يفعله أمير الصّمت أعلى باب فيّالة؟ تراها تساءلت وهي تبتسمُ أم أنّي صدمتُها؟ ربّما بدوت لها مثل ملاك ينزلُ من السّماء فأسعدها الأمر؟ لم أسألها يوما كيف تلقّت وجهي المرقّط بالدّهان، مرّت وتبعتها، ورغمَ أنّها لفّت نحو بيتهم الواسع، إلا أنّي لم أتوقّف عن رؤيتها، أعادتني سيجارتي إلى واقعي، وكدتُ أسقط بعد أن أحرقت أصبعيّ.

يوم آخر ربيع 1997

السّاعة الثانية إلا الربع زوالا: أرتدي سروال جينز باهتا، وقميصا أزرق بتطريز ذهبيّ، شعر ممشّط ولحية مهذبة، حذاء قديم بجلد مشقّق لا يظهر من بعيد.

كانت التالية فتاة الحيّ الأجمل، في الحقيقة كانت كلّ فتيات الحيّ هن الفتاة الأجمل، كلّ واحدة في نظر أحدهم، لا واحدة سلمت من أن تُحبّ، لهذا فإنّ كلّ شباب الحيّ ينظرون إليها كحلم كبير، لا أحد منهم يعتقد أنّه بإمكانه الحصول على تلك الأميرة، كنت أعي ذلك جيدا فقد كانت تمرّ لا تحتفي بأحد، التقيتها وأرسلت سلاما من عيني، لم تمنحني إلا ثلاث ثوان، لكنّي قرأتُ الكثير في عينيها، سمعتها وهي تضحك، سمعتُ للمرّة الأولى في حياتي، وكانت تقفُ في غير مكاننا ذاك، تلبس غير لباسها وتحدّثني دون أن تحرّك شفتيها، أمسكت يدها وغمرتني السّعادة حتّى نسيتُ سبب وجع الدّنيا، وألغيت الموجوعين، ألا يكون العاشق أنانيّا فينأى عن الجميع، هكذا كنت يومها، فلم يكن يعنيني إلاّ أنا وهي في توحّدنا المأمول، ثلاث ثوان لا أكثر سافرتُ فيها معها، وعدت ممتلئا، لم أسألها لاحقا كيف كانت رحلتنا تلك؟ لكنّها غالباً كانت سعيدة، ففي الجزء الأخير من الثانية

الثالثة رأيت بريق عينيها وفرحها الكبير، تركتها تمضي ومضيت، وكانت الرّحلة السّعيدة طويلة، لهذا فقد نمت مساء ذلك اليوم وأفقت ليلا، وشرعتُ اقرأ رواية «بقع غامقة في حياة بيضاء» وكانت الرّواية تقبعُ عندي منذ ثلاث سنوات، وقد استلمتها من فاتح الباقي، لم يكن للرّواية كاتب؟ ربّما هي رواية جماعية أو رواية بلا مؤلّف ليس لها غلاف، ولم اعرف عنوانها إلا من خلال تكراره أعلى الصّفحات، كنتُ أقرأ وأستعيد التّالية، ولم ترقني الرّواية فتوقّفت منتصفها، كانَ بطلها الكاتب العجوز قد توقّف عن الكتابة، وراح يستعيد رواياته القديمة فيغيّر نهاياتها وبداياتها ويعدّل شخوصها، وهكذا يجدُ أنّهُ صوّب رواياته السابقة ليعيد نشرها، ولدى صدورها كانت تحقّق الصخب المرغوب، في المقابل كان الكاتب الشابّ يبحثُ عن مكان لعمله الثّاني بعد أن سخر الجميع من روايته الأولى، لم يكن هناك سببٌ لكلّ القذارة التي تحيط بالكاتب العجوز، لهذا فإنّ الرّوائيّ بدا وكأنّهُ يريدُ أن يؤذي القرّاء، عشيقة الكاتب العجوز كانت طيّبة، جميلة، شابّة ومثقّفة، كيفَ أمكنها أن تحبّ عجوزا مزيّفا، في النّهاية بدا لي قبل أن أقرّرَ أن أتخلّصَ منها أنّ الكاتب العجوز هو التطوّر الطّبيعيّ للكاتب الشّاب، طويتها وعدتُ أتأمّل الثواني الثلاث الأجمل في تاريخي.

يوم آخر أفريل 1997

الظهيرة: قصدتُ مسجدا بعيدا بعد مروري على ثانوية النّعيم النّعيمي، رأيتُ بعينها شغفا للحديث معي، ولكنّني لا أستطيعُ أن أفعل، سلّمتها رسالة، كانت برفقة فتيحة بنت عمّي مبارك، وفي المسجد لم أر وجها مألوفاً أكثر من مينا، أشار إليّ بيديه لافًا سبابتيه حول بعضهما غير مرّة وكأنّه يضرب لي موعدا لاحقا، لم أكن أعرفهُ إلا متحدثا، كان

فمه أكثر أداة تعمل فيه، مينا هو حركة عكسي تماما، كنت أتمنى أن أجد بعض التوازن بيني وبينه، أمنحه قليلا من الصمت يمنحني قليلا جدا من الكلام، في الخارج عرفتُ منه أنّه يودّ أن أكون معه في جمعيّة لحفظ سلالات الماشية المحليّة، وأعطيته الوثائق اللازمة، لكنّني لم أشاركه العمل بالجمعيّة، كنتُ أفكّر في تحسين سلالتي من التالية.

أمضيتُ كلّ الوقت على الطّريق الوطني رقم 1، أعدُّ السيّارات التي تقطعُ الجلفة باتجاه الشّمال، في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ الوطن، كانت السيّارات تتوقّفُ كثافتها ابتداء من السّاعة الثالثة، تصبحُ الطّريق خطرة وتهدأ الرّحلات، بدأت أعرفُ أنّ الوقت يزحفُ نحو الرّابعة، مرّت عائلة في سيّارة أنيقة زرقاء، توقّفت السيّارة أمامي، وطلب صاحبها حاجة، لم أفهم حاجتهُ وتأهّبتُ لأجيبها عندما أطلّ فاتح مسرعاً وانخرط مع الرّجل في حكايات وتفاصيل، كان أبناء الرّجل صامتين، خبرتُ من عيونهم ونظراتهم أنّهم ينتمون إليّ، هؤلاء خرس صغار، ابتسمت لهم، فردّوا بابتسامة مشتركة مبرمجة، كأنّهم تحقّقوا من ثانية انطلاق الابتسامة، كان فاتح قد بدأ رفقة الرّجل الذي يمشي بعكّازات في تصليح عجلة السيّارة، وكنتُ أختفي في الشّارع الخلفيّ لمسجد القرابة ومنه إلى دوّامة الأزقة، لم تفارق صورتها ذاكرتي، بل كانت تمتحنُها بجزئيّات، أتذكّرُ خصلات شعرها كيف تراقصت على ناصيتها، أتذكّرُ شكلَ أذنها اليُمنى عندما استدارت تلاحقُ فتيحة بنظراتها، بينما كانت صديقتها تبتسمُ وتمشي بخطى لئيمة، أتذكّرُ ارتعاشةً عبرت على شفتها السُّفلى ونصفَ رمشة مرتبكة، أتذكّرُ جيّداً انقباض يدها اليُسرى وضمّتها للرّسالة في جيبِ مئزرها الأبيض، لو كنتُ رسّاما لرسمتها في عشرات اللّوحات المتتالية التي تؤرّخُ لدقيقتي معها، أتراها كانت دقيقة؟ لقد بدت مؤنّثة كأنّها

حياة كاملة.

اليوم نفسهُ بعد الرّابعة والنصف مساءً: في المساء التقيتها مجدّدا، قالت لي كلمة لم أفهمها عند باب أختي، ولست أعرف لم هربتُ مُسرعا، وتحسّرتُ كثيرا، لكنّها كانت حسرة ممتعة إذ رأيت وجهها المضيء عن قرب، وشممتُ أنفاسها التي اختلجت على شفتيها، ولا داعي لأعيد صفّ كلّ ما رأيت وكلّ ما خبرتُ منها في وقوفي الحائر ذاك، لكنّني شعرتُ أنّ الذي بيننا قد اكتملَ، قرأتُ خطاب روحها قبل أن اقرأ رسالتها اللّاحقة، تشكّل ما بيننا، وبقيَ أن نلمسهُ بيدٍ مشتركة.

يوم آخر أواخر الرّبيع 1997

في حدود السّادسة مساءً: قصدتُ بيتهم، خطبتها، رفض والدها وانصرفتُ منهارا، لا أذكُر إن كنتُ أسمع وأتكلّمُ، إن كان جلّول المرعوب أصمَّ أبكم، لا أذكر سوى خروجي ودخولي وتلاشيّ بعدها، لكنّ رسالة منها أعادت تجميعي، وهكذا أبقينا على حبّنا لفترة وجيزة، كنّا خلالها نتحدّثُ لغة أخرى، نحدثُ قاموساً مختلفاً، نرى ببصرٍ مشترك، تقلّصت إعاقتي حتّى أصبحَ من الضّروريّ أن أنتبه إليها كي لا يتأذى تواصلي بغير التّالية، واتّسعت هي في داخلي حتّى أصبحَ من الضّروريّ أن أجد مكاناً للعالم الصغير.

يوم آخر بداية صيف 1997

منتصف النّهار: كان الجوّ حارًّا، رأيتُ شمساً متألّقة تتباهى على الخطى العاشقة، قريبا من منتصف النّهار، ارتديت سروالا وقميصًا يميلان للبنفسجيّ، بدلة صيفيّة. كانت تخرجُ من امتحانها وكنّا تبادلنا رسائل وأحببنا بعض، تجاهلتني لأوّل مرّة منذ ثلاثة أشهر،

وبدا أنّ هناك أمراً ما، اعتقدتُ أنّ أحدهم يراقبها، فتّشتُ عن شقيقها منصور أو أحد الوشاة المحتملين، لم يكن هناك وجوه مألوفة، لا كائنات من القرابة، طفت مرّة أخرى بعيني، ورصدت المكان حتّى السّماء فتّشتها، ربّما تكون حمامة أو عصفور من الحيّ قد تكفّل بالأمر، ما حجّتها إذن؟ كما مرّت عليّ أيّامها السّابقة. عدا يوم رفضي من قبل أبيها - أفراح ومباهج تتلاحقُ، مرّت عليّ السّاعات اللاّحقة، مخاوف وشكوك تعتصرني كلّ خطوةٍ دون أن أصل إلى أيّ مكان.

اليوم الأخير

كنتُ أهمّ بالدّخول إلى بيت أختي، خرجت مُنى من جهة ما وسلّمتني رسالة التالية التي قتلتني، عرفت بخبر زواجها، ألقت أختها الجمرة مبتسمة ومضت، طلبت في آخرها أن أذكرها بخير، كنت أعرف أنّ والدها لن يتأخّر في دفعها إلى بيت آخر، عندما التقيتها بعد الرّسالة أمام بيتهم في العاشرة صباحا حين تكون شوارع القرابة مرتاحة من أقدام أهليها، أردت أن أجد لسانا أحدّثها به، تمنيت لو أنّ عبد الحميد أمامي ليفسّر لها بوحيَ الرّاقص في السّماء حركات، لا يهمُّ، قلتُ ما أردت بطريقة ما ومضيت، كنتُ أقف أمامها بوجه باكٍ، وأنا أبوح لها بكسوري، أيّ صوت يكون قد صدر عني وأنا بصدر منتفخ وقلب مفجوع؟ لقد اتّسعت إعاقتي يومها بقدر ما تلاشت وأنا معها، سحبتْ كلّ معجزاتها وكراماتها وتركتني في مهبّ العاصفة، لم أعد أرى القرابة ولا الأزقّة، أمضيتُ الأيّام مستأنساً بذكرى مسعود بلّخضر وعقده الذي دوّن عليه فما، ولكنّ فمي بلا فائدة، كنتُ أتمنّى أن ألتقيه، ربّما يشعرُ المجروح في عمقه أنّ دواءهُ بيد الغائبين، ربّما يكون هذا هو سبب ألمي الكبير وانعدام النّاس من حولي، لم أكن أجدُ

من أحدّث أو أرتمي في ساحته فيطفئ النّار التي تخرجُ منّي وتلتفُّ على عنقي، أصبحتُ مجنونا بلا تاريخ وبلا مستقبل، وبلا حيلة، مجنونا بلا مدينة تلهو بجنونه كلّ ملل.

كتبت: «أنت رجل صادق جدّا، لا تحتاج إلى الكلام تكفيك لغتك»

كتب: «لغتي أسفل الرّؤية، لا يعبر إليها إلا القليل»

كتبت: «وماذا بعد؟»

كتب: «عشت أحملني على مضض، كتمثال معدنيّ بارد، لا أحد ينوء بي إلاي، شعرتُ أنّي اثنان أحدنا عاشق والآخر يتعذّب بي، كنتُ على حافّة الجنون، وتحوّلت إلى مهووس بالغربة، أرتاحُ كلّما ابتعدتُ عن النّاس، ربّما لأني أخرس لا يعني لي حضور الآخرين الكثير، هم مجرّد افتراض، أقمت في (قبب العطايا) أربّي النباتات والأرانب وسلحفاة صامتة مثلي، وأتمرّن أكثر على الخطّ، وأقطّ كلّ يوم قلما، فلا أكتب شيئا يعيد لي روحي المعلّقة أو يحرّرها بعيدا عني، وبعدها أصبحت ما أنا عليه».

اللّسان

(1)

غادر بيت الظلال النّبيلة ممتلئا برغبة ما، ولكنّهُ لا يريدُ العودة إلى الجلفة، ليس إلى حيّ القرابة. يفضّلُ أن يكون ذكرى على أن يكون حاضرا باهتا. هل يُصغي الأصمُّ إلى الموسيقى؟ وما موسيقاهُ إذا كان النّاس الطّبيعيُّون يسمعون صوتا ما؟ أمضى الكثير من سنين عمره يتساءلُ إن كان هناك موسيقى تلائم عجزه أو اختصاره في الحواس، ولم يعرف العلاقة بين الموسيقى والأذن، لا يدري لمَ قام أحدهم بقطع أذنه وهو موسيقيٌّ يفترض فيه أن يحتفظ بذلك العضو الانسيابيّ، ليقدّر أيّ فن سيقدّم للآخرين، أم أنّ بلاغة الموسيقى أيضا توازُن معنى وجسد. المعنى ما يجيشُ في صدر الموسيقيّ، والجسدُ الصّوت النتيجة. هكذا وجد أنّه يملك موسيقاه تماما كما يملك لغته. وبخصوص لغة الموسيقى، يبدو أنّ الكثير من سكّان القرابة عاجزون عن فهمها، وإلا لم رفضوا على الدّوام تقدير العيد الحسّ، حتّى وهو يمرُّ بآلة الحسّ التي ابتكرها، أيكونُ العيد مصابا بالخرس الموسيقيّ فلا يعدو عزفُهُ التأتأة؟ تساءل يحيى الذي لا يعرفُ معنى الموسيقى. لكنه لديه من روح كلّ شيء جميل قليل. لا يفهم كيف يتراقصُ النّاس طرباً لإيقاعات يسمعونها. صارم وعصيّ، رغم أنّ داخله يرقصُ ويطربُ لبعض الأصوات التي تثيرها عوالمه الخبيئة. كانت التّالية

موسيقاه، لا يعرفُ لم شعر دائما أنّها أغنية ومنوط به سماعها. أيحصُلُ هذا بلا أذنٍ؟ هو فعلا ما حصل معه، هي أغنية وهو يسمعها.

قرّر عبد الحميد أن يدرُسَ النّحو. كان هذا بمثابة الرّهان بالنّسبة له، يريدُهُ بليغا بلا لسان، كأنّه يسلّي خيبته في الحياة عبر تفوّق يحيى. عبد الحميد لم يكن معلّمه في المدرسة فقط، ليس الجار الذي نشأ يعتقدُه عضوًا في العائلة، وهو يشربُ قهوته عندهم عادة، ويتبادل الأحاديث مع الحاج جاب الله الذي يجزمُ أنّه عالمٌ. كانت أمّه عربيّة تحبّ أن تسمع آراءه، وتعتبره حكيم القرابة. ليس عَبد الحميد الصّارم الذي يزعجُ مروره الأطفال ويبدّدهم في الأزقّة فقط، هو أيضا الرّجل الذي آمن بالأخرس، تعلّم مطلع السّبعينات لغة الإشارة عندما عرف أنّ ابنته لن تنطقَ يوما، سافر لأجل هذا إلى وهران، وتردّدَ عليها إلى أن تعلّمها. عندما أصبحَ قادرا على مخاطبة ابنته، وأصبحت هي في سنّ يسمح لها أن تعي حركاته، أصابتها حمّى مفاجئة وغادرت الحياة. حزن عليها كثيرا، بينما كان يحيى يولد في المستشفى ذاتها التي شيعت منها ابنته إلى المقبرة. ظلّ يحيى يتساءل: «هل سمعتُ صوتا ما لدى مولدي؟» لا يعرفُ، أبوه لم يفتش عن سبب لإعاقته ولا أحد آخر، الوحيدة التي ظلت تنبش كانت أمّه، وأيّدتها في ذلك أخته. تعتقدان أنّه كان يسمع، وأنّ الحمّى التي أصابته هو الآخر رضيعا أتت على سمعه. طبعا ستظلان مصرّتين أنّها عين حاقت به، فهو من بين كلّ أطفال العالم ولد أبيض، سمينا، وبعينين سوداوين أكبر من أعين الحمار، وبرمُوش طويلة تظلّل بصره الحادّ.

بالنّسبة لعبد الحميد، كان صمم يحيى حالة مناسبة لتعويضه فقدانه الأعظم، لقد استعدّ ورضي بابنته، تأهّبَ ليكونَ دليلها في الحياة، وليمنحها الحقّ في التفوّق والمواصلة، وبما أنّها لم تعد موجودة،

فإنّه لن يتركَ جهده يذهب هباءً. أجلسهُ في آخر الصّف، بينما كان البقيّة يمارسون درسهم بشكل طبيعيّ. كان يدرسُ درسهُم ودروسًا أخرى لا قبل لهم بها خارج البرنامج الرّسمي. يكتبُ له: «الكلام هو اللّفظ المركبُ المفيدُ بالوضع وأقسامه ثلاثة»[1]، ويحفظها ليستظهرها عليه كتابة لا نطقا. ظلّ عبد الحميد يكتب ويتركُ الفراغات، ويحيى يملؤها ليعرف مدى حفظه. ملأه تماما بما لا يروقُ له. صار يحفظُ كثيرا من الشّعر على مرّ العُصور، ولا يعرف جدواه؛ إذ لا ينطق به. بدا له أنّ الشّعر قضية شفاهية، أن تكون شاعرا يعني أن تكونَ مفوّها وبليغا وفنان إلقاء. دكّ رأسه بما ضغطه. كان يراقب خطّه وأخطاءه الإملائية وحفظه وانتباهه وذكاءه وحدسه وفهمه وكلّ قدراته عبر ورقة واحدة. أصبح يخضع لأعمال شاقّة، وليس لدراسة. في البيت يركُن إلى غرفته الصّامتة، ربما تبدو للآخرين محرابا أو هيكلا بلا روح، أو معبدا في أفضل الحالات. يكرّر متسائلا: «ما حاجتي لدرس (الكلام هو اللّفظ المركب المفيد بالوضع)؟ في النهاية أنا لن أتكلم ولا يضايقني هذا، لا لفظ لي لأركّبه وفق ما اتفقت عليه العرب ووضعته». ولسبب ما كان هذا أول خلاف بينه وبين عبد الحميد. كتب له: «لا حاجة لي بالكلام». كتب عبد الحميد في ظهر الورقة: «ابن أجروم ولد ومات قبل دي سوسير، لهذا لا يفرق بين الكلام واللّغة، هنا تهمّك اللّغة التي تكتب بها ثمّ اللّغة التي تحكي بها».

بعد أيام قليلة كان قد حفظ متن الأجرّومية تماما، وينتظرُ أن يتلقّى شرحه مرّة أخرى؛ لأنه يضيع فيه كلّ مرّة. لكنّ المعلم ارتأى أن يغير الوجهة. كان طفلا عندما تلقّى الدّرس اللساني الأول.

قام ببحث حول النسيان، حرّره ومنحه لعبد الحميد الذي سعد

(1) متن الأجرّومية.

بالبحث، لكنّه استاء كثيرا من رؤاه التي رافقت العمل. كان ذاتيا وعلّق عبد الحميد على بحثه بأنّ «البحث العلميّ لا يعترفُ بالذاتية إلا كميول أوّل في الخيارات، لاحقا عليك أن تتجرّد وأن تحترمَ البحث ونتائجه التي قد تخالف فرضياتك»، ثمّ شكرهُ، وقرأه سعيدا بتصديره ببيت شعر يقول:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلبُ إلا أنّه يتقلّبُ

وقسّمه إلى جزئين، الأوّل عنونه: «**مدخلٌ لغويٌّ**». وقد اجتهد في البحث عن كلمة نسيان وما يدور في غابتها:

((1. مَنسيّ: (اسم)، ليس عليك أن تفكّر كثيرا، أنت المقصود بالنّسيان، تحدّثني نفسي أنّ أكثر شخص كان يعيش على الهامش ولا يراه أحد؛ لأنّه لا يسمعه أحد هو أنا. أعرفُ أنّ الصّوت هو الحاسم، لا شيء جاء بالإشارة والتلميح إلا الحبّ والنبوة، باقي الحياة كلّها مبنية على الأصوات/ الذّاكرة، الصّمت/ النسيان، لهذا يبدو جزء كبير، بل أغلب العالم منسيًّا، فقط لأنّ هذه الأغلبية لا تملك صوتا، بينما تزعق الأقليّة في كلّ حين.

أنا، والكثير من الذين لا يثيرون لغطا عشوائيا أو مقصودا، نعبرُ بهدوء ولا نحصلُ على جائزة أو شهادة حسن عبور.

2.مُنْسي: (اسم) مِن أَنسَى، لا ينسيني أمر أنّي بلا بيان، والبيان عندهم علمٌ من علوم اللّغة وأنا عندهم بلا لغة فأنّى يكون لي بيانٌ؟! في الحقيقة المنسيُّ الوحيد الذي يشغلُ قلبي ويؤنس تيهي هو أنا.

لا أنسى الأسماء، لا أسمعها، لا ألفظها، فمثلا لا أهمّ بمناداة

أحدهم وأتعثّر بحثا عن اسمه، أليس هذا ما يتكرّر عند الناطقين؟ أنا أردّد الأسماء كصور، أخاطب النّاس داخلي، ليس لديّ حروف تنطق، ولكن معاني لا تُنسى ولا تبلو أو تتراجع، كلّ إنسان عرفته ألبسته معنى، وقد يشترك النّاس في الأسماء ولا يشتركون في المعاني، كما قد يشترك البعض في المعاني ويختلف في الأسماء.

3. نَسا: فعل بوجهين، وجه للنكران والجحود والمرض، ووجه للمعافاة والشّفاء والتجاوز والغفران، لا قبل لي بهما معا، فأنا لا أنسى ولا أعيش بذاكرتي، أنا أعرف فقط أنّ فعل النسيان مركّب ومعقّد كالحبّ.

نسيَ: يَنسَى، ينسى الجميعُ أن يصمتوا، وعلى العكس أتذكّرُ على الدّوام أن أقول بلا لفظ ما يعتريني، انْسَ، نَسْيًا ونَسْوَةً، ونِسْيَانًا، فهو ناسٍ ونَسَّاءٌ، نسّاء العذابات من عاش عيشتي بلا مقدرة على البوح، وهي ناسيةٌ، ونَسَّاءَةٌ هذه الأرض كأنّها لا تحتفي بي رغم أنّي أشعرُ بقربي منها أكثر من قربي من الجميع.

نسي الأمرَ: فقد ذكرَه أو صورتَه، لم يحفظه، عكسه حفِظه، أفضّل أن أحفظ الأمور جميعها على أن أنسى بعضها لقذارته أو قسوته أو قدرته، قد يكون للذّكر سبب في تعديل الوجود. نَسِيَ نَفْسَهُ : أَهْمَلَهَا، تماما كما فعلت دائما، كما فعل مينا، كما يفعل بشير الدّيلي منذ وعيت على صمتي.))

تطرّف يحيى في بحثه الذي كان تفتيشا عنه في اللّغة، ولم يرد عبد الحميد أن يحرجه فيعتبره كتابة بوح تتّكئ على اللّغة في شقّ، وعلى مقاربة ذاتية شخصيّة في الشقّ الثاني، لهذا فقد شكرهُ وعبّر

كثيرا عن امتنانه، ثمّ أصرّ أنّ البيت الشّعريّ الذي تصدّر بحثهُ خاطئ والصّواب هو: «**وما سُمّيَ الإنسانُ إلا لأنسه ولا القلبُ إلا أنه يتقلب**»[1]، بدا وكأنّهُ يطلبُ منهُ أن يأنسَ للآخرين، ولم يصدّق يحيى أنّ البيت خاطئ، بل أمضى حياتهُ كلّها يعتقدُ أنّ معلّمهُ زوّرَهُ من أجله. طلبَ عبد الحميد بحوثا أخرى يمكنها أن تنأى به عن هذه الرّيبة والشكّ اللّذين يسكنانه. طلبَ منه أن يبحث في تاريخ العاهة عند العباقرة، ولكنّه لم يفعل يوما. أراده أن يعرف بأنّ الكثير من سادة العالم كانوا يعانون إعاقات ما، وأراد يحيى أن يكتفي بأن يكون شابّا في الجغرافيا الضيّقة، ابنا للقرابة؛ إذ لا يملك حيلة أو عبقريّة سيواجه بها التاريخ.

في النّهاية لم يبحث يحيى عن النسيان؛ بل عن المنسيّ، ولم يكن يريد أن يفهم النسيان كحالة أو كموضوع أدبيّ، ولا كتفسير نفسيّ أو ذهنيّ، كان فقط يراهن على شرح إهماله في الدّنيا، ويتجاوز عبر هذا البوح إحساسه المضاعف بأنّه منسيّ وغير محتفى به.

(2)

كانت عربيّة أمّ يحيى قليلة البطون. بطن فيّالة، وعدّة أجنّة ترفضُ الثّبات، ثمّ بطن يحيى. فيّالة كانت ذكر البيت وأنثاه، هي التي تكفّلت بدور الابن البكر، وعندما تزوّجت صغيرة خلّفت يحيى طفلا مشدوها. علّمت الأمُّ ابنها وتعلّمت معه إشارات كثيرة لا علاقة لها بلغة الإشارة. اخترعت لغتها وابنها، وكانت أكثر شخص يفهمه إلى جانب أخته. ووجد الأبُ صعوبة في فهم الطّفل، كان قاسيا عليه أن يقابلهُ كلّ يوم دون أن يسمع منه نداء أبوّة. خلال سنوات قليلة أصبح

(1) الهذلي.

يرافقُه إلى السُّوق أو إلى وسط المدينة، ويجلسُ إلى جانبه. كان النّاس يخاطبونهُ غير مُدركين إعاقته، ولم يبذل الأب عناءً ليشرح الأمر. اكتفى بمواصلة حواره معهم دون التوقّف عند خاصيّة الطّفل. في البداية شعرَ يحيى أنّ تلك الخطابات يمكنُ تلافيها بالبقاء في البيت، لكنّه لاحقا أصبح لا يهتمّ، وقد خبر بالتجربة أيّ نوع من الخطابات كانت توجّه إليه، فالنّاس كانوا يطلبون منه سنّه واسمه وفي أيّ سنة يدرس ومن هو والده، كلّ هذا ويده بيد والده!! أيعقلُ أن تسأل طفلا مع والده عن والده؟! نوع من الفظاظة والتّشكيك في النّسب مغلّف باللّباقة في مزج حقير. كان بوسعه أن يرفع يدا واحدة ليعرف النّاس عمره من أصابعه، وبعدها لم تعد تكفي، فيرفعُ يديه الاثنتين.. واحدة بكامل الأصابع، والثانية تمنح أصبعا كلّ سنة، وبعد السنوات العشر يضاعف واحدة، وهكذا حتى يضطرّ في العشرين والثلاثين والأربعين إلى مضاعفة يديه معا في وجه السّائلين. لكنّه أعرض عن ذلك باكرا، وقرّر أن يستمتع بالعالم الخارجيّ الذي يصرّ والده أن يعرفه، وقد أفادته جولاته مع الحاج جاب الله كثيرا، وأثرت مخيّلته.

الحاج جاب اللّه لم يكن كثير الحديث؛ لهذا فإنّه بحاجة إلى ثرثرة ليعرف بعده في أيّ مكان. كان يميل إلى الصّمت، ولعلّ هذه الصّفة جعلت النّاس يعتقدون أنّها هبته لابنه، فتوقّفوا عن الاهتمام به. صار رفيقا غير مرئيّ لأبيه. وكانت أمّهُ كائنا صموتا أيضا. لا أحد يثرثرُ مثل فيّالة، لكن في الفراغ، فهي لا تجد الردّ من أمّها ولا تنتظرُهُ من أبيها وشقيقها، كانت تكتفي بالغناء، أصبحت تؤلّف أغاني، وأحيانا تمزجُ أغنيات كثيرة من ألحان مختلفة في لحن جديد، وتستمتعُ بسماع نفسها وهي تقوم بأشغال البيت، ولا تنسى في غضون ذلك أن تذكّر يحيى بأنها تعرف بوجوده، بإشارات أو قُبلٍ، أو برقصة سريعة مع

الطّفل ذي العينين الواسعتين.

الرّقص أيضا لغة مجهولة عندهُ، كان جسمه قابلا للطّيّ، لكنّه لم يتمكّن يوما من الرّقص، هذا الأمر يتطلّبُ حافزا موسيقيّا لا قبل له به، لهذا فقد اكتفى بتفسير الرّقصة النائليّة الطّائرة، كانت محاولة انعتاق الإنسان من شروره بالنسبة له، كانت رقصة تطهير وطرد شيطان، ولم يسعه أن يجري بحثا أو يكتب شيئا عن هذه الرّقصة التي تتحرّك فيها كلّ المفاصل، وتأخذُ اتجاهات عدّة، هي أقربُ رقصة للإنسان، أكثر رقصة لا تلغي من الإنسان جزءا، العين والحاجبان والوجنتان والفكّان، الكتفان واليدان والذّراعان والكوعان، القدمان والرّكبتان والفخذان، أصابع اليدين والقدمين، وحتى الشّفاه، الوسطُ والأطرافُ، كلّ الجسم حروف لأبجديّة الرّقصة النائليّة، كانت براعته في فهم هذه اللّغة تجعلهُ يستمتعُ بأعراس القرابة، ويحتفي بتفوّقه على البقيّة.

عندما تمدّدَ الأبُ على فراش الموت، كان يوصي يحيى على أمّه وأخته، ورغم أنّه تركَه صغيرا إلا أنّه حاول أن يمنحه درسا في آخر أيّامه، وهو يطلب أن يسندهُ أو يحضر شيئاً. أراده أن يفهم بأنّه رجل البيت، أراده أن يفهم بأنّ الصّمت لا يعني العجز، الكلام لا يعني القدرة، وكان قد رافقه، قبل أن يلزم الفراش، إلى أرض قبب العطايا، ومنحه مفتاح البيت، وطلب منه أن يصون أرضه وأن يحميها من المتربّصين. واحتفظ هو بالمفتاح، وهيّأ البيت الصّغير في الأرض لاحقا، واعتاد زيارته رفقة فيّالة وزوجها وابنها إدريس.

مات الحاج جاب اللّه في ليلة جمعة، ودفن بالجبّانة الخضراء، بعد أن صلّوا عليه في المسجد الكبير وسط المدينة، وتلقّى الابنُ العزاء في المقبرة من قبل أصدقاء والده الذين اعتاد لقاءهم في

طفولته في المقاهي والأسواق، وحتّى في المأدبات التي رافق فيها والده، واستخدم حيلة مسعود بلّخضر الشّفهيّة في ردّ تعازي الجُموع، فظلّ يحرّك شفاهه كلّما سلّم عليه معزّيا، راسمًا ما يشبهُ عبارات الشّكر أو الامتنان. وانتهت الجنازة التي كانت بمثابة التجربة الأولى له في التقاء جموع والتواصل معها. في صلاة الجنازة لم يتمكّن من سماع تكبيرات المصلّين، لكنّه أحسّ بها، حركات وأنفاس النّاس دلّته عليها فحرّك شفاهه مكبّرا في سرّه.

بعد والده، اهتمّ برعاية أمّه التي ذبلت وضيّعت أسلوبها في الحياة، أراد أن يعوّضها غياب الزّوج. فكان يجالسها أكثر من السّابق، ويرافقها في رحلات متقاربة نحو قبب العطايا، هناك تعدّ قهوة، وتحضّر روينة صدقة على روح زوجها الرّاحل، ويخرجها هو لأيّ زائر لمقبرة القبب أو للأضرحة، لكنّه لم يملك لسانا يطلب به من النّاس الدّعاءَ لروح والده، واكتفى بتحصيل الدّعاء بدل والده. وكان يدعو أمّه لزيارة بيت شقيقته، أو يدعو فيّالة لزيارة البيت والمبيت مع أمّها كلّما رغب في المغادرة حتّى لا تبقى وحيدة.

تركهُ والده في الخامسة عشرة يؤدّي دور الرّاعي لأمّه، ولم يمنحه عبد الحميد فرصة تسوية وضعيّة منحة والده التي سيصرف بعضها إلى أمّه والبعض إليه. وهكذا صار يقفُ كلّ شهر في البريد ليحصل المنحة، ويعرفُ سلفا أنّه سيقتني السكّر والقهوة والسّميد والتّمر الذي تحضّر به أمّه الرّفيس والبسيسة والرّبّ المقروض وغيرها، فلا ينتظر العودة إلى البيت؛ بل يعود بما تحتاج على نهج والده. هذه أيضا لغة فهمها وأتقنها، وتعلّم من والده كيف يفاوض ويختار أفضل بضاعة.

فعل كلّ شيء لتبقى والدته إلى جانبه عمرا كاملا، لكنّها استعجلت اللّحاق برفيقها بعد سنوات. تجاوزت حزنها في أشهر، وبدأت تعتاد

الحياة من أجل ابنها، إلا أنّها سرعان ما دخلت في وضع صحيّ متأزّم. توقّفت كليتاها أوّلا، ثمّ أصابها شلل نصفيّ، وبعدها مرضت معدتها لكثرة الحبوب والأدوية التي مزّقتها. ولم تثر جلبةً؛ رغم أنّ ابنها لا يسمع إن أرادت الصّراخ. وماتت جميلة تكادُ تبتسمُ. أمّا هو فقد فقدَ اتّزانه ولم يحضر الجنازة، ونأى عن القرابة وأجوائها لوقت، قبل أن يستعيدهُ الحيّ العتيق، طالما يعتبره رمزا من رموزه، وحافظت فيّالة على دورها كأمّ مساعدة في البداية، ثمّ كأمّ بديلة طوال الوقت، فاجتهدت لتحضّر له وجباته وتنظّف ملابسه وترتّب بيتهُ، واجتهد هو ليكونَ أبلغ في صمته، إلى أن التقطت بلاغته التالية فغيّر مفهومه للّسان، وشعر أنّه قد يصغي للأغنية رغم صممه. قد تكون الأغنية وليدة داخله الواسع كصمته.

(3)

التعلّم عند عبد الحميد يعني أن يختلطَ الدّرسُ بالحياة، يتوغّلُ في حياة التّلميذ ويحاصرهُ حتّى تصير كلّ حياته درسا طويلا، لهذا فقد فشل في القبض على كلّ تلامذته. بعضهم فقط صبر على تكديسه المستفيض للمفاهيم والقواعد. يحيى أحدُ الصّابرين الذين أصغوا صاغرين لمذهبه، ولكنّه لم يفهم دائما ما يرمي إليه معلّمهُ، لماذا يختار أمثلة غريبة، مثلا في درسه ذاك كتب لهُ:

وأنطقت الدّراهم بعد صمت   أناسا بعـدما كانوا سكوتا[1]

أحيانا يبدو لهُ أنّ المعلّم يتعمّدُ جرحه، ربّما ليكون محصّنا من أيّ جرح قادم. كان يحيى يراقب تفوّق بايزيد، ويتساءل: أيمكن لماله أن يُنطق السّاكتين؟ ولم يفهم لمَ يسعى الكثير من الناطقين وراء المال،

(1) الإمام الشافعي.

اللّغة سبيل مهمّ نحو السّعادة، أن تسمع النّاس وتحدّثهم هذا يكفل انتماءك وبقاءك وعقلك أيضا.

لا يشعُرُ بالحاجة إلى اللّغة ثرثارٌ، يشعرُ بالحاجة بليغٌ أو أخرس. لكنّ مسعود بلخضر الذي كان زميلا في القسم، ساعدهُ كثيرا على تجاوز عذابات اللّغة. كان فطنا يُتعب عبد الحميد بأسئلته وببحوثه واهتمامه الكبير باللّغة، ولسببٍ ما فقد أغدق عليه عبد الحميد بالكتب، وساعده في تحسين لغته. مسعود كان أقرب إلى عبد الحميد من الكثيرين، رافقه واتصل به حتّى وهو في الثانوية. لكنّه قرّر أن يتوقّف عن الدّراسة، الأمر الذي أحزن المعلّم، شعر أنّه غير محظوظ في تلاميذه الذين يحبّ ويأمل فيهم. غادر مسعود إلى الزّاوية وحفظ القرآن، بعدها لم يعد يسمع الكثيرون شعره. أحبّ فتاة ما، وفي غضون حبّه الجارف ذاك ترك المسجد وأصبح مدخّنا. زيّن بقعدته مقهى العروسي. كان يجلسُ إلى بعض الشّباب من هوّاة الأدب، وغالى في الشّعر حتى بلغ صيته أطراف المدينة. يتحدّث البعض عن قصائد إلحاد قالها، ولكن لا أثر كبيراً لشعره. كان يتحوّل إلى أسطورة كلّما اتّسعَ فيه وجعُ الحبّ، وفجأة قرّر أن يعود إلى سالف عهده. في صباح يومٍ بارد استحمّ وارتدى قشابيّته الصّوفيّة، وقصد مسجد الضّاية، صلّى خلف سي سعد العقون، ابتعد عن مسجد القرابة طيلة ثلاثة أشهر، وبعدها عاد يدرّس القرآن، معلّما بلا رخصة. كان الأمن يحرسُ الحركات ولا يحمي النّاس من الموت، لهذا فقد حقّقوا معه أكثر من مرّة وأصبح معرّضا للاعتقال. مسعود شاعر القرابة الوسيم تحوّل سريعا من وضع لآخر، ولا أحد يعرف كيف التحق بجماعة مسلّحة، ولا كيف ذاع صيته كروبن هود نصير المظلومين. أصبح رجل أفضال في نظر النّاس وليس إرهابيّا، لم يشهد أحد أنّه عنّف أو هدّد أو صرخ

بوجه من صادفهم. في الحواجز التي نصبها وجماعته بمنطقة «ورّو» أو «قطيّة» أو غيرها، اكتفى بالنّصح، واقتنى ما يحتاجه بمقابل مادّي، وبشّر النّاس بنصر قريب لدولة المسلمين في الجزائر. مات مقتولا في ظروف غامضة، ثمّ اعتلى شابّ آخر من القرابة سدّة الإمارة، لكنّ الأمير الجديد قديرو لا يملك وسامته ولا بلاغته ولا صدقهُ، أجل كان صادقا وكانت الطّرق مسدودة أمامه، فاختار التمرّد. كثيرون تمرّدوا، وصنّفهم النّاس لاحقا بما يُنصفُهم. هو من طينة المهلهل وعنترة والشنفرى وشي غيفارا وعبد القادر الرّعاش والتلي بلكحل وبوشندوقة. سيقول النّاس بعد موته أنّهُ كانا مجنّد المخابرات، ولن يتذكّر أحدٌ أنّهُ أحبّ فتاةً في القرابة.

ما زال يحيى يذكُر أنّ مسعود علّمَهُ أن يحرّك شفاهه، راسما عبارات بعينها باكرا، فأصبح بإمكان يحيى أن يُجري حوارا افتراضيا مستعجلاً لدى لقاء أحدهم، فيردّ: «الحمد لله» أو «وشراك» أو «لاباس»... أو غيرها من العبارات المتداولة، رسما بشفتيه لا نطقا، ويمكنه أن يقول: «بطاطا» أو «ماء» أو «دخان»... أو غيرها رسما بشفتيه. تلك التجربة اللّسانية الشّفاهية كانت من اختراع مسعود الطّفل. كان ذكيّا ووافق رغبة يحيى ورغبته، لهذا فقد اعتبرهُ بمثابة المعلّم الثاني، لا ينسى أنّه كان يجلسُ معه في مقهى العروسي، يسمعان أم كلثوم، ويشرحُ له الأغاني التي يصغيان إليها كتابة، كان يؤدّي دور الأذن واللّسان معا من أجل صديقه.

بعد سنوات سيضعُ مسعود بين يدي يحيى، جزءا من محاولته البحثية عن النسيان، فيقرأ يحيى بعضها بكثير من الدّهشة. كان القسم الثاني من البحث بعنوان تفسير النسيان: **(محاولة فهم)**. كان بخطّ أقلّ قدرة وتفوّقاً ممّا بلغهُ لاحقا. كتب ذلك البحث إثر

رحيل والده، وكان قد انضمّ لحلقة بحث دائمة نظّمها عبد الحميد لفتية الحيّ، حيث يكلّف كلّ واحد من أعضاء الحلقة بالبحث في موضوع، أو يقترح العضو بحثه، ويتداوله باقي الأعضاء بعد أن يخضع لتصويب المعلّم.

كتب يحيى قبل عشرين سنة: ((النسيان ليس آفة كما يعتقد البعض، ليس قدرة كما يريد البعض الآخر أن يصوّرهُ، وهو حتما ليس دائما حالة صحيّة، يمكن أن يتعلّقُ الأمر بمرض ما يصيب المعنيّ، وفي هذه الحالة كما في حالة الكبر يصبح مرتبطا بالعجز، وهو نسيان مؤلم يصعّبُ الحياة ويجعلها قاسية على النسّاء وعلى أهله وأصدقائه ومن يحبّونه.

ولكنّ النسيان الذي يمكن أن يكون محمودا هو الذي يجعلنا نتوقّف عن التألم بسبب خسارة ما، فحين نفقد شخصا عزيزا علينا نُصابُ بكثير من الوجع والخيبة، ونرتبطُ بذكرياتنا نحو هذا الفقيد، ولو بقي الحال على ما هو عليه تصبحُ الحياة مستحيلة ونتوقّف عن التفكير في الغد؛ لأنّ الأمس القريب هو الذي يتّسعُ ويحتلُّ الزّمن كلّهُ.

هذا بخصوص النّسيان فماذا عن المنسيّ؟ المنسيُّ نوعان: الأول جمادٌ أو حالة أو وضع، والثاني إنسان أو كائن حيّ، وإذا كان الأمر متعلّقًا بالنوع الأول فهو نسيان بلا أثر سلبيّ، فيمكن دائما أن ينسى المرء سقوطه من الدّراجة، ينسى لون الحُجرة التي درس بها، ينسى الحَرجَ الذي أصابهُ، وفي هذا لا يوجدُ ردّ فعل من المنسيّ، فهو بلا شعور، وإذا تعلّق النّسيان بكائن حيّ كالنّبات فإنّ نسيانه يعني موته، أو كالحيوان الذي قد يجنّبهُ النّسيان الموت، لكنّهُ قد يعني نكرانا من النّاسي وظلما كبيرا، وبقي أن نتحدّث عن الجُرح العميق الذي يصيبُ الإنسان الذي ينساه بنو جلدته، وهو أقسى من الوحدة، فالنّسيانُ هو

إهمالٌ واحتقارٌ من جهةٍ، وهو كِبرٌ وجحودٌ وقسوة من جهة أخرى، ومهما حاولنا التّخفيف من وطأَة النّسيان على الإنسان المنسيّ فإننا نخيب؛ لأنّه نيل من قيمته ومن وجوده، ومنعٌ له من حقّه في المشاركة في الحياة الجماعيّة، وما أقسى أن تكون خارج الجماعة.))

قرأ يحيى مقاربته الوجدانية للنّسيان، واحتفظ بها في غرفته ببيت القرابة، وتمنّى لو أنّهُ يضيفُ إليها أو يعدّلها بما حصل خلال سنوات، لقد أثمر الدّرس اللّسانيّ المتواصلُ الكثير من المعاني دون نطق.

الصّمتُ أوسعُ من اللّغة، اللّغة أوسع من الشّفاهة.

ما العالم؟

(1)

أكثر شيء عاشهُ وحدهُ هو تمرين الأحلام الأبديّ. ظلّ يُضيّعُ طريقهُ من المدرسة إلى البيتِ أكثر من مرّة وهو غارق في عوالمهُ. أبقى على خيط العقل فقط من أجل تركيب تفاصيل أحلامه. الصّمت كان عالما مدهشا، وقد منحه هذا المفتاح السحريّ ليلجَ الحلم، لهذا فهو لم يحقد عليه يوما. الحقدُ الأكبر كان على الصّخب الذي لا يعرفُه، كأنّه من غريب اللّغة، كأنّ يحيى من محدثي اللّغة. كان يعتقد أنّ الصّخب يتنكّر لهُ، هو حالة يجهلهَا، ولعلّها متعة حُرمهَا. تدريجيّا أصبح على يقين بأنّ الصّمت أقدرُ وأعلى من أيّ صوت ممكنٍ، إنّه، كالعبادة والتأمّل، طبقة سامية لا يرقى إليها الجميع، وفي لحظة عبقرية وقفَ على يقينه الذي أنقذهُ. لقد رأى الصّخب، سمعه ببصره، تخيّل لكلّ حركة صوتا، منحها صمتا يلائمها، وواصلَ إلى أن وقفَ حيث هو. خلال كلّ هذا الوقت البارد والأبيض والرّماديّ أحيانا لم يكن لديهِ إلا الأحلام.

حلمَ أنّهُ يطيرُ ويسقطُ، وأنّهُ يولَدُ ويموتُ، حلم أنّهُ يملكُ الأرض ويعيشُ فيها وحدهُ، حلم بانفصالهِ عن الكون وبتشظّيه، حلمَ أنّهُ يسيلُ ويسقي شجرة العنب التي مدحها فاتح في رسالة قرأها نصف شباب القرابة ولم يفهمها إلا القليل. قال إنّ شجرة العنب إنسان، وإنّها حتما

تطوّر طبيعيّ للإنسان. حلمَ يحيى أنّهُ تزوّج، كان هذا الحلم عسيرا جدّا، فعلها أكثر من مرّة ووضع نفسهُ زوجا. أعجبهُ الفيلم الصّامتُ، شعرَ بكثير من الحياء يحتلُّ وجههُ، وتعرّقَ رغم أنّ الأمر لا يعدو الحلم. لم تكن الزّوجة دائما إلا امرأة لم يلتقها يوما، لم تكن رقيّة، ولا التالية، ولا سعيدة شقيقة الظّلال، ولا سميرة الممرّضة التي تبادل معها ثلاث رسائل ووداعاً سريعاً. ولم يتمكّن يوما من وضع امرأة واحدة زوجة قارّة. في المرّات القليلة التي أقامَ فيها عرسا صاخبا، كانت ملامح تلك الزّوجة - وما تزال - حالة متطوّرة ومتغيّرة. لقد أنتجَ وجها من صمته العلنيّ وغضبه الدّفين. أوجدَ حبيبة وزوجة؛ لأنّهُ لم يستطعْ أن يعثر على صفة زوج مع الوجوه التي ألفها. هناك غربة بينه وبين الوجوه التي عرف، هناك مسافة، الجميع كانوا من أنصار الكلام وهو كان من أنصار اللّغة.

لم يتوقّف عن الحلم إلا في اللّحظات التي صنعها الصّاخبون. عندما تم الزجُّ بهِ في عوالمهم كان يعودُ من حلمه موجوعا، ويعيشُ كوابيسهم، يعودُ من طفولته الشهيّة التي ترافقهُ إلى وعيهم القاسي. ألا يشبه الأخرس طفلا؟ حتى في غضبه وشدّته وسلوكه الغريب هو طفل. في الكثير من النّاطقين طفل يرفض أن يكبر، ذاك-تحديدا-ما يجعلهم يقدّسون الحلم، وإن عاشوا مع البقية الكابوس.

كان يعرفُ أنّ الأخرس كابوس بالنّسبة للبقيّة، فبمجرّد أن تفكّر امرأة بأنّ زوجها القادم ببدلته السّوداء والمتأنّق أخرسَ، تتحوّل بدلته إلى أسمال، ووسامته إلى بشاعة. شعورٌ بشريّ بذيء، حتّى النّاس لا يجهدون أنفسهم في فهم خطابات الخرس، لهذا فإنّهم يعتقدون أنّ التواصل معهم مؤلمٌ، ولكن الإيلام لم يكن للأخرس الذي يعجزهُ صمتهُ أن يوصل خطابه، بل للمصغي الذي لا يستطيع التقاط معنى.

أيّ منطق هذا الذي يجبر المخاطب العاجز النّاقص على الاكتمال، ويرأف باكتمال المصغي؟

في الحياة كوابيس أيضا، وهي الجزء الذي يعني الكبار، طبعا الكبار هنا هم النّاطقون، فلا يمكن لأخرس أن يكبر إلا إذا حدث ونطق. الأخرس يعيشُ على إيقاع واحد، أمّا النّاطقون فهم مرتدّون، يعيشون على إيقاع ليعودوا ويجدوا لهم إيقاعا جديدا مختلفا. إنها الحياة بإيقاعات وألوان وأصوات ما لا يفهمه في قوقعته. أكثر كائن يمكنُ أن يفسّرَ صمتهُ كان سلحفاته التي تصمتُ بوجهها الحكيم، وتسكنُ قوقعتها كلّما شعرت أنّ العالمَ لا يفهمها.

جزء بهيّ من أحلامه كان يتحقّقُ حين التقت خطاهُ خطى التالية، وفي تلك المرحلة التي مرّت عليه سريعا توقّفَ عن الحلم، ووجّه كلّ خياله وأمانيه وأحلامه نحوها. أصبحت أيقونته وفريدة دهره، لا يمكنُهُ أن يجتزئ لنفسه حلما منفردا. أمضى وقتهُ سعيدا بتغيير وضعياته ووضعيات التالية، تحضّر ليكون آخر. في الحبّ نكفُّ أن نكون كما اعتدنا. في الحبِّ نُطلقُ الصّورة الأبهى منّا. بحثَ طويلا عن تلك الصّورة فلم يجدها، وقرّر أن يرى بعين التالية. كانت طفلة بعمر الحلم، لا تنذر من خطاها للكابوس وقعا. كانت تتبرعمُ عبر أزقّة القرابة، كأنّها تتغذّى من سحر العاشقات كلّهن، ما جعلهُ يختار مذهب خالها ومعلّمهُ.

في أوّل الأمر بدا لهُ أنّ حبّه ذاك انتصارٌ على الرّعب الذي اتّسعَ في الأرض، لكنّه سريعا عاد يسائل نفسه إن كان يجوزُ له أن يحبّ التالية؟ ألا تكون ابنة أخت المعلّم الذي لقّنهُ حتّى أتخمهُ من كلّ فنّ؟ ألا يكون خائنا في اقتراف الحبّ دون أن يعبُر جسرَ الخال؟ لكن كيف يكون عبور العاشق على وليّ المعشوق؟ طلبٌ يُرفعُ له، أم تحدٍّ يجابهُ

بهِ؟ سكنت أحلامهُ الورديّة قليلا وامتدّت حيرته، وحافظ على هدوء خطاه كي لا يتورّط أكثر. كانت هي جامحة، وكان هو حذرا، كان هناك احتمال أن يتوقّفَ هذا العرضُ في نقطة ما، أن يُؤجّل الحبّ العظيم أو يُلغى تماما، واستعدّ هو لذلك كما يستعدّ لنشوة الوصال.

المنطق والعقل آخر مباحث العشق، لكنّه وضعهما في المقدّمة. أحبّ بقليل من التوقّع وقليل من الحساب وكثير من الحلم. والقليل من التردّد في الحبّ قد يعجّل بالنهاية. أحبّها كأنّه لا حياة بعدها أو قبلها، ولكن باحتمال الشّهادة أيضا. كان حبّه كثورة، إذا انتصرت أصبح بطلا، وإذا خابت أصبح خائنا، هكذا هي الثّورات وهكذا هو الحبّ.

توقّف يحيى عن لعب كرة القدم مذ كسرت ذراعه في معركة غير متكافئة مع رياضيّ حمله وألقى به أرضا في لمح البصر. أشعرهُ الأمر بكثير من العار، وتعذّر عليه العودة لحراسة المرمى. لكنّه في حبّه تجدّد، وقرّر أن يعود للّعب. ورغم أنّهُ فقد الكثير إلا أنّ أداءهُ كان جميلا على أرض ملعب الحضر. صدّ تسديدات وهجمات كثيرة وهو يفكّر فيها. كان يناسبهُ الوقوف وتأمّل واحد وعشرين لاعبا يتداخلون، يلتحمون وينفصلون ويجرون في كلّ اتجاه. كرةُ القدم صورة عن الحياة، تشكّل خطّتك، وتتعبُ بالقدر الذي يناسب الخطّة والظروف، ثمّ تنتظر النتيجة، وكثيرا ما تكون الخطّة والجهد والقدرة أقلّ من المرور أمام عقبة الخصم. الحياة تطويعٌ مستمرٌّ لخصوم كثر.

مرّ كلّ شيء بسرعة، البطولة التي شارك فيها وخسرهاً، الحبّ الذي بدأه ولم ينهه، النباتات التي تاقَ إليها وخضعت لهُ طواعية وهجرها، السّلمُ الذي جنح إليه فأغفلهُ. الحلم كان مأزق الوعي، وأدرك في خلوته بعيدا عن رقية وأطفالها أنّ أكثر شيء واقعيّ عرفهُ كان رقيّة. الباقي كلّهُ من اقتراف الرّاوي، من هذيان حمّى كالّتي أتت على سمعه.

(2)

يضعُ نظّارة هذه هي الصّفة التي تقفزُ إلى ذهنه عندما يتذكّر عبد الحميد، معلّمهُ الذي ظلّ يرافقهُ إلى أن طُرد من الثّانوية بعد تكاسلٍ مُبرمج. كان يُشفقُ عليه، آلمتهُ عزلتهُ أكثر ممّا تألّم يحيى نفسه منها. كان الأخرس الوحيدُ في الحيّ، لا يمكن العثور على عزاء في وضع مشابه. عمل عبد الحميد ما في وسعه ليوصلهُ إلى المكان الأقرب من الوضع الطّبيعي، ولكنّه لا يفهم أن الوضع الطّبيعيَّ يتعلّق بفهم الطبيعة، لا بالحلم بطبيعة مختلفة. تسببت رعايته في الكثير من الأزمات. كانت تسحب يحيى من أحلامه إلى الواقع، ثمّ تلقي به إلى أحلام أكبر تفترسُهُ. في كلّ مرّة يقتربُ أكثر منه يكونُ محمّلا بكتب ومراجع وخيارات جديدة، لقد كان أقرب أن يكون مجالا لبحثه غير المعلن. أصبح يحيى التجربة والنتيجة والمعلّمُ الرّاعي والمخبر. أرادهُ أن يكون عبقريا على نحو ما، ربّما كان سيشعُرُ بامتنان أو نشوة كونه صانع عبقريّ، ولكنّ الكمّ الهائل من التفسيرات التي أراده أن يفهمها بدت كمّا لا متناهياً، شيفرات جديدة لحياة كثيرة الرّموز.

«بم كنتُ موعودا في أحلام عبد الحميد؟»، يُراجعُ ذاكرتهُ معهُ. لم يرد أن يكون يحيى قارئا لسارتر وأوجين يونسكو وجان جينيه وصامويل بيكت وزمرة العبثيين والوجوديّين، ولم يخف تذمّره حين وجده رفقة مسعود بلخضر، يقتنونَ تلك الكتب من بائع قبالة السّوق المغطّاة وسط المدينة. كانت كتبا مهرّبة من مكتبة ناصر وعليها توقيعهُ وملاحظاته، لا أحد يعرفُ أنّ لناصر ميولاً أدبيّةً أو مسرحيّةً، لكنّها ظهرت جليّةً على تلك الكتب، اعتبر المعلّم الصّلبُ اللّين في آن أنّ هؤلاء يقدّمون فكرا انعزاليّا وفردانيّا، وهم أقلّ شأنا من الأدباء الرّوس أو الأمريكيّين، ولم يجد لدى الشّابّين آذان. يحيى؛ لأنّه لا يسمع، ومسعود؛ لأنّه غير مقتنع

بأفكار هذا العرّاب الذي يتدحرجُ ذوقُهُ الأدبيُّ بين الأدب الجاهليّ وجبران والعقّاد.

أعدّهُ المعلّم ليكون فاكهته، ليكون النّموذج الذي يريد، لهذا فقد شكّل تردّيه صدمة عنيفة لعبد الحميد، جعلته يخفّف من وطأة رسالته على القرابة وأبنائها، ويكتفي بدور المعلّم في بعض البيوت خارج القرابة، بعد أن تقاعد مجبرا.

ما الحياة إلا كوابيس كبار وأحلام صغار! هكذا اعتقد أنّه عوضَ أن يكون حُلما لمعلّمه تحوّل إلى كابوس، وفي صغره هو لا يسعهُ إلاّ أن يحلمَ أكثر، ليس بوسعه إلا أن يقاوم اجتياح كابوس الخيبة والفشل والتردّي الإنسانيّ بحلم صغير، أن يصلب قامته أمام إعصار اللاّمعنى الذي لفّ المكان والزّمان.

رفضَ أن يغيّر واجهة بيته. الجميع استفاد من إعانة الدّولة لسكّان الحيّ ليرمّموا واجهاتهم، أو ليخرّبوا وجه القرابة. يحيى أبقى واجهة بيته كما هي، ترابيّة صفراء، بباب أزرق، تقشّر طلاؤه فكشف أزرق آخر غامقا. رفضَ أن يخونَ جماليّة المكان لصالح الزّمان، وهو مستعدّ أن يكرّر دورَ الحفناوي الذي قام غير مرّة بطلاء واجهات القرابة بـ«الجير»: منتصرا للأبيض. الحفناوي رجلٌ من حُلم؛ لهذا فقد انحاز للأبيض. اللّون الأبيض ليس لون السّلام والموت فقط، هو لون الأحلام أيضا. ها هو يأمُرَ أهلهُ بالوقوف كلّ صباح أمام سريّة العَلم التي نصبها في قلب فناء بيته، صباحا ليُرفعَ العلم وتُنشدَ «قسما»، ومساءً لينزل العلم، وأحيانا لينشد «**فداء الجزائر روحي ومالي ألا في سبيل الحريّة**»[1]، مستعدّ أن يكون هذا الرّجل الذي أمضى كلّ عمره أبا لطفلة وحيدة، يدرّسها الوطنيّة على فهمه،

(1) نشيد المصاليين في حزب الشّعب الجزائري.

الوطنيّة التي تعتبر مصالي الحاج أبا للثّورة ومجموعة السّتّة خاطفي مشروع نزقين، الوطنيّة التي تجزمُ أنّ الثّورة فكرة ومسارا هي نتيجة لعمل مصالي الحاج لسنوات طوال تتجاوزُ أعمار من تبنّاها لاحقا، الوطنيّة التي تقول على لسان الحفناوي: «نعم تحرّرت الأرض، لكنّ الوطن مسروقٌ». وهكذا قفز بعضهم على مشروع بعضهم، قفزوا على مصالي الحاج واستشهدوا أو انتهوا منفيين، ثمّ جاء من قفز على السّلطة بعد الاستقلال ونازعه فيها آخرون، وظلّ الشّعبُ ملكا لهم، وظلّ الحزبُ واحدا، وعندما تعدّدت الأحزاب لم يعد أحد يفهم أين يقيم حاكم الجزائر الحقيقيّ. بدأ الجميع يؤمن بوجود الشّبح، يفسّرُ الحفناوي خلاصات سياسية يستقيها من كلّ جهة، يضعها في قالب مشترك، ثمّ تتحوّل إلى حقائق يؤمن بها ويجد لها دلائل، ويصغي إليه النّاس ويضعونه في مرتبة أعلى من الجنون وأقل من العقل.

قال يحيى هذا صراحة لرقيّة وهو يشرحُ لها كيف يتّجهُ عقلُ العالم إلى الغياب عن اللّوحة ويترك الألوان تتصارعُ! «أنا لن أكون أقلّ شجاعة، إذا أصرّوا أن ألوّن واجهة البيت أو ألبسها مادّة يابسة ملساء، فسأبيعه وأجاور الحفناوي في بيته الجديد، هناك يقيمُ معرضا وطنيّا ويملأ الشّارع بالرّايات الوطنيّة التي اختار ألوانها وشكّلها مصالي الحاج». كانت عين رقيّة تحلُمُ أيضا. أرادت أن تكون إلى جانبه، تكتبُ له ما تريد، وتفهمهُ من نظراته، وتخدمُه مع أطفالها كطفل صغير، وتحميه معهم من الكوابيس.

كان يتذكّرُ مسعود بلخضر إمام الحالمين، ويأسفُ أنّ الأرض غيّبت رجلا بوزن كلّ الأحلام. كان مندفعا كالفراشة نحو النّور. كان أكبر من البقاء لممارسة يوميّات آسنة، وأقلّ من نبيّ يوزّعُ رسالتهُ. أشفق يحيى على نهايته، ولكنّهُ ظلّ حاقدا على القرابة وسكّانها؛ لأنهم لم

يحموا الحلم الجميل الذي سكن مسعود. اعتقد أنّهم لو منحوه حقّهُ في التفوّق لتفوّقَ، لو منحوه حقّهُ في القيادة لكان سيّدا للقرابة كلّها بأزقّتها المتداخلة والمتشابهة، وبأطفالها الملائكة الضّاحكة، وبشيوخها الحكماء حدّ الالتصاق بالتّراب، وبنسائها العاشقات حدّ الكتمان، وبشبابها النّزقين الأتقياء، لكانَ مَلكاً يصنعُ مجد القرابة، مجد المغيّبين والمنسيّين جميعا. ولم يكن لهُ أن يحكي كلمة عن مسعود، فقد أصبح محرّما على الألسنة، ولم يكن لسانه موجودا ليصيح بالجميع: «مسعود أكبر من إنسان القرابة وأقلّ من الأنبياء، أكبر من الواقع وأقدر من الحلم، مسعود له كرامته فقد سمعتهُ وأنا أصمّ وحدّثتهُ وأنا أبكمُ، مسعودٌ له خطيئتُهُ فقد منح عنقهُ لبشريّ قادم من أعلى الحقد والجهل، مسعود عاركم يا أهل القرابة وعار الإنسان الجديد الذي يتألم بسبب وجوده».

وسمعت رقيّة من يحيى حكاية الطّفل الذي ارتقى سلّم الحلم ثمّ قفز نحو الكابوس بسرعة مذهلة، حكاية إدريس الذي يقيم في قلبه ويزور أحلامهُ دائما. كان قد انفرط من عقلهِ مثلَ حبّات مسبحة تدريجيّا، فلم يمنح النّاس ولا أهله فرصة ملاحظة الأمر، كأنّهُ خطّطَ لجنونه، كان ماهرا وبارعا في كلّ خطواته، حتّى وهو يُجنُّ راوغ الجميع وأفقدهم ميزة الملاحظة والحكم وقنص الأسرار، هزمَ غرائز القرابة الأعظم وجنّ بهدوء كبير، لأنّهُ كان طفلا لم يحتمل كابوس النّضج.

(3)

لم تتغيّر القرابة كثيرا، كانت تعيش لحظتها الفارقة. أفرغت من محبيها الواحد تلو الآخر، وقطنها أناس معلّقو العواطف، لا يحبّون جدرانها وأزقّتها ومعانيها السريّة، ولا يحقدون عليها أو يكرهون

بلاغتها. لم يعد بوسع القرابة أن تصدم الوافدين عليها ولا أن تجذب مغادريها، أصبحتْ حيّا وفقط. عندما عاد لم ينتبه إليه الآخرون، كان الحيّ سيُقيم لهُ احتفالية كبيرة لو عاد في وقت آخر، لكنّه لم يعثر على تلويحة ترحيب طوال شارع سراي، ومرّ يحثُّ الخُطى كأنّه غريب الحيّ. وصل إلى البيت ولم يكن معه المفتاح، ولا أحد سيُجيبُ من خلف الباب، وقفَ مليّا لا يعرف إن كان عليه أن يتسلّق الجدار ويقفز إلى الفناء، أم أنّ انتظار الفراغ سيكون حيلته الغبيّة؟ مرّ قريبا منهُ طفلٌ بملامح بيت «الكرموس»، ابتسم لهُ وكأنّه عرفه. كان يعرف جيّدا ملامح العائلة كما يعرفها كلّ سكان الحيّ الأصليون، هم عائلة مشدودة الأعين شديدة السّمرة، وتبدو عضلاتهم بارزة في سنّ مبكّرة، أحفاد الحاج عمر الكرموس، أخذوا هذه الملامح من جدّتهم والدة الكرموس التي تشبه الهنود الحمر، وكان عمر الكرموس قبل الاستقلال يلقّبُ بعمر الهندي، لكنّه ومنذ التحق بالسّوق بائع خضار، اكتسب لقب الكرموس، وهو صاحب فضل على بايزيد؛ إذ كان أوّل من أدخلهُ سوق الخضر وفتح له باب المهنة قبل أن يرتقي مراتب المال.

حدّق الطّفل في يحيى ثمّ أطلق رجله يجري، وتبعه عبر الزّقاق نفسه قاصدا بيت شقيقته، وهو متلهّف لرؤيتها ومحرج أنّه يعود بلا إدريس. ماذا يقول لها بعد أن عاد من رحلته الطّويلة أشعث أغبر بلا حيلة؟ كلّما اقترب من البيت كبر العالم وصغرت حيلته، كلّما حثّ الخطى ابتعد البيت. كانت تجربة قاسية لا قبل له بها. وصل الباب وتسمّر أمامه لا يدري ما الذي يجب؟

عندما فتح أبو إدريس الباب شُلّ. توقّف عن الإدراك وهو يتأمّله. كانت عودة ميّت بالنسبة لهم. أعاد غلق الباب في وجهه وأسرع ينادي: «فيّالة... فيّالة أرواحي اجري». وهبّت مسرعة، وعندما أعاد فتح

الباب كان واقفا في مكانه بلا حراك. سحبته أخته من يده وعانقته، شدّته إليها كأنّها تخشى أن يغيب مجدّدا، وراحت توزّع نظراتها المرعوبة في كلّ اتّجاه، وتضمُّه إليها وسط فناء البيت، وليس بحوزتها إلا الشّهيق الذي يكاد يوقف أنفاسها، بينما كان زوجها يخرجُ وينظر ما جرّ معه يحيى، ويعود ليقف مشدوها، لا يقاوم هو الآخر دمعه الذي يقطر فيدفعه إلى إدارة وجهه، ينظر هلعَ وفرح زوجته فيتجمّع دمعه مرّة أخرى. يحيى كان خارج المشهد، كان يتذكّر إدريس وخطاه الملعونة. أراد أن يعرف بشأنه، أراد أن يريحَ ضميره المرهق، لم يكن يريد من أمر أكثر من لقاء أخته وقد حصل. بقي إدريس والتالية، وبعدها يمكنه أن يغيب أبدا.

لم يدر كم مضى من الوقت وأخته تتمرّغ به أرضا؟ لكنّه وجد أخيرا نفسه في قلب البيت، حيث تعلو صورته أحد الجدران، وقد كتب اسمه أسفلها، كأنّه شهيد العائلة. عرف أنّ إدريس يعالج في مصحّة نفسية بالبليدة، وهو يتحسّنُ ويعود إلى عقله تدريجيا، وأسعدهُ الشقُّ الثّاني من الخبر بقدر ما آلمهُ الشقّ الأول منه. أمّا التالية فما تزال في العاصمة زوجة ثانية لبايزيد، وهي تزور بيت جلول المرعوب أحيانا. شعر بأنّ العالم لم يتخرّب تماما في غيابه.

عاد إلى الحيّ بعد غياب ثلاث سنوات. أصبحت التالية في سنتها الرّابعة من الزّواج. يعتقد أنّ الزّواج الذي دام سنوات هو زواج سعيد، لهذا فقد تجرّأ وعاد إلى السّنة الأولى من زواجها عندما كان يتبادل معها الرّسائل. الحقيقة لم تصلهُ إلا برسالتين، وبعدها أصبح يرسل بطاقات أكثر منها رسائل، بطاقات بلا انتماء، لا تذكر اسمه أو اسمها، أبيات شعر أو مقولات، وربّما أحاديث أو آيات قرآنية، فقط إشارات حياة ووفاء. ظلّ يتساءل وهو يسلّم فتيحة رسائله سرّا، يوم

الخميس الأخير من كلّ شهر، على الساعة الثانية والنصف، منتصف زقاق عمّي مبارك، وإذا تعذّر الأمر زحفا معا من جهتين ليلتقيا في زقاق الحمامة، بعد عشر دقائق بالضّبط. كانت هناك خطّة محكمة لتمرير الرّسائل منه إلى فتيحة، ثمّ إلى منى فالتالية والعكس. بعدها تزوّجت فتيحة سريعا وأحالته على منى، لكنّه لم يعد يتلقّى جوابات منها، ولم يسأل عن السّبب.

نام ليلته تلك عند شقيقته في رعاية كبيرة، وفكّر في رقيّة وفي الأطفال. أراد أن يرى منى، ليسلّمها بطاقة أخيرة توصلها التالية، لم ينجح ذلك عندما قطع يوم الخميس شارعيهما من منتصف النهار إلى غاية الخامسة مساء، لكنّه التقى الكثير من وجوه الحيّ ورحّب به الجميع. مساءً في بيت أخته كان عبد الحميد ينتظرُه بابتسامة عريضة وحضن واسع. عانقه ورحّب به وكأنه ابنه يعود من رحلة طويلة. سعد لهذا اللّقاء، لكنّه لم يعد يشعر أنّ الحيّ يشبهه، أو ربّما تغيّر شيء داخله فلم يعد يفهم الحيّ جيّدا. لديه بيت مشترك مع شقيقته، وبيت شقيقته أيضا يسعه، لكنّه يشعر بضيق، ضيق يمنعه من البقاء في مكان واحد، حتّى في جلوسه لدقائق كان يتحرّك كثيرا ويودّ أن يأخذ مكانا آخر كلّما غيّر مكانه.

بعد أيّام قليلة، كان يحيى يغيب مجدّدا وفيّالة يسكُنها الهلع. لم يترك إشارة واحدة ولا رسالة عن غيابه. اختفى لأيّام ليعود رفقة رقيّة والأطفال. يفتحُ باب بيته ويُدخلهم، وهكذا أصبحت ليحيى حياة أخرى مفاجئة للجميع. وأطفال صغار يلعبون أمام البيت، وأكبرهم يستعدّ لدخول ابتدائيّة «الكر الطّاهر»، حيث درس هو. ثمّ ها هي أخته تتبادل الزّيارات مع زوجته الجديدة، والجميع يغبطونه على ما وصل إليه. كان يحيى يجتهد من أجل الحصول على عمل، وتوسّط له عبد

الحميد ليعمل عند بايزيد، لكنّه لم يرغب في ذلك، أراد أن يبتعد عن عالم التالية، ولم يعثر على عمل بسهولة. استغرق سنوات وهو يقف بمحاذاة حمّام الحرفة رفقة الحمّالين ليحصّل قوت عياله. أنهكه العمل وهدّه، لكنّه ظلّ يبتسم كلّما التقى زوجته وأطفالها، وقد اتّسعت ابتسامته أكثر بعد أن حملت رقية بابنته الأولى سريعا. صار ينسى آلام وتعب اليوم، ويقف إلى جانبها في البيت.

كان مدني فاغرا كأنّه يشاهد فيلما، وبدا أنّ بشير الدّيلي تعب من الحكي. توقّف وهمّ بالوقوف عندما أوقفهُ مستاء من استسلام يحيى. «كيف قبل أن يعمل عتّالا وهو يحمل كلّ تلك المواهب داخله؟ يبدو الأمر غير منطقيّ يا سي الدّيلي؟»، ولم يكن عليه أن يجد تفسيراً، إذ إنّ حياة يحيى تقترحُ فعلا مخرجا لبشير ولهُ، فقد أنقذهُ وعيه بالنّباتات ووجد عملا في محافظة السّهوب، وهو يرعى نباتاتها، ويحظى باحترام الجميع، فلا يكفّ عن ردّ التلويحات التي تكاد تمنعُه من إتمام عمله، ويقول في داخله: «لو أنّ لي لساناً لسهّل ردّ تحياتهم المتعبة». لم يعُد يفكّر في التّالية، وكأنّهُ لم يكن عاشقا كبيرا لها، وتوقّفَ عن الخطّ إلا قليلا، بل لعلّ خطّه ساء.

أنجبت رقية الطّفلة في ليلة شتاء، وأطلق عليها اسم «أحلام»؛ وفاء لذكرى الطّفلة التي فقدها المعلّم، وأقامت شقيقته معه في البيت ترعى الأمّ ورضيعتها، بينما كان إدريس يعودُ بوجه ساهم وجسد مختلف وعينين غامضتي المعنى، لكنّه يبتسمُ حين وضعتْ أمّه الرّضيعة بحجره، ويملكُ لسانا يبارك فيقول: «الله يبارك». ويوجّه الخطاب للأمّ: «مبروك الطّالبة تتربى في عزكم». أمّا عبد الحميد فقد ذبح ببيت يحيى كبشاً، وكان أسعد من الجميع وهو يشعر كأنّه أصبح جدّا.

صيد الحكاية

يقول الشيخ الأبيض الرّائي : «...الغياب لا يمنح شيئا. يقلّصُ الوقع في القلوب، والرّغبة في الوثوب. الغياب وهم الشّعراء وحيلة الضّعفاء. وللشّعراء أوهام لذيذة تغري، لا تشهدُ منها واقعا. فلا تأمن الغياب، وإذا فعلتَ فلا تطلبِ الإيابَ»

هذه الحكاية وحشٌ يجبُ أن يُروّض، فكُلّما غاص فيها توسّعت. ارتدّ به الزّمن إلى خمس عشرة سنة سابقة، ووقفَ يسمعُ حكاية القرابة عن يحيى وإدريس. في ارتداده هذا كان أقلّ حيرة وأكثر رغبة في الحياة. كان ينسى أنّهُ بشير الدّيلي يتحوّلُ إلى حكّاءٍ فقط، مجرّد راوٍ أو ناقل تفاصيل، لا يهتمُّ لطريقة الحكي أو نوعيّة الحكاية أو حالة الشّخوص. نشوة عظمى استحوذت عليه وهو يقف بعد خمس سنوات وعقد من الزّمن؛ ليرى ما جرى يتكرّر أمامهُ.

مدني ظلّ يتنقّل في شقّته مزهوّا، ولم يطلب إضافة أو تفسيرا. وبشير في حيرة هل كان يقول كلّ ما ينبغي؟ إن كان يعرفُ التفاصيل المغيّبة؟ في كلّ حكاية هناك جانب لا يُرى، هناك ظلٌّ لا يُقدّرُ، هناك بعدٌ لا يخدُمُ الرّاوي. كلّ حكاية هي تهريب لحكاية أُخرى، غطاء لحكاية أعلى، بل هي مواجهة ودفع وتحد لحكاية أُخرى.

توقّفَ قليلا، ثمّ قال: «تعرف يا مدني بما أنّك أقربُ النّاس إليّ وأنت بمثابة الأخ والصّديق والرّفيق، بل أنت أهمّ إنسان التقيته على الإطلاق، بما أنّك كلّ ذلك فسأبوح لك بسرّ كبير»، وتأهّب مدني لذلك، ففتح عينيه اللّتين احمرّتا في آخر ليلتهما المضيئة، ولكنّ حركات الفيلم الملتهب على التلفزيون سحبتهُ. توزّع بين سرّ الدّيلي الكبير وشغفه بالفيلم. الدّيلي لم يتمكّن من مقاومة أنانيته المفرطة في تلك اللّحظة، فالتقطَ جهاز التّحكّم وأطفأَ التلفاز، قتلَ كائناً حيّاً، هذا الجهاز لم يُطفأ يوما، تعطّل مرّتين منذ اقتناه قبل ثلاث عشرة سنة، ولكنّهُ أسرعَ إلى مصلّح فذٍّ وأسعفهُ، وها هو يرتكبُ الجرمَ. لقد ارتقى مدني لدرجة عالية جدًّا، ما جعلهُ يؤثرهُ على التلفزيون الرّماديّ

محليّ الصّنع، كم كان قاسيا وناكراً! اعتدل مدني في جلسته، والتقى حاجباه في خطّ مستقيم مركّزا معهُ، الأمر الذي جعلهُ يغفل حزنهُ الكبير على الإساءة العظيمة لجهازه الإيني[1]. عادَ يُحدّثُ مدني عن سرّه، وعاد هو يصغي بنظرات حمراء، بينما يستعدّ مكبّر صوت مسجد بعيد لآذان الفجر. تنحنحَ مدني قليلا وتمايل يريد أن يتّكئ وسمحَ له بذلك. لمّا استوى على يده اليسرى سألَ بصوت خافت: «ما السرّ العظيم؟»، فأجابهُ بصوت خفيض صادق كما لم يكن يوما: «أودّ لو أكتب قصيدة». اعتدل جالسا ثمّ وقف وعاد ليجلس، بدا مشدوها لما سمع، وكاد الدّيلي يفرح لعثوره أخيرا على رجل قريب منه، مخلص يفهم أمرهُ الجلل، غير أنّ تجاوب لسانه كان أضعف، فقد اكتفى بالقول: «ماذا تنتظر؟ أكتب، لقد أمضيت كلّ عمرك تكتب في البلدية عقود الميلاد والوفاة والزّواج، أنت أكثر رجل يمكنه الكتابة». أراد أن يُوقف الحديث معهُ ويطلب منهُ أن يغادر ويعتذر من التّلفزيون ويعود إلى حياته، أن يعود إلى صورة التّلاميذ في مدرسة غوستاف مارتين، إلى رواية «بقع غامقة في حياة بيضاء» ليعرف مآل الكاتب العجوز والشاب، أو ربّما يعود إلى لحظة التقائه بجاره السّايح، فلا يقف ويتركهُ يقاوم ويموت على السّلالم، أو ربّما ينامُ دون حلم عيدان الثقاب، فلا يحضر عزاء ولا يلتقي هذا الرّجل البليد، لكنّها ستكون نهاية مقرفة بعد كلّ ما بذلهُ، ولم يخب أملهُ تماما طالما يطلق الرّجل عبارة تسحبهُ من هاويته وتبدّد خيارات الإعدام: «الشّعرُ لا يُكتب يا الدّيلي، الشعر يعاش، أقصد لا يمكن لأيّ متعلّم أن يكون شاعرا». أعادهُ كلامه إلى تحليل ما أصابه. هو يعيش الشّعر ولا يكتبهُ، هو متعلّمٌ درس في مدرسة غوستاف مارتين قبل أن تتحوّل إلى مدرسة الأمير

(1) إيني: ENIE اختصار للشركة المنتجة (المؤسسة الوطنية للصناعات الإلكترونية).

عبد القادر، ثمّ في مدرسة الإصلاح لفترة وجيزة، وبعدها إلى مؤسسة التكوين المهني التي سكنته كذكرى تجمّع يوميّ أكثر منها مرحلة تلقّي. هو رجلٌ تكوّن بشغف دون أن يوصلهُ شغفهُ إلى أيّ تفوّق. عثرَ على الشّعر ولم يعثر على القصيدة المرجوّة. أراد أن يُعانق مدني الذي وصل لنتيجة عميقة. الشّعر حياة كاملة وليس قصيدة مرجوّة.

- أرجو أن يكون صدرك فسيحا لهذياني يا خويا مدني.
- لا تهتمّ يا الدّيلي، أنا أصغي إليك بكثير من الفرح.
- هذا ما ينتظر من رجل شهم مثلك.
- شكرا.
- تعرف! لو أنّك تابعت دروسك وتفوّقت لكنت طبيبا في منظمة أطباء بلا حدود، أو عضوا فاعلا في منظمة حقوقية، أو إماما معتدلا ومفكّراً، وربّما تمكّنت من اعتلاء مؤسّسة أو شركة وطنيّة، وبعدها إلى البرلمان، فلو حصل ودخلت البرلمان لعهدتين متتاليتين مع بعض سنوات العمل، لو حدث هذا فعلا لكنت حصلت على تقاعد مريح يعادل عشرة أضعاف تقاعدي على الأقلّ، لو أنّك ركّزت في الدّراسة يا مدني، وإن كان هذا الحديث متأخّرا بخمسين سنة، ولكنّي متأسّفٌ أنّ رجلا فذّا ذا عقل حكيم مثلك لا يكون وزيراً أو رئيس حزب، ولا يحصلُ على عشرة اضعاف تقاعدي، إنّه لأمرٌ محزنٌ.
- أشكرك كثيرا، أنا لم أدرس أبدا.
- أبدا؟!
- أبدا.
- ولا في الكتّاب؟

- في الكتاب بلى، أمضيت بعض الوقت.

- أعتذر إذا كنت أثقل عليك بحديثي يا مدني، فأنت تعرف أنّك أقرب إنسان إلى قلبي في هذا الصّباح الخريفيّ الحزين.

- لا تعتذر يا رجل، لقد أمضيتُ كثيرا من الوقت أتمنّى أن أحدّثك.

- وها قد التقيتني فحدّثتك ولم تحدّثني.

- هذا شرف لي، أنت تقول كلاما متينا، مثل تميمة قد لا نفهمها، لكنّها تنفعُنا.

- ألم تفهم كلامي؟

- فهمت الحكاية، ولم أفهم بعض العبارات فقط، لكنّي متيقّنٌ أنّها عبارات ذات مفهوم عظيم، الله يرحم الخونيّة كانت تقول كلاما غامضا، لكنّه يدغدغ القلب ويدلّك الرّوح.

- أتراها كانت ستفهمني؟

- أنت أكثر واحد يعرفها، هي زوجتك.

- كانت زوجتي.

- أنت أرملها.

- أنت لا تفهمني، لقد انفصلنا باكرا، لم تعد زوجتي في أوّل سنة زواج لنا.

- الله أكبر، لقد أمضيت سنوات في خدمتها، مؤتمراً بأمرها، ولم تذكر مرّة أنّك طليقها، بل مدحتك بأغنية ساحرة.

عندما قال هذا تملّكهُ الوجومُ. «أكانت تمدحني؟ بأغنية؟» كان يتحايل على يقين أنّهُ محبوبها ومالك روحها، لقد عاشَ خطًأً كأنّهُ لا شيء في حياتها، راعيًا للحيرة والتيه. تعذّبَ علنا وسرّا، وأملَ أن يكون عذابهُ محنة عابرة. «غنّ لي يا مدني» انتفضَ يطلب منه أغنيتهُ:

«أشدُ يا صديقي ومنقذ روحي من مكابداتها». ابتسم مدني، بينما كان بوق سيارة يشقّ الهدوء ويمحو خشخشة خطى المتمدرسين في ذلك الصّباح الذي عادت فيه روحهُ ترقص. «غن يا مدني لتشفى روحي». وانطلق بصوتٍ خشن نشازٍ في أغنية العارفة. أمّا الدّيلي فكان يسمعها بصوتها، ولا يعلمُ إن كانتْ الكلمات التي تتسرّب إليه من اقترافه أم من ذاكرة مدني النبيلة.

ما زالو يسعى وحيدْ وحيرانْ وقلبو موجوعْ مصهود بْنيرانْ

ياربي أعطيه من فيضك تسقيه وريلو يارب من حبرك برهانْ

ما زالو مفتونْ بالوجه المرهونْ وماشي وحدو في طريقو لامانْ

ساد صمت، وانعزلَت شقّتهُ عن ضوضاء الخارج. تسمّر مدني في مكانه، وزالت نورانيّته التي كان يراها، وتدريجيّا أصبحَ ما كان عليه قبل أن ينشد أنشودة العارفة. داخلهُ تصلّب في وجه الشكّ، فلم يسمح له بشيء. «هي حقّا أنشودة العارفة لي». لم يعرف ما الذي يمكنهُ قوله، لم يكن في اختبار مماثل، هو كشفٌ لا قبل لهُ به. مزّقَ مدني حيرتهُ المتأصّلة بحنحنة تبعها بوقوف وانتصاب، كأنّهُ سيخطُبُ في حشد. تأهّبَ ليسمع خطابهُ مشدودا تماما، وانتظر أن يأخذ بيده ويرتاح بعدَ ذلك. «سي بشير أنا آسف جدّا وأعتذر منك، لكنّي في ورطة حقيقيّة، حاولت أن أحفظ الأمر وأؤجّلهُ، ولكن ومن دونيّتي لم أستطع ذلك، سي بشير أرشدني إلى المرحاض لأنّي سأنفجر حالا». كان قد انتفخَ، وبمجرّد إنهائه خطابه البوليّ بردت أطرافهُ وأصبحَ بحجم قبضة يد. أشارَ بيدهِ إلى جهة المرحاض، فأسرع الرّجلُ وهو يزيمُ ويسحب الهواء بشفتيه إلى جوفه ويخرجه بسرعة ليشغل بولته عن الانفجار.

عاد سعيدا. طلب أن يسمحَ له بشير بتحضير قهوة، وأخبرهُ أنّه لا يملكُ مصفاة لقهوة تقليدية، فبدا عليه أسفٌ كبيرٌ. سأله إن كان

يشعر بالنّعاس فأشار بوجهه وعينيه أن لا. اقترحَ أن يغادرا لشرب قهوة صفّاي في مقهى ما، وقبل بكثير من الفرح الاقتراح. بعد ثواني كانا يقتربان معا من الباب كطفلين متّجهين إلى المدرسة، لكنّ مدني ارتدّ مسرعا وعاد يحمل الرّواية العارية بلا غلاف، والتي في جوفها صورة أطفال متمدرسين سنة قبل استقلال البلاد، وراح يترجّاهُ أن يسمح لهُ بأخذ هذا الكتاب المبارك ليرافقهُ في باقي حياته، وتعبَ الدّيلي ليفهمهُ أنّه ليس سوى رواية مجهولة الكاتب وبلا غلاف، دون جدوى، فالتزم الصّمت ومنحه إيّاها على مضض. أطلقا قدميهما مزهوين. كان يُحدّثهُ بينما يصغي إلى أنشودته تتردّدُ مرافقة هذا المسار كموسيقى تصويريّة. سأل مدني: «هل يمكن ليحيى الأخرس أن يكون شاعراً؟» فاختفت الأنشودة، ووقفَ بشير يلتقط أبعاد العالم الذي يقف عليه. أمام مستشفى الأمراض الصّدرية وسط المدينة، السّاعة تدنو من العاشرة. مدني يمسك يدهُ كأنّه يخاف شيئا، يخشى أن يهربَ أو يضيع. «أكنتُ صورة أخرى للخرس؟ أكان يحيى شبيهي؟ هو صامتٌ منذ ولد وشاعريّ أيضا!». لم يجد جوابا، وارتجلَ لهُ نتيجة مفادها أنّ «الشّعر حالة إنسانية وليست صوتيّة، ذلك خطأ قديمٌ، الشّعرُ اليوم يُقرأ أكثر ممّا يُسمع»، واهتمّ كثيرا لجوابه حتّى أنّهُ ظلّ يحرّك رأسهُ ويردّد: «صح... صح... صح». صفّارة الشّرطيّ وتلويحاته أضفت حركة على سكون الحكمة الصّدفة التي كانا فيها، فتحرّكا مجدّدا. انعطفا عبر شارع يتواجهُ فيه بنكان وثكنة. من يحرسُ من؟ الثّكنة تحرسُ المال أم المال يحرسُ العسكر؟ لا يهمّ، الأهمّ أنّ الثّكنة تتوسّطُ المدينة كعجوز تملك شرعيّة الوجود قبل الآخرين. سأل الدّيلي: «أين تقودنا خطانا؟»، فأجابه مدني: «أنت أدرى يا سي بشير». بعد نصف ساعة كانا أمام مقهى صغير في شارع خلفيّ من سوق الرّحمة. كميات

كبيرة من الخضر والفواكه تراكمت في طاولات وصناديق حول مبنى السّوق، وعبر بوابة السّوق كتل من اللّحم وخرفان ونعاج معلّقة من عراقيبها حمراء مسلوخة، وأكوام من الكبد والأحشاء على الطّاولات، دجاجٌ بلا عدد معلّق في ترتيب، لا حاجة لهما بهذا. أمّا الدّيلي فإنّهُ لم يكن أبدا كلفا ببطنه، حاجاته محدودة جدّا، لكنّ النّاس ينظرون إلى اللّحم بكثير من الحبّ. جدّهُ كان يقول: «أكل اللّحم بكثرة خطرٌ على المروءة». وفي حالته، مروءته معافاة بحيثُ لا يمكن لقنطار لحم خروف أن يُهدّد شيئا منها.

جلسا في مقهى ضيّق، تفوحُ فيه رائحة البنّ، فتتحوّل من كثافتها إلى لون في تلقيهما. يطلبان قهوتيهما الصّفاي، ويقفُ مدني ليحضر القهوتين في الكأسين المائلين إلى اللّون الأخضر، والمليئين ببقايا زجاج بارز حدّ الجرح. يتسلّمُ الدّيلي قهوته فرحا، يرتشفُ رشفةً سريعة تملأ فمهُ، ويبتلعها مغمض العينين، فترتقي به درجة في الحياة. «آه يا مدني... أيّها الرّفيق كيف اهتدينا إلى هذا المقهى دون سابق تخطيط؟».

«ألا تزور القرابة؟» سأل مدني وهو يرتشفُ قهوته بحكمة. فبينما ناصف جليسه كأسهُ، ما يزال هو يقبّلها ويستمتعُ بها. توقّفَ عن مسابقته بعد أن عرفَ أنّهُ مهزوم ككلّ من شرب معهُ قهوة، وأجابهُ: «أمضيت ليلتي التي سبقت ليلتنا معا فيها، ولا أظنّك جهلت ذلك». حرّك رأسهُ وارتشفَ أيضا، ثمّ طلب كرواصون، فتشجّعَ الدّيلي وطلبَ واحداً، هلالان وقهوتا صفّاي، وحديث صباحيّ يتدحرجُ نحو منتصف النّهار، وأرقٌ لا يهتمّ لتهديد النوم ولا الموت.

«ماذا جرى بعدها، عدتَ فارغا من القرابة كما دخلتها؟». بدا سؤاله حادّا، حتّى نظراته بدأت تتجرّأ. قال الدّيلي في نفسه: «لعلّ

الرّجل ينهار بعد ليلة مرهقة». تأكّدَ له أنّ الأمر مرتبط بفشله في الإفلات من بقيّة الحكاية، ربّما العودة إليها أجدى وأنفع واسلم لهُ، وتصوّرَ مدني موفد وحش الحكاية، فإن فشلَ وشى به أو قتلهُ. كي لا يواصل هذيانهُ ويحتفظ للرّجل بصورته البهيّة راح يستعيد الأنشودة النورانية ويُطبّل بأصابعه على الطاولة مزهوّاً، ثمّ تركَ الأنشودة تسكنهُ، وشرعَ يحكي دون أن يُراقب بناء الحكاية.

كان في وسعه أن يتعرّف على يحيى. لحيتهُ تخضّبت بقليل من البياض، خطواته لم تعد بحدّتها، يمشي دون أن ينتبه إلى الجهات، مركّزًا في الطّريق نحو بيته كأنّه فكرة تتولّد في ذهنه. وفي مكانه ذاك يرى في وسط زقّاق آخر التالية تكبر كأنها تنبتُ لا تمشي. رعى هو النباتات وعشقت هي عطورها، بينهما لغة أكبر من أن يفهمها، هي الآن جسد أكبر من السّابق، امتلأت دون أن تفقد جمالها. عند منعطف زقّاق بن غربي التقيا، توقّفت تنظر إليه وينظر إليها، ابتسامة متردّدة وعابرة تعلو الوجهين، عيون ترتعش من داخلها، أغمضا معا ابتسامتيهما وركّزا في اللّحظة الغريبة. كانت هي تسترجعهُ وهو يسترجعها، لكن ليس في راهنهما المعلّق. هذا المنعطف حيث يقفان كان ترابيا بأرضه وجدرانه، هما كانا بلونين باهتين، لكن بكثير من الصّدق. قال لها مبروك الطّفل دون أن تسمعهُ، كان طفلها يكبر، أرادت أن تقول له مبروك البنت، تعرفُ أنّه لن يسمعها، كانت بنته تكبر، في الثواني القليلة التي تقابلا فيها دارت القرابة حولهما، تبعثرت ثمّ ترتّبت. هل يبقى العشّاق مخلصين بعد الزّواج والإنجاب؟ اتّسع الزّقاق حتى صار شارعا، ثمّ صار صحراء لا يريان فيها إلا جسديهما المثقلين بالمكابدات والعشق. واقفان بلا حراك، وابتسامة معلّقة على الشّفتين، وفي العيون حيرة وتراتيل متداخلة. واقفان لكنّهما يتحسّسان مَيَلانهما، كلّ إلى

جهة. واقفان، لكنّ داخلهما مستلق. أرادت أن تمضي أولا، لكنّها وجدته يرمي خطوته قبلها. أراد أن يترك لها مجالا لتغادر، فاختفى من أمامها، وواصلت هي خطاها. وفي الوقت الذي كانت الصّحراء تتقلّص حتى صارت شارعا ثمّ زقاقا، ثمّ معبراً، واستعاد الحيّ ألوانه الغائبة ولحظته الهاربة، كان المكان يجهّزهما لحياتين أو للقاء آخر دون أن يُظهر موقفا. كان الحيّ حياديّا جدّا.

عندما افترقا لم تلتفت. كانت تمضي مبتسمة حدّ الفرح، سعيدة أنها التقته أخيرا، وأنها تأكّدت أنّه موجود واكتفت بذلك. أمّا هو فقد مشى خطوات قليلة قبل أن يتسمّر في مكانه. أراد أن يلتفت، وفي غضون ذلك كان يتفحّص وجهها وكأنّها ما تزال أمامه. داخله قال لها: «لم أكن على هذه الأرض، ذهبتُ إلى الغياب عاشرته وعرفته ثمّ أعتقني، كنت أبحث عنك وأتمنّى ألا أجدك، كنت أحبك وأرجو أن أكفّ عن ذلك، أين كنت؟». التفت ليودّعها في اختفائها البهيّ، بينما كانت تغيب وتطوي زقاقا آخر، لم يجد غير الفراغ، كانت تقول له داخلها: «الآن يمكنني أن أحسن الظن في خطاي، كنت أريد أن أؤثث لك العالم كلّه بلغة أخرى نفهمها معا، سأودعك عطرا، أتقرأ العطر؟».

لا أحد منهما أجاب الآخر. كان هذا آخر لقاء يشي بحبهما. لاحقا سيكون ما بينهما مجرّد عبور. وبقدرة كبيرة كتم كلاهما عذابات السّنين في انتظار وصل، وانتصرا معا لوحدتيهما. سيكبر شوقي وتكبر أحلام، وأحلامها فيهما، وسيتردّد يحيى على قبب العطايا، ويرعى مزرعته الصّغيرة، ويواصل عمله وحبّه لأسرته.

أمّا الدّيلي، فلِهوسهِ وهلوستهِ كان يسمع قيس بن الملوّح يبكي ويغنّي حزينا على فم يحيى:

ولمّا تلاقينا على سفح رامة وجدت بنان العامريّة أحمرا
فقلتُ خضبتِ الكفَّ بعد فراقنا؟ فقالت : معاذ الله، ذلك ما جرى
ولكنّني لمّا رأيتُك راحلاً بكيت دما حتى بللت به الثرى
مسحت بأطراف البنان مدامعي فصار خضاباً في اليدين كما ترى

* * *

عندما استعاد نفسهُ من انقلابه الزّمني ذاك، كان يلمحُ فاتح الباقي يطلّ بقامته الصّادمة، كأنّه تائه. يوثّقه طمطم بشدّة إذْ لا يأمنه، طمطم رحّالة الحيّ لا أحد عرفَ ما عرف هذا الطّفل الأبديّ، لا أحد مشى مدنا وزار محطّات وطاف جهات كما فعل، نصف العاقل ونصف الدّرويش ونصف المجنون، هو أيضا بعض الطيّب وبعض الشرّير. أمضى طفولته الأولى بين شوارع القرابة محروسا من الجميع، ثمّ تمرّد بعنف وأصبح رحّالة يغيب لأيّام أو أسابيع أو أشهر ليعود بحكايات غامضة. هكذا صار خبيرا بالضّياع، وهو يسعى جاهدا لحماية فاتح منه. مرّ فاتح كأنّه يخشى مصيره، بالكاد لوّح لشخص ما في زقاق جانبيّ لا يكشِف عنه.

سيكون اللّيلة ضيف عائلته ذات الكثافة السكانية الكبيرة، وربّما لن يجد وقتا ولا جهدا ليسلّم على الجميع، فيرتقي قامته ليلقي خطابا. شقيقُه الأكبر في الستّين أو أكثر، وهو يستعدّ للتقاعد من مركز صحيّ جديد نسبيّا شمال الحيّ العتيق. وشقيقاته الثلاث أصبحن جدّات. أمّا هو ففي منتصف الثلاثين. كيف وجدت أمّهُ تركيّة الوقت والجهد لتنجب من أجيال مختلفة؟ فاتح عائد آخر للقرابة، وكان الفاشلون يعودون مسرعين، بينما انتهى خبر الناجحين ولم يعد يذكر إلا وصف «كان من سكان القرابة». مظلوم أيُّها الحيّ المقدّس، تمنح أبناءك

حبّات الضّوء وتتسلّم شظايا الظّلام.

كان الدّيلي يعرف أن التالية لا تفكّر في يحيى لأنّه حبيبها، ولا لأنّه الرّجل الذي سيعيدُ بناء ما تخرّب داخلها، هو ليس حكيمها ولا حتى صديقا تأوي إليه أسرارها، من كان يحيى إذن؟ ليس أكثر من قضيّة في غياب قضية، وقصّة في فراغ الأحداث، ولكنّه مثلهُ غاب وكاد يُنسى، بل نسيه الجميع. أمّا هي فقد تمنّت أن تواصل حبّها له دون أن تراه، أن يحبّها دون أن يراها، أن يتكتّما على حبّ أو حالة مجنونة، أن يتبادلا سرّا. كان شوقي يدرس مع أحلام في المدرسة ذاتها، يعودان معا إلى الحيّ أحيانا، ولا أحد يعرف أنّ الطّفلين أبناء عاشقين قديمين لفّهما الغياب، الغيابُ عنهما وعن الحبّ.

المباني تتسلّلُ إلى داخله. شعرَ أنّهُ يُوطّنُ الحيّ المقدّسَ أعماقهُ، وأنّ أهلهُ مقبلون على التشرّد، شعرَ أنّ عودتهُ خطرٌ على الجميع، وعليه، ورغم أنّهُ يغادر الحيّ بهدوء وبرفق، كأنّهُ يخشى أن يوقظه فينزلق مسرعا إلى داخله، إلا أنّهُ لا يشكو رعب الموقف العظيم. يستعيدُ ما كان الشّيخ الأبيض الرّائي يقول في رؤيا سابقة، دون أن يستعيد وجهه أو صوتهُ: «اعلم يا الدّيلي أنّ الغيابَ متى احتلّك صرت عبده وكسيره، وصار مولاك وسيّدك؛ فلا تنأَ عن مكان إلاّ وفكرتُكَ أو نبضُك فيه، ولا تنسَ أحدا أو تلغي حضورهُ مهما حقرَ، وضع النّاس في مراتبَ لا يغيبونَ؛ بل يحشرون في ذاكرتك حشرا، فمنهم من يُذكر كلّ يوم، ولا يرقى لآلهة تسلبُ اللّبَ، ومنهم من يُذكَرُ على رأس الفراغ، فلا يشغل البال، ومنهم من يذكر بالمناسبة، فلا تعلم لهُ حال.

الغياب لا يمنح شيئا، يقلّصُ الوقع في القلوب، والرّغبة في الوثوب. الغياب وهم الشّعراء وحيلة الضّعفاء. وللشّعراء أوهام لذيذة تغري لا تشهدُ منها واقعا؛ فلا تأمن الغياب. وإذا فعلتَ فلا تطلبِ الإيابَ».

* * *

أنهى جولتهُ في الحيّ دون أن يُقابل أيّ وجه يحتفي بعبورهِ العلني. كان غير مرئيّ تماما، ولم يجلب معهُ شيئا من القرابة، على رأي مدني. ودَّ أن يتوقّف عند عتبة المسجد الذي أنهكوهُ ببناء ملحق لا يعرف سببه، ليصيح به: «فلتسقط أيُّها العمل الرّديء!»، ثمّ يرتقي أعلاه ويصرخ بأعلى صوته: «أنا بشير الكرّوش.... أنا الدّيلي الذي نسيت أيُّها الحيّ الكوخ العظيم، أنا الذي زرعَ هنا مجدا فلم يثمر، أنا الذي منحكم الفرحَ والانتماء، ولم يطلب منكم شيئا، وضننتم عليه بابتسامة وقت تيهه، وبيدٍ وقت غرقه». أرادَ أن يتضخّم حتى يغُمّ على الجميع السّماء، أن يكونَ سيّد النظر هنا وأن يمنع عنهم الضّوء، أرادَ لهم صدمةً تحيلهم إلى وجوده وإلى وجودهم. كم كانوا مشغولين بالعدم! كم كان عدما لا يشغلهم!

المساء يمرّ على استحياء، والشّمس متردّدة في الغياب. يشعرُ أنّها تراجع الجميعَ وتتفحّصُهم قبل الغروب. وجوه الأطفال الذين ينزلقون بين الأرجل متشابهة في معناها وإن اختلفت ملامحها، وخطى النّساء والفتيات أكثر قدرة، ووقعها أقوى على أرض القرابة المقدّسة، وقلوب الشّباب أضعف؛ فلا تسمع نبضا إلا فيما ندر. أما الشّيوخ فهم غرباء كأنّه ممنوع عليهم الوجود، كأنّ المكان لا يريدُ المزيدَ من الحكمة أو التاريخ. إنّه عصرٌ نزقٌ. «هل حصل كلّ هذا في غيابي أم غاب كلّ هذا عنّي في حضوري؟». يلقي بالسؤال إلى مدى القرابة، فيرجعُ الصّدى بالسؤال.

أمام بيت يحيى وقفَ برهة. فكّرَ أن يدقّ الباب ليراهُ أبا وزوجا، ربّما كان بإمكانه أن يحدّثهُ سرّا ويطلق معجزته أو يكشف يقينه، ربّما يمنحهُ سببا آخر ليعودَ، ليرتّب سنوات غيابه ترتيبا منطقيا يسمح

له بالبقاء أو الرّحيل معافى. الآن يسعلُ ويدفعُ نفسهُ عبر منحدر الزّقاق الشّمالي المفضي إلى وسط المدينة. التفتَ غير مرّة لعلّ وجها ما يسحبهُ، يعرف أصول بعضهم، يعرف أنّ الملامح ولون البشرة وحركات الرّوح لعائلة ما، لكنّهُ لا يُريد استنطاق أحد. السّاعة التي بيدهِ كاذبة تشي بالسّادسة والرّبع، وهو يشعر أنه اللاوقت.

صوتٌ ما قادم من قلب الحيّ يصيح: «يا الديلي استنى». خشيَ من وهمه فلم يُدر رأسهُ، لكنّهُ أبطأ الانسحابَ كمحارب أمن الموت بعد المعركة، بيدَ أنّ داخله أخبره أن يتمهّل، ثمّ اخترقه سهمٌ من الخلف. نزلت يد على كتفه اليسرى، وكان متأهبا ليعرف مَن الرّجل، غير أنّهُ رفضَ أن يُصدق وهو يرى وجهه أنّه سالم الميكانيسيان. سالم الميكانيكي كان رفيق طفولة إلى جانب ناصر وزين العابدين، درسوا معا في الكتاب عند سي عيسى. الذي حصل أنّه كان أقلّ طموحا وشأنا من البقيّة، فتخلّوا عن صحبته باكرا. بقيت بعدها علاقتهم سطحيّة. تزوّج هو في وقت مبكّر وركّز في محرّكات البيجو 403 و404 و504 و505، حتى أصبح مرجعية في فهم أعطاب وحالات السيّارات. أصبح أكثر شهرة من الجميع، وبنى بيتا جميلا على أنقاض كوخ قديم، الحقيقة أنّه رمّمه بعد أن ورثته زوجته عن عجوز لم تسكنهُ. كان يحضنهُ وهو يجهشّ، لم يعرف الدّيلي أهو بكاء أم ضحك، ولم يتفحّص عينيه تجنّبا لإحراجه أو دفعه في الاستماتة. حملَ يديه بعسر يُربّتُ عليه، ولم يقو على ضمّه، رغم أنّ شيئا ما تحرّك بصدره نحو الميكانيكي. لم يسمع كلّ كلامه الذي بدا كأنّه عناوين موجز أخبار سريع، التقطَ بعض العبارات من قبيل «هذي غيبة يا خويا» و«الدّنيا بلا أحباب ظلمة يا الدّيلي». وعندما رجع إلى الخلف بخمسين سنتيمتر كان يتفحّصُ وجهه النّظيف والمرتاح، ويكتشف أنّه أصبح

أكثر وقارا. رغم ذلك لم تخف السّنين ثقلها أعلى عنقهُ، حيث برزت جلدتان متقابلتان متدليتان في انسجام.

«مينا يخطبني في ابنتي فوزيّة منذ سنة ويرفض أن يحضرك، وأنا أرفضُ أن أزوّجه دون حضورك». لم يشغلهُ أن يرفض مينا حضورهُ، لا أن يكون والده ليوم واحد، لكنّ الذي شغلهُ فوزيّة؟ وهل وصلت الرّضيعة سن الزّواج بهذه السرعة؟ سنوات غيابه أينعت فيها الفتيات ونضجن للزّواج. لعلّ الأسئلة التي يجبُ أن تتدافعَ هي: «هل أصبح مينا رجلا حقيقيا في غيابي؟ ألم يكن غيابي مانعا لأمر؟ كم أنا عدم؟». كان سالم يواصل جعجعته وهو يبحثُ عن منفى من الأرض، وجه مينا أصبح أكبر من شوقه إليه، تركهُ واقفا يخطب في الفراغ وغادرَ يتأمّل فاتح وهو يمضي في رحلة طويلة أسيرا لطمطم العجيب.

* * *

وقفَ دون أن يستأذن مدني في مغادرة المقهى الأضيق في المدينة. رمى يدهُ إلى معطفه ثمّ إلى جيب سرواله، وأخرجهما أنقى ممّا أدخلهما، وبحاجبيه أشار إلى مدني، ثمّ أعاد الكرّة فلم يعثر إلا على قطعة من عشرين دينارا. أراد أن يسلّمها مدني الذي اتّجه إلى النادل، ورفض أن يتسلّمها فاستقرّت بكفّيه محرجةً. لم يدفع رفيقهُ شيئا، وخرجا وعاملا القهوة يبتسمان في وجههما وتعلوهما سعادة كبيرة. أراد أن يسألهُ عمّا قاله لهما، لكنّهُ اختفى. دار لنصف ساعة في مكان واحد عائدا في كلّ مرّة للمقهى دون أن يعثر عليه. سألَ العاملين عن الرّجل الذي رافقهُ فلم يتذكّرا أنّهُ جلسَ إلى رجل في مقهاهما. عاد إلى شقّته بينما صوت مدني يسألهُ البقيّة، وهو يفتقدهُ ويريد أن يسألهُ عن بقيّة الرّواية العارية، كيف انتهى الكاتبان الشابّ والعجوز؟

(مسعى حفيد العنب)
ما عُلم من ملهاة فاتح الباقي

هاجر الكثيرون، الذين أقاموا في ضواحي القرابة التي تُسمّى الآن: مدينة الجلفة، ما زالوا يزورون الحيّ، لكنّ القلّة التي قطعت الأميالَ أو البحار لم يعد لها أثر، ولسببٍ ما نسيهم النّاس، ونظّم الحيُّ أحداثهُ كي لا يكون لهم حضور في التّفاصيل، كأنّهم منفيّون. فاتح لا يحملُ ذنباً سوى أنّه عاطل عن العمل، وهو معتدّ بنفسه يحسبُ أنّ العمل لدى الآخرين إهانة له. كيف أمكن البعض امتلاك الحقّ في استغلال البقية؟ هذا هو سؤالهُ المكرّر، ولعلّ أفكارهُ قبل نوبة العشق كانت معروفة لدى الكثيرين، فهو شيوعيّ صغير لا يفهمُ الشيوعيّة إلا بوصفها تكافؤًا في الحظوظ والمزايا، شيوعيّ من الجيل الذي تلا ناصر، وهو مبشّرٌ بالاشتراكية، لا يهمُّهُ ما يحصُل في العالم ولا الجزائر. «الاشتراكية يجب أن تكون مذهبَ الجلفة، وإذا تعذّر الأمر تكون نظام حكم القرابة وحدها». كلّ أسئلة الشّباب كانت عن الخيار الأمثل لحكم الجزائر.

عندما بدأ العمل لدى بايزيد كرئيس ورشة، مباشرةً دون المرور بأيّ تدرّج انتشى، ومارس سلطتهُ كاملةً، وتنكّر سريعا لأفكارهِ أو تناساها. ظنّ أنّه أخيرا وجدَ ما يناسبهُ، كان يُحصي العمّال صباحًا رغم أنّه يأتي متأخّرا، ويسارعُ إلى شطبِ المتأخّرين بعدهُ أو الغائبين، ولم يحسب ساعات العمل الإضافية، رغم أنّ بايزيد قبل طلبَ العمّال بهذا الصّدد. كانت الورشةُ في مدينة الجلفة توشكُ على الانتهاء، ولم يستغرق العمل فيها أكثر من شهرين، بعدها انتقل العمّال إلى راحة أسبوعين، قبل أن يبدؤوا العمل في مشروع جديد بضواحي المدينة. ولم يكن بوسع فاتح اللّحاق بهذه الورشة؛ لأنّه لم يصادف شاحنة النّقل إلا

مرّة أو مرّتين. ودون أن ينتبه، وجد نفسه بلا عمل.

لم يسأل بايزيد عن رئيس ورشته الذي بدأ صارما ثمّ تخلّى عن وظيفته نهائيا، ثمّ نسي أمر العمل وعاد إلى القرابة يمارس سمره المعتاد، ويصغي إلى رتابة اليوم في أزقّة الحيّ التي لا يغيّرها إلا حصار مفاجئ للأمن أو رصاص عشوائيّ بين الجماعات المسلّحة والقوات المشتركة، كأنّ الطّرفين يتجنّبان بعضهما ويتقصّدان معا إرهاب النّاس. اعتبرَ تركهُ العملَ عند بايزيد موقفاً إيديولوجيّاً يتعلّق بالمبادئ التي طالما آمن بها. والحقيقة أنّ وظيفته عند بايزيد كانت مكافأة بعد تناول قهوة معه، وسرد تفاصيل الحبّ الذي جمع التّالية ويحيى. لم يكن فاتح يدرك أنّ بايزيد خطب التالية، وخلال أيّام، شهد زفافها رفقة شباب الحيّ متذمّرين، وترك بايزيد فاتح يعمل دون أن يعود إليه ليحصل تفاصيل أخرى، لكنّهُ في النّهاية شعر ببعض الارتياح لمغادرته.

فاتح أحبّ زليخة في وقت لاحق. كانت حكاية التالية قد نُسيت وهي تربّي ابنها في بيتها بالعاصمة. أمّا يحيى فقد عاد إلى القرابة بعد غياب ثلاث سنوات، رفقة زوجة أنجبت له بنتا وهو يربّى طفليها ورببيها، وكان بايزيد في قمّة حضوره يحاصر الجميع. وتأهّبت زليخة لتحبّ فاتح وتذعنَ له، أغراها بانشغاله وبيته وتجارته إلى جانب منصور شقيق التالية، الشّيوعيّ الصّغير ربّ مال صغير أيضا! لكنّ وشاية ما كشفت لها أنّه بلا عمل ولا بيت خارج الحيّ كما ادّعى. بدأ معها بكذب رومانسيّ يمكنه أن يلوّن الأحلام، وانتهى مطرودا من جنّتها التي توهّمها وحلم بها. وبعد سنتين من السّعي والبحث لإثبات شيء ما، كانت زليخة تَسمَعُه وهو يُحاضرُ مكتشفا معاناته من ضغطٍ كبير بسبب حبّها، ما دفعهُ للبحث بجدّ عن علاجٍ من الحالة التي

أوصلته إليها. أمّا هي فكانت تتحضّر لزواج ينأى بها عن الحيّ. في الشّهر ذاته خرجت هي عروسا دون جلبة نحو قرية ما لن تحقّقَ لها النجومية التي تستحقّ، وخرج هو إلى العاصمة ليرقّع ما تمزّق منه، يلعنُ أهمّ ما عرف منذ ألقت به بطن تركيّة، قبل أكثر من ثلاثة عقود، يكفرُ بالشيوعيّة والحبّ.

فاتح عبد السلام المدعو «الباقي» الأوفى لصفاته والأقرب منها أنّه مثقلٌ، حزينٌ، كسيرٌ، تائهٌ، وحيدٌ، يائسٌ، طويلٌ في غير اتساق، عظامُه بارزة عند الكتفين كعودين تَعلّقَت عليهمَا قطعة قماش، شعرهُ مجعّدٌ بفعل إهماله، لكنّ وجهه وسيمٌ يفاجئ الذي يتفحّصه عن بعد، لهذا فالأفضل جماليا التقاؤه جالسا، ليكون أوّل ما يُرى منه وجههُ الجميلُ، له أنفٌ رقيق معكوفٌ إلى اليسار، بحيث لا يمكن اكتشاف الأمر بسهولة، عينان واسعتان برموش مفتوحة عن آخرها، وحاجبان كثّان، لكنّهماً ممشوقان. حصل علّى لقب «الباقي»[1] لأنّه الأبرز نحافة، وكان الكثير من النّحيفين قد سلموا من اللّقب، وأنقذهم تفوّقه.

كان صديقا لإدريس، معجبا برؤاه، لكنّه لم يعد كذلك؛ فإدريسُ غاب كثيرا عن الحيّ، خاصة في السّنوات الأخيرة، ثمّ فجأة غاب عن العقل والتحقَ بقائمة دراويش الحيّ. البعض يعتقد أنّ به مسًّا، والبعض يتحدّثُ عن مشاهد قاسية وصادمة صادفت غيابه الأخير، وآخرون يرجعون الأمر إلى سرّ أودعتهُ الخونية قبل سنوات لإدريس الطّفل الذي جالسها وأكل الرّوينة عندها، وفي غيابه حاول أن يجدَ منفذا دون جدوى. دار الحيّ والتحقَ بجماعات مُختلفة من الشّباب. استثمر في قامته فالتحقَ بفريق كرة السلّة، لكنّ حركاته كانت بهلوانية، كان

(1) الباقي: النحيف.

بإمكانه أن يضع الكرة في السلّة، ولم يكن بإمكانه أن يضبط جسده اليابس على ايقاع كرة السلّة، فغادر مسرعا، وعاد يعتقد أنّ كرة القدم أنسب له، يمكنه أن يكون لاعبا مهمّا على غرار بايزيد الذي كان أسطورةً قبل أن يصبح رجل أعمال، أو يحيى الذي لا تمرّ من بين يديه أو خلفه كرة، ولعلّه لعبَ بعض المقابلات التي أثبتت له أنّ قدميه لا تصلحان لغير التسكّع في تعرّجات القرابة.

في آخر يوم من خيباته المتتالية صادف عمي الكوفي، كان معجبا به وبقامته التي تفوّق عليها بسنتيمات مهمّة. عمي الكوفي أسطورة، سحقَ الحديدَ بيديه، وضربَ الجدار فشقّهُ، ونازلَ الرّجال الغلاظ الشّدادَ ففرّوا، ولم يجد له ندّا. هل كان يسعهُ أن يكون مثله، أن يتحوّل إلى بطل تتداوله السّنوات حتّى يصير أسطورةً على قدمين؟ لكنّ عمّي الكوفي يبتسمُ بطيبة، ولا يبدو أبدا أنّه يملك تلك القدرات، ينظر إليه ولا يعرف أيّ حوار يدور بينهما، ويمضي بلا اتجاه.

* * *

وقف الباقي أمام مدخل البناية، في يده جريدةٌ قد تحوّلت إلى شكل غريب، بعد أن جعل منها بوقا طوال النهار دون أن تمنحه أيّ شيءٍ جديد؛ ولا حتى صوتا نشازا. تأمّل اللّون الحزين لجدار طويل يستقبلُ الوافدين إلى العمارة الكولونيالية كثيرة الشّقوق، أوّل الجدار كُتب: «حنان + وفاء = صداقة أبدية». لم تكُن تلك العبارة المليئة بالأحلام والسّلم لتتغلّب على كمّ من عبارات الانتقام والخدش والمعايرة والفضح التي تلتها. في آخر الجدار باب بنّيٌّ يتطلّع إلى الرّماديّ بوقاحة، وعلى لوح فقير كُتبت عبارة: «عيادة نفسية الدّكتورة: منى شعباني، هاتف رقم:.......». ليس هناك من رقم، للحظة لم يعد يثق في هذه الطّبيبة

التي أرهقته قبل أن يعثر عليها، كيف يمكن لمعالجة نفسانية أن توفّر عيادة بكلّ هذه الكآبة والضبابية؟ شعور ما جعله يشكّ في نفسه، فكلّ الخياراتِ التي رفضها كانت عين الصّواب، وكلّ الخيارات التي أقدم عليها كانت الخطيئة. سبقته يدهُ إلى الجرس، تسلّلت في ريبة، هل يفعل أم يعود أدراجه؟ استغبى أن يقفَ ذلك الموقف «طبيب نفسي! يقولوا عليك مهبول... لا لا مش يقولوا عليك أنت صح هبلت». هذا ما قالته زليخة قبل أن تصفقَ الباب في وجهه. صارحها بأنّه يشعر حالته تستدعي علاجا نفسيا، ولم يكن وقتها يعرف أنّها وافقت على الزّواج من قرويّ يتفرّغ تماما لجسدها. كانت تُصغي إليهِ وهي تلتفتُ لترى إن كان الشّارع خاويا. وكان جريئا لا يتوانى عن قرع باب بيتهم كلّما أراد أن يراها، حتّى عرف الكثير من السّكان بالأمر.

يضغط على زرّ الجرس ولا يسمع شيئا، يكرّرُ ذلك بخبث ممزوج بالخوف، تلمعُ عينهُ فرحا وكأنّه يجدُ مخرجا من كلّ هذا. الطّبيبةً غير موجودة؛ بل عليه أن يفترض أنّ الطّبيبة رحلت أو ماتت، وربّما عليه أن يتصوّر أنّه لم يكن هنا أصلا، وأنّه لم يفكّر يوما في زيارة طبيب أمراض نفسية، لعلّ الأمر كذلك، وربّما كان يتخيّل المشهدَ فقط! يركّز قليلا ويحاولُ أن يستجيب لنفسه، وكأنّه يكْشف نفسه لباب الطّبيبة. «هل أنا أهذي؟ أنا فاتح عبد السلام أقيمُ في القرن الحادي والعشرين، أنام منذ أكثر من ألف ليلة في فندق وسط مدينة الجزائر، بسيط جدّا، بسيط لدرجة أنّ أهلي سئموا منّي وأطلقوا عليّ لقبا فجّا لا يليق بكرامتي وإنسانيّتي، يلقبونني (الباقي) يعني (النّحيف)، في القرابة حيث نشأتُ لا يوجدُ شخصٌ بلا لقب يزيّن وجوده، القليلونَ أفلتوا من هذا، حتّى الأئمّة والمعلّمين والآباء يحتملونَ ما يلتصقُ بهم من ألقاب، أفكّرُ فقط في الوصول إلى طبيب نفسيّ، ولن يصدّقني

أحد إذا قلت إنّي طوال يوم لم أعثر على طبيب نفسيّ.». كان يقاوم انفلاته ورغبته في الصّراخ: «أريد طبيبا نفسيّا» بأعلى صوته. لم يتمكّن من العثور على طبيب قريب، ولا بعيد، كان الأمرُ أشبهَ بتحرّ يقوم به غريب عن المدينة واللّغة. كيف له أنْ يعرف طبيبا نفسيا في بلاد يعرف فيها النّاس كلّ الأطباء ويشيرون عليك بالأفضل وبالعلاج الذي سيقترحه عليك، وينتقدون الوصفة التي تحملها لمجرّد أنهم لا يعرفون الطّبيب؟ كيف لمن اقتنى دواءً من الصّيدلية لابنه، باجتهاد ليليّ، أن يدلّك على طبيب نفسيّ؟ ثمّ إنّ محاولة واحدة صباح هذا اليوم أكّدت له اشتراكهُ مع الجميع في جهله بوجود أيّ طبيب نفسيّ.

في الصّباح عندما غادر غرفتهُ وقف أمام «بلّه»، صاحب المرقد ومسيّره الذي تحوّل بفعل أفضاله وطول العشرة إلى صديق وحيد له، وتدريجيّا أصبح مستودع السرّ والأهل كلّهم. سألهُ إن كان يعرف عنوان مختصٍّ نفسيّ؛ لأنّ صديقا له يعاني اضطرابات نفسية، فانفجر ضحكا. كان عليه أن يكتمَ غيظاً ويبادر إلى ابتسامة يخفّفُ بها وطأةَ ما يتحمّله. كان الأَمر خاصّا وجذريّا وموغلا، ولعلّ استعداداته للانهيار كانت أكبرَ من أن تظلّ حبيسة، فقد نفرت من عينه دمعة حارّة جعلتهُ يُشيحُ بوجههِ عن بلّه الذي واصل في ضحكه. في الواقعِ لم يكن يضحكُ من سؤاله، لقد أضحكه أن يختبئَ في مكان مكشوفَ، حريٌّ به أن يسأل فقط عن نفسانيّ، دون إضافة لازمة غبية مبتذلة من قبيل «صديق يعاني اضطرابات نفسية». عندما انتهى الرّجل من هستيريا الضّحك التي كادت أن تقضي عليه، أعقبها بعاصفة سعال على مقامات مختلفة، بينما كان فاتح قد انطلق في مسيرة البحث عن راع لانكساراته النّفسية.

في الشّارع لم تكن وجوه المارّة ممّن يؤتمنون على الدّواخل. كان قد

تحوّل في هذه المرحلة المتأخّرة من إخلاصه لعذاباته إلى جرح كبير فاغر، وانتابهُ شعورٌ بأنّ الآخرين يعرفون مدى تألّمه؛ لهذا فإنهم لن يفكّروا في الاقتراب منه. لم يمتلك الجرأة ليستوقفَ أحدهم ويسألهُ. فكّرَ مليًّا، ما السُّؤال الأنسبُ إذا هو فعلا أوقفَ أحد العابرين في دور مكرّر وكأنّ لسان حالهم «أنا مشغول جدًّا»؟ والحقيقة تقول إنّهم لن يفعلوا شيئا. تلك كانت دوّامة الشّاب. أخذَ يفسّرُ حالات النّاس من مكان تعوّد أن يتّخذَهُ لساعة كلّ صباح بعد أن يحمل فنجان قهوة من مقهى بشارع شاراس، ثمّ ينزل إلى ساحة موريتانيا ليمتطي حديدا أخضر يبدو له كمعقد رقيب. بدأ يصنّفهم وهو في حالة هيجان داخليّ: «هذا الفارع إلى أين يتّجهُ بطوله؟ أليس الأفضل لو أنهم أرسلوهُ إلى الصّحراء ليزرع البطاطا؟». ثمّ يتأمّل امتداد رجليه فينصرفُ إلى عيّنة أخرى: «هذه امرأة جميلة لا يجبُ أن تمشي في شارع موبوء، مكانها الطّبيعي قصرٌ باتّساع عينيها». «تلك العجوزُ المتبرّجة تحسبُ أنها فاتنة وهي أقرب إلى آمال». كانت آمال منظّفة المرقد أنحفَ امرأة في تاريخه، وهو لا يعرفُ تحديدا إن كانت تسمعُ ما يقوله أم أنها تتخيّل كلامه، فخلال ثلاث سنوات من الحديث معها كان حوارهما أقرب إلى الجنون، هو يتحدّثُ عن البرد وهي تحكي عن شقيقها في فرنسا، يكلّمها عن السّرير فتقصُّ عليه قصّة قصيرة جدّا عن ابن الجيران الذي تزوّج من امرأة تكبرهُ وهي في عمر أمّه تقريبا، بينما تتمطّطُ لتظهر مفاتن كُتبت بالحبر السريّ، وكان يتخيّل شبقا أنّه ينام معها على سريره الحديديّ القديم، فيحصل قرع بفعل اصطدام عظامهما وحديد السّرير، ما يخرجُ الناس عراة مفزوعين. التفتت العجوزُ التي تشبه آمال إليه، وانتبهت أنه يحدّق فيها بشكل غريب. «أنا كبيرة يا وليدي وش راك تشوف؟». تحوّل وجههُ إلى بالون دم، لقد

كانت العجوزُ تخبر أنّ نظراته ليست بريئة، وهو يقوم بتقدير تفاصيل جسدها، ومن خلال طريقة لباسها فإنها ليست ساذجة، تصوّر أنّ الجميع في ساحة موريتانيا قد انتبهوا إلى همسة العجوز الشّيطانة. ارتشفَ من قهوته ولا يعرف إن ابتلع القهوة أم تركها تنزُّ من شفاهه البيضاء، وغادر جزئين؛ بين إحساسٍ بالخيبة والغباء من سلوكه، وبين الحقد على العجوز التي لم ترحم ضَياعه.

قذفهُ التيه إلى شارع حسيبة المكتظّ بالمنشغلين عن حياتهم بحياتهم. استسلمَ لدورتهِ المعتادة. فقد كان يمشي من ثلاث طرق مختلفة، إمّا باتجاه البريد المركزيّ عبر شارع عميروش، وأحيانا ينعطف يسارا عبر شارع لولي، أو باتجاه ساحة أول ماي عبر شارع حسيبة، أو نحو محطة «تافورة» أسفل المدرسة العليا للتجارة. كان أكثر شيء يجعلهُ سعيدا هو الانسجامُ الذي يتحقّق بين الأزواج. ربّما يقف يسترقُ النّظر إلى أيّ زوجين يبديان انسجاما ومحبّةً، المشهدُ بالنسبة له أكثر من رائع، ثمّ يواصلُ المضيّ إلى ما يريد. أطلقَ خُطاه قاطعا شارع حسيبة باتجاه مدخل مستشفى «مصطفى باشا»، لقد تحوّل المستشفى إلى كلّ شيء بالإضافة إلى مكان للعلاج، فهو مكان لالتقاء العشّاق، وهو موقف سيارات مناسب وسط الازدحام الأبديّ في شوارع وسط العاصمة، وهو فضاء لأخذ الوجبات السّريعة بالنسبة للطلبة والموظفين والأطباء والزوّار والعابرين وحتى المرضى.

اعتاد أن يطوّر علاقاته مع الآخرين في أماكن عمومية، فليسَ غريبا أن يمضي يوما كاملا متجوّلا داخل المستشفى الكبير، وليس غريبا عليه أن يمضيهُ في ركوبِ عدد من الحافلات المتوجّهة إلى أيّ مكان. خلال كلّ ذلك كان يربطُ علاقات سريعة مع الآخرين، وفي الغالب يركّزُ اهتمامه على الفتيات، لكنّه لا يستمتعُ كثيرا بمجالسة

ممرّض أو عامل بالمستشفى والإكثار من إظهار الطّيبة والأخلاق، كان ذلك يجعله يتقزّز من نفسه، ويحاول أن ينسى ما أقدم عليه. هذا الأمر دفعه إلى التنكّر لبعض الذين عرفهم بعد أن يصحو من حالته.

في مدخل مستشفى مصطفى باشا، تصوّر أنّ الحلّ السّحري سيكون هنا. أراد أن يرسم أيّ سيناريو عن شقيق معقّد أو مهلوس يبحثُ له عن استشارة، فجأة عاد دون أن يدخلَ. فكّر للحظة أنّه قد يكشف أمره أحد الذين سوّقَ لهم صورة مختلفة، وكم كانت عديدةً الصّورُ التي رسمها لنفسه داخل هذا المستشفى المدينة. خرج لا يلوي على شيء وهو يقلّب النظر في كلّ الاتجاهات. «أيّ طريق سأسلُكُ لأعثر على شخص يُفتّش داخلي ولا يتقزّز، يحفرني ويردمني في آن؟»، تساءل في حنق وحقد كبيرين على العالم المشغول عنه. أمامهُ امتدّت الطُّرق في غير انتظام. هناك على الأقل خمسة اتجاهات يمكنه أن يرصدها من ساحة أوّل ماي حيث يقف. انزلق من الدّائرة المزدحمة للسيّارات عبر زقاق فرعيّ يختبئُ كأنّه سريّ، وكان الزّقاق يستضيف الهواة من أبناء الحيّ لاعبي كرة القدم طوال السّنة، في إزعاج مستمر للمارّة. تذكّر يوم مرّ من ملعب الحضر بالجلفة، وتعرّض لقذفة من قدم لاعب حاقد أوقعته أرضا، وقام يجري يبحث عن حجر يعيد له شرفهُ، يومها أفسد نهائيّ دورة كان حارس إحدى فريقيها يحيى الأخرس، لقد كان أفضل حارس في القرابة يرتمي على الكرة كأنّها حبيبته ويطوّقها على الأرض، يبقى على وضعه ثوانيَ قبل أن يقذف بها بعيدا عن مرماه. كان اللاّعبون كلّهم قد تحوّلوا إلى مطاردين لفاتح الذي يجري خلف قانصهِ ليقتصّ منه، ولكنّه لم يستطع أن يجتاز يحيى الذي أوقفهُ صارخاً، تلك الصّرخة جعلتهُ يلتفت فينتبه أنّه مرّ في قلب النهائيّ وأوقفه، بل حوّله إلى فوضى عارمة. كان ذلك

في طفولته التي بدا فيها بقامته شابّا، فعابَ عليه المتفرجون السّلوك والبكاء. لاعبو هذا الزقّاق يفعلون عكس ما فعل هو في الحضر، هو مرّ وسط الملعب وهم يلعبون وسط المارّة. الزّقاق يفضي إلى سوق صغيرة للفاكهة، ترسّمت بين تقاطعه بآخرَين يحيلان على شارع حسيبة ودرج جسر مشاة يقطع الطّريق السّريع ويؤدي إلى موقف الحافلات المزدحم بالناس والدّخان والصّراخ والأسرار. اعتاد أن يقتني بعض الفاكهة من تلك السّوقِ التي تشبهُ نقطة تفتيش لجيوب العابرين، فالنّازلون من الجّسر يتعرّضون لكلّ أنواع الإغراء من الباعة الذين نصبوا طاولاتهم في شكل ابتزازيّ، وإذا نظرت في وجه أحدهم تجدُه يتصنّعُ البراءة والطّيبةً، كأنّه يترجّاك أن تقتني فاكهته، ولو فعلت ستواجه شخصا آخر لا يقبل أن تُنقص دينارا من السّعر، ويقبلُ أن يزيدك فوق طلبك قليلا؛ لأنّ حبّة الموز أو التفاح لا تقسّم، وعليك أن تضيف الفارق، ولعلّ أغلبَ من يشتري فاكهة تلك السُّوق من المارّة المنهكين في نهاية يوم متعبٍ، فقدوا التركيز والتّمييز.

لم يجد بدّا من إعادة تأمّل وجه المدينة ذاتها أكثر من مرّة في اليوم منذ ثلاث سنوات، لكنّه اليوم ـ واليوم خاصّة ـ يشعرُ أنّه تغيّر. فبعد أن قرأ كتاب «**التغيير واكتشاف الذّات، كيف تبدأ من جديد؟**» وصل إلى حقيقة أنّه لم يكتشف نفسه بعد. كان المؤلّف يطلبُ أن يضع المعنيُّ يده على المشكل أولا، من قال للمؤلّف إنّ القارئ لديه مشكل؟ توقّف عند السّؤال، واتهم الكاتب بأنّه يقصدُه هو. تحدّثَ المؤلّف عن أمور تبدو له خاصّة وسرية. «كي نستأصل المشكل يجبُ أوّلا أن نعرفه ونعرف حدوده». لا يعلمُ بالضّبط إن كانت العبارة في أوّل الكتاب أم في آخره، لكنها ظلّت تشغله، «ما هي المشكلة القاتلة التي يجبُ أن أعرفها كي أقوم بإقصائها من حياتي؟»، الطّبيب كان حلاّ مناسبا في وضع مشابه لوضعه.

دوّخه الكتاب تماما، وامتدّ تفكيره إلى كلّ الأمور السريّة والعلنية في حياته. أمام موقف الحافلات الفوضوية والمائلة إلى جهة البحر، كان ساهما، بينما تعدّدت الحافلات الصّينية والجزائريّة الصّنع في مرورها أمامه. لم يحدّد أيّ وجهة سيتّخذ، ليس إلى الجلفة، حيث الجرحُ شرسٌ يتمطّى الشّوارع ليلا نهارا في خيلاء، ليس إلى القرابة حيث مينا يكبر ويتأهّب لقطف الفاكهات كلّها، حتّى فوزيّة فاكهةُ مسعود بلخضر يريدها، لكنّها ترفضُه وترفضُ كلّ رجلٍ، كأنّها تكرّرُ رحلة الخونية.

* * *

كان قد اتّخذ لنفسه طقسا غريبا منذ تمّ التخلّي عنه من قبل سعد بورحالة، مدير مؤسسة النظافة وصديق بلة الذي يسهرُ معه عادة. ورغم أنّه لم يفهم لمَ فعل به المديرُ هذا؟ إلا أنّه لم يوفّر ابتسامته في وجه سي بورحالة الذي تصرّف هو الآخر بصفة عادية، كأنّه لم يمض قرار فصله. بلة أيضا قابل الأمر بضحكة استهزائية معتادة، وعلّق في خضمّها: «يا خي بورحالة يا خي والله غير دارها وحاوزك». غرابة طقس فاتح لا تكمُن في التنقل اليوميّ بين مختلف أحياء العاصمة عبر كلّ الحافلات، بل في تبريره لهذا السّلوك والاعتداد به، فهو الآن يعرفُ أغلب الحافلات وسائقيها وقابضيها، بل ويمكنه أن يعرف حتى وجوه الرّكاب وعاداتهم وأوقاتهم، وهو سرّ يحتفظ به لنفسه، ويعتقد أنّه أصبحَ عارفا بمدينة الملايين المتعبة، بالنازحين الجدد إليها، بالأصلاء فيها، وبالأجواء التي تطبع أماكنها وحتى فضاءات التّشرد المختلفة، وهو برأيه مكسب لا يتحقّقُ إلا بجهد وتحدّ وقدرة على التركيز والتخزين في وسط هذه الأمواج البشرية المنهكة. بدا وكأنّه لا يتحدّى أحدا إلا مينا. خبرة مينا بمدينتهما قرّرت سلوكهُ في

العاصمة، ربّما اتّخذه نموذجا ليسير عليه وحتّى لا يرتجل مسارا.

كان بوسعه أن يُقيم في القرابة لقرن آخر، لكنّ فتاته طردتهُ بقبولها بالقرويّ، وكان بوسعه أن يجد مخرجا مناسبا وينجح لو أنّ الحيّ احتفى به وقبل وضعه، لكنّه عاش منسيّا. في العادة لا يذكر اسمه إلا كمرافق، مرّة لمنصور ومرّة لإدريس وأخرى لمينا، وعندما انتهت حكايات وألق إدريس، وتجارة منصور وملهاة مينا انتهى هو، حتّى مغامرته مع زليخة وأدها الحُسّاد كما يعتقد، ولم تعد حبيبته بعد أن انتشر الخبر في الحيّ كلّه. والحقيقة أنّه هو المسئول عن انتشار الخبر، فقد ألهب الشّوارع بحكاياته عنها، وبدا وكأنّه يريد أن يكون موضوع حديث لدى الجميع، أن يكون نجما بحكاية حبّه التي ستنتهي بزواج وفرح يليق به.

جلس إلى أحد الكراسي دون أن يقرّر مركبته القادمة. انتابته حيرة كبيرة لم تكن لتتمكّن منه قبل زمن الكتاب اللّعين. أغرق في تأمّل الزّحف الكبير للنّاس نحو المحطّة ومنها إلى شوارع وسط العاصمة. تساءل إن كان كلّ أولئك يعيشون دون مشاكل نفسية، ولم يقتنع أنّ الآلاف التي عبرت منذ الصّباح أمامه سليمة نفسيا. سيختار شخصا مناسبا يسألهُ عن طبيب نفسيّ، ولكن ما هي الصّفات التي يجبُ أن تتوفّر فيه، وفقا لرؤية الكتاب اللّعين فإنّ السّويّ يجب أن يكون «مثقّفا، متّزنا وقويّ الشّخصية دون عصبية، ومتفتّحا دون ابتذال، وهادئا ومطمئنا وحركيا ومتأهبا و...!»، ليس في الوسع أن يعرف كلّ ذلك من هذا الكرسيّ المعدنيّ، ولا من على مكتب فاره، ولا من أيّ مكان في العالم. الأمر يبدو معقّدا ومجنونا، والمتاهة تتّسعُ في رأسه. فجأة لمح رجلا يحمل محفظة كبيرة ويرتدي لباسا يجعله أشبه بعالم آثار في وثائقيّ. مرّ بالقرب منه، كان يسمع خطوات الحذاء شبه العسكريّ

الثابتة، ويحسّ بها. بدت نظراته ثابتة في الأفق، وبلحية كتب البياض نصفها، ووجه يوحي بالصّحة، كان الدّليل المفقود. ابتعد قليلا فشعر أنّ الكنز قد يفرُّ منه، قفز من مكانه مسرعا. اللّحظات القليلة التي تفصلُ بينه وبين الرّجل المناسب كانت تبثُّ أفلامها إلى ذهنه. «ماذا أقول له؟ أيّ مدخل يجبُ أن أختار؟ وهل سيأخذ بيدي ويكون دليلي؟». التفت الرّجل قبل أن يصل إليه فاتح، فتوقّف عن الهرولة. «ها قد أحسّ بي، إنّه الرّجل الذي أبحث عنه». ابتسم فاتح بينما قطّبَ الدّليل المأمُول حاجبيه. مدّ يده: «أنا فاتح عبد السلام، المعروف باسم (الباقي)، أتمنى أن تساعدني». لم ينطق الرّجل بأيّ كلمة، ارتبك وأراد أن يبدو في صورة المتحمّل، ووفقا لقواعد الكتاب اللّعين فإنّه عليه أن «يتجلّد ويتجاوز الموقف، أولا يركّز في التفوّق لا في الخيبة، ثانيا ينسى الخطأ الأوّل ويبدأ من جديد، ثالثا يغير الطّريقة، رابعا يتوقّع الأسوأ، خامسا...». قرّر أن يبدأ من جديد دون تركيز ونسيان لما فات. أربكهُ جدّا صمتُ الرّجل. «أقدّمُ نفسي، أنا فاتح عبد السّلام أسكنُ هنا» وأشار بيده إلى البنايات التي خلفه. «أنا أريد فقط أن أستشيرك لو سمحت، فأنا أظنك رجلا على قدر من العلم والحقيقة». لم ينجح الأمر، الكتاب اللّعين كان مخطئا، أو إنّ فاتح كان ساذجا في تعاطيه مع الموقف. أصرّ الرّجل على الصّمت، ولا ابتسامة أو حركة واضحة، فقط تقطيب سرمديّ للحاجبين. اضطرب أكثر الموقف، وشعر فاتح أنّ الجميع يتأمّل خيبته الآن. طلب من الرّجل الاعتذار، وفكّر في الهرب جريا من هذا الموقف. ألحّت هذه الطّريقة في النّمو داخله حتى أصبحت غابة، لكن الرّجل فاجأه بصوت غريب «أأأأاااااااأأأ» وهو يشير بيده راسما كلماته التي لن يفهمها الباقي. لقد كان دليله أخرس لا يمكنه التواصل معه. صعد يحيى إلى ذهن فاتح، وأصبح

ينظر إلى يحيى بعد ثلاثين سنة، لحيته ذاتها وحتّى الملامح تتشابه، وتأتأته وآهاته متشابهة. تذكّر أمّه وهي تصف يحيى وتعلّق على وضعه إثر وفاة أمّه عربيّة، قالت: «العقون ما تفهمه غير أمّه». كاد أن يصيحَ في وجه دليله. «ماتت أمّك وضيعتك وضيّعتني». لكنّ الموقف سيزداد سوءا عندما أخرج الرّجل دفترا وقلما، وطلب منهُ أن يكتب حاجته، بينما كانت نداءات قابضي الحافلات تضمرُ وتضيعُ في ذهنه، وعيون الناس تتلاشى، ولم يعد من شخص سوى العالم الأخرس الذي أفرجَ عن ابتسامة متأخّرة. في الكتاب اللّعين يطلَبُ المؤلف اللّحوح أن تواصل الأمل، كتب في الورقة: «أنا فاتح عبد السلام أبحث عن طبيب نفسي». كتب له الدّليل الأخرس: «je ne comprend pas l’arabe»[1]. ضحك الباقي وهو يتذكّر أنّه لم يدرس الفرنسية منذ أصيبت معلّمته في الابتدائي بانهيار عصبيّ، وبقيت تجيء المدرسة وتجلسُ مكتبها وتضحك وتحكي مع الشّخص الآخر الذي تراه وحدها، كانت تضعُ قدميها على المكتب ويستمتع الأطفال ببياض فخذيها. لاحقا أصبحت الفرنسية لغة عدوّة وملعونة، ثمّ لم يعد هناك رغبة ولا معلّمون، فقط جيل السبيعنيات والستينيات وقليل من الثمانينيات من يمكنه أن يتجاوب مع هذا الرّجل. انتهى اللّقاء بابتسامة. غادر الأخرسُ نحو المحطة المقابلة المخصّصة للطّلبة الجامعيين بعد أن فصلَ ورقة فاتح ومنحه أياها، وعاد هو كسيرا ليجلس إلى كرسيّ المعدن البارد إلى جانب امرأة أربعينية رفقة طفلتها ملائكية الحركات، ولفّ روقته قبل أن يصنع بها طائرة ورقيّة ويمنحها للطّفلة.

لم يغفل الجانب التّحليليّ فيه، وراح يهيئ للمرأة ما يتّفقُ لها. تصوّرَ أنها تنجبُ في سن متأخّرة، وأنّ سعادتها بالطّفلة لا حدود لها؛

(1) لا أفهم العربيّة.

لأنها خلّصتها من عناء الاكتفاء بكونها خالة أو عمّة. كانت الطّفلة في الرّابعة من عمرها، كما كانت تردّدُ للمهتمين بها من الشّباب: «j'ai quatre ans». انتبهت إليه فسمّرت نظرها نحوه بينما كان غارقا في تداعيات الكتاب اللّعين. لم يرفع بصره عنها، ولكنها اقتربت وتراقصت أمامه في لؤم لا يناسبها، وعبثت بطائرته الورقيّة. كانت الطّفلة مشبّعة بالدّلال، وكان هو سعيدا بها.

في طفولته عاش في شوارع ترابية، لم يذكر أبدا أنّه امتلك فرصة ليظهر ما يملك من موهبة، ولكن ما موهبته؟ فشل كما فعل الكثيرون. عندما كان يفتح وعيه على العالم كانت الجزائر كلّها تلج زمنا مختلفا، انهارت الأحلام تباعا، ولم يكن في سنّه المبكّرة يفهم النار التي أحرقت المدينة في أكتوبر 1988، ولا استطاع أن يستوعب كلّ ذلك الهرج والمرج السياسيّ. الأحزاب أصبحت أكثر من الشّركات العمومية المشهورة، هذه الشّركات تراجعت وأغلقت سريعا، وأصبحت الجزائر بلا رئيس؛ لأنّ الزّعيم التاريخيّ الذي استعادته الجزائر بعد منفى العُقود قد قُتل برصاصات في الظّهر، ما لم تفعله فرنسا بعدوّها ومفجّر الثورة في وجهها فعلته الأيادي العمياء، لا أحد يجزم أنّ الدّم الذي في عروقها هو ذاته الدّم الذي يجري في عروق الرّئيس المغدور محمّد بوضياف. الحفناوي كان يحدّثُ المجتمعين في الدّكاكين والمحلات بالقرابة وينظّرُ: «بوضياف جاء لينتقم وسيصفّي كلّ رموز بومدين والشاذلي»، ولم يكن ينسى أن يضيف مدحا لمصالي الحاج فيصرّ أنّ «بوضياف تربّى عند مصالي الحاج مثله مثل مجموعة الاثنين والعشرين، لكنّهم تمرّدوا وتنكّروا لمعلّمهم». عندما قُتل بوضياف صمت الحفناوي، وناسبته الظروف وهو يمرّ بلباسه العسكريّ الرثّ ووجهه الملتزم، ولم يعلّق على مقتل الرّئيس، واكتفى بالترحّم عليه. هكذا مرّت الطّفولة

وما بعدها مسروقة ورماديّة، ثمّ فجأة أصبح فاتح يناضل في حزب تقودهُ سيّدةٌ بملامح غاضبة وصوت محرّك ديزل منهك، وصار يشاركُ في التعبئة لانتخابات رئاسية جاءت بالرّئيس الذي ارتدّ من التّاريخ. فاز مرّة وأجبر الجميع على البقاء «بوتفليقة هو الصّح هو الثقة». لم يعد أحد يثقُ بالآخر، الرّضّع الذين وجدهم بوتفليقة بالحفّاظات هم اليوم شباب يملؤون السّجون واليأس، والشّباب هم اليوم كهول بلا أفق، والشّيوخ ماتوا ولم يروا فرح الوطن.

ترك سريعا الحزب الذي يريد من مناضليه أن يكونوا حطبا لتدفئة القائدة الواحدة الثّابتة على رأسه، وكفرَ باليسار الذي لا يحقّق العدالة، وانتفى سبب البقاء عندما صعد نجم مينا، والحقيقة أنّهُ عاش تجربة قديمة إلى جانبه، حيث شاركه في عروض تهريج في المدارس الابتدائية منتصف التسعينيات، عندما كان النّاس يبكون في دواخلهم دما، وكان يصغي لتوجيهات مينا ويسعد في مراهقته أنّهُ طاف مدن وقرى الجلفة رفقة المهرّج المبدع، وبعد سنوات لبّى نداءه مجدّدا لينشَط في جمعياته الكثيرة، وليقوم بالتعبئة اللازمة لترشّحه على رأس قائمة للمجلس البلدي، بعد أن كان ضمن قائمة للانتخابات التشريعيّة في ترتيب متأخر.

«أنت عندك ماماك؟» هذا هو السّؤال الجوهري. هزّ رأسه نافيا. الطّفلة الذكية أبدت استغرابها بثني شفتها السّفلة والنظر إلى أمّها التي كانت تبتسم

– وشكون اللي زيْدك؟

– ماما.

– وين راحت؟

– راحت عند ربي.

- ماتت...!

وعادت مجدّدا لأمّها التي أكّدت لها صواب فكرتها عن الذّهاب إلى الله. لم تكن تركيّة ميتة، كانت أمّا ترعى العشرات من الأبناء والأحفاد في بيتها بالقرابة، ولكنّهُ قتلها من أجل متعة الحكاية. تلك الطّفلة التي رمت بحجر في ماء الذّاكرة الآسن، لم ترد أن يتوقّف الحوار معها. عادت تسأل وكلّما أجابها تدرّجت معه إلى سؤال آخر، ورغم ذلك استمتع بمحدّثة صادقة. سألها:

-وش حابة تكوني كي تكبري؟

- vétérinaire[1]

كان جوابها سريعا، ولم يكن في وسعه أن يسألها السّبب، للأطفال مبرّراتهم، لكنه تعجّب لأمر أطفال القرن الحادي والعشرين، لقد أصبحوا يجمعون على الرّغبة في تطبيب الحيوانات. سابقا كان الأطفال يحلمون بالطّب، وكان التلاميذ في القسم يتّفقون نجباء وبليدين أنهم مشاريع أطباء. يبدو أنّ الأمر يستدعي التّساؤل عن القيمة البشرية في هذا العصر الرّقمي الكثيف الضيّق. كانت الطّفلة تواصل حديثها وتعلّل سبب اختيارها، فهي أيضا فقدت قطّها «نونو»؛ ولهذا تريد أن تنقذ كلّ القطط.

عندما غادر المكان، بعد أن امتطت الصّغيرة وأمّها حافلة إلى «الشراقة»، كانت أفكار الكتاب تتسابق إلى رأسه، وكلمات الطّفلة تنفذ إلى وعيه وتزاحمُ سطوة الكتاب الملعون وكاتبه الشّيطان الذي زج به في متاهة. قرّر أن يأخذ الحافلة الأولى التي يسمعُ مناديها. بالنسبة له لا مجال للصّدفة، وجوده في موقف حافلات الثاني مايو يعني أنه سيركب هذه الحافلة التي ينادي صاحبها: «باب الزّوار،ساميزون،

(1) بيطري.

لاغار روتيار، الخروبة». ركبَ الحافلة منزلقًا بين المجتمعين أمام الباب الوحيد لتلك الحافلات الصّينية الصّغيرة. اتّخذ مكانا، وشعرَ بالسّعادة كونهُ أوّل الرّكاب، هذا انتصار كبير حقّقه. فكّر في رأي باقي الرّكاب فيه، «هل يعتقدون أنّي ساذج وطفوليّ السّلوك؟ هل يسخرون مني الآن؟». شعر ببعض الضّيق منهم جميعا. في لحظة ما خمّن لو يقف ويخطبُ فيهم، لو يريهم كلّ القدرات التي يمتاز بها عنهم، ولكنّ فكرة الحاجة النفسية صعدت متجاوزة كلّ ذلك، هل سيسخرون منّي إذا هم عرفوا أنّي ذاهب في رحلة بحث عن طبيب نفسيّ؟ في الكتاب اللّعين قرأ عبارة للمهاتما غاندي تقول: «في البداية يتجاهلونك، ثم يسخرونَ منك، ثم يحاربونك، ثم تنتصر»، ولكن البداية هي التي عمّرت طوال حياته. في السنة الثالثة بعد الثلاثين لا يقبضُ على أيّ شيء، والجميع يواصل تجاهلهُ. في الفترة الأخيرة ازداد الأمر حدّة، ليس سوى بلة الذي رعاهُ وأغدق عليه، ثمّ انخرط في لعبة السّخرية منه متجاوزا مرحلة التجاهل. المهمُّ أنّه أصبحَ داخل الحافلة ينتظر الجليس الذي سيشاركهُ الكرسيّ الضيّق. انتبه إلى وجود وجه أنثويّ جميل، تمنّى أن تكون صاحبته جليسته، إلا أنّ الشابّ العملاق اندفعَ دون أن ينتبه إلى أمنيته الملحّة، ورمى بجسمه ساحقاً بهجتهُ، كان بوسع هذا الوحش أن يجلسَ في مكان آخر وسط هذا الشّغور ويترك للفتاة المرور، لكنه لم يكن ذا ذوق، حسب فاتح الذي انعدمت الحلول أمامه. حال العملاق بأنفاسه اللاهثة بينه وبين تلك الفتاة الأنيقة.

انطلق السّائق سريعا وما زال القابض يترصّد القادمين ويصرخ عاليا: «باب الزّوار، ساميزون، لاغار روتيار، الخروبة». رغم أنّ الأماكن كلّها امتلأت، قبل أن يغلق الباب ويستدير في نظرة ماسحة للركّاب، كأنّه يكتشفُ الجدد والمألوفين والغرباء، وبالطّبع الجميلات.

التقت عينهُ بعين فاتح فحيّاه بابتسامة ردّ بمثلها متصنعا أهمية لا قبل له بها. كان سيفتح حوارا قسريا مع الفتاة لو جلست إلى جانبه، لكن هذا النتن الذي اغتصب حلمه لا يستحقُّ حتى الجواب على ما يقول. أراد الرّجل السّمين فقط أن يعرف إن كانت الحافلة تتوقّف في «محطّة المسافرين»، فأحجم عن إجابته، والحقيقة أن السّمين كان محرجا وغريبا عن العاصمة، ما جعله يضطر إلى رفع صوته قليلا ليسأل القابض الذي رفض أيضا إجابته، وتبرّعَ صوت الجميلة ليوجّه تيه السّمين ويطرب أذن فاتح، بل اقترحت عليه المساعدة إن كان يريدها.

زليخة لم تقترح يوما أن تساعدهُ، كان يقيس كلّ النساء بها، كانت المعيار الوحيد الذي عرفه. مينا كان يسخر منه وقال له: «أنت مثل الذي رأى فأرا وكفّ بصره، يعني ليس بوسعك أن تنظر إلى غير زليخة»، ربّما هذا الذي جعله يخلط بين زليخة والفأرة لاحقا، كذلك فعلت فريدة لم تكلّف نفسها عناء الاهتمام به ودفعه لتكون امرأته التي تقف خلفه، «هذه الفتاة مستعدّة للمساعدة»، قال في نفسه وهو ينظر إليها، كانت ترتدي جينز أزرق يلتصق بفخذيها الجميلين، وقميصا بنفسجيا كشفتيها وحذائها وحقيبتها، وبشعر مفاجئ أحمر قانيّ، كانت فتاة جميلة، لكنّها مصطنعة إلى حدّ ما، الأمر الذي جعلهُ يُحجم عن جعلها مساعدته أو المرأة التي تقف خلفه.

بدا أن الرّحلة ستنتهي إلى الخواء، وكان شعور بالذّنب ينتابُه وهو يسمع السّمين يرد على هاتفه النقال المهترئ، ويتمنى على السّيدة التي يتحدّث إليها أن تصبر على الألم لأنّه سيقتني لها الدّواء، لم يكن من وقت للاعتذار عندما غادر الرّجل الحافلة وتركهُ فريسة لضميره الذي انبرى له كفارس عظيم يلقَى الشّرّ بسيفه البتار.

«هل أنا شرير؟»، وفقا للكتاب اللعين فإنّه عليه أن يكون رجلا

خيّرا بالأصل، غير أنّ الشّر تسرّب إلى دواخله فرسم له خطة الضّياع التي يعاني منها، والأمر نفسهُ بالنّسبة لزليخة ومسعود بلخضر ومينا وبايزيد وجلول المرعوب، الأمر نفسه بالنسبة لكلّ أهل القرابة.

* * *

حاصرهُ الكتاب وصار دستورَهُ الذي يمشي عليه، لا ينظر إلى نفسه وإلى العالم إلا عبره، قرأه سبع مرات، وفي كلّ مرّة شعرَ أنّه لتوّه يفهمهُ. في هذه اللّحظة وصل إلى عدم جدوى استشارة نفسانيّ، وتراءى له أنّه يجب البدء من جديد. في سنّ الرّابعة والثلاثين يمكننا البداية من الصّفر رغم ما راكمنا من معرفة. راح يحدّث نفسه، بينما يقفز إلى ذاكرته مسعود بلخضر الشّاعر الأمير الذي قتله صديقه الجاهل قديرو في حواص، ولم يعد يذكره إلا القليلون. مسعود حدّث فاتح ليلة ما، عندما صادفه في إحدى أزقّة القرابة، واقفا كالظلّ في اللّيل، يرقب ضوءا ليخرج للعلن، لم ينتبه إلا وصوته يأتي من بين الظّلام الدّامس والصّمت: «فاتح وين بيها؟». عرف الصّوت، لكنّ الخوف تملّكه، فوقفَ في مكانه ليبرز له مسعود مبتسما بأناقة شابّ لا يعيش في غابة. «أهلا الشيخ» أجاب فاتح وهو يتمنّى على مسعود أن يختفي، قال له إنّ السّهر المجانيّ لا فائدة منه، وإنّه عليه أن يسهر في ذكر الله أو المطالعة أو أن ينام ليفيق باكرا، وكان يهزّ رأسه موافقا على مقترحاته، أراد أن يقول شيئا فلم يعثر على كلام، بينما كان الأميرُ يعدّد رفاق التيه، ويؤكّد له أنّ عليه التمسّكَ بالكتاب. كان مسعود يحملُ كتابا قديما في كلّ مرّة ظهر فيها في ليالي القرابة. لاحقاً عثر فاتح على الكتاب الأصفر الذي حملهُ مسعود، وقرأه ولم يجد ما يغري فيه، وجد فاتح الكتاب في نافذة بيت سالم الميكانيكي، كان يمرُّ ويراقبُ العالم حولهُ، ولحدّ السّاعة لا يذكُرُ كيف مرّرَ يدهُ عبر الشبّاك الحديديّ وسحبَ الكتاب الرّواية.

انتظر أن يعثر على مسعود ليعيد إليه الكتاب، لكنّه لم يلتقه أبدا، فبعد وقت قصير كان الشّابُّ قد خُطف من الحياة.

عن أيّ كتاب تحدّث مسعود، ما الكتاب الذي ينقذ العقل من زليخة؟ أتراهُ كان يتنبّأ بأن أعثر على هذا الكتاب؟ تساءل وهو يستعيد صورة القتيل. منحه الكثير من الاهتمام، ورغم أنّ فارق السنّ بينهما هو سنوات قليلة إلا أنّه كان معلّمه في مسجد الضاية، درس عنده القرآن وحفظ بعض الأبيات من مُلحة الإعراب، وهكذا أصبح مسعود الشّيخ وهو المريدُ مرّة أخرى. عندما مات مسعود شعرَ سكّان الحيّ كلّهم بالحزن، أرادوا أن ينظّموا له جنازة وأن يكرموا ذكراه، لكنّهم لم يروا جثمانا ولا امتلكوا الجرأة لفعل ذلك، طالما كان مسلّحا في جماعة إرهابية؛ بل أميرا له جنده. اعتقد فاتح والآخرون أنّهُ أسطورة لا يمكن أن تنتهي بهذه السّرعة، لأجل هذا فقد ظلّوا منتظرين انتقامه. كان الشباب في موقع حياد، لا هم مع الجماعات المسلحة ولا مع الحكومة، كأنّهم يشاهدون فيلما، لكنّ مأزق هذا الفيلم أنّ شظايا المواجهات كانت تقتل من المشاهدين أكثر ممّا يحتمل العقل.

* * *

الديار الخمس لم تعد خمساً؛ بل هي مدينة وحدها تحتك بـ«الحراش» و«بلفور». عندما توقّفت الحافلة في cinq maisons هبّ وكأنّه يخرج من حافلة تحترقُ. ألقى بنفسه خارج خوفه وتصلّب تحت جسر الرّاجلين، يتأمّل المارّة والمتسمّرين في موقف الحافلات في غير وضوح، مثل عرف بين الناس، اتّفقوا ليكونوا هناك وانتهى. في موقف الدّيار الخمس لا ظلّ ولا ظليل. تعالت أصوات النّاقلين الواحد تلو الآخر في سرعة فائقة، ولكنها لا تفي بالمتأهبين للركوب. حافلة عين طاية الضّخمة تأتي مكدّسة عن آخرها بالأجساد المتعبة، لا يتمنّى هو

أن يكون من هؤلاء، رغم أنّ عيني الفتاة الجميلة ذاتها قاطعته بنظرة رأفة من بين عيون الرّكاب المشدودة إلى الفراغ. كانت آخر مرّة ركب فيها الحافلة المتجهة إلى عين طاية منذ شهر، حين زار الصّالون الدولي للكتاب، وكانت رحلة مؤلمة بالنسبة له بعد أن نال نصيبه من الشّتائم من امرأة جلبابية، وقفت خلفه، اتهمته بالاحتكاك بها عنوة، لم يجد بدّا من الصّمت والرّغبة في البكاء والاندثار، وفي قتلها وتفجير المكان، امتزج الحقد بالخوف بالرّهبة بالشكّ بالحنين لغرفته. عندما نزل ردّد في قلبه: «الكلبة ما تشبه لوالو»[1]. لم يتردّد في منحها كلّ الصّفات المشينة الممكنة، وبقي حاقدا عليها طوال الفترة اللاحقة، حتى توجّس من كلّ المتجلببات، ما حاجتهنّ للجلباب إذا كانت أثداؤهن أبرز الأثداء وعيونهن أجملها، إنهن مثيرات، لكنّه رغم ذلك سيلعنهنّ ما تبقى.

الخونية أجمل إمرأة في الدّنيا، ظلّت عالقة بذهنه، كانت سيّدة القرابة التي لا تبين، امرأة مختبئة في خلوتها، القليلات حظين بابتسامتها، والبقيّة كنّ يحصلن على نصيحة وبعض حبّات السكّر أو الحلوى أو البنّ، يأكلن الرّوينة أو الكسكسي عندها، أو يشربن قهوة مخلطة. هو رافق مينا إلى عمق الخلوة، جلس إليها وشاهدها وهي تبتسمُ حين تنظرُ إلى مينا الذي يفعل الأمر ذاته. كان يدخلُ عليها يقبّلُ رأسها ويدها، ثمّ يجلسُ مقرفصا ويشرعُ في الحكي. كان يبدو طفلا أمامها، واضطرّ مرافقوه بما فيهم فاتح أن يفعلوا الشّيء ذاته. لم تكن الخونية في جمالها ذاك وبياضها إلاّ ضوءا سرّيًا لا يمكنهُ الخروج إلى العلن، قامتها وشعرها الذي يبدو بعضه تحت الخمار ويداها كلّها توحي بأنّها أميرة حقيقية، لكن في أيّ مملكة هي؟ كانت

---

(1) الكلبة لا تشبهُ شيئا، والو: لا شيء.

الخونية بالنسبة لهُ وباقي الشّباب الذين منحهم مينا حظّ الدّخول إليها أصغر من ابنها، ومنهم جميعا، كانت خالدة في العشرين، حتّى مسعود ظلّ يمرّ عبر كلّ الأزقّة، وتجنّب زقاق الحمامة، كأنّهُ يخشى أن تخطفهُ أنوار العارفة فيترك كلّ فكرة تسكُنُهُ، أو ربّما احتفظ بعبق خلوتها التي دخلها مع مينا.

أخذ حافلة أخرى، بدت أقلّ اكتظاظا، نحو باب الزّوار شرقَ العاصمة، المكانُ الذي انفجر بساكنيه فجأة وتحوّل إلى تجمّع كبير في ضواحي البهجة. لم يكن بوسع الكثيرين أن يعرفوا لهذا المكان اسما قديما أو حديثا، بل لم تكن باب الزّوار أصلا قد تحوّلت إلى مدينة لصيقة بالعاصمة القديمة، ولا هي إحدى أبواب العاصمة الأربعة، كانت المباني قد بدأت ترتفع لترفع من شأن «طور لاشاص»[1] المحاذية للمطار الدّولي للجزائر العاصمة، وقد ارتكزت فيها إحدى أكبر الجامعات وعدد من الأحياء الجامعية للبنات والبنين، ما أسّس فضاءات للعلم والمعرفة بقدر يسير أمام فضاءات الحبّ والغرام.

هنا تعرّف على فريدة. نزل في موقف الجامعة التي لم يدخلها يوما، رغم أنّه اجتهد دائما ليصل إلى الدّرجة الجامعية، ولم يتمكّن من تجاوز عقبة البكالوريا. ظلّت عقدة الجامعة لصيقة رأسه وحركاته، فكلّما رأى شخصا يحمل محفظة تظاهر بأنّه لا يبالي به، ولم يفكّر يوما في الارتباط مع فتاة أو امرأة غير جامعية، فقد تأكّد أنّه رجل أهمّ من الجامعة ومن البرامج التعليمية.

أنقذهُ الكتاب اللّعين كما سمّاه دائما بلة، لم يرقهُ أن يجدهُ مندمجا فيه على الدّوام، فكلّما بحث عنه أو طلبه عثر عليهِ لصيقا بصفحات

(1) اسم منطقة باب الزوار القديم وهو تحوير من اسم فرنسي بمعنى العودة إلى الصيد «retour au chasse»

الكتاب، ولعلّ بلة- الذي لا يقرأ العربيّة- شعر أنّ الكتاب لا يختلفُ عن أمرين إمّا الشّعوذة أو الجنس، لهذا فقد اقترحَ على الشابّ أن يزوّجه، لكنه لم يوافق على فريدة، وكان السّببُ أنّ الفتاة طالبة جامعية من جهة، وهي إلى جانب ذلك أصغر منه بثلاث عشرة سنة، تلك الفكرة لم تكن لتقنع فاتح، والحقيقة أنّهُ خطّط له بقية حياته كشابّ طيب يعيش مع امرأة يعرفُها، وسلّم الأمر للغد وفقط، لم يكن يعترف بهدير الأحلامِ الذي يجرفُ نزيلهُ، واعتبر الأمر مجرّد أفكار عابرة سرعان ما تزولُ علاماتها التي بدت جليّة على ملامح الشّاب القمحيّ الفارع النحيف.

لم يعد يجد روحا في باب الزّوار، عكس الأشهر القليلة السّابقة، عندما كان يجلس فيها فيتنشّق هواءً مختلفا، ويأكلُ فيها فيجدُ الطّعام ألذّ، ويشربُ فلا يرتوي من مقاهيها. تساءل في سذاجة: «هل يزول حبنا للمكان إذا زال من ربطونا به؟»، وتذكّر. بقليل من التحايل. القرابة وإدريس وزليخة ويحيى ومينا ومسعود والخونية، وبصعوبة أمّه تركية التي تهوّرت وأنجبتهُ في سنّ يجب أن تكون فيها قد يئست تماماً. تذكّرَ عددا كبيرا من الكائنات التي تنتمي إلى ذلك الكوكب البعيد. لم تعد فريدة تلقاه، انتهى الحبّ سريعا. فبعد أشهر قليلة كانت تتذمّر منه وتتملّصُ، إلى أن انتهت عشيقة لشابّ يقودُ درّاجة ناريّة ضخمة. لم يكن الأمر قاسيا عليه، ففي الوقت الذي وجدت فريدة حاجتها لدى شابّ ممتلئ ووسيم ويقودُ درّاجة نارية أنيقة، كان هو يجد الكتاب المنقذ ويغوصُ فيه، ورغم أن غصّةً ممزوجة بالألم ظلّت تلازمهُ وتحدُّ ابتسامته إلا أنّه كتمها. أبدى بلّة سعادته بانفصاله عن الفتاة، لم يرها ولا التقاها، لكنّه رفض أن تكون عشيقة أو زوجة له، وحاربه بالدّعاء علنا لتكون من نصيب غيره. في النهاية صدق بلّة وخيّبت فريدة.

لم يستطع البقاء إلى المساء مثلما اعتاد، لهذا فإنّه لن يكون مجبرا على عرض نفسه بحافة الطّريق تحت جسر باب الزوار، للحصول على توصيلة إلى وسط العاصمة. حمل نفسه وركب الحافلة مجدّدا. عندما وصل إلى الفندق كان متعبا ومصابا بإحباط؛ لأنّه خرج عازما على تغيير حياته وزيارة طبيب نفسيّ وعاد كما خرج. لم ينتبه بلّة المنهمك في الشّرب إليه، أو انتبه وتجاهله.

استلقى على سريره وهو يتأمّل السّقفَ الخرب. خلال السّنوات القليلة الماضية أعيدت صيانة كلّ الغرف وصبغها، إلا هذه. لم يكن في وسعه أن يغادرها، فهو أقرب إلى الحلزون في علاقته معها، بل إن أغنية بلة الشّهيرة «بوجغللو يا فاتح ... جاه النعاس راه نعسان... فرشولو ووجدولو ... يرجع لبيتو تعبان»[1] كانت هي الأقرب في توصيف حالته المرضية مع الغرفة.

لم يجد بدّا - في تلك الغرفة التي تحتفظ بكميّات هائلة من العودة - من تأمّل الأسبوع الأخير الذي عصف به وبحياته وجعله يختنق، ولكن قبل ذلك قرّر أن يقرأ مجدّدا الكتاب ويدوّن مآخذه عليه، بعض النّقد ممكنٌ حتّى للأفكار العظيمة.

* * *

«تحبّ عينيك وتشوف وذنيك وما نقبلش بيك يا فاتح يا الباقي»، هكذا صدحت زليخة في وجهه بعد أن عرفت أنّه بلا عمل ولا بيت ولا تركة، وأنّ الأشهر التي مضت كلّها كانت تمثيلا. «ولكن هل يوجد شخص معدوم إلى هذا الحدّ؟». كانت المرآة القريبة إليه شاشة للحديث في غياب رفيق في هذه المأساة العظمى، لهذا تحدّث معها

---

(1) بوجغللّو: الحلزون.

ومطّط شفاهه وأرنبة أذنه، علّهما يلتقيان، ليقبّل أذنه. «ماذا لو قبلت أذني؟». بدأ حبّهُ بغمزةٍ استجابت لها زليخة، لم تكن فتاة جميلة، لكنّها مقبولة، لديها قوام صارخ ينفر من كلّ الأقمشة التي تلفّه، كانت تمشي متمايلة، وكان مينا يعتقد أنها تكرّر طريق شقيقتها الكبيرة حبيبة التي تزوّجت وماتت بعد شهر إثر نزيف حادّ. اتهم بعده الجميع قويدر بن المروكية بأنّه اغتصبها وبأنّ أدواته أقدر من أنوثتها، والحقيقة أنّ حبيبة اعتقدت أنّها لم تكن عذراء بعد تجربة حبّ سريعة مع ابن عمّها، واهتدت إلى حيلة لتسترجع عذريّتها. حدّثوها عن شحمة سنّام الناقة، وحصلت عليها بعد جهد، وشرعت تدلّك فرجها غير مرّة كلّ ليلة؛ حتى يُعاد تشكّل غشاء بكارتها، ولم تكتف بالشّهر المطلوب، بل وصلت إلى ثلاثة أشهر من التّدليك بشحم سنَّام الناقة. في ليلة دخلتها كانت مُقفَلة تماما. ولم يكن أمام قويدر، الذي أشعلته حبيبة طوال سنوات من الخطى الندية والجسد الشّبق، إلا أن يمنح حبيبة شهادة بشرفها. أراد أن يتوقّف، لكنها رفضت. كانت تريد أن ترى أنّها عذراء وأن يرى هو ذلك، أن يسمع العالم كلّه وابن عمّها أنّها عذراء، وحصل معها الأمر، فبعد ليلة نزفٍ بدأت الفتاة تجفّ، ولم يكن بوسع الرّجل أن يفعل شيئا، شعر بكثيرٍ من الحرج، ورفضت هي أن يعرف الآخرون شيئا غير العلامة الدّامية الأولى التي تسلّموها. كان الجميع غارقا في الحفل الصّاخب، رقص وزغاريد ودفوف ونايات وبارود، وكانت هي تسيل عرقا باردا، وهو يمسحُ جبهتها ويسألها: «وش ندير يا حبيبة؟» فلا تلوي على شيء وتمنحه ابتسامة في كلّ مرّة أو تقبّل يده التي تمسحُ وجهها. هاجر قويدر بعد ذلك بسنتين إلى الجنوب، ولم يعد يزور الحيّ إلا قليلا، وبقيت حكايته تتطوّر حتى أصبح أسطورة أخرى يتداولها الشّباب.

عندما استعاد الشّريط كاد يستسلمُ للبكاء، قالت له إنّها اعتقدته دائما رجلا عاديا، وإنّها تنازلت لتقبل به، لكنها لن تقبل أن تتزوّج من رجل يواصل ما قدّمه لها والدها. سألها: «وماذا عن الحبّ ألا نغفر باسمه؟»، وأطلقت هي ضحكة قاسية وردّت عليه متألّمة: «الحبّ يموت ليلة الدّخلة يا حبيبي»، ثمّ مضى حزينا، فلم يعثر على إدريس الذي التحق بقائمة المجانين، وكانت أمّه تواصل مساعي الرّقية لتخرج الجنّ الذي أقام بعقله، ولم يجد مينا الذي أصبح مشغولا بالسياسة، ولا عثر على يحيى ليكتب: «أنا موجوع يا يحيى» فيشرح له هو معنى السعادة، ولا كان بالحيّ مسعود الذّبيح، حتّى الخونية رحلت باكرا بعد أن خلد شبابها. مشى في الأزقّة وحيدا، وكانت طويلة جدّا، كانت القرابة أكبر ممّا اعتقد دائما. قصد بيت عبد الحميد، صفّقت ضياء له معلنة أنّهُ غير موجود، طلب منها أن تخبرهُ أنّهُ سيعود لاحقا.

عاد إلى بيت عبد الحميد متأخراً، فتح لهُ الباب وأدخلهُ وطلب من ضياء أن تحضّر شايا، وتدخّل هو ليطلب قهوة فكان له ذلك. سألهُ ما حاجته، وما الذي لا ينتظر إلى الغد؟ وكان يعرفُ تقريباً أنّ الأمر يتعلّق بميول أو حبّ. رشّح له فتاة يكون قد أحبّها وخشي أن تكون منى، فهي حالة أكثر منها فتاة، وبدت قامة فاتح عبئا على حرجه، إذ كيف يمكن لمن هو في قامته أن يذوب ويذوي؟ تردّدَ قليلا ثمّ أعلن أنّ زليخة شقيقة حبيبة ترفض الزّواج منه، ترفضُ الزّواج أم الحبّ يا سي فاتح؟

- صارحتها بوضعي فرفضتني.

- لكنّها مقبلة على زواج، وما كان عليك أن تخاطب امرأة تتحضّر لغيرك، هذا خطأ.

- لا ليس هناك زواج، إنّها حيلة لنفيي فقط.

- هناك زواج وخطبة ورجلٌ دلّه أحدهم على الفتاة، ولا داعي لتؤزّم نفسك.

- لقد خدعتني يا عمي عبد الحميد.

- وعود الأطفال لا يعتدّ بها يا عمّي فاتح، أنت رجل.

- في عينها لست سوى معتوه.

- في عيون الجميع أنت رجل، قامتك تؤكّد ذلك لمن رآك، وعقلك لمن يعرفك.

شرب فاتح فنجان قهوة، وتظاهر بأنّهُ أقوى، بل راح يلقي بالوعود والتحديات أمام عبد الحميد الذي لم يتوقّف عن التثاؤب، وعندما أراد أن يصبّ فنجانه الثّاني كانت القهوة قد بردت، وكان رأسُ المضيف يتدلّى ويعجز عن فتح عينه. وضع فاتح الفنجان واعتدل واقفا، وشكر عبد الحميد وودّعه. بكثير من الجهد رافق عرّاب الحبّ زائره المقهور، وطلب منه أن ينتظر حظّهُ الذي سيكون أفضل من حظّ زليخة؛ لأنّه صادق وصاحب مسعى.

في صباح اليوم التالي حمل حقيبته وغادر إلى العاصمة، كأنّهُ نسلٌ ينفي مُحبيه. قويدر نفتهُ حبيبة، وفاتح زليخة. في الطّريق راح يفكّر في كتاب مسعود بلخضر، استحوذ الكاتب العجوز على فتاة الكاتب الشابّ، أغراها بشهرته وماله وأسفاره، وتنازلت هي عن كلّ أحلامها بمقابل أن تصبح أَمَتهُ، كان الكاتب العجوز يحصلُ الجوائز ويزدادُ ألقًا، بينما يذوي مشروعُ الكاتب الشابّ، لا أحد تنبّأ بالنّهاية، لقد وُجد الكاتب العجوز مقتولا وعضوهُ مقطوع ومزروع بفمه، في البداية اتهمت الفتاة التي أصبحت امرأة تتجاوز الثلاثين، وسجنت بالتّهمة دون أن تدافع عن نفسها أو تكذّب ما جرى، امتلأت الصّحف بأخبار الكاتب ميّتا، وأشعل مصرعهُ سوق الكتاب، فبيعت رواياتهُ واحتفى بها

النقّاد والجامعات، وبعد سنة من سجن العشيقة ظهر القاتل الحقيقيّ، ولم يكن سوى رجل وقعت زوجته في شباك الكاتب العجوز، اكتشفَ أنّ الكاتب العجوز يزور بيتهُ في غيابه، وأنّ زوجتهُ تخونهُ مع نجمها الذي يتحدّثُ في التلفزيون عن المبادئ والقيم والوفاء والحبّ والشّهامة، فيصغيان معا بكثير من الاهتمام، أحبّ زوجته ولم ينتبه إلى شيطان الكاتب العجوز، اعترف القاتل بجرمه واستُبدل بالعاشقة، أمّا الكاتب الشابّ فكان يكتبُ روايتهُ الثّانية، ولا يفكّرُ في الحبّ بل في الحياة كلّها.

ما زال فاتح يذكُر الرّواية، بل إنّ عبارة «لا يفكّر في الحبّ بل في الحياة كلّها» تتشكّل أمامه وهو على متن حافلة حمراء تلهث صوب العاصمة، فيتمنّى أن يجد الحياة كلّها بدل الاكتفاء بالبحث عن الحبّ، «حقّا الحبّ جزء من الحياة وليس كلّ الحياة» يقول لنفسه قبل أن تسرقهُ عينه.

* * *

منذ ثلاث سنوات يسكنُ مرقدا متواضعا وسط العاصمة، وفي ذات الغرفة التي ما تزال تحتفي به رغم أنّ الجميع غير مبال بوجوده. بلّة كان الصّدفة الأولى في العاصمة، نزلَ عنده وأجّر غرفة لشهر، ودفع مسبقا ثمّ راح ينشدُ العمل، وكان يعود منهكا في المساء ولا ينسى أن يحضر فاكهة أو عصيرا لصاحب المرقد، فملك قلبه وأعجبته رغبته الملحّة في العمل واجتهاده، لهذا فقد اقترب منه إلى أن صارا أكثر من صديقين. كان يمضي الجمعة معه في ثرثرة طويلة وعشوائية، تبدأ من السياسة أو الدّين أو النساء ولا تنتهي، وأصبحَ العجوز يعرف كلّ تفاصيله، بينما لا يعرف عن العجوز إلا أنّه لم يتزوّج وأنّ الفندق هو ملك له تركه له اليهوديّ الذي كان يعمل عنده، وكان يتمنّى أن يكون بلّة يهوديّا ويقول له هذا علنا: «إذا كان اليهوديّ خيّراً وترك

لك الفندق فأتمنّى أن تكون يهوديّا يا عمي بلّة» ويطلقان معا ضحكة هستيرية. أصبح يُساعد أحيانا في استقبال الزّبائن أو إصلاح عطب دون مقابل، ولاحقا لم يعد يدفعُ حقّ المبيت كونه يقوم ببعض الأعمال عنه.

في أيّامه الأولى بالعاصمة ظلّ يُحاول أن يصلَ أذنه بلسانه أو شفاهه دون جدوى، وينفجر بالضّحك في كلّ مرة، لم يعثر على أيّ أداة تسلية أو فرصة لتجاوز الانهيار الذي يداريه بالحركة والتنقل والمزاح. عندما دُقّ الباب تحسّس المكان وفحصه بنظرة سريعة، اعتدل في اتكائه «ادخل»، قال وهو يرقب الباب يُفتح، كلّ ذلك في ثوان سريعة. كان بلّة الشّخص الوحيد الذي يمكنه أن يقرّر مصيره، أخبره أنّه قد عثر له على عمل بمؤسّسة نظافة كبيرة، وكاد الشّاب أن يطير فرحا، فقد أتعبه العمل في مقهى ثمّ في مطعم، وكانت سعادتهُ أكبر أنّ المؤسّسة حكوميّة ولا يملكها أحد بقايا الإقطاع أو محدثي النّعمة وأغنياء الأزمات المتالية.

* * *

عندما فرغ من قراءة الكتاب اللّعين في المرّة السّابعة وقبل الأخيرة، اكتشفَ أنّ حياته كلّها لا تُعادل سنة من العبث لدى رجلٍ ناجح. توقّف عن التّفكير وارتأى أنّ عليه التّوقّف عن قراءة الكتابً والشّروع في العمل مجدّدا. وقف من مكانه غير آسف على طرده من مؤسّسة النّظافة، وتوجّه إلى بلّة ليطلبَ منه بعض المال سُلفة، لكنّه رفضَ أن يمنحه المبلغ واكتفى بعُشره. أراد أن يبدي تذمّرا، أو أن يرفض الألف دينار التي يمدّه بها، غير أنّه لا حيلة له سوى قول ذلك بنظراته المؤنّبة وهو يغادرُ، ولا جواب لدى بلّة سوى إطلاق العنان لضحكة عنيفة كالعادة. كان يسمع ضحكته ويعرف البقية؛ سيضحكُ قليلا ثمّ يسعلُ

كثيرا، يأخذُ نفسا من سيجارته ويكرّرُ موجة السّعال، وبعدها يقف ويدخلُ المرحاض خلفه، ويرمي بكتلة من النُّخام الذي تجمّعَ في فمه ويعودُ إلى قارورة النّبيذ ليملأ فمهُ فيهدأ. مدّ النّحيفُ خطاه لا يخطّطَ للعودة إلى باب الزّوار كما حصل معه، ولا لتأمّل الناس أو التعرّف على الطّفلة التي تريد أن تكون طبيبة بيطريّة بعد توحّش البشر.

في العام الماضي، عندما مرض بلّة وأُدخل المستشفى لإجراء عملية استعجاليه، كان هو المسيّر للمرقد، وقد سمح لنفسه بتغيير بعض الأمور، حيث اقتنى أفرشة جديدة وملاءات وأغطية، وأصبح في وسع الزّبائن الاستمتاع بالصّابون، ولم يُغادر المرقد لخمسة عشر يوما. كان يخرج لزيارته ويترك خلفه آمال التي تمارس سلطتها باقتدار في غيابهما. شعر بلة أن فاتح مجدّ، وفكّر في الاعتماد عليه. كان يرقُبه وهو يسعى ويستغلّ علاقاته العبثية ببعض الممرّضين والعمّال في المستشفى لتسهيل أيّ إجراء. بدا سويّا أو على الأقلّ أهمّ من الصّورة التي ظلّ يرسمها له.

فكّر كثيراً، قبل أن يجد أنَّ الحلّ في تزويج هذا الفاتح الذي يجمعُ آلاف الأحلام في اليقظة ولا يحقّقُ أيا منها، واختار له امرأة تُرثُ ما يمنحه فرصة في حياة أفضل، واستغلّ علاقته الطّيبة بوالدها ليقنعه بتزويجها منه. كان العيبُ الوحيد والبسيط في فتاة بلّة التي ترثُ، أنّها مُقعدة، ولم يكن في وسعه أن يرفض ولا في وسع بلّة أن يجبره. ومرّت الأشهر بينهما، بين اقتراح وصمت يفضي إلى الرّفض.

في ذلك اليوم، قبل فاتح أن يتزوّج، ولكن من فتاة اختارها هو، وكاد بلة يقتنع بهذا الزّواج لولا أنه اكتشف في فتاة الواهم صبيانيّة وطيشا من خلال حكاياه، ناهيك عن احتقار وشعور بالتفوّق غير مبرّرين لدى مقيمة في الحيّ الجامعيّ تتظاهر وكأنّها أميرة في قصر،

ورغم ذلك واصل تشرّده في حبّ أو توهّم حبّ فريدة، إلى أن توقّفت هي عن لقائه، واعتقد هو أنّه توقّف عن حبّها.

زليخة أهمّ فتيات الأرض، لكنّها صدّته، وفريدة ألوان سريعة الانطفاء. اعترفَ أمام نفسه بأنّ بلّة كان محقًّا. قرّر أن يتجاوزَ كلّ المشاكل والأسئلة بالكتاب اللّعين الذي يستلقي قرب رأسه دون أن يتصفّحه، وعندما قرأه أوّل مرّة بدأت المشاكل بينه وبين فريدة. «لا بدّ وأنّه غيّر تفكيري»، هذا ما كان يردّد كلّما تعمّقت الهوّةُ بينه وبين حبيبته. في آخر مرّة وعندما اعترفَ لها بأنّه يشكُّ في أنّها تناسبه كانت تضحكُ، في الحقيقة كان اعترافه متأخّرا؛ فقد جاء بعد أن طلبت منه الابتعاد.

كانت واضحة، لا تريد حبّا، تريدُ أن تبدأ حياتها، وهي ترفض العيشَ عالة على أحد، تريدُ بيتا وفراشا دافئا، رجلا شبقا، كثيرا من المال لتواجه الحاجة التي تعمّقت فيها. لم يكن في القرابة أغنياء، القرابة منطقة لا تعترفُ بالغنى، النّاس هناك متقاربون، والفقراء في الغالب لا ينتبهون لفقرهم، فهم يشاركون البقية أكلهم وملبسهم وأفراحهم وأتراحهم. لماذا تُريد زليخة أن تكون أفضل حالا؟ كانت شقيقة حبيبة، وكانت حبيبة صديقة رحمة. رحمة بدأت أوّلا، أحبّت ثمّ سقطت من أعلى الحبّ إلى أسفل الضّياع، هي وجدت بايزيد لينتشلها، لكنّها لم تلج القرابة بعدها. والدها كان يتحاشى النّاس ونظراتهم، أما شقيقتها الصّغرى فلم تتزوّج رغم تفانيها في إظهار عفّتها. اعتقدت حبيبة أنّ ما حصل لرحمة قد يحصل معها، وما حصل لشقيقة رحمة الصُّغرى سيحصل مع زليخة، لهذا فقد فعلت المستحيل لتنقذ شقيقتها الصّغرى، تركتها طفلة مسرعة نحو النّضج كأغلب فتيات القرابة، ترافق منى شقيقة التالية إلى المدرسة، وتهزمُها

ببروز مفاتنها، فتصير الفتاتان مثيرتين سريعا، ولكنّ منى لا تحصل وهي مع زليخة على معجبين ولا رسائل، ولا تشهدُ ما تشهدُه شقيقتها التالية من حبّ يحيى، ثمّ إنّ والد منى جلول المرعوب رفضَ أن يرى ابنته مجدّدا مع شقيقة شهيدة العفّة حبيبة التي تملك نظرات جريئة وحركات أجرأ.

في الكتاب اللّعين لا يمكننا أن ننتحرَ، لأجل هذا فقد استمرَّ في الحياة. مرّة قرأ: «المستحيل هو الذي يعقّدُ الخُطى؛ لا يجب أن تؤمن بالمستحيل بل بخطاك» فمشى إلى غاية باب الزّوار عبر الطّريق السّريع، ولم يجد منها أيّ قبول. «هذا الكتاب سيجنّني» يقول، وهو يحمله ليقرأ منه مرّة أخرى، لم يكن قارئا نهما، بل لم تكن علاقته بالكتاب إلا في مساعدة ناصر في ترتيب مكتبته، وفي الذي صادفه خلال سنوات الدّراسة مضطرّاً. وخلال مروره على كتاتيب القرابة حمل المصحف الأصفر ذا الخطّ العثماني إلى أن تمزّقتْ صفحاته الأولى وتداخلت باقي الصّفحات، فقرّر أن يودعه المسجد، حيث تكفّل أحدهم به ورتّبه وجدّد له غلافه، والغالب أنّه يحيى؛ فقد كان مسؤولا عن المصاحف المزّقة يرتّبها ويعتني بها ويضع لها أغلفة.

* * *

تحدّث بلّة بشكل مختلف، ملامحه أقربُ إلى البكاء وشكله متهاوٍ وصوته متهدّج، لم يحتفظ بأيّ أثر لروح الفكاهة التي تسكنه، قال إنّه يشعر بدنوّ أجله وإنّه كبر كثيرا، وكان فاتح يرفض سماع هذا النوع من الكلام، فحاول أن يغيّر الموضوع، إلا أنّ الحكاية قد غاصت تماما في الجدّ ولا مجال للهزل. طلب منهُ أن يوافق على الزّواج من بنت صديقه المقعدة، التركيز في خطاه، وليس في الذي يتصوّره عن نفسه. كان

العجوز يتحدّث قلقا عليه في غيابه. قال وهو منصرف بعد محاضرته العاجلة: «لا تُلقِ بالا لهذا الكتاب، فلعلّ الذي كتبه أكثر تيها منك»، وأغلق باب الغرفة. أمّا قارئ الكتاب اللّعين فقد استمع إلى خطى بلّة وهو ينزل السّلالم، وعدّها ليعرف أنّه وصل إلى الطّابق الأرضيّ، سبع وخمسون درجة، وصار في الأسفل.

ستبقى تلك المحاضرة بمثابة المحو الأوّل للكتاب ومبادئه، ولكنها أيضا أقرب إلى خطبة الوداع، لم تمنح الأيام القارئَ فرصةً لمناقشة أفكار بلّة أو دحضها، ولا كي يُسمعا بعضيهما أشياء كثيرة ظلّت دفينة في قلبيهما رغم الألف ليلة وأزيد.

لم يعد لتأمُّل عاصفة زليخة، ولا للتمعّن في قدراته على التّحول إلى كائن ملامسٍ لأرنبة أذنه بلسانه، الحقيقة أنّها لم تقل له أبدا هذا، رهانُها كانً أن يقبّل عينه، ولكنّه لم ينتبه إلى الأمر طوال المدّة التي قرأ فيها حظّه على المرآة، ومطّ فيها لسانهُ دون أن ينبس ببنت شفة، ولا عاد إلى باب الزوّار، حيث كانت فريدة تلهو مع فتى الدّراجة النارية، وشعرُها يزداد طولا في كلّ رحلة.

* * *

اعتقد أنّه يكرَهُ العنب وشجر العنب ويحبّ الخوخ وشجر الخوخ، ألا يشبه الخوخ فتاة تتوهّج؟ لاحقا أصبحتْ شجرة العنب الأحبّ إلى قلبه، بل إنّه لم يعرف جدّة كتلك التي تفلّي شعر الحفيد عندما يعود من المدرسة أو قبيل نومه، ولم يكن يعلم ما الذي جعل حكاية غريبة تستوطنُ عقله الصّغير، لقد أصبح في الحادية عشر من عمره متأكّدا أنّ الشّجرة التي تبدو متمسّكة بأطرافِ البيت، وكأنّها تقول: «أنا صاحبة المكان»، هي جدّته، ألا يفترض أنَ تكون له جدة؟ كثيرا ما قبّلها

وغسلها وخبّأ لها بعض الحلوى وحكى لها سرّا، لقد كان يسمعُ بكاء أغصانها العارية في الخريف، ويكحّل عينه بعناقيد العنب المتبرّجة في الصّيف. كانت الشّجرة عالما خاصّا لا يضاهيه أيّ عالم آخر، ومع الوقت اقتحمت بتعرّجاتها، بزغبها، بمائها وأوراقها الكبيرة، كقلب جدّة، كلّ تفاصيل حياته الطّفولية. فأصبحت وحدةَ قياسه، وها هو يفتقدُها الآن في غرفته الشّريرة بكلّ التّدوينات التي اعتادها. لقد تحوّل الجدارُ الذي يعلو السّرير إلى جريدة بفعل الخطوط المتداخلة والدّقيقة، ولكنّ شجرة العنب كانت تأخذُ حيّزها في الجدار المقابل، نصفها مورقٌ ونديّ يستعرض فاكهته، والنّصف الآخر خريفيّ. كان يحزُّ في نفسه أنّ الرّسام لم يتمكّن من مواصلة العمل بعد أن طرده بأدب جمّ.

أحضر طالبا من بين مجموعة من طلبة الفنون الجميلة صادفهم في زيارة لأحد أصدقائهم في مستشفى مصطفى باشا. بدا الشّاب متحفّزاً لتقديم أيّ مساعدة له. كان مراد في الرّابعة والعشرين مثقّفا جدّا في الفنّ، وقد حصل فاتح على جرعة ثقة من الفتى الفنّان وهو يحكي له عن التفوّق والحلم بالنجاح. حكى له عن كلود مونيه، وكيف أطلق ورفاقه الانطباعية، استمع بكثير من الدّهشة إلى غربة مونيه وسخرية العالم منه في بدايته، وداخله اعتقدَ أنّه يعيش تجربة مشابهة لتجربة مونيه، وتطلّعَ إلى لحظته التي سيخلد فيها، ولكنّ درجة إحاطته بالفنّ لم تشفع له ليصبح صديقا، فبعد لقاءات متكرّرة طلب منه فاتح أن يرسم له شجرة عنب على الجدار، استغرق الأمرُ أسبوعا واحدا ليصلَ الموقف إلى الكارثة، كان مراد يتحجّج أولا بالجوّ الدّافئ في ديسمبر، فيقوم بتخفيف ملابسه، ثمّ بشعوره بالتّضايق، ثمّ بحاجة فنيّة. فاتح الذي خبر الشّارع وأنواع البشر دون أن يملك قدرة الحُكم

عليهم أقنعَ نفسه أنّه على خطأ، وأنّ الشابّ مبدع له شروطُهُ، ألا يكتبُ البعضُ عراة، ويرسم آخرون في حوض الاستحمام؟ لم تنجح مبرّراته عندما ارتمى عليه مراد يائسا كفتاة «الكابريس»[1].

أخرجَ فاتح الفنّان المثليّ برفق يليقُ بضعفه، وهو حزين على عدم استكمال مشروع جداريّة الجدّة، وكم كان محتاجا إلى امتداد في تلك القطيعة التي يعيشها. لقد أراد أن يسترجعَ بيت القرابة، أن يستعيدَ وضعهُ في منزل يضمُّ تسعة إخوة من بطن واحدة، وأمّ سمينة يسع حضنها التّسعة وأبناءهم. كان والده عجوزاً متهالكاً، وكان إخوته، باستثناء الثاني، يعيشون في البيت ذاته. هو اتّخذ له شجرة العنب صديقة أقرب، وجدّة في غياب الجدّة. قبل سنوات كتبَ نصّا غريباً، انتشر بين فتية القرابة، سمّاهُ البعض: «رسالة العنب»، واعتبر من خلاله أنّ العنب شجرٌ آدميٌّ، وأنّ شجرةَ العنب جدّتهُ.

انتهى حلم استكمال رسم شجرة العنب، ولا يوجد لوحات عنب جاهزة، ولا قدرة رسم، لهذا فقد عمّقت الشّجرة غير المكتملة عذاباته، وشعرَ أنّهُ شوّه ذاكرةَ العنب بذهنه أكثر ممّا أحياها.

* * *

كانت بيتزا فأرةً قد قاسمتهُ الغرفةَ في الآونة الأخيرة، وسبب تسميتها بيتزا أنّها التهمت على مرّتين جبن البيتزا التي أحضرها، قبل أن يخصّص لها نصيبًا كلّما اقتنى البيتزا. عندما اشتكى منها أوّل مرة وأراد أن يجتثها ضحك بلة كثيرا، وأكّد له أنّ وجود الفأر علامة جيدة، إنّه دليل على وجود الخير وإلا لما كان موجودا أصلا، والحقيقة أنّه لم يصدّق وجود فأر في الطّابق الثالث، وفي غرفة واحدة

---

(1) «الكابريس» من أشهر أنواع الحلوى في الجزائر.

دون البقيّة، والأكثر غرابة أنّها فأرة أنثى وليست ذكرا، كان هذا توقّعا أو افتراضا جاء من التّوق والحاجة إلى أنثى في قلبه، أو هكذا اعتقد بلّة.

أصبحت بيتزا صديقة وفيّة، فهي تحشرج في الغرفة وتُخشخشُ بشكل دائم، ولعلّه سمع صريرها حتّى أثناء نومه، بل إنّها في الآونة الأخيرة تحوّلت إلى كائن مستعدّ للكلام من خلال ملامحها، لهذا فقد ارتأى أن يحكي لها الكثير من التفاصيل، وبخصوص ملامحها الرّقيقة فقد كانت دليلهُ إلى أنوثتها الصّارخة. مرّة توقّف عن الأكل وسارع يتأمّل ملامحها، ألا تكون فأرا مثليّا امتلك ملامح الأنوثة؟ لكنّها طمأنته بحركة من رأسها الدّقيق فتنفّس مرتاحا. أحبّ الطفلة البيطرية بسبب بيتزا، وأسعده أن قطّها نونو مات؛ فالقطط عدوّة الفئران، والفأر ماكر ومحبوب، والقطّ خدوم وفيٌّ وغبيّ وضعيف ومكروه، على رأي «توم وجيري».

كانت فريدة تحبُّ البيتزا بشكل غريب، هذا الذي دفعهُ إلى التخصّص في علم البيتزا، في البداية قبل أن يكتشف أنها امرأة مهمومة ببطنها حدّ الجنون. ولم تكن صدمتهُ كبيرة عندما اكتشف أنها لا تحسنُ الطّبخ، وكلّ ما في الأمر أنّها امرأة أكول وفقط، لعلّ فتاة الكابريس أفضل منها في بعض الأمور، فهي لم تكن تريدُ من يطعمها، غالبا أرادت أن تطعمَ الآخرين حلوى «الكابريس» التي تضعها في حقيبتها الرثّة.

لم يعد بوسعه أن يدّخر دينارا وهو يتنقّل بها من مطعم إلى آخر ومن قاعة إلى أَخرى، ولخبرتها الكبيرة في الأذواق والأنواع فقد أكسبته قليلا من ثقافتها العالية، ودفعته تدريجيا إلى تذوّق أذواق البيتزا المختلفة وعشقها ثمّ إدمانها بشكلٍ يوميّ، ولكنّ الغريب أن

الفأرة تحوّلت إلى رمز للبيتزا بدلا عنها. تذكّر أنّه كان برفقة البعض يتنقّل من القرابة إلى حيّ قناني، شمال المدينة؛ بحثا عن بيتزا شهيّة وساخنة تخرج من فرن الجيجلي وعامله الطيّب بكر، لكنّ القطع المربّعة التي التهمها عنده لا تشبه الأذواق الكثيرة التي اكتشفها مع فريدة، وحافظ على قامته ونحافته كأنّه يمنح مرافقته فوائد ما يلتهم.

يقول الكتاب اللّعين: «إن الرّجال لا يفهمون النّساء إلا إذا أكثرن من البكاء بين أيديهم، امرأة قوية لا تعثرُ على حبيبها أبدا، وإنّ النساء لا يفهمن الرّجال إلا إذا كانوا أقوياء، الرّجل الضّعيف لا تفهمه امرأة أبدا»، يعتقد أنّ هذا تحقّق بينه وبين الفأرة أكثر ممّا تحقّق بينه وبين زليخة أو فريدة، ويتساءل إن كان هذا الكتاب الذي أرشدَهُ لعلاقة حبّ مع فأرة سيرحمهُ في القادم؟

قرّر أن يقلع عن تعاطي البيتزا، إلا أنّ شيئا ما جعله يقاومُ الإحباط ويأخذُ بيتزا ليلتهمها دون مبالاة، رفقة الصّديقة الغالية الفأرة، وكان يأكُلُ ويرمي لها قطع الجبن، فتخرج مسرعةً وتلتهمها، بينما تنظرُ إليه في كلّ مرّة وكأنّها تشكُرهُ. أصبحَ طعم البيتزا مقترنا بوجهي فريدة والفأرة، ومع الوقت تفوّقت الفأرة لتصبح رمزا عظيما من رموز البيتزا، وحتّى في مطاعم البيتزا يبدو له الناس مجموعة فئران، هذا الأمر جعله يشكّ في بشريّته، لعلّه فأرٌ دعيٌّ لبس جسدا بشريّا، لعلّ زليخة أيضا فأرة جميلة بيضاء ممتلئة، لكنّ قطّ الكآبة الأسود كان يهجم في كلّ مرّة على حلمه اللّذيذ كبيتزا فواكه البحر السّاخنة.

كي يلطّف من احتمال جنونه يعتبر أنّ الوحدة جعلته يعتقد أن ملامح بيتزا بشرية، وهي ذاتها ما دفعه إلى حبّ امرأة لا تختلفُ عن أيّ آلة مكرّسة للأكل وفقط، والوحدةُ برأيه هي التي ستحوّله إلى آلة، لهذا عليه أن يجدَ رفيقا للبقيّة، والوحدةُ القاسية هي ذاتها

ما دفع الفتاة الغريبة أن تمنحهُ الكابريس خلال أيّام متتالية ومعها ابتسامة وتحيّة، وبعد أسبوع كانت تطلبُ منهُ أن يرافقها إلى مبنى قرب المرقد، وَلجَا المبنى وصعدا الطّابق الأعلى، لا يعرفُ إلى أين تقودهُ، لكنّ حوارها في أثناء ارتقاء سلّم العمارة كان عاقلا ومنطقيّا، في الطّابق الأخير سحبت حبّة كابريس ووضعتها في جيبه، ابتسم وفتح عينيه عن آخرهما وعلّق حاجبيه دهشة حتّى وصلا السّطح، ولم تطُل دهشته طالما تمرّر يدها على وجهه وتقترب منه وتطبعُ قبلةً عسيرةً على عنقه، وجم في مكانه وتمنّى أن تزداد قامته طولا فيمنع عنها وجهه، وكأنّها سمعت أمنيته، جثت على ركبتيها وراحت تفتحُ حزام سرواله، وهنا غيّر حلمه وتمنّى أن يقصر حتّى ينزلَ أسفل ركبتها فتسحقه خطوتها القادمة، أمسكَ يدها وطلب منها أن تتوقّف، وكانت تقفُ مستاءة، لكنّها أصرّت أن يعانقها قبل أن يغادر، ومنحها بطنه في عناق غير منسجم بقي خلاله حاجبيه معلّقين.

قبل أن يبدأَ في التّفكيرِ والضّياعِ كان ينتبهُ إلى وجود بيتزا الحزين، كأنّها أصغتْ إلى أفكاره السّوداء بخصوصِ الوحدةِ، يخشى أن تَشعُر أنّهُ ينكرُها، فيرتدّ مسرعا ويلقمُها قطعة جبن أكبرَ وهو يعتذر منها، ولكنّه عندما وقف ليقترب منها نفرت منه واختفت، شعرَ أنّه جرحها عميقا. «ما الفرقُ بيني وبين زليخة وفريدة إن كنت أفعل ما فعلتا؟».

ما زالت آمال تقتربُ منه، كلّما التقتهُ باشرت عرض قوامها أكثر من أفكارها، وعندما سمعت بشأن الفأرة أسرعت إليه وقرّرت أنها ستنقذه منها، وشرعت تطرح أسئلة تتحرّى من خلالها ظروف ووقائع وصول الفأرة إلى المرقد، وبالضبط إلى غرفته، أرادها بكثير من الإصرار أن تبتعدَ عن الفأرة، وطلبَ أن تنتبهَ لباقي الغُرف وأن تتركَ غرفته، ولكنّها كانت تريدُ أن تخدمه بعينيها وبأشياء أخرى إن أراد، أمّا هو

فقد عشق وجود الفأرة الخفيف الظّريف مقارنة بضوضائها الدّائمة.

كانت آمال تشعر بتيهه، ولعلّها لم تجد ما يجدي نفعا لضياعه. شعرت أنّه ابتعد عن الجميع ليعثر على شخص خارج الدّنيا، وربّما كان عليها أن تنطقَ بما يشفي ويداوي ضياعه، وكانت تعرفُ بشأن رغبة بلة في تزويجه، وقد سكنتها غيرة كبيرة، فلم تنتبه إلا وهي تحكي له عن الفتاة المقعدة التي يخطّط العجوز لتكون زوجتهُ، وهي الفتاة التي تعجز عن فعل شيء سوى مشاهدة التلفزيون أو العبث على الأنترنيت، ولم يكن متحمّسا لسماع خبر زوجته المفترضة، فقد امتلكه الكتاب اللّعين وأفكاره، ووصل إلى حالة انسجام عظيم مع بيتزا.

غادر المرقد بعد أن ألقى بكلمتين إلى بلة مفادهما: «أنا لن أتزوّج، ليس من فتاتك»، ولم يرفع بلّة رأسه عن الجريدة. جال جولته المعتادة، وعاد في المساء إلى الفندق، فوجد راعيهُ يغطُّ في نوم عميق على أريكته. أيقظه وطلب منه أن يذهب ليرتاح وسينوب عنه، لكنّهُ رفض. صعد إلى غرفته في نشوة عظمى، دخل وقد اقتنى علبة بيتزا وشهيته مفتوحة عن آخرها. التقط قطعة الفأرة ووضعها في المكان المعتاد، لكنها لم تحضر، تغيّبت مرة أخرى، «يبدو أنها التقت شخصا آخر»، علّق على غيابها ممازحا نفسه قبل أن يردف: «لكنّها ليست فريدة لن تغيّر رفيقها أبدا، خاصّة وأن الفئران لا تستقلّ درّاجات ولا مركبات». التهم البيتزا وهو سعيد بالتطوّر الذي طرأ على حياته.

استسلم للنوم بعد سهرة أخيرة مع الكتاب اللّعين، رغم أنّ هاجسا راوده عن غياب الفأرة. منتصف النّهار أفاقَ على قرع باب غرفته، قفز يعتقد أنّه بلّة، وفتح ليجد آمال سعيدة: «صباح الخير يا وجه الخير». فرك عينيه ونظر إليها من علٍ: «صباح النّور آمال غير الخير وش صرا؟». قالت آمال إنّ بلّة ما زال نائما وإنّه متعبٌ، وقد طلبَ

منها أن تخبرهُ بأنّ الاستقبال مهمّتهُ اليوم، شعر بقليل من التضايق، لا يحبّ أن يبدأ نهاره جالسا، اعتادت أرجله الطّويلة قياس الشّوارع، لكنّه حرّك رأسه مستجيبا. همّ بنزول السّلالم عندما نادت عليه آمال: «فاتح كاين سوربريز ليك». التفتَ فوجدها تحمل شيئا يتدلّى من يديها، أمعنَ النّظر يتمنّى أنّه لا يرى جيّدا، فأرته العزيزة بيتزا ميتة ومعلّقة من ذيلها بيد هيكل عظميّ.

أراد أن يقتلها، أن يصرخ في وجهها، أن يلقي بنفسه من أعلى، أرادَ أن تكونَ هناك خدعة ما وتعود الفأرة إلى الحياة، ألا تتظاهر بعض الحشرات والحيوانات الضّعيفة بالموت لدرء الخطر؟ لم يحصل شيء من هذا، كانت تقفُ مبتسمةً وكأنّها أقدمتْ على أكبر انجازاتها، لم يرها في سعادة بهذا الحجم قبل ذلك، «أتفعلُ الغيرة هذا؟ أيحوّل الحبّ امرأة في الخمسين إلى قاتلة؟»، يتساءل ويستعيدُ صفحات الكتاب اللّعين تباعا، قرأه في ثوانٍ معدودة، ولم تتحرّك القاتلة من مكانها، يدُها كانت تعبث قليلا ببيتزا، ثمّ حرّكت رأسها أفقيّا متسائلةً إن راقهُ إنجازها، ولم يفعل شيئا سوى تحريك رأسه هو الآخر في اتجاه شاقوليّ عكس رأسها. ألقى خطوةً إلى الأمام، ووقفَ. جثا على ركبتيه وطلبَ منها أن تقترب، اقتربت ومنحته بيتزا وأمسكها هو بيده، «أخيرا، أخيرا أيّتها الحبيبة الوفيّة ها أنت بين يديّ، ستبقينَ في قلبي كأهمّ رفيقة وصديقة ممكنة، لن أنسى الأيّام التي قضّيناها معا، وداعا للبيتزا بعدك، وداعا للجبن وداعا للكتاب اللّعين، وداعا لحياتي السّابقة». كان يلقي خطابه وآمال لا تفهمُ من المشهد شيئا، ثمّ وقفَ وارتدّ إلى غرفته. دخل والتقط الكتاب اللّعين، وبحركة انفعالية مزّقه نصفين، وألقى به على أرضيّة الغرفة، ساعتها اكتشفَ أنّ أرضيّة الغرفة حمراء، لم يكن يعلم أنّه يقيم على أرض حمراء،

كلّ تلك اللّيالي التي قضّاها كان يعتقد أنّ البلاط أخضر. أحضرَ ولّاعة وأشعل الكتاب، التهبَ وسط الغرفة، وجلسَ إلى سريره يتأمّلُ تقلّب النّار حولَ نفسهَا، مثل كائنين يتصارعان، كانت القاتلة واقفة عند الباب ترقبُهُ مشدوهة. طلبَ منها أن تدخل وتغلق الباب ففعلت، وطلب أن تنزع عنها مئزرها ذاك وتجلس ففعلت. والحقيقة أنّ روحها هدأت وأنّها تاقت لشيء معه، وعندما جلست على السّرير شرح لها أنّ بيتزا هي كائن أهمّ من الإنسان الحاليّ، وأنّها لا تؤذي أحدا ولا تحقدُ أبدًا، بيتزا بالنسبة له كانت سببا جديدا من أجل البقاء سيتلو الكتاب اللّعين، وهو الآن في حيرة بعد أن ماتت واحترق الكتاب. أرادت أن تعانقه، لكنّها عجزت أن تتسلّق هذا الطّويل فاكتفت بذراعه، وقبّلت كتفه واعتذرت، وسريعا قبل اعتذارها، وطلب منها أن تهتمّ ببيتزا وأن تقوم بإجراء ما يلزم من مراسم.

نزل يحملُ ثقلا غير معتاد. استسلم للسلالم ودرجاتها السّبع والخمسين، وفي كلّ درج كان يتذكّر تفاصيل حياته الآسنة وأسبابها. وصلَ بعد جهدٍ إلى الأسفل، جلس حيث يريد له مولاه ومولى المرقد. أمضى النّصفَ الثاني من النهار حزينا، وأغلقَ باب المرقد وصعد إلى غرفته أكثر حزنا. سهر إلى غاية الفجر ثمّ استسلم لنوم عميق. حوالي منتصف النهار أفاق مفزوعا، تمنّى أن يكون بلّة قد أخذ مكانه وإلا تكون الكارثة، نزل مسرعا ليجد الشّرطة في الاستقبال، عرف من آمال التي كانت تقف مع شرطيّ ما حصلَ.

* * *

مات بلة فجر يوم ضيق ومخيف وطويل، وبقي عليه أن يعدّ العدّة لمغادرة الفضاء الذي لفّه وضمّه في غياب الجميع رغم حضورهم، لم يكن مرحّبا به في جنازة أقرب رجل إليه، التقطته الشّوارع والحافلات

دون أن يفكّر في العودة إلى غرفته، أصبحَ أكثر نحافة بسحنته الكئيبة وبحزنه المفرط، استسلم تماما للعدم، وكانت تلك الظّروف السّبب الأكبر في محو تعليمات الكتاب اللّعين الذي جمعت آمال رماده ودفنته مع بيتزا.

«هل ترك بلّة وصيّة لرفقة البقية؟» تساءل غير مرّة، لكنّه لم يعثر على جواب واضح. كلّ أصدقاء الرّاحل كانوا يحترمون فاتح ويعرفون مكانته لديه، لكنّه لم يوص برفيق بعينه. اعتلت فكرة العثور على رفيق كلّ الأفكار، امتطى تماما هذه الفكرةَ وشعرَ أنّه للمرّة الأولى عاجزٌ حتى عن الحلم برفيق.

تمنّى لو أنّه يعرف عنوان بيت بايزيد بالعاصمة، لقصدهُ في تيهه الجديد. كان قد التقى عيسى الجرديني قبل أشهر بميسوني لدى بائع خردوات. في البداية اعتقد أنّه توهّمه، لكنّه عاد يتفحّصه، وعرف أنّهُ هو. سارا معا إلى شارع طنجة والتهما لوبيا شهيّة عند ملك اللّوبيا، وتبادلا أخبار القرابة. عرف من عيسى الجرديني أنّ بايزيد مات قبل أشهرٍ، وأنّ التالية لم تعد هنا بعد أن قرّرت العودة إلى بيت جلول المرعوب. لسبب ما توقّف عيسى أمام تمثال الأمير عبد القادر، ثمّ راح يتنهّد، لعلّهُ تذكّر ساعتها الكمّ المكثّف من النّضال الذي اختصّ به الجزائريّون دون غيرهم. إنّها أرض دم ونار. كان الجرديني مجاهدا يرفض الحديث عن السّلاح والسجن والخوف الذي عرفهُ باكراً، لم يبلغ السادسة عشر عندما التحق بالثّورة، في البداية كان عرّابهُ والد الدّيلي، لكنّهُ اختفى، بدأ من تلقائه يحكي لفاتح عن الرّجل الذي اختفى، ولم يتفاجأ فاتح؛ لأنّ جدّ مينا كان شهيدا، وهو ما تعارف عليه الجميع دون أيّ حكاية أو بطولة، كانت صفاته فقد ما علا الحكاية، شهم، طيّبٌ، متواضعٌ، شجاعٌ، محبٌّ وكريم، تلك الصّفات أتعبت فاتح

في حضيضه، فسألهُ أين استشهد الرّجل؟

- ربّما في الشّرق.
- أليس لديه نهاية معروفة؟
- لا، هناك الكثير من الفراغات في التّاريخ، هو سكن إحدى الفراغات.
- أين دُفن؟
- لا يُعرفُ له قبر.
- ربّما يكون حيّا!
- أكيد فالشّهداء لا يموتون يا الباقي.
- مينا لا يعرف بشأنه.
- ولا يعرف الدّيلي، ولا كان والده الحاج عبد الله يعرفُ شيئاً، كانت حياتهُ في الثّورة أسرارا عديدة، كلّف بمهمّة ما، ولعلّهُ خُدع ووشى به رفاقه.
- وشوا به للفرنسيين؟
- لا بل للجزائريين.
- لا أفهم، ألم يكن الجزائريّون في ثورة ضدّ فرنسا؟
- بلى، وفي عمق ثورتهم كانوا يغيّرون وجه الثّورة في كلّ يوم كما شاؤوا.
- المهمّ أنّه شهيد ولم يمت وإن كان من قتله رفيقه.
- لا أحد يعرف كيف استشهد أو أين ولا متى، في السجّلات الرّسميّة هو شهيد في شهر مارس سنة 1957، وهذا يكفي لكي نتذكّره بكثير من الافتخار.

كادا يمضيان لقاءهما حزنا على بايزيد وشهيدهما والد الدّيلي،

لولا أنقذَ الموقف الحديث عن ألبوم غنائيّ صدرَ للعيد الحسّ، وتشعّبَ بهما الحديث، فعرفَ لأوّل مرّة أن جلُّول المرعوب تزوّجَ من سّعدية أمّ جويدة والزّهرة، بعد أن لحق بها إلى الجلفة الجديدة، وكان زواجا بالفاتحة دون وثائق، الأمر الذي جعلهُ يقعُ في مأزق كبير عندما اشتكى الجيران من جارتهم التي تستقبل وبناتها رجالا مشبوهين، كان هو الأجنبيّ الذي تعدّدت شبهتهُ. عرف أن بايزيد أنقذ المرعوب والسعدية وبنتيها من السّجن والعار عندما تدخّل بعلاقاته، وكان هذا الأمر سرّا لا يعرفهُ الكثيرون، أمّا السّعدية فقد قرّرت الطّلاق من زوجها الذي رفض ترسيم الزّواج، وغادرت إلى مكان مجهول رفقة ابنتيها. تضامن فاتح مع السّعدية وجويدة والزّهرة، وحقد على جلول المرعوب. ولكيلا يواصل ألمه عاد يناقشُ ألبوم العيد الحسّ، في هذا العصر بإمكان أيّ كان أن يُصدر ألبومه، أن يكتبَ كتابه، أن يملك صوتا. قال عيسى الجرديني إنّ العيد مجتهدٌ، ولكنّ خياره الغناء مجنون؛ فصوتهُ صراخ بمستويات مختلفة، وشعر فاتح أنّ الأمر يتعلّق بغيرة جيل الجرديني من جيل الحسّ، فالعيد لم يكن بكلّ تلك الرداءة، هناك معنى في فنّه. افترقا وذهب عيسى إلى مأواه في غياب مولاه، وبحث فاتح عن الألبوم، فلم يكن أحد يعرف هذا المغنّي المدعو العيد الحسّ. ثمّ عرّجَ على الطّبيبة النفسيّة ما دام يحبو قريبا منها، ونسي تماما أمر العيد الحسّ.

* * *

عندما فتحت الطّبيبة الباب عرف أنّه لن يُشفى مع هذه المرأة التي طَلَتْ وجهها بألوان فاقعة. رحّبت به وهي تتوقّعُ أنّها بصدد التّعامل مع مشروع مجنون. لطافةٌ مفرطة مع صرامة في الأوامر «مرحبا بك ميسيو تفضّل»، يهمّ بالجلوس على كرسيّ فتتدخّل مسرعة

كأنّها تحميه، «لا لا ميسيو خذ الكرسي الآخر»، «ما الفرق؟». لم يجد فرقا بين كرسيين من اللّون والنّوع والجودة ذاتها، أقلّ من المطلوب في عيادة أخصائيّة نفسانيّة.

كانت الطّبيبة تعضُّ على شفاهها وهي تحملُ قلمها، قبل أن تُعلن أنّ المعركة معها تكلّف ألفا وخمسمائة دينار افتتاحيّة، ثمّ مثلها عن كلّ حصّة، والحصّة تصل إلى ساعة ونصف، وفتحت يديها تنتظر موافقة فاتح الذي عبّر عن ذلك صراحة بهزّ رأسه وحاجبيه الكثّين وبابتسامة، ردّت هي بابتسامة أوسع وامتشقت قلمها الأحمر.

- اسمك؟

- فاتح عبد السّلام.

- سنُّك؟

- باحتساب الشّهر القادم أكون في الرابعة والثّلاثين

- مهنتك؟

- مسيّر فندق.

- هنا بالعاصمة؟

- أجل.

- لكنّ لهجتك تبدو من الشّرق؟

- لا أنا من الجلفة، بالضّبط من القرابة.

- خيار الناس الله يبارك.

- شكرا، وأنت من العاصمة؟

- نعم أبا عن جدّ.

لم يفهم لمَ أضافت أبا عن جدّ، «يعني الحصول على جنسيّة أجنبيّة يتطلّب إثبات سيرة حسنة واندماجاً في المجتمع لخمس سنوات

أو أكثر، والانتماء في الجزائر يحتاج إلى أب وجدّ، بئس الحظ لمن ولد من أب مجهول، سيبقى إلى الأبد بلا انتماء»، قال في داخله وهو يتأمّل سعادتها بانتمائها.

- نبدأ من البداية، احكِ لي ما الذي يتعبك؟

- أنا أريد أن أشعر بالرّاحة فعلا، لكن لا أعرف ما الذي يتعبني.

- هل تتعاطى دواءً، مخدرا، سجائر أو كحول؟

- لا، الذين يتعاطون الكحول مثل بلّة صاحب الفندق بخير، يسخرون من الجميع بقدر اشفاقهم عليهم، المدخّنون مثل مينا عضو المجلس البلدي بمدينة الجلفة وبشير الدّيلي ويحيى أفضل حالا، ينفخون تعبهم على شكل دخان، أصحاب المهدّئات مثل إدريس يتعافون، ويعودون بأقلّ رغبة في تفتيش خطاهم، أنا غير معنيّ بكلّ هذا.

- واصِل.

- ماذا أواصل؟

- أحك ما يبدو لك، ما يريحك أنت حرّ.

-أريد أن أسمعك أنت تحكي.

- عفوا؟

- أنا لا أعرف ما الذي يجب أن أقوله ربّما بالكلام نصل إلى موضوع أو همّ مشترك؟

- أنا في يومي الأوّل في هذه العيادة، سابقا كنت في باش جراح، لم أتمكّن من النجاح هناك، هنا في أفواج أول مايو أفضل، الطّبيبة التي سبقتني في هذه العيادة هاجرت مع زوجها إلى كندا، وخلفتها أنا، حتى أني لم أغير بعد اللّوح خارج العيادة.

- يعني أنت لست منى شعباني!
- لا أنا راضية عرفة، مُنى هاجرت مع زوجها وهو يعمل سائق تاكسي، عملتْ هنا سبع سنوات، وأنا عملت في باش جراح المدّة نفسها، وكان عدد زبائنها أضعاف زبائني، في الحقيقة الرّقاة والمشعوذون قضوا على العلم.
- تعرفين بخصوص سائق التاكسي، لا أعرف، لكن لا أحبّ هذا النّوع، هم نماذج للطّيش، في القرابة حيث نشأت أنا والكثير من النّاس المهمّين يوجد رجل محترم في النصف الثاني من عمره اسمه الحاج بن مشري، كان سائق تاكسي، لم تكن سمعتُهُ جيّدة، لهذا فلو كنت أعرف ما سيحصل مع صديقتك لتدخّلت لأمنعها من الزواج من سائق تاكسي.
- ألهذه الدّرجة تعتقد أنّهم سيّئون؟
- لا، أعتقد تاريخهم سيّء.
- يعني تنصحني بعدم قبول الارتباط بسائق تاكسي.
- احذّركِ.
- ليس هذا دائما، الكثير من الناس الذين نعتقدهم محترمين ومثقّفين هم تافهون، أفضّل رجلا عاديا وشهما على رجل متعلّم ومثقّف وقذر.
- طبعا فأنا من خبرتي أعرف أن رجلا مثل بشير الدّيلي أو ناصر لا يمكنهما أن يخونا أو يخدعا أحدا رغم أنّ تعليمهم توقّف دون الثّانويّ، وفي الواقع ووضعي لا يختلفُ كثيرا فقد فررتُ من الثانوية.
- لمَ لمْ تكمل دراستك؟
- ظروف البلاد، وأنا كنت أسيّر بعض التجارة والأعمال في وقت

مبكّر.

- جميل.

وقفت الطّبيبة راضية، واتّجهت إلى عصّارة قهوة حديثة، وشرعت تحضّر قهوة. سألتهُ إن كان يريدُ أن يأخذ شيئا غير القهوة، واتّفق معها على قهوة اسبريسو من يد نفسانيّة محدودة الجمال.

بعد دردشة طويلة كان الظّلام يزحفُ على العيادة وهي ترفض أن تقبض منه ثمن الجلسة الأولى. طلبت رقم هاتفه وهي تسلّمه بطاقة زيارة، وأكّد لها أنّه ضيّع هاتفهُ وسيعيد اقتناء آخر في الغد. والحقيقة أنّه لم يملك نقّالا قطّ عكس المسار الطّبيعيّ للنّاس، فقد ظلّ يسكنُ داخله الذي يسكن مرقدا وسط العاصمة، ولم يكن يتّصلُ به أحد سوى فريدة لبعض الوقت في هاتف الفندق، حيث يتهكّمُ بلّة وهو يسمع حواره معها ويضحك علنا. طلبت منه أن يتّصل في أيّ وقت، ولأيّ حاجة. اعتقدَ أنّ الطّبيبة هي آمال أصغر سنّا وأهمّ موقعا، تريدُ رجلا لبقيّة العمر، تريد أن تحصل على طفل قبل أن تقذف بها السنوات إلى سنّ اليأس القريب جدّا.

لم يعد يوما إلى تلك النفسانيّة، ولم يفكّر في الأمر أبدا. واصل في مرقد بلّة إلى أن أغلق في وجهه، وعندما عرف أنّ مصيرهُ الطّرد قرّر أن يجرّب حظّهُ معها. وقف أمام عيادتها وتأمّل اللافتة أمام الباب، قرأ: «الدكتورة/ بشرى بن سعيد، أخصائيّة نفسيّة». هذه المرّة طبيبة ثالثة برقم هاتف واضح. تردّد قبل أن يقرّر أن يقرع الجرس. فتحت فتاة بمئزر أبيض، جميلة ومفعمة بالحيويّة. سألها معتقدا أنّها الطّبيبة: «هل الدّكتورة راضية هنا؟»، وردّت عليه دون أن تزيل ابتسامتها السّاحرة: «راضية تزوّجت وغادرت العاصمة، هنا الدّكتورة بشرى بن سعيد». همّ بالمغادرة لكنّه سألها دون مقدّمات: «هل

تزوّجت سائق تاكسي؟»، وضحكت علناً وهي تقلّبُ رأسها، وأخبرتهُ أنّها تزوّجت شرطيًا. سألته إن كان يريد لقاء الطّبيبة، فشكرها وغادر. لم تغلق الباب قبل أن يخرج من المبنى. عرفَ أنّهُ فوّتَ على نفسِه فرصة الحصول على راعية نفسيّة لآلامه وغُرباته المتراكمة، وانخرَط في الخوف والشكّ. كان يخشى أنّهُ سينتهي راضياً بآمال أو بفتاة الكابريس، فيسرع الخطى كأنّه يهربُ من هذه الفكرة، لكن دون وجهة.

في ساحة موريتانيا مشى دون رشاد، لا يعرفُ أين يمضي يتذكّر بلّة وكأنّه فقد والده. شعرَ بالعدم فهو بلا زليخة ولا فريدة ولا بلة ولا بيتزا، لفّه الحزن تماما وكان يسمعُ صوتا ينادي باسمه ولا يصدّق فيواصل غرقهُ، يدٌ ما تهزّ كتفه بعنف مفاجئ، التفت واكتشف أنّ طمطم واقفٌ أمامه. كان أكبر قليلا ممّا تركهُ، أسمن وأوسع نظرات وحُضورا، لم يعرف إن كان يمكنهُ أن يصدّق ذلك. قبل أن يتحقّقَ من الوضع كان طمطم يكسّرُ ضلوعه في ضمّة طويلة صادقة، لا أحد عانقه بهذا الصّدق، لا أحد احتفى بالعثور عليه. ابتسمَ وفكّر في كلّ الذي مضى. جاء العاصمة بحثا عن طبيب نفسيّ، وعندما عثر عليه ضيّعهُ، وضيّعَ خلاصهُ.

كان فاتح يدخلُ القرابة بعد غيابه ماسكا بيد طمطم. طمطم أيضا محترف غياب، يختفي لأيّام أو أسابيع وربّما لأشهر ويعود كطائر العنقاء، بلباس جديد وعين تملؤها الأشواق. طمطم كان يحثّ الخطى نحو القرابة كأنّه سيراها لأوّل مرّة، أمّا فاتح فقد كان يائسا، شعرهُ لم يعد مجعّدا وقد اكتسب اتجاها يُمشّطُ نحوه، ووجهه ازداد وسامة. عاد بعد ألف يوم وأزيد من الغياب، كان وحيدا في غياب إدريس الذي يواصل إقامات متقطّعة بمصحّة فرانتس فانون. عبد

الحميد علّقَ وهو يرى مشهد فاتح الطّويل يسيرُ خلف طمطم الذي اكتسبَ سمنة بأنّه: «جيل ضيّعه نزق الرّئيس»، واكتفى فاتح بابتسامة وتلويحة سريعة لعبد الحميد، طالما يصرُّ طمطم أن يعيده إلى بيته، بيت الجدّة شجرة العنب في القرابة. يحيى كان يمضي إلى بيته، وبدا محنيّ الظّهر قليلا مهدودا من تعب يوم كدّ. في انعطاف الشّارع تحثُّ التالية الخطى، وتظهر سيّارة مينا الذيَ لم ينتبه لعودة فاتح، طالما هو مشغول بتحيّات كثيرة دون أن يتوقّفَ، متّجها صوب الشّرق. في تقاطع الجميع يقفُ بشير الدّيلي دون أن يُقرئهُ أحدٌ السّلام. بينما يطلّ سالم الميكانيكيّ من طرف زقّاق ما.

الطّبقة التّالية
اقتسام اللّعنة

1/خطوات مستعارة

ناب الفضّة

(1)

ما زال مينا يعتقدُ أنّ القرابةَ كانت قبل التاريخ، وستكونُ بعده. بالنّسبة لهُ لا يمكنُ أن يكونَ هذا الحيّ الذي يوجدُ فيه رجال ونساء ومعمّرون مجهولو الأعمار حديثا، وكلّما مرّ الحاج حمّه الكوردوني يزحفُ كتمساح يشيرُ إليه، ويصرخُ: «يا الجماعة ما تتمسخروش، أيمكن أن يكونَ حمّه الكوردوني حديثا؟». حمّه أقدمُ كائن في الحيّ، يسخر منه الشّباب ويدّعون أنّه خلاصة مجموعة من الكائنات المنقرضة، ولكنّ هذا المسخَ الحكيم لم يكن يُصغي إلى متعتهم. كان مسعود بلخضر يتدخّل في كلّ مرّة متحديا: «بلقاسم الحجّام أقدم منه، صحيح أنّ حمّة بملامح قديمة، لكنّه لا يملكُ دليل قدمه، الحجّام ختن أبي وجدّي وختنني وسيختنُ أبنائي بعد أن أفرج عنهم طبعا». ولم يفرج عن أبنائه طالما يلتقطهُ الموت شعلة حبّ وحياة، ويطلقُ الشّباب ضحكة جماعيّةً مُدويةً، بينما يتقاطعُ الحاج حمّة الكوردوني وبلقاسم الحجّام في أعلى الزّقاق، فلا يحيي أحدُهما الآخر، كأنّهما مذهبان متطرّفان، وربّما لأنّهما قديمان حدّ النكران.

ينزل يحيى صارما ووفيا لدقّته في المشي والمضيّ دون تورّط مع الشّباب. سيُعلّقُ أحدهم: «يحيى العقون سيريو»[1]، وسيردُّ آخر

---

(1) sérieux: سيريو بمعنى جاد.

متضامنا مع عبور يحيى: «لا داعي للفت انتباهه، قال لكم سي عيسى تجنّبوا دعواته»، دون اعتراض على التهكّم الذي يصيبُ يحيى، إذ سيختتم الحوار بتعليق مسعود: «سي عيسى أصابتهُ لعنة يحيى فانتشرت الكتاتيب»، وينفجرُ الشّبابُ ضحكا، لحظتها يعيرهُم يحيى قليلا من النّظر الحياديّ الذي لا يضمنُ معنى واضحا، يلوّحُ بيدٍ ويرسِلُ عبارة من عينيه توحي بأنّهُ يسمعُ كلّ شيء، ويختمُ هو هذا المشهدَ مطلقا العنانَ لخُطاه باتجاه الأروقة ثمّ إلى الشّارع المدرسي.

مينا ينسحب، ويتركُ البقية لا يتوقّفونَ عن التندّر متى غاب أحدهم. يزدادُ طولا في معطفه الطّويل، وهو يتوارى متّجها إلى مكتبة خضرون ليقتني بعض الجرائد. سيعلّقُ مسعود وهو يراهُ منصرفا: «هل هو ذاهب أم قادم؟» وينفجرُ الجميع ضحكا. يرفع يدهُ رغم أنّه لا يسمعهم، لكنه يعرف أنّ الوقت قد حان لتهكّمهم المفروض، فيرفعُ الجميع أياديهم في تحيّة جماعيّة.

ارتفع الآذان من المسجد العتيق ومسجد الضّاية ومسجد النّور في تناسق، كأنّ المؤذنين اتفقوا على الثانية ذاتها. في بيت ضيّق كأفكار أغلب السّكان عن الدّنيا، كانت فتيحة تحدّثُ التالية عبر الهاتف الثّابت عن قمر القرابة معتقدةً أنّه أقرب من أقمار المناطق الأخرى، وكانت التالية تحدّثها عن القمر الصّامت يحيى، مغتنمة غياب جلول المرعوب عن البيت، لا بدّ وأنّه متزوّج من امرأة جديدة تعلّقُ مجيبةً فتيحة التي سألتها أين اختفى والدها.

الأمر الغريب الذي لا يستطيعُ أن يقوم به شخصٌ آخر غير مينا هو حساب المقاهي الموجودة بالمدينة، بالإضافة إلى عدد كبير من المعالم، انّه ديوان إحصاء لمكوّنات المدينة، يبالغُ أحيانا في شؤونٍ يخدمه أن يضاعفها، ويقلّصُ أحيانا ما يرى أنّه يفسدُ قناعتهُ ورؤاه نحو المدينة،

هو واحد من الكثيرين الذين ارتبطوا بهذه المدينة، ولعلّ الجميع يعرفُ أنّ سكان الجلفة لا يغادرونها إلا فيما نزر، بل إنّ القلّةَ الذين هاجرُوا أصبحوا مشهورين بسبب تركهم للمدينة وليس لسبب آخر، من هنا يبدأ الوطنُ عند هؤلاء، الوطنُ يعني أن تكونَ جلفاويّا وبعدها فكّر أنّك جزائري، وعند مينا فإنّ القرابة هو الحيّ الذي تأسّست على إثره المدينة، منذ السّور إلى غاية آية ما بعد السّور، سقط سور المدينة ولم يعد هناك إلا بقايا قليلة لا يعرفُ بشأنها الأغلبية، لكنّه يردّد دائما: «أصلاء المدينة هم من سكن داخل السُّور»، ومن سكن خارجه؟ «هم وافدون رغم العقود والأجيال المتعاقبة»، ويعقّبُ: «حتى وان كان السّور اقترافا استعماريا؟ ألم تكن المدينةُ فكرة استعمارية؟». يتساءل في سريّة ويجيب علنا: «السّور حالة مشتركة بين أغلب مدن العالم، كلّها تأسست بسور وأبواب»، وأينَ تُراها الأبواب اليوم، أبوابُ مدينتك؟ يجيبُ مينا سعيدا وهو يلوّح بيديه ويعدّ بأصابعه «سجّل عندك: باب الدزاير وكان هناك نجّار يربّي قردا ذكيا لا يتوقّف عن التنقل داخل محلّه، كان قردا أذكى من ضبّاط فرنسا في الجيش الجزائري، باب الأغواط وكثيرا ما لجأ أطفال القرابة إلى مومن ليلهوا في قاعة اللّعب الأولى في المدينة، مومن كان يملك كلابا جميلة من نوع الرّاعي الألماني أكثر وسامة من رعاة الخراب في الجزائر، باب الشّارف حيث يمكنك أن تشرب عصيرَ عبد الجبار ذي الخلطة السريّة ألذَّ من المشروبات الرّفيعة في أروقة الخيانة، وباب بوسعادة حيث يمكن الانطلاق إلى ميدان سباق الخيل أو حديقة الحريّة»، أغلق أربعة أصابع وبقي ابهامه يرقصُ مبتهجا كأنّ له وجه، «لكنّ القرابة كانت خارج السّور» يقولُ صوتٌ داخله فيغمّهُ بابتسامة للعالم الخارجيّ.

مينا تحوّل إلى خبير وعارف ومؤرّخ رغم أنّه يخلطُ أحيانا، ويفسّر

الأمورَ وفق استنتاجاته، بل يصوغُ حكايات لتبرير حوادث، ذلك أكسبَهُ شرعية، وتحوّل من فتى طائش يسخر الكبار من جرأته إلى شخص يستحقُّ الاحتفاء والاحترام، بل وإلى قائد رأي عندما يتعلّق الأمر بمدينته.

كان معطف مينا ساحرا، لقد حافظ على سواده وأناقته لسنوات، ولم يغيّرهُ، يظنُّ بعضهم أنّه غيّرهُ مراراً دونَ أن ينتبه أحد للأمر، وعلاوة على الجيوب العديدة في المعطف، هو مراحل أيضا، فيمكن أن يرتديهُ في الشتاء، كما في الرّبيع، لم يتخلّ عن المعطف إلا في الصّيف، ولسبب ما احتفظ مينا بألبوم صور لمجموعة من النّاس الذين يعتبرهم معالم للمدينة والحيّ.

كان ذلك الألبومُ مدخلا لحكاياته عن المدينة، ورغمَ أنّهُ فكّر كثيرا في إنشاء متحف ثان، كالذي أنشأه الرّاحلان الحاج دلولة والأب دو فيلاري، يكون أوسع وأكثر شعبية، يحتفي بالحاضر والماضي القريب وليس بالأحجار والتاريخ القديم، إلا أنّ وضعه وقلة حيلته منعاه من ذلك. اكتشف الجلفة أكثر من مرّة؛ لهذا فإنّ حكاياته عنها أصبحت متجدّدة لا تتشابه، وهنا امتلك عقول الآخرين فلا شيء مكرّر عنده، بل إنّ ذاكرته تمنحهُ التفوّق، سيغير الألبوم بهاتف ذكيّ بعد سنوات قليلة، لكنّه أصرّ مطوّلا على المعطف، وإلى جانب معطفه الأسود ما يزال هناك بريقٌ بريءٌ في ابتسامته تُرسلهُ فضّة نابه الشّهير، ذلك النّابُ حوّله إلى واجهة أخبار الحيّ المنتصف الثاني من الثمانينيات. وكانت أمُّه العارفة تسعى لتجعلَ منه الرّجل الأنجح بعد غياب والده، أيخيّبُ الله العارفة؟ هذا الأمر طمأنهُ سرّا في أقسى لحظات الإحباط التي عرفها.

(2)

أخفى ناب الفضة ابتسامتهُ، وأجهدَ عضلات وجهِه في عبوسه ذاك. يُقال إنّ سبعين عضلة تشترك لتوفير العبوس، بينما لا تحتاج الابتسامة إلاّ أربع عشرة عضلة. بدا بائسا بسبب إضمار الابتسامة والتّظاهر بالجديّة بشكل مفرط.

لمَ عليه أن يرزح تحت نظرات الآخرين ويتعذّب من الاستهجان واللّوم والضّحك العلني سخرية منه؟ لماذا لا يقتلع هذا الناب المشؤوم الذي حرمه أن يكون طبيعيا وينتهي الأمر؟

هو فقط ناب من الفضّة، غلافٌ للنّاب الحقيقيّ، تماما مثل السّاعة التي تطوّق المعصم، مثل القبعة أو القفازات. هو فقط ناب فضيّ، متأخّر قليلا عن زمنه، ربّما! أقلّ شأنا من ناب الذّهب، لكن لكلّ تقديره للمعادن.

سلسلة من حديد،

عشرة أقراط تصطفّ في أذن فتاة سمراء تلوك اللّبان،

قرط في أنف امرأة جزيلة الشّحم عريضة الابتسامة،

أظافر ملوّنة بالأسود،

لحية مطروزةُ الحلاقةِ كمتاهةٍ على وجه شابّ عشريني،

سائق تاكسي يحملُ حروف اسمِ حبيبته على أصابعه،

خاتم، اثنان، ثلاثة، أحدهم يضع أربعة،

نظّاراتٍ مختلفة الأحجام والألوان، تلتهم الوجه إلا قليلا، أو تمرّ كخطٍّ بين العينين،

عشرة آلاف قصّة شعر،

بقايا تبغ «الشمّة» على الأسنان،

أسفل العينين أزرق ورماديّ وأسود،
جوارب ملوّنة،
سروال ممزّق،
عورات مُعلنة وجمال مكتوم،

كلّ هذه المظاهر قبلها النّاس إلا ناب مينا، لكن لماذا وضع ناب فضّة في مدخل الفتوّة ذاك؟

هو سؤالٌ لا يملكُ جوابهُ. عندما تعرّف على خير الدّين التاجر المتنقّل الذي أراده إلى جانبه، اعتقدهُ الرّجل الأهمّ في العالم، بدا لهُ عارفا بكلّ خبايا الدّنيا، أقدرَ من أيّ شخص آخر، وزاد تعلّقه به وهو يرى منه معاملة جديدة وفريدة، أمامهُ هو ندٌّ ومستشارٌ في بعض الأحيان، ومستأمن على المال، منحهُ كلّ الصّفات والمواهب والألقاب في جلستين أو ثلاث. كان ناب خير الدين الذّهبي مثيرا بالنّسبة له، فكلّما ابتسم زاد لمعانا ومنحه نجوميّة أكثر، أراد أن يملك واحدا، واعترف لصديقه العملاق برغبته، ولكن الرّجل رفض أن تلبس أسنان المراهق ذهبا، ليس في هذه السن المبكرة.

«ولكنني أجلس معك في المقهى وندخّن معا، نتناقش كلّ الأمور، أنا رجل، أنت بفمك قلت لي هذا»، هكذا كان ردّ فعله إزاءَ رفض خير الدين، غير أنّه سرعان ما لانَ عندما رمقهُ بنظرة استهجان، وتأسّف خشية أن يفقد هذا الصّديق الذّهبي. في صباح اليوم الثالث من صداقتهما ذهبا معا لتغليف نابين بالفضّة، واحد يواجهُ نابا ذهبيا في فم التاجر المتجوّل، والآخر يسكنُ فم مينا في سن مبكّرة.

في البيت لم يكن يعلمُ بأنّه لن يرى النّاب الذّهبي مرّة أخرى، ولفّ شفتيه على أسنانه ولم يشارك جدّتهُ الأكل، وتظاهر بأنّه منشغلٌ بالدّراسة. كبرت الكارثة أمامه لدرجة لم يعد يعرف كيف سيتصرف،

لقد أصبح كبيرا، كبيرا جدّا، والعارفة لن تصدّق الخبر. لقد اتخذ له نابا من الفضّة مثله مثل حمّة الكوردوني والحاج بن مشري صاحب التاكسي، ولن يقبل أحدٌ بهذا الناب إلا خير الدين، وفي المستقبل القريب سيكون من أصحاب الأنياب الذهبية.

ظلّ منزويا لأيّام قبل أن تكتشف الخونيّة زراعة خير الدين، انتفضت قليلا، لكنّ جدّتهُ لأمّه التي رعتهُ كأمّ حقيقيّة، لطمت وجهها وانفجرت بالبكاء. بقيت تحتَ الصّدمة في المطبخ لساعتين قبل أن تعود إليه وتطلب منه أن يفتح فمه لترى، تردّد في ذلك، وعندما كشف عن بريق نابه الأيسر عادت إلى الصّدمة بحدّة أكثر: «يا الجايح يا المهبول... العجايز وماهمش يديرو نيبان الفضة، هذي عين ولا دعوة ولا وش اللي خذاك...». شعر داخلهُ أنّه أتى فعلا قبيحا، لكنّه لم يُرد تصديق إملاءات الدّاخل، أراد أن ينتظرَ الغدَ ليرى إن كان بوسعِ خير الدّين أن يتدبّر الأمر.

تضاعف شعورهُ بالإحباط عندما اكتشفَ أنّ صديقهُ الجديد قد غادر، تأكّدَ أنّ لدى خير الدّين الحلّ لمعضلته، أراد في لحظة أن يطلب منه تأجيل حكاية الفضة إلى وقت لاحق. سأل يحيى إن كان هناك ناب برونزيّ، ألا يحصل العدّاءون على الذّهب والفضّة ثمّ البرونز، ربّما سترضى والدته بالبرونز الذي يلائمُ سنّه، ويؤجّلُ الفضّة إلى وقت لاحق!

اختفى خير الدين ولم يشكّ مينا يوما بأنّ الرّجل قد تخلّى عنه، ظلّ يرسمُ له كلّ النهايات التي منعته عن عهد الصّداقة إلا الخيانة أو النسيان، وكان يقصُّ على فتيان القرابة الكثير من مغامرات صاحب نابي الذّهب والفضة، ما يكفي لأكثر من ليلة، بعضهم لم يصدق أنّ هذا حصل في يومين اثنين، لم يصدّق أن الرّجل حكى لصديقه كلّ

هذه المغامرات والحكايات، وأصبحَ مؤلّف قصص أكثر من راوي وقائع أو ناقل أخبار، حكواتيّ في الحيّ، في الوقت الذي صمت دحمان التريسيتي ولم يعد يحكي لأحد. ولكن، أ في لقائين طويلين متتاليين منحهُ فيهما عبء النّاب والتقطً كلّ تلك الأخبار؟ أضاف على عادته الكثير من البهارات والتفاصيل، اعتقد أن خير الدّين يلمّح وعليه التّفسير والتفصيل، تماما مثل منظومة وشارح. لم يعد التاجر إلى السّوق الأسبوعية أبدا.

ستمرّ باقي الأيّام صعبة على ذي الناب الفضيّ، رفضَ الذّهاب إلى الطّبيب لاقتلاع الناب أو غلافه، ورغم أنّهُ اعتقد أنّ تخلّيه عن ذكرى خير الدين خيانة إلا أنّه أراد فعلا التخلّص منه، لولا شعورهُ بأنّ فعلا كهذا يعني أنّه انهزمَ.

في المدرسة تمكّن من مداراة نابه لأكثر من أسبوع، ثمّ تحوّل فعله الأغرب من الخيال إلى تسلية للجميع، وتذمّر منه المراقبون والإدارة والأساتذة وحتى الحارس العجوز، جميعهم أصبح ينظر إليه باستهجان.

ألهذه الدرجة كان فعل مينا قبيحا؟ ربما.

يحيى هو الوحيد الذي حافظ على النّظرة نفسها لمينا، ورغم أنّه أظهر استياءهُ بحركة من شفتيه ورأسه معا، لم يُعر الأمر أكثر من نصف دقيقة ليعود إلى سابق عهده. كان يحيى ومينا جالسين بملعب «الحضر» حيث اعتادا الجلوسَ أقصاه تحت شجراته دون كلام، لا يُجدي كلام مينا وأفكارهُ الملتهبة، ولا صمت يحيى ورؤاه الغامضة، هناك اقتراب بينهما. الجميع في الحيّ يعتقدُ أنّ مينا نصف درويش ونصف عبقريّ، ويحيى عبقريّ بلا لسان، يعني أن أحدهما يناسب الآخر في عوزهما المشترك.

في تلك الفترة ارتبط مينا بيحيى، ولكثرة صمته اكتشفَ جكم أزقّة القرابة المتداخلة.

(3)

«ما يقرأُ القلبُ تكتبُ العين يا مينا، أيُّها الطّفل العزيز الذي لم يأخذ الكثير مني ولا من الخونية». هذا ما يردّدهُ الدّيلي في سرّه كلّما عبر وجه ابنه مسرعا وعقد حبل أفكاره. ما يقرأ القلب هو روحهُ الطّيبة، ما يقرأ الحقد هو فشل خطاه. لقد اقتسم معهُ الكثير من الأشياء، قليل من قامته، قليل من تيهه، قليل من اندفاعه، والكثير من توهّمه. كيف وصل إلى ما وصل إليه؟ ألأنّ بشير كان غائبا غيّبهُ الآخرون؟ وماذا عن الرّفاق؟ ألم يكلّف أحد نفسهُ عناء النّظر إليهِ ورعايته بكلمة عابرة؟

مينا حالتان، شخصيّتان، وحياتان في آن. الرّجل الذي وصل إلى عضويّة المجلس البلدي، هو ذاته المهرّج الذي زار المدارس وأضحك الأطفال ووزّعَ البهجة. في أوّل عرض له أبكى مينا الأطفال من حيث لم يدر، كان يقدّم عرضا مضحكا عندما التبس عليه الأمر، وفجأة وجد نفسه ينحرف إلى دراما مكثّفة، جعلت الأطفال ينتقلون من الضّحك إلى البكاء، بعدها تردّد كثيرا في العودة إلى العمل، اعتقد أنّه ارتكب خطيئة، والحقيقة أنّ مدير تلك الابتدائية راقه الأمر، بل اعتبر بكاء الأطفال نوعاً من العلاج أو التطهير الذي يجبُ أن يتوفّر لهم بين الحين والآخر، وقد ألحّ كثيرا على مينا أن يعودَ ليعرضَ، لكنّه تردّد وواصلَ في مداس أخرى، دون خوف من مهرجان الموت الذي دشّن فعالياته بحماس منقطع النظير.

لم يدرِ أنّ ابتسامتهُ بنابه الفضّيّ وشفاهه الحمراء وأنفه القانيّ،

شكّلت اختلافا كبيرا في تلقّي الأطفال الذين اعتادوا على مهرّجينَ طيّبين، مضحكين، حركاتهم تحترمُ الطّفل وقدراته. كان صادما يقومُ بمسرحه الذي يشبهه، يؤدّي عروضه التي لا حكاية واضحة لها، ويلقي خطابهُ بلغة غامضة، كلّ ذلك بثوب المهرّج ووجه المهرّج وقلب الوحيد. لا أحدَ قال إنّه لا يقومُ بالتهريج؛ وإنما بإنتاج محنة ولعنة وعرضها، لا أحد كان يفهمُ لم تعلّق الأطفال بالعرض؟!

مشى مدارس الجلفة في الوقت الذي كان فيه النّاس يمشون إلى الهاوية. كان الدّم ينسكبُ على الرّؤى، ومينا يلبسُ الأحمر ويقول أشياء عن الحياة. كان الموتُ يتّسعُ والجميعُ قوت خوف، بينما لم يملك هو سببا للخوف، أ مِنْ مسعود بلخضر الذي لعب معه؟ أم من قديرو ـ الذي سيغدو قاتل مسعود ـ يخشى؟ كلاهُما رفيق طفولة، لكنّ الخيارات اختلفت، كلّ واحد اتّجه صوبَ أحمره. كلّ واحد اختار مذهبه، لم يكن معهُ إلا فاتح الباقي، قاده كتابع، تماما مثل خادم وفيّ، يحملُ الحقيبة ويتفانى في تنفيذ طلباته، وفي لحظة ما لم يعد يحبُّ من العالم إلا فاتح الباقي الطّفل الذي يفوقهُ طولا.

لم يعرف سكّان القرابة عن مهنة مينا الجديدة، كان كرجل مختف، يحملُ نفسه ولباسهُ ويسلكُ دربا كلّ يوم برفقة معاونه، عبد الحميد هو الذي دفعه إلى هذا. شهدَ العرض الأوّل وتبنّى باقي العروض، كان لهُ ما يكفي من العلاقات مع المدرّسين والمفتشين ورجال التعليم، استغلّ شبكته ليعمّمهُ، وفعلا كان مينا مشغولا طوال سنتين بتقديم عروضه عبر كلّ مكان، ربّما لفقدانه والديه معا، ربّما كان يهربُ من وجهه، من المرآة، من أعين الآخرين، من الدّيلي الذي لم يلتقه خلال سنتين إلا ثلاث مرّات صدفتين واقتحام. كان مينا عميقا كأمّه وحائرا كأبيه.

عندما وضعَ مينا ثوب المهرّج كان هناك مهرّجون كثر في السياسة، ظهر أناس يتحدّثون عن كلّ شيء ولا يبلغون شيئا. «أهو انسحابُنا ما أوجدهم؟»، يتساءلُ بشير في لقاءاته المتباعدة مع ناصر، وينخرطُ في الشّأن السياسيّ ناسيا أنّه انسحبَ أيضا من حياة ابنه. في النهاية، التهريج هو تعويض عن فراغ ما، عن صرامة الأب. كان يتأمّل الماضي الذي بدا أهمّ من الحاضر، تذكّر أنّ البلاد قبل سنوات أشرفت على ثورة، كانت الدّولة الوطنية تملكُ ما يشبه المشروع، الآن في غياب أيّ مشروع لا أحد يريد أن يثور، ويجيبهُ ناصر متعباً: «الخرابُ يا الدّيلي لا شيء غير الخراب»، بينما يتدخّلُ عبد الحميد ليثني على مينا الذي يتحدّى الموت بصناعة الفرح، ويعتقدُ أنّ نموذج مينا هو الذي سينقذ الوطن.

«أخذوا منا الوطن، قلّصوا مساحته في دواخلنا المهزوزة، ثمّ تركونا نناقش إشكالية الزّمن، ترى كيف أمكننا أن نعيش كلّ تلك السنوات منشغلين ببعض دون أن نصل إلى قمّة الحبّ ولا إلى الهاوية؟ نحن معلّقون منذ أكثر من ستين سنة، بعضنا يذكر الهاوية لأنّه يعتقد أنه جاء منها، بعضنا يتطلّع للحبّ والحياة ويعرفُ أنّ الهاوية أقرب إليه، ها نحن نمضي إلى الخوف، ويد ما تعلّقنا؟» يغلقُ بشير الدّيلي حواراته القليلة مع رفاقه في غياب زين العابدين الدّائم، ثمّ ينفُرُ من القرابة إلى مأواه بشي غيفارا.

مينا الآن نجم من بين عدّة نجوم. في المدينة لا أحد يمنحُ الشّرعية إلا الإصرار، يملك أمرا لا يملكه البقيّة، لعلّ الخونية زرعت فيه هذا الإصرار؛ لهذا يتجاوز الجميع في مسألة تمثيل المدينة، كان يهرّج نصف وقته ويحبّ المدينة في النصف الباقي، ثمّ توقّف عن التهريج وألزم نفسه حبّها فقط، ثمّ هاهو يمضي ثلاث سنوات عضوا

في المجلس البلدي. ما الذي استطاعهُ ضمن المجموعة التي تتسابق للحصول على ما تريد؟ لا شيء. كان يجتمعُ برئيس البلدية غير مرّة، ويقفُ على نيّته في تقديم شيء، ويسمع منه حكمة: «أنا أقبض على النار، يوما ما سأضطر لأفلت هذه الجمرة»، ويخرج من عنده، مدركا أنّ التغيير ليس مسألة مجلس محليّ مغلوب على أمره.

الأب والابن

(1)

الوقت حظر التجوّل، لا يخرجُ ولا يدخلُ إلا مجنون أو سكران، وجرسُ الباب يفضحُ وحدة الدّيلي، يتحوّلُ في عالم الخوف ذاك إلى إنذار ما، ينظرُ من العين العمياء منذ سنوات، فيجدُ مينا مبلّلا كأنّه يخرج من بئر، يَفتحُ الباب ويلتقطه كقشّة، كان خفيفا جدّا ومنهارا. دخل إلى الصّالون وبقي واقفا، أرادهُ أن يجلس فلم يستجبْ لهُ، بدا ساهما وكأنّه يفقدُ والده والعارفة لتوّه، دفعه نحو الأريكة فظلّ واقفا وهو يدور برأسه يتحاشاهُ، أجلسهُ عنوةً، فانهار على الأريكة حتى سُمِعَ أزيزها، طلبَ منه أن يأكل فرفضَ، أن يغيّر لباسه المبلّل فرفضَ، أن يأخذ حمّاما فصمتَ. جهّزَ له الحمّام، سخّنَ الماء ووضع له أكثر من إناء ليأخذَ حمّاما حقيقيّا، منحهُ ثوب الحمام خاصّتهُ، تركهُ ينسى نفسه في الحمّام أكثر من ساعتين. عندما خرج بدا أقلّ بؤسا وأكثر نورا، ترك خلفهُ جسداً مشدوها من البللِ على الأريكة. جلسَ الأب والابن يشهدان مع بعض دخول السّنة الجديدة. سأل الابن: «أيّ عام ولجنا؟» فردّ بعد تردّد: «ستة وتسعون، ربّما سبعة وتسعون»، ثمّ ابتسمَ وخاف أن يكونا مخطئين معا. تابعا سهرة فنيّة، غناء كثيرٌ وكأنّها الدّولة الأكثر أمنا، لم يرد أن يحكي شيئا. قال الدّيلي: «اخلد إلى النوم إن شئت»، ولأنّه لا يخبر عاداته فقد استغرقَ وقتا طويلا يشرحُ له أهمّ ما يميّزهُ، كأنّهُ يُريدهُ أن يعرفَ والدهُ أكثر، ولم يبد مينا تذمّرا

متردّدا في أخذ القهوة، وهو في وضع غائم معه وغائب عنه، يُفتّش عن خيارات تتناسب والموقف، عندما عادَ مدّ يدهُ إلى الحليب يسكُبُ له فأشار مينا بيده يرفضُهُ، اختار القهوة، وكان رجلا، لا يمكنهُ الآن أن يُلقي عليه درسا بخصوص أفضليّة الحليب عن القهوة. تركهُ يحتسي قهوتهُ صامتا وبدا أنّه يبحث عن شيء ما، كان الدّيلي يُوقدُ سيجارة بانتشاء، وهو معلّق يقرأُ ما ينفثُ من فمه لا ما يقول. فاجأ ابنهُ بعرض سيجارة، كرّرَ الأمر وشرحَ له أنّ الاحترام والتقدير لا يتعلّقُ بدخان يدخل إلى الفم أو يخرج منه، أظهر مينا الكثير من اللّين، لكنّهُ لم يدخّن السّيجارة التي استلمها من والدهِ ولم يُشعلها. لاحقا سيُدخّنان معا ويتبادلان السّجائر مرارا في عديد المقاهي.

وقف فجأة وألقى بخطى سريعة نحو الباب، لكنّه ارتدّ قبل أن يلحق بهِ. مسحَ على شعره، دار حول نفسهِ، رفعَ يديهِ وأنزلهما، وتنهّد من عمقٍ سحيق. نطق اسمهُ: «يا الدّيلي...» وصمتَ، واستدار يضعُ يدهُ على قُفلِ البابِ، ثمّ التفت إليه: «أشعرُ بالخوفِ والارتباك والوحدة، لا أعرفُ ما الذي يجب أن أفعله». شعرَ بالصّدمة وهو يسمعُهُ يتحدّث وكأنّه طفل يستنجد في الظّلام. مسحَ على رأسه، وما كادت يدهُ تصل قفاه حتّى انطلقت دمعة من عينه، كان يائسا ومثقلا، وصمدَ الدّيلي وشدّ قامتهُ المتهرئة لينقذَ ابنهُ، أخذهُ في حضنهِ الخرب، ودسّ رأسه في صدرهِ يشهقُ ولا يريدُ أن يراه، كلّما طلبَ منهُ أن يرفع رأسه ازداد شهيقه، طوّقهُ بكثير من الحيرة بينما كانت يدهُ اليسرى تتسلّقُ لتعبثَ بأرنبة أذنهِ، هناك حيثُ ثقبُ العيّاشة قد نمت فيه حبّةٌ ما، كان عليهِ انتظار هدوئه تماما ثمّ الإصغاء إليه. عندما ارتاح مينا، حكى بكثير من التحرّرِ عن شكّه في وجودهِ، عن التيه الذي يسكنه، كان يواصل أحيانا ببعضِ الألمِ ويبكي قليلا ثمّ يتوقّف.

(2)

«وحيدي كان مينا وكنتُ وحيد أمّه فمن يكون وحيدهُ؟»، يعتقد بشير هذا في سرّه ولا يبوح به. كان حضور مينا قد تكثّفَ في منتصف التسعينيات، أراد الأبُ أن يكون رفيقا له، أن يُنقذهُ من لعنة ما، خافَ عليه كثيرا، ولم يكن معهُ سحرٌ سوى التمنّي فهوَ معدمٌ. جاءهُ مرّة إلى مكتبه بالبلديّة يطلبُ منهُ أن يخطبَ لهُ الزّهرة بنت السعديّة، كانت من سنّه تقريبا، جميلة قليلا، لكنّها لا تنطق بكلمة، تُناسبُ يحيى أكثر. سألهُ إن كان أحبّها، فقال: «لا يوجدُ حبٌّ»، أراد فقط أن يتزوّج، كان يبدو كطفل صغير، وفي سنّه تزوّجَ الدّيلي وتطلّقَ وأنجبهُ. أراد مينا أن يبدأ حياتهُ بعيدًا عن الجميع بخلاف رؤاه وتوجّهاته، ولا يعلم الأب لمَ وافقهُ على الخطبة، وتحضّر ليفعل، وحين بحثَ عنه لم يعثر عليه بسهولة ثمّ وجدهُ قد غيّر رأيهُ. كان هذا وهو في الثالثة والعشرين، اليوم بلغ مينا الثالثة والأربعين تقريبا ولم يتزوّج. الزّهرة اختفت مع شقيقتها الصّغيرة جويدة وأمّها، وسوف تعودُ جويدة زوجة لمنصور، في القرابة قبل أن يغادر إلى الجلفة الجديدة.

في تلك الحقبة التي تعرّف فيها مينا على الدّيلي أكثر، كان يقتربُ من الخونيّة، وبدا أنّهُ يسعى لترميم علاقته بالجميع؛ فقد أسّسَ جمعيّتهُ الأولى التي اختصّت بمساعدة العائلات المعوزّة، وكان يجنّدُ شباب الحيّ من سنّه لمساعدته، فاتح ومنصور الطّفلان كانا أبرز أتباعه، ولاحقا سيتنطّطان معهُ من جمعيّةٍ إلى أخرى، وبقيت جمعيّة «تراث وثقافة أولاد نايل» قائمة دائما، وظلّ رئيسها الذي يشارك في المهرجانات ويمثّل الولايةَ أتباعُهُ ومن رضي عنهم. مرّ مينا من جمعيّة «أهل اليتيم» إلى «الجمعية الولائية لحماية السُّلالات المحليّة»، وبدا وكأنّه يقصدُ الإنسان كسلالة مهدّدةٍ، رغم أنّهُ كان يتحدّثُ عن

الماشية، ثمّ أسّسَ جمعيّة «وجه المدينة»، وأخيرا «أصدقاء البيئة»؛ تماشيا مع منصب أحد الوزراء الذين ساهم في حملتهم الانتخابية.

وفي أوّل جمعيّة، استلهمَ الخونيّة التي فتحت خُلوتها للمحتاجين، وقرّر تغيير الوجهة والميول بعد موتها. لم يصدّق أنّ العارفة ستموت يوما، ولدى رحيلها اقترب قليلا من الدّيلي، وتجرّأ أن ينكأ جرحا قديما لا يُشفى، وسألهُ في مساء صيفيّ أصفر «لمَ طلّقتَ الخونيّة؟»، لم يعثر على جواب. خطب في داخله ولم ينبس ببنت شفة. «حتّى في الأفلام لا يمكن تطليقَ من هي مثلها، طلّقتني، الأصحّ غادرتني، الأدقُّ لم أكن مرئيّا، لم أكن رجلها، لم تكن امرأة موعودة لرجل، كانت عارفة موعودة ليقين». لا يذكُرُ كيف أجابهُ، ليس المكان الذي كانا فيه. خلال أيّام كان يسكنهُ ألم كبير، ويعتقدُ أنّهُ يداوي نفسهُ في كلّ مرّة يقفُ فيها أمام المرآة، يتلمّسُ ثقب أرنبة أذنه، يعبثُ بالحبّة التي سكنتهُ دون أن تغيّر حجمها منذ سنوات، ولعلّه كرّر غير مرّة: «موجعٌ جدّا أن تضيعَ بحثا عن أجوبة لسؤال من كلمتي (لمَ طلّقتها؟)، قاتلٌ أن تفتّشَ طوال حياتك عن قصيدة بينما تفقدُ القدرة على وصف وضعيّتك وتقدير مصابك».

قُدّر للدّيلي أن يكون وحيدا، ولمينا أن يكون متعدّدا في الشّكل ووحيدا في المضمون، قُدّر للأب أن يُنسى تماما، بينما يبكي الجميعُ في القرابة العارفةَ. مينا نال حظوة أمّه، ومنذ ماتت أصبحَ يلقى تقديرا كبيرا، اهتمّ النّاس البسطاء برضاه، واستشيرَ في مواضيع لم يخبرها، وقدّمه مريدو الخونية في الأفراح كما الأتراح، وكانت تلك مدرستهُ، تعلّمَ ترتيب الجمل، وانتقاء الألفاظ، انتبهَ أنّهُ يملكُ سلاحا ووجودا ليقتل الملل واللاجدوى، هكذا صار يسعى للجنائز والأعراس، ويزدادُ حضورا وفق مسارٍ عاقلٍ وهادئٍ، هكذا تضاعفَ غياب بشير

عن الجميع، وكان حضورهُ رمزيا مثل شهيد على لافتة شارع منسيّ.

كان سؤالهُ عن سبب انفصال الدّيلي والخونية حيّا في عينه طوال سنوات، ولأنّهُ لم يعثُر على إجابة من الطّليق، فقد تأتّى له أن يسمعَ آراء مختلف الشّهود، شهود النّهاية الذين لم يجدوا أيضا جوابا لسؤاله الذي خبا مع مرور السّنين. قال لهُ عبد الحميد مرّة: «والدك وأمّك من طينة واحدة، والزّواج يحتاج اختلاف الطّرفين ليكتملا». ولم يعتقد مينا أنهما متشابهان، فكان يحذفُ رأي عبد الحميد من الخيارات. الزّين الذي التقاهُ أكثر من أيّ واحد من أصدقاء أبيه، بسبب اهتمام مشترك، فضّلَ عدم الخوض في الموضوع، وحجّتهُ أنّ الأمر انقضى منذ سنوات، ولعلّهُ أضاف لمينا: «أنت الآن رجلٌ، ضع كلّا منهما في مكانته واهتمّ لأمرك». يومها تأمّل الابن قامته وهو يمشي، وتساءلَ إن كان الزّين يدعوهُ إلى تفضيل نفسه على والديه المنفصلين، ربّما أكثر ما يؤلمُ أن يفضّل نفسهُ على الخونية. أمّا بشير فقد بدا في المرتبة الرابعة بينهما، أوّلا الخونية وقداستها، ثانيا هو وتفرّده، ثالثا الفراغ والمسافة، ورابعا كان يقفُ على أرضِ الضّرورة البيولوجيّة بوصفه الأب.

في الحقيقة ودّ أن يعترفَ لهُ بسبب انفصالهما، لكنّ الذي بين يديه لم يكن كافياً، حجّتهُ في محكمة الابن كانت ستدخلهُ الإقصاءَ. أرادَ أن يستقدمهُ إلى بيته أو يستدرجهُ إلى عزلة لا أحد فيها غيرهما، أن يقول لهُ كما يقول الآباء: «انفصلنا أنا وأمُّك وأنا لم أربّك لتكون بهذا الضُّعفِ، لتفتّشَ كعجوزٍ في تفاصيلَ لم يعد يذكرها أحدٌ»، لكنّ وجودهُ في حياته كان مزدوجا، شقّ الأب فيه لم يكن يحتلّ إلا الجزء البسيط، شقّ الدّيلي المطلق كإنسان بُعثَ في القرابة مثلهُ هو الذي طغى، لهذا تردّدَ ولم يكن يُبادر بشيء نحوهُ، واكتفى بمسايرته، بمعالجة شكّه الذي يعلو جبهتهُ كلّما رآه.

نجحَ مرّة في حضور عرض مسرحيّ، كان هو المتفرّجُ الوحيدُ وبشير الدّيلي الكوميديا الغنائية كاملةً، ولم يكن العازفُ العيد الحسّ، وإلا اكتملت أوبريت القرابة. نهرهُ عن السؤال، وراح يشرحُ لهُ أشياء لا اثرَ لها، قال الدّيلي لمينا في شقّته بحي شي غيفارا، وهو يشربُ قهوة مرّة أعدّها، وانتبهَ لاحقا أنّ سكّرهُ نفذَ كالعادة: «أنا كنتُ أستعدّ لتحرير قصيدتي، كان الشّاعر الكبير الذي يسكنني يُولدُ، وهي كانت تخشى أن أبادلها بقصيدة، لم تكن تأمَنُ وضعها مع شاعر، لم تكن تريدُ أن تقاسمني أحدا، عندما تزوّجتها كنتُ وحيدا، ماتت جدّتي التي ربّتني، ولم أكن أحبّ التواصل مع أمّي ولا هي انتبهت أنّي ما أزال موجودا، وفجأة أخرجت لها جيشا من المعاني التي أبادلها المحبّة إلى جانبها، الشّعر أمّةٌ يا مينا، أمّةٌ عظيمةٌ لا حدّ لاتّساعها، والخونيّةُ أكبرُ من امرأة رجل، وأكبرُ من شريكة في رجلٍ، الخونيةُ كالمدى يُعاشُ فيها ولا يُعاشُ قربهًا أبدا».

عندما فرغَ من عرضه لم يسمع منه شيئا، ضمّ شفتيه مشفقاً، اقترب منهُ وقال له بعينيه: «لا قبلَ لي بكلّ هذا، أنا كالطّفل أَوَدُّ أن أرى أمّي وأبي، وأن أسمع شجاراتهما وأتبادل المواقع في حبّهما، وأشي بهما لبعض دون أن أنتبهَ». في الحقيقة لم يحصل هذا الحوار أبدًا، فقد كان يرتشفُ قهوتهُ ويتخيّلهُ وملامحهُ تتفاعل مع خياله، الذي حصلَ أنّهُ قال لهُ وهو يصافحهُ كرجلين سئما الحربَ وقرّرا السّلم: «لا تبتئِس يا الدّيلي أنا لا أحقدُ عليكَ ولا على الخونيّة، ولا داعي لتشرحَ لي كيف وصلنا إلى هنا»، وخرج من المسرح. شعر أنّ الابنَ يُكابر، ولكنّهُ عالجَ بعضَ ألم الأب وقد خطّط الأبُ ليعالج بعضَ ألم الإبن!

(3)

ليلة دُفنت العارفة انتظر تفرُّقَ المعزّين المعذّبين برحيلها، جلسَ على كرسيّ صغير أمام الباب الذي أعيدَ طلاؤه قبل وفاتها، ترصّدَ مينا وهو يمارسُ حضورهُ البهيّ في مأتم أمّه، كان أكبر من أمسه، يغادر مسرعا الخوف الذي سكن عينه قبل أشهر، ويستقرُّ بإرادة وقصد في الإقدام، كاد الدّيلي أن يقول له إنّ «الإقدامَ قتّالُ»، لكنّهُ لم يرقبهُ لأجل هذا، كان مجروحا برحيلها أكثر من أيّ واحد، ومسرورا أنّها ماتت ولم تكن زوجة أو حبيبة أحد غيره. تفرّقَ النّاس، ولم يبق إلا بعض الجيران في زقّاق الحمامة. تأهّبَ ليلتقط مينا فإذا بالشّرطة تلجُ المكان، وفي سلوك غريب كان هناك ضبّاطٌ كبارٌ ومسئولون جاءوا للتعزية، ووجدَ نفسهُ دون تحضير يتلقّى التعازي، ويصبّرهُ ضابطٌ يضحكُ سعيدا كأنّ وفاة الخونية حدثٌ يسرُّ الحكومة، وفي كلّ مرّة يرفعُ رأسهُ يجدهُ باسما مستسلما لسعادة كبيرة تعصرُ وجنتيه. كان طويلا وبعينين تحملان حقدا في آخرهما، ومرّت الدّقائق القليلةُ - التي اكتظّ فيها زقّاق الخونية بأصوات الرّاديو وخطى رجال الأمن - عسيرة وطويلة، ولا يعلم إلى اليوم لماذا اعتبرتهُ الحكومة وكبار الضبّاط المعنيَّ بالتعزية دون الآخرين. والد الخونيّة الذي تحوّل إلى ورقة في مهبّ المعزّين، ووالدتها التي هزمها السكّريّ، وحتّى مينا الذي يقارع الضابط المبتسم قامة، كلّهم استثنوا من واجب العزاء، وبقيَ وحدهُ يؤدّي الدّورَ.

عندما غادر الرّسميّون المكان تطلّعَ إلى طريق الشّارع ينتظر مجيء الجماعة المسلّحة التي كلّفت بالتعزية، لم يظهر شيء واختفى مينا. سألَ جدّهُ عنه، فلم يسعفهُ سمعهُ في التقاط السُّؤال قبل المرّة الخامسة، وعندما عرف من يقصد أصبحَ يسألُ بدورهِ عن حفيده

الذي لم يظهر منذ الصّباح. لم يكن الجدُّ ينادي حفيدهُ مينا، وهو الوحيد إلى جانب الخونية من اختارا الإبقاء على اسمه الحقيقيّ. كان قبل أن يبلغ الحادية عشرة يدعى إبراهيم، لكنّ معركة كبيرة نشبت بين أطفال حيّ القرابة وآخرين من حيّ آخر مجاور غيّرت اسمهُ. كان أحد أبطال المعركة التي فيها تَوهُّمٌ أكثر من الوقائع، فإذا افترق الخصمان عادا إلى سابق عهدهما بلا خلاف يذكر، بينما يطوّرُ كلّ معسكرٍ تاريخهُ الخاصّ للمعركة، فيصبح البطل والمنتصر والرّحيم. مينا اقتنى بعض الألعاب النّارية، واقتحم المعركة بولاّعته، وكان يصيحُ في كلّ مرّة قذف قنبلتهُ «مينا... مينا»[1]. ورغمَ أنّ روايتهُ ورواية أصحابه تقول إنّهُ شتّت جيش الحيّ العدوّ، إلا أنّهُ لم يسمع أبدا دويّ قنابله.

اكتسبَ مينا الاسم منذ تلك الواقعة، حتّى في التعاملات الرّسمية كان يضيفُ اسمَهُ الفنيّ الحربيّ ذاك بين قوسين، بل وفي مراحل دراسته المختلفة التقى بأساتذة اختاروا أن ينادوه بلقبه الذي أكسبتهُ طفولة القرابة على اسم إبراهيم الذي يبدو أكثر اتزانا ولا يتّفقُ مع مشاريعه النّزقة.

لم يعثر على مينا، ولم يرهُ أحدٌ، وتملّكهُ شكٌّ، شعرَ أنّهُ فقدَ صبرهُ وجلدهُ في أوّل ليلةِ يُتم له، ربّما يكون قد أفلتَ رباطة الجأش تلك ورمى رأسهُ في ركن ليبكي، في كلّ الحالات هذا أفضل من أن يجنَّ أو يرتكبَ حماقةً. البُكاء ليسَ حالة ضُعف، تعرفُ العارفة ذلك جيّدًا، فقد بكى بحرقةٍ حينَ رفضت أن يقتربَ منها، وجلسَ في زاوية وهي في أخرى، وعندما اشتدّ بكاؤه حلّت عليه أفكارٌ عميقةٌ فتوقّفَ وشرعَ

(1) une mine يقصد متفجرات، أو ألغام، والشّائع لدى العامة أن يُقال «مينا» ويقصد بها ما يتفجّر.

يشرح لها أفكارهُ. قال لها: «لا تخبري الذي في بطنك أنّ أباهُ قد بكى أمامك، لا تخبريه أنّي أبوهُ أبدا»، واستغربت الأمر، كان يقتربُ من السّرير وهي تفعل مثلهُ، ووضّحَ لها أنّ بكاء الرّجال ضعفٌ عكس بكاء النّساء الذي يأتي من قدرتهنّ، وضحكت هي بشدّة لم يعهدها، ثمّ طلبت منهُ ألا يخبر ابنها أنّها ضحكت أمامهُ، ثمّ ضحكا معا قليلا، وحلّ صمتٌ عميقٌ، فعاودتهُ موجة بكاء أقوى. مدّت يدها إليهِ ومسحت بكفّها النّاعمة على ذراعه، لم يُرد التوقّف عن البكاء. قال في نفسه: «هذه حيلتي، أبكي حتّى تمرّرَ يدها بكلّ جسدي، ثمّ يكون الذي يوقفُ اختفاءها من حياتي». قالت لهُ: «البكاء ليس ضعفا، ليس قلّة حيلة دائما، ليس تراجعا، البكاء أحد أركان اللّغة لا ندري متى نحتاجه، بلاغةٌ أخرى مختلفةٌ عن الكلام، صراخٌ دون إزعاج الأذن، جرحٌ للعين بخطاب بصريّ»، هذا بالضّبط الذي جعلهُ يحترمُ أيّ شخص يبكي أو يفكّر في البكاء، وهذا الذي دفعهُ إلى تحمّلِ إمكانيّة بكاء ميتًا أمام الجميع كما فعل في المقبرة، وقبلها في شقّة شي غيفارا.

أعلى شارع الحمامة البنيّة كان هناك قامتان وسلاحٌ، عاد الرّسميّون أم حلّ المسلّحون في الجبال؟ اتّضحت الرؤيا سريعا، هذا مسعود بلخضر الشّاعر الذي لم يرد الدّيلي لقاءهُ يوما، جاء ليعزّي في فقدان المتصوّفة، لا بدّ وأنّهُ نموذجٌ مختلفٌ، الخونية محكوم عليها بالموت في شريعة سكّان الجبال، فكيف أمكنهُ أن يحزنَ مع القرابة؟ أليسَ ابنا لها؟ ربّما يكون الفتى من طينة عزّ الدّين القسّام متصوّفا وجهاديّا.

حين وصل أمام الدّيلي بسلاحهِ البرّاق، أراد أن يُسكتَ الجميع، ويسألهُ بيتًا من قبيل «**فوددتُ تقبيلَ السّيوفِ لأنّها لمعت كبارق ثغرك المتبسّمِ**»، ولكنّهُ بادر بتحيّة أنيقة بعد السّلامِ وقال لهُ: «وشراك عمّي

الدّيلي، عظّم الله أجركم»، ففتّشَ عن الردّ المناسب، ولم يجد أفضل من: «الله يسلمك»، وحضرتهُ معارضة لبيت عنترة ولم يُفصح عنها أمامَ الرّشاش المهاب، كأنّهُ كان سيقولُ: «وودتُ تفجيرَ العقول لأنّها **شرعتْ تحرّكُ فكرها المتأزّم**»، وكأنّهُ رأى بعينه توجّسا أو ريبة من حضوره. ألقى يدهُ على كتفيه وردّد: «ربي يجيب الخير» أكثر من مرّة، قرأ في عينه نداءً، كان يستنجدُ به في غياب الخونية التي لو مدّ الله عمرها لتلقّفتهُ وأرشدتهُ، لو أنّهُ يبكي فقط ليزيلَ هذا الهمّ الجاثم على قلبِه وفكرِه. بدا أن مسعود في حاجة للجميع، وبدا الجميع محتفين بمسعود، فلم يحصل على فرصة أن يكون حزينًا وتائها في مملكة الحيرة، هكذا يبدأ وهم القيادة والسيادة، هكذا يدفعُ النّاس بعضهم إلى ألم ما، ويفتّشون كلّما انطفأ متألم عن وريثٍ لهُ.

عاد مينا وقد فرغ الشّارعُ ولجأ النّاس إلى مضاجعهم، وشرعَ يُدخل أباريق الشّاي، ولم ينجح في التقاط كلّ الأكواب التي تفرّقت عبر شارع الحمامة، وكان بشير ينتظرهُ ليمضيَ معهُ إلى بيته في القرابة، وكانت تلك ليلة عابرة لم يناما فيها، وفي الصّباح تركهُ باكرًا يتّجهُ لبيت الخونية وأسرعَ إلى شقّته لينام، غير أنّهُ دخّنَ كثيرا كي لا يبكيها، وعندما عرفَ أنّهُ لن يفعل وأطفأ سيجارة، انفجرت دموعهُ وتحسّسَ يدها تعبُرُ على ذراعه الأيسر، وتمسحُ عنه الحزنَ، وسمعها وهي تطلبُ منه أن يبكي دون تردّدٍ وأن ينفذ إلى التطهير الذي يحتاجه.

رغبَ أن يدعوَ ابن العارفة إلى جلسة تطهير، خاطرٌ ما حدّثهُ أنّ له طقوسه التطهيريّة، وربّما يكون قد لجأ إلى صدر جدّته وبكى، وقد يتكئ على جدّه الذي تمكّن منه الصّممُ فيبكي بحرقةٍ، ولا يتبيّنُ الجدّ في غياب الصّوت إن كان حفيده يضحك أم يبكي أم يسعل بسبب السّجائر اللّعينة؟

في خيمة رحمة

(1)

يمدُّ رجليه في تباه أمام الفراغ.

هذه المساحة الحمراء والسّوداء لهُ، والأرض المفروشة بالزّرابي النّائلية تذعنُ لخطاه، الحذاء الجلديُّ المعلّقُ على الجدار - والذي لا يحملُ أيّ تاريخ واضح أو مجد مفترض - كبيرٌ قليلا وقديم جدّا، لكنه يستهويه. بدت شقّة رحمة أقرب إلى خيمة من خيم المترفين، ألم تكن خيم المترفين مختلفة عن خيم البسطاء؟ هو الآن في خيمة مترفة يتحسّسُ أهميتهُ ويرهق أوهامهُ بواقع سحريّ.

لأسباب مختلفة سيعدّ تلك الشقّة بمثابة الخيمة، تغيّر ديكورها بحلولهِ في عالم رحمة، ولأنّهُ لم يملك سببا للبقاء أو الاعتداد بالنّفس فقد ساعدتهُ هي على امتلاك واحدٍ على الأقل. كانت تعتزُّ باهتمامه بالتراث النائليّ الذي لم يكن يعدو في نظره ارتداءَ ذلك المهرجان من الألبسة، والتمسّك بحديث الأجداد الأوّلين. أصبحَ مينا مفوّهًا ولا يمكن مجاراته، فكّرَ في حماية لغة جدّه من لغة الأتراب، انتابهُ شعورٌ بإمكانية ضياع لسانه، مصيبة أن يفيق يوما فلا يعثر على من يفهم كلامهُ، أصابهُ حنين كبير في تلك الخيمة. كان يستمتعُ بلسان رحمة اللّولبي وهو يجعل الألفاظ ترقص على شفتيها الممتلئتين، كانت تهبهُ فخرا بنفسه وتزرعهُ بغابة من الحنين إلى عالم بالكاد أدركه، رحّبت

برغباته المتصاعدة وأتاحت لهُ فضاءً واسعا لأيّ نزق في الأفق.

حصل على تفويض بتحقيق الأصالة التي لم يفهمها يوما، وكانت تعدُّ لهُ الأطباق التي يطلبها، يفيق في الصّباح على المذكّر أو المسمّن أو البغرير، ويدخل مساء ليجد الرّفيس أو الشّخشوخة أو المختومة أو أيّ أكلة تقليدية أخرى.

«يا سهلا» هي العبارة التي تلقيها أسفل قدمه كلّما ولج خيمتها، ويسكُن السّماء طولا عندما يرى وجهها الذي يفرح حقا بقدومه دون أيّ سبب وجيه. مرّة سألها إن كانت تملك سببا مهمّا للترحيب به والاحتفاء بهذيانه المستمرّ، فتحوّلت إلى وجه منزعج وطلبت منهُ أنَ يغادر، شعر أنّها لا تحبّ أن يبدو تافها حتى مع نفسِه.

تنام هي في غرفتها وينامُ في غرفة سمّتها هي غرفتهُ ونسيَ أن يفعل، لا تدلّ على أنّها لهُ؛ فلون جدرانها الورديّ وسريرها الحديديّ «النّاموسية» لا يوفّر له انتماءاته المتصاعدة. استأذنها النوم في غرفة الاستقبال، وقبلت هي على مضضٍ، مشترطةً أن يفتحَ النافذة وباب الشّرفة في الصّباح، «أشرّع قلبي إذًا أردت»، قالَ مقابل شرطها الذي أملته وهي جادة الملامح، لتفتحَ ابتسامة هادئة على وجهها الذي يكفي النظر.

وجنتاها تقطران وردا وياسمينا، وصدرها نافرٌ ومتأهّب على الدّوام، ومقلتاها مشتعلة وضاحكة حتى وان كانت تريدُ الاتصاف بالاتزان، ورغم ذلك لم يتمكّن من تذوّقها على فراش الحلم أو اليقظة، اكتفى بالنّظر إليها وتأمّل حركاتها في كثير من الدّهشة التي غلّفها بالرّضا والإعجاب فقط، أمّا هي فلا يبدو أنّها تعير الرّجل الذي فيهِ أيّ اهتمام، يكاد يعرفُ ألوان كلّ ألبستها حتّى الدّاخلية التي كانت تنشرها بتحيل بين باقي الغسيل على شرفة غرفة الاستقبال.

من أين دخلَ إلى هذا العالم المحتفي به؟

في بيت العارفة كانت غرفتهُ ملجأً حقيقيّا، فيها أكثر من صندوق وأكثر من باب، غرفة غريبة، باب يحيلُ على الفناء، وباب على المطبخ وآخر على غرفة الجدّ، لكنّهُ ضاق ذرعا بتلك الغرفة، وتركها؛ لأنّه شعر بانتفاضة الأشياء حولهُ. كان يتصوّرُ أنّ الأدوات والأثاث والأشياء كلّها لها روح، ليست روح الحياة التي تدبّ في البشر، بل روحا أخرى، تجعلها تثور إذا ما بدأت الحياة تنالُ منها. وفي غرفته تماما - كما في بيت العارفة وفي كامل الحيّ - انتفضت الأشياء؛ لأنها تُركت للزّمن دون أن ينتبه إليها أحدٌ، حتّى قرميد غرفته وسقف غرفة الخونية والجدين، حتّى الفناء والأشجار الدّاخليّة المستورة، حتّى أعمدة الكهرباء والأبواب وعتباتها، حتّى المرحاض التركي الأصفر القديم ما عاد يلائم راحتهُ، وفي غياب بركات العارفة تعاظمت الظنون، لهذا فقد هربَ. خرج مخلوعا من الإمارة أفضل من أن ينتهي مقتولا كمسعود.

رحمة كانت اسما يدلّ على معناه بتطرّف، هيأتهُ كأنّهُ محارب متعبٌ رغم أنّهُ لم يعارك سوى ظلّهُ الذي اتسع ليلة ضاقت به السّبل، ثمّ بعض البعوض في غرفة صالون خيمتها، غيّر من عاداته القليلة ومن مظهرِه ومخبره، أتاها صغيرا ونام فأفاقَ كبيرا، استقبلتهُ بالأحضان وإن كانت تبتعد بخطوتين، جلسَ في ركن يتحسّسُ الغربة والظّلام وقلّة الحيلة عندما اقتربت منهُ تحمل كوب النعناع، بحياء أمسكه ولم يفكّر في جوعهِ فكلّ أحلامه كانت مكثّفة في كلمة «هدأة»، كل رؤاه كانت تتّسع في شَكل «وسادة». يحتسي ويتمنّى ألا ينتهي هذا الكوب، ما يزال ذلك الكوب يُعتبرُ فارقا في حياتهِ كلّها لهذا يقيس به الأذواق.

سمّاهُ «نعناع الجنة»، وكانت هي تردّد وراءهُ كلّ التسميات التي

أطلقها على الأشياء، حتى التي فرغت منها ولم تعد الضّرورة تقتضي أن تظلّ كذلك. كان يسمي بيتها «خيمة مولى الخيمة»، وكانت مصرّة على أنّه الاسم الأنسبُ لها في حضرته. سمّى مرآتها الضّخمة «العجوز»، وأعجبها الاسم، عندما شرح لها بأنّها «تعرفُ كلّ صغيرة وكبيرة في الخيمة، وتعرفُ عنّا ما قد نجهله، ترانا ونحن ننصرف، ونحن ندخل، تعرف كيف نتطلع إليها وكيف تتطلع الينا». سمّى سريرها «مهد الرّوح»، وقد أصبح لون وجهها أحمر من تعليقه الباكر في مكان ضيافته، واستمرّ في البحث عن الأسماء. بقي اسم رحمة على ما هو عليه وبقي اسمهُ مينا.

تأمّلَ غير مرّة اسمهُ ومعناه ومؤداه ومن تسمّى به من الآفلين ومن الحاضرين، وعرفَ قصصهم حتى صارَ عبدا لاسمه، ولعلّ غيابهُ عنه ما فعل هذا. كان مينا دون أن يسترجع إبراهيم، لا يمكن فهم معاناته في غياب اسمه ومعناه، وحضور لقب خطيئة هاجر معهُ منذ الطّفولة دون ملل.

في خيمة رحمة لم يكن هناك قُنطاس[1]، ولم يُفكّر يوما في البحث عن واحد، فهي خيمة بلا عمد، تسكنُهُ أكثر ممّا يسكنها، تكفي الألوان المحيلة على الخيمة وأولاد نائل. في الأيّام الأولى من إقامته لدى رحمة عمّقَ الدّيكور المتغيّر لشقّتها من غربته، شعرَ وكأنّهُ مقيمٌ في أكثر من مكان، كانت تفيقُ باكرا لتغيّر مكان التلفاز والأرائك والمائدة وتعبثُ بكلّ موضوع، ويُفيق أو يدخل الشقّة فيشكُّ في ذاكرته وفي المكان. كان يخشى بسبب هذا التغيير المتواصل أن يكون يهذي، أن تتوقّف آلة التخييل العبقرية ليجدَ نفسهُ في الغرفة ثلاثيّة الأبواب، تحت سقف قرميديٍّ. هذا العالمُ المتحرّكُ يوحي بالتغيُّر، بينما ستبقى القرابةُ

(1) القنطاس هو العمود الرّئيسي في الخيمة.

مدارا لا يتغيّرُ جوهرهُ، تغيّرُ أهلها أو يتغيّرون من تلقائهم، تغيّرُ واجهتها أو يغيّرها آخرون، وقد يحصُل أن تغيّر وجهتها وجغرافيّتها في قابل الزّمن، لكنّ روحها أبديّةٌ.

(2)

«هذه ليلتنا معا» قالت رحمة وهي تهمّ بالخروج من الخيمة. أرادَ أن يسألها ما الذي تقصدُه، لكنّ نظرات عينيها كانت كفيلة بالإجابة، إنّها تريدهُ وتطلبهُ، واستسلمَ للأسئلة تتساقطُ كأنّها قنابل حقيقيّة غير التي ألقاها طفلا في معركته الخالدة.

«هل ينبغي أن أشعر بالفخر لأنّي مطلبها؟ هل ينبغي أن أغتاظ لأنّها لا تبالي بكرامتها كامرأة أمامي؟ هل يفترض أن أبادر بمداواة كسورها وجراحها التي كنت أحد أبطالها بإعراضي عنها؟». كامرأة؛ تريدُ أن يأتي إليها رجلها، أن تكون مطلوبة، أن تصلها رسالته لتردّ عليها، طلبا لتصمتَ قليلا وتقرّر تأجيل إجابته، إلحاحا لتنظر إلى نفسها في المرآة، مرآة رحمة التي تضمّ إليها كلّ الخيمة لم تتح لها فرصة مماثلة مع مينا. لامَ نفسه كثيرا وكان عليهِ أن يجدَ ما يعيدُ لها فرحها بنفسها واحتفائها بأنثاها، كما احتفت هي بوجوده السّلبيّ الثقيل، عليهِ أن يحتفي بوجودها الأثير في حياتهِ وفي خيمتها، خيمتهما معا.

عندما سحبت الباب خلفها كان عطرها يتشبّث بالمكان كالعادة، وكأنّه شبحٌ يراقبُ الوافد. تظاهرَ بكثير من الاتّزان حتّى لا يفضحهُ عطرها. كانَ يتصرّفُ في الخيمة وكأنّهُ محاطٌ بالأعين، مرّة تصوّرَ أنّ بايزيد قد وضعَ كاميراته ليسخرَ من سذاجته، ومرّة تصوّر أنّها لم تخرج وأنهُ توهّم خروجها، وكثيرا ما سارعَ للتأكّد من عدم وجود

ما يشي بحركاته الحميمة وتنقّله في أرجاء الخيمة، لأجل هذا سيكون على قدر ملحوظ من النّظام، عكس ما كان عليه طوال حياته، وهذا هو أصعَبُ فصلٍ يمكنهُ التعامل معه، فبقدر ما كان يتظاهرُ بالنّظام والتّرتيب كان يُعاني ليُحقّقَ كلّ ذلك.

«إنّه النّظام يا عزيزي» تقول رحمة كلّما شعرت أنّ عجزَهُ قد رفع رأسهُ. أمّا بايزيد فظلّ يردّد أنّ «النظام لن يقبل بهذا ويقبل بذاك، النّظام يريدُ الخارطة التّالية ويرفضُ المخطّط الآخر، النّظام يعرفُ ما يخططون له لهذا ينتصر». استغرقَ مينا وقتا ليعرف أنّ النّظام الذي يتحدّث عنه كائن هلاميٌّ يمثله أشخاص مؤمنون أنّهُ يريد هذا الأمر ويرفض ذاك، وينظمون له انتخابات شفّافة لدرجة الميوعة. اعتقدَ أنّ النّظام غير موجود، الموجودُ حقّا هو الفوضى، الرّجال، رجال النّظام تحديدا هم سلسلة وهمية تنتهي عند الشّبح الذي لا يعرفون ما خلفه فيقولون النّظام، حتى الشّبح نفسهُ يتمنّى أن يقول: «إنّهُ النّظام».

شغلتهُ فلسفتهُ قليلا قبل أن يعودَ إلى موعدِه الذي يتطلّب منهُ الاعتناء بمينا وبالخيمة قبل وصول الأميرة رحمة. تنقّل بسرعة لم يعهدها بين أرجاء الشقّة، أعاد ترتيب ما نال منه انشغال رحمة، وبجدّ لا يتقنه إلا رجل يحبُّ امرأته، أو عامل متفانٍ، أو امرأة بيتوتية جدّا. تحوّل البيتُ إلى ورشة صغيرة سرعان ما ظهرت نتائجها. بقي أن يقتني لهُ عطرا مثيرا. نزَلَ مسرعًا، ولأنّهُ أكثر من جاهل بالعطور فقد اقتنى الأغلى من أقرب محلّ عطور. كان الشّاب الذي يبيعُ العطر مختليا بصديقته التي أطلقت نصفها على طاولة ألمنيوم صغيرة، وراحت توزّع نظراتها على أرجاء المحلّ، وتجيبُ في غنج على لهفته، تمضغُ اللّبان وتعقد رجليها ببعض وتحرّكُ إحدى قدَميها وتعبثُ

بأصابعها، تبدو ملامحها أصغرَ بكثير من كلّ تلك الحركات. في سنّها يكونُ ممتعا أن تنظرَ بقليل من الخوف والدّهشة إلى رجُلها المفترض، في سنه يكون جميلا أن يختار أخرى أكبر قليلا وأكثر نضجا. منحهُ عطرا لم يجد فرصةً لرفضه أو قبوله، وقد أطلقَ البائعُ العنان للسانه الخشن في شرحِ ميزات هذا العطر وقدراته العجيبة، يبدو أنّه يتجدّدَ كلّما غسل صاحِبه؟

اقتنى العطرَ وصعد مسرعا إلى الشقّة، حاول أن يكون امرأة في السّلالم، وراح يشمُّ عطرهُ الأبديّ، أرادَ أنْ يعرفَ إن كان بوسعهِ إثارة شيءٍ في المرأة التي كان، لم يحرّك شيئا، لا شيء على الإطلاق.

في مذهبه العميق في قضايا التّراث النائليّ، وعبر معرفتهِ التي حلّت فجأة كوحي، ليسَ أفضلَ من العنبر. كان يتسلّلُ صغيرا إلى غرفة الخونيّةِ يُفتّش مُقتنياتها السّاحرة، أكثر شيء شدّهُ وعلقَ بذاكرتهِ هو علبة العنبر، كانت علبة دواء حوّلتها ملكَاتُ الاستغلال لدى الكبار إلى علبة عنبر، تلك صورة مبدعة، من دواء إلى عطر. الخونيّةُ اعتادت اقتناء حجر العنبر والشبّ لتحضير مسحوقها العتيق، كان المسحوقُ الذي يُوضعُ في الإبط أرفع وأقدر وأبقى من كلّ مزيلات العرق التي سبق أنْ استعملها.

في البيت قرّر ألا يستعملَ العطر الذي اقتنى وبحث في حاجيات رحمة عن العنبر، لا أثر للعنبر في الخيمة، هل يمكن أن تكون هذه خيمة حقيقيّة دون عنبر؟ كيف ترطّبُ مناطقها إذا لم تكن تستخدمُ العنبر والشبّ وقشرة الرمّان؟ تساءل وهو يفتّشُ في كلّ مكان ممكنٍ مرتدٍ رؤى رحمة؛ ليعثر على مطهّرات جسدها النّقيّ.

جلس على كرسيّ من كراسي المطبخ، لا يفكّرُ في شربٍ أو أكل شيء، ولكنّهُ الكرسيّ الأقرب. فكّرَ مرّة أخرى ما تقصد رحمة وهي

تقول له: «هذه ليلتنا»؟ في نفسه رغبة كبيرة لتكون ليلته معها حقّا، لكنّهُ تردّدَ وتملّكهُ رعبٌ أن يخطئَ التقدير فيخرج من هذه الجنّة إلى الضّياع. كانت خيمة رحمة رحمةً عليه، وقد بدأ يوسّعُ نشاط جمعيّته ويتواصلُ مع السلطات المحليّة التي تلجأ إليه في كلّ مرّة لتنظيم حدثٍ أو لتسويق صورة التّراث المحليّ لزائر من قيادة البلاد البليدة، ووجدَ فرصتهُ في اقتناء البرانس في كلّ مرّة، وتسويقها بأسعار مضاعفة للمسئولين، مضافاً إليها الامتنان. كان قد اهتدى لحيل كثيرة في كنف رحمة، وهو لن يفرّط في راعيته بسبب توهّم، وسينتظر أن تقولها صراحة أو تهجم عليه وتلتهمَ حرائق جسده، ويلتهم التهابها فيضيئان الخيمة النّائليّة السّاحرة.

«أ أكون عاشقًا لها؟» يتساءلُ منتظرًا عودتها في مطبخها. يأخذُ رشفة تلو الأخرى من قهوته، ويحاولُ أن يجد لها مكانا في قلب القلب. منحَ الحبّ هو القيمة الأعظم في الحياة. عندما نحبُّ يعني أنّنا مقبلون على الحياة، عندما نتوقّف عن الحبّ يعني أنّ إنساننا في خطر. «لكن أتراها تحبّني؟». يغسلُ الكوبَ العملاق الذي أغرقتهُ قهوتهُ، ويقلبهُ على طاولة المطبخ، ولا يعثرُ على جواب فيكتفي بالشّوق. عندما عادت انتبهت أنّ الكوب لم يوضع في مكانه فأنّبتهُ، وانتبَهَ أنّها لم تشكرهُ على غسلِه الكوبَ والمصفاة وإخراجِه كيس النّفايات. مرّة أخرى اكتفى بابتسامة وشكر حلولها بالخيمة.

(3)

تنتصبُ اليمنى على أصابعها المرمريّة فتظهرُ لوحة الحنّاء التي تتخلّلها خطوط فتنة على راحة القدم، وتواصلُ اليُسرى تقدُّمها وكأنّها تقودُ جسد رحمة الملتهب إلى الانعتاق، وتدلُّ عين مينا الشّبقة على

الارتواء. يهتزُّ كامل الجسد أفقيّا وعموديّا في آن، لا يحصلُ هذا إلا في الرّقصة النائلية. عقد السّخاب[1] المنسدل على صدرها المتموّج يحيلهُ على اللّون الخرافيّ لكلّ الرّموز العتيقة. أجواء الخيمة مزيجٌ بين بقايا عطور ورائحة السّخاب والحنّاء المتوهّجة وعرقٍ سريٍّ يفاوض الرّغبة في كتمانها. كأنّها حصّة علاج بالرّقص النائليّ في كلينيك «خيمه تيرابي».

لم يشهد مثل هذا؛ لأنّ الخونية كانت عازفة عن الأعراس، ورغم أنّهُ لم يشهد الخونية في زينتها إلاّ أنّها كانت تجيدُ الرّقصَ. في أوّل أيّامِ زواجها رقصت قليلا، رقصت مع الدّيلي، ثمّ لم يعد يروقها أن تفعلَ، وبدأت تتحوّلُ إلى الوجه العارف الذي حصدَ أيّامها اللاحقة. كان مينا جنينا يَسكنها ويُسكنها، مينا مثل والده لم ير زينة أمّه يوما.

الدّيلي لم يعرف أمّهُ، جدّتهُ كانت تعلّقُ سخابها أعلى مرآة خزانتها، كأنّها تحيل أنثاها على الأرشيف، كانت امرأة حزينة لفقدان ابنها الوحيد، تماما مثلهُ، غير أنّ حزنهما لا يتشابهُ، هي حزينةٌ ومنشغلةٌ بحزنها، وحفيدها سيكون حزيناً ومنشغلاً عن حزنه، لديه أكثر من سبب ليفعل.

أبهرتهُ رحمة ولم يكن يعي تماما الإيقاع ولا الكلمات، استوى واستوت لأمر ما وكان جسدهُ يتوهّج بين الحمّى والشّغف، وكانت هي تفرغُ من الرّقصة بعينين مشتعلتين. همّ بها وهمّت به، وانتفضَت إلى الحمّام وفعل مثلها، أراد أن يغسل وجههُ من الدّهشة لتراهُ رجلا قادراً، أن يُنظّف قدميه وهو يرى نعومة قدميها، أن يجاريها في اكتمالها. خرجت مسرعة بعد أن مسحت عرقها، وأخذَ مكانها مبتهجاً بما وصلَ

(1) عقدٌ يصنعُ من العنبر والحنّاء وموادّ طبيعيّة، تضعُهُ النّساء النّائليات وفي مناطق أخرى من الجزائر، يطلقُ رائحة مميّزة.

إليهِ. على مرآة الحمّام وجدَ وجههُ الذي يجمعُ من المسرّات ما يغيّرُ الملامح، نظرَ إليهِ وبادلهُ الإعجاب، مسحهُ بماء باردٍ ينعشهُ، ثمّ التقط فرشاته ومعجون الأسنان وحكّ نابهُ الفضيّ مع باقي الأسنان، لم يكن بشعا للمرّة الأولى، وراقهُ النّاب بعد سنوات من خيبة البطل الورقيّ خير الدّين. حمل رجلهُ اليُسرى إلى المغطس وهمّ يغسلها بالصّابون، كأنّهُ يلمّعها، ثمّ اليمنى تأخذ موقعها للتجميل، ولكنّ لعنة ما عصفت بهِ فسقط بعد أن زلّت قدمه اليسرى؛ «لهذا يتيمّنُ المسلمون إذن؟ اليسار يأتي في المرتبة الثانية، ومأزقنا كان مع اليسار»، سيقول عبد الحميد في حوار لاحق مع الدّيلي. أحدث دويّا في الحمّام وأسرعت رحمة تنظرُ الأمر، وجدتهُ ملقيّا على الأرض بوجه متألّم يعتصرُ، حاول الوقوف دون جدوى رجلهُ تخونهُ، وسعت تساعدهُ فكان يشعُرُ بتيّار عالٍ يسري في جسدهِ ويستقرُّ في الجهة اليُّسرى من رأسهِ، يتكرّرُ الأمرُ كلّما تحرّكَ أو حاول الاعتماد على قدمه.

وضعوا بلاطا سميكا على ساقه، وعاد معلّق السّاق والحلم، ولو أنّ الذي كان يمضي إليه تمّ لشعرَ براحة كبيرة واكتفى من الدّنيا، لكنّ الخونية تركت من جنودها من يقفُ بوجهِه، هذا الذي حصل مع الأب والعاهرات الثلاث، لا تمنحُ العارفة رجالها نساء؟ ألا يحقُّ لمينا أن يتزوّج يا الخونيّة؟ وهل يجبُ عليهما أن يكونا زاهدين فقط لأنّ الزّهد اختار امرأتهما؟ خاب ابنها ولم تتمكّن رحمة منهُ، وظلّت ترعاهُ في مصابه ذاك مبتسمة وساخرة، وظلّ يخشى أنّهُ مستاءٌ من الخونية وبايزيد ورحمة والدّيلي أيضا.

«ولكن هل سبق لبايزيد أن كان في موقعي؟» يهجُمُ عليهِ السّؤال فيشتّتُ عقله في أرجاء الخيمة، خرّب نشوتهُ العظمى، فرغم أنّهُ كان مكسور السّاق، لم يمنعهُ الأمر من الشّروع في كرهِ بايزيد أكثر من

كرهه لعجزه في البلاط. ليس لسطوته المفرطة وقدرته على تطويع الجميع كَرهَهُ؛ بل لأنّه يزاحمهُ تلكَ المساحة الصّغيرة، كان بوسعه أن يعثر على ألف رحمة ويدع لهُ رحمتهُ، لم يُرد أن يضيع من لوحات الرّاقصة النائلية التي ما تزال تسكُنُهُ، استعادها وهي تهزّ كتفيها اللّماعين وتميلُ برأسها إلى جهة، فيغالي شعرها في الميلان، وكانت مشاهدها تنتزعهُ من غيظه.

واصل أيامهُ قفزاً بعكّاز، وحدثَ أن اشتكى الجار أسفلهم من فوضاه وقفزه، فقرّر أن يحبوَ أو يزحفَ أحيانا وهو يعتذرُ في داخله من السُّخرية التي مارسها طويلا من حمّة الكوردوني، ويتمنّى أن لا يسخر منه أحدٌ يوما ما، خاصّة في ضعف وعجز كالذي أصابهُ، وعندما نزع البلاط شعرَ بأنّهُ تحرّر مجدّدا، ولعن الأسابيع الثلاثة التي قيّدتهُ، فقام بجولة طويلة في المدينة وزار الحيّ، ثمّ عرّج على شقّة شي غيفارا، ولم يكن موعود القصيدة هناك، وعندما حلّ بالمقهى كان الدّيلي يغادرها، يتحسّسُ خطاه على سلالم العمارة ويدهُ على مقبض الباب وأنفاسهُ بالمكان، وكان المقطعُ المكرّرُ خلال أيّام البلاط القاسية «سوف تلهو بنا الحياة» فقط دون «هذه ليلتي وحلم حياتي».

العمامة والشّامة

(1)

اعتمرَ عمامة دارت حول رأسهِ غير مرّة، في اتساق لم يحسنه بمجرّد أن قررّ تغيير المظهر والمخبر معا. القندورة والسروال العربيّان اللّذان اقتناهما من عند خيري، والحذاء الطّعبيّ الذي تدبّرهُ لهُ حمّة الكوردوني، جعلت شكلَهُ أكثر من غريب. في المرّة الأخيرة التي زارهُ فيها صدمهُ شكله، فضّلهُ في صورة المهرّج تلك، لكان أحبَّ شكلهُ وألوانهُ. ضغط على صوت الدّيلي فلم يعد لهُ صوتٌ؛ بل تهدّج باك، وتمادى يبتسمُ كأنّهُ شيخٌ أصلح بين قبيلتين متقاتلتين قبل قليل. أهل القرابة كانوا يتأمّلون عبورهُ وكأنّهُ جُنَّ فعلا، ويسعون للتحقّق من ذلك بالحديث معه، بل إنّ منهم من حاول استفزازه كما يفعل البعض مع المجانين للاستمتاع بردّات فعلهم التي تفاجئ التوقّعات، وحرمهم من أيّ ردّ فعل في حكمته التي نزلت عليه.

حصل هذا من أجل تظاهرة ثقافية. أرادوا العثور على شابّ يرتدي زيّا تقليديّا، وتطوّع كرئيس للجمعية التي لجأت إليها الولاية، وهكذا كان عليه أن يكون المخرج والبطل وكلّ البقيّة، وارتدى اللّباس فوجد انبهارا كبيرا لدى الزّائرين. وقف كعارض أزياء، بينما حيّته الجميلات والشّيوخ والأطفال. لفت انتباه الجميع، وبدلَ أن يستعيدَ لباسهُ العادي خرج بلباس العمل، وهكذا أصبح العرض الموجّه لجمهور

من الزّوار ساعيا في الشّوارع والأزقّة.

وحدها رحمة اعتبرت سلوكه عودة إلى الأصل، وراحت تحاضر بشأن الأصالة والحداثة والتقاليد التي تحدّد الهويّة وتصنعُ الفارق. أراد يومها أن يسألها إن كانت ترغبُ في اقتناء لباس نائليّ تقليديّ، ماذا لو أنّ امرأة كرحمة، تحوّلت إلى امرأة نائليّة أصيلة، تضع الزّمالة، وعلى صدرها مَدوَر من فضّة، وحذاء أبيض مثل الذي احتفظت به أمّ الخونية؟ اعتبرت رحمة أنّ لباسهُ يجعلهُ مميّزًا ومثيرا، ولأنّها تعلّقت به فقد كانت تعبّر عن سعادة مبالغ فيها إزاء أيّ تصرّف يقوم به.

صديقُها الوفيّ أو عشيقها أو بنكها... لا يعرفُ مينا أين يضع بايزيد الذي يزورُ رحمة بشكل متواصل، ويتصرّف بكل وقاحة في بيتها. كانت تدفعهُ إلى الخروج كلّما جاء رجلها، وكان يبدي الكثير من البلادة في الاستجابة. تضايقَ منه بايزيد قليلا في البداية، لكنّه بدأ يتقبله لدرجة أنّ اهتمامه بدأ يتحوّل تدريجيا من رحمة إليه، وأصبح يفضّلُ أن يجلس إليه ويتجاذب معه أطراف الحديث بشأن القرابة والجلفة والتقاليد والتراث النّائليّ.

وضعهُ بايزيد في موقع لم يستطع أن يحدّده، جعلهُ يشعر أنّه مبهورٌ بذكائه وأفكاره، فأطلقَ العنان لنفسه، وكانَ يجلسُ ندّا له في صالون رحمة الذي احتكرهُ لنفسه سنوات. أوَهمهُ أو توهّم أولا أنهُ يقول كلاما فارقا، وامرأتهما سعيدة بتفوّقه، وتعيسةٌ لأنها لا تنفرد ببايزيد؛ ولها في الرّجل مآرب لا يعرفُ منها مينا فصلا. ويجهد نفسه كي ينأى عن فكرة وجودهما مع بعض دون جدوى. هي لم تقل لهُ إنّه رجلها، لكنّهُ يشعر أنّ رحمة تناسبُ لحظته الرّاهنة، تواكبُ قفزتهُ في الهواء بألوانه العديدة.

استغرق وقتا وهو يتخيّل تفاصيل لقاء رحمة ببايزيد، ولم يسألها

الحكاية. كان يضعُ تكهّنات كثيرة ويعجّلُ في إسقاطها، ورغم أنّ رحمة خرجت من الحيّ، إلا أنّ مينا فاته الحصول على حكايتها كاملة. اقترب منها عندما جاءه، قبل سنوات قليلة، عيسى الجرديني يطلبُ منه ـ رفقة شباب ـ أن ينقلوا أثاثا جديدا نحو شقّتها، لم يكن هذا دورهُ، لكنهُ ضروريّ كي يلتقيها. تنقّل في شاحنة لبايزيد من وسط المدينة إلى حيّ قناني، حيث عمارات البابور، كانت في أعلى الباخرة، في شقّة ضيّقة في اتّساع، ضحكت معه واستقبلته بكأس عصير، وأراد أن يطلب منها أن تسمح لهُ بالبقاء، تسلّلت سريعاً إلى أعماقه. كان فارغا تماما، لا يريد إلا أن يحقّقَ انتشارهُ عبر نشاطات مختلفة ومتعارضة في الجمعيات والمقاهي، وصادف أنّهُ نسيَ أن يهتمّ بهذا الجانب، نسيَ أن يعرفَ امرأةً حقيقيّة. لقد جعلت الخونية صورة المرأة في ذهنه مختلفةَ، هي كائن مقتدرٌ، قويّ، يصغي أكثر ممّا يحكي، يبتسمُ ولا يضحك، يشيرُ مقتصداً في اللّغة، ينام متأخرًا ويفيق باكرا، وربّما لا ينامُ أبدا، يعيشُ في عزلة ويملك أخبار العالم، يحبّ الله ويحبّهُ الله، المرأة فقط من يمكنها أن تكون كلّ هذا، ولم يكن زهد الخونية السّبب الوحيد في نفي صورة سليمة للمرأة من ذهنه، فجدّتهُ أيضا ظلّت تزحفُ بعيدا عن كونها امرأة بسبب الفارق في السنّ بينها وبين جدّه، حيث دخل هو مرحلة العجز، وما تزال ممتلئة وقادرة، غير أنّها تخلّت عن أسباب الزّينة وسلوك النّساء.

كانت رحمة سيّدة تذلّل الصّعاب وتفتح الأبواب، واستثمرت في وضع بايزيد، فرسمت لها بورتريه لطالما حلمت به كلّ النساء. امرأة في منتصف الثلاثين ممتلئة الجسد، بيضاء، عيناها واسعتان ومغرقتان، ابتسامتها مفرحة، تمشي في كثير من الدّلال وتتعمّد إظهار جزء من ساقها المرمرية، امرأة تعرف أنّ قلب الرّجل السهبيّ

يخفق في غيابها وفي حضورها بالوتيرة نفسها. أصبحت رحمةً على الكثيرين، يقصدونها للتوسّط لدى بايزيد وقضاء مصالح عالقة، حتى الإمام الشابّ الذي نقلوه إلى مسجد بعيد استطاع أن يعود إلى مسجده بفضلها، ثمّ دعا لها أمام الجميع ورددوا بعده: «آمين»، ولم يقصد الخونية ولا دعا لها.

بايزيد منع النّاس من الحديث عن تلك العلاقة بأيّ شبهة، وقد امتلكت صفةَ مناضلة في الحزب الذي ولد كبيرا، وليس بوسع أيّ أحد أن يتّهم المرأة في شرفها، بما فيهم مينا الذي يقيمُ عندها منذ أشهر. لم يشهدها مرّة واحدة تمنحهُ أكثر من كفّها عندما تستقبله، الفارق الوحيد أنها لا تتجمّل لأحد كما تفعل معه، وتلجأ إلى ارتداء فساتين طويلة تصفُ جسدها ولا تشفّ عمّا وصفت. رأى ذراعيها أكثر من مرّة، وعرف تدويرة ثدييها لكثرة ما وضعت أمامهُ الأكل والمشروبات، دون أن تحذر عينيه المتجولتين سرّا في جسدها. صار يعرفُ بشأن شامة يسار الثّدي اليمين، كأنّها كانت تُريد أن تجعلَ ذاك الدّرويش الذي يرتدي اللّباس التقليديّ يستمتع قليلا بأمر مختلف، هل كان يستمتع؟ وهل يناسبُ جسد امرأة مكتمل وناضج ومهيإ وجامح، كجسد رحمة رِدّة مينا وانتقاله إلى القرن الماضي؟

(2)

ما كان نصيبهُ؟ يتساءل كلّما رأى منها ما يثيرُ: «ما الذي حصّلهُ منها بايزيد؟». بدأت علاقته بهذا الرّجل تأخذ منحى القبول، لولا أن التقاهُ ذلك المساء في سلّم العمارة، فانفجرَ بوجهِه، ولم يكنْ مينا مستعدّا لأن يردّ انفجارهُ. قال له وهو ينظرُ قامته صعودا نزولا: «ما هذا المهرجان يا ولد؟ ماذا تفعلُ بنفسك؟ الاهتمام بالتراث وحمايته

أمر والانزلاق الخطير الذي تعيشهُ أمرٌ مختلفٌ». شرح لهُ بعنف لا يليق بمقامه كندّ أو نديم، شرح وهو ينظرُ من أعلى، شرحَ وهو يفشلُ في دفع غيرته من رتبة الشابّ لدى رحمة، أو هكذا بدا لمينا وهو يصغي لوابل من الملاحظات بخصوص زيّه.

عندما واصل بايزيد صعوده إلى شقّة رحمة، جمد الدّمُ في عروقِ حامي التّراث، ولم يعرف إن كان عليه المواصلة أم العودة ومواجهته؟ جلس على درج رافعا قندورتهُ كي لا تتّسخ، وتصوّرَ أنّهُ لو ردّ وواجه بايزيد فربّما يكونُ مطرود رحمة، ربّما يكونان معا مطرودَي بايزيد. ماذا عساهُ يقول لها الآن؟ تمنّى أن يكون مشغولا بشأن آخر غير لباسه الذي جرحهُ، ظلّ في مكانه ساعة؛ وهو الوقت الذي كان بايزيد قد قضّاهُ في الخيمة، ولدى مغادرته ألقى عليه كلمات تقبعُ بين الاعتذار والتّنبيه: «يا مينا لا تشغل نفسك بالقشور، البس مثل كلّ الشّباب واحم تراثك، وإلا فستفقد الكثير من الأشياء ولن تعوّضها يوما». وبدا أنّهُ اكتفى منه، لكنّه عاد ليقول بلهجة غاضب: «كاين واحد لابس عمامة في عمرك؟ هبال هذا». ومضى بعد أن اتّهمهُ صراحة بالجنون.

كان مينا يافعا، ووحيدا، وقرّر أنّ يكونَ حكيما؟ هل يجتمعُ هذان الأمران؟ أمضى شهورا في تلك الغيبوبة من الحكمة، يصطادها على جنبات الطّريق، في الكوابيس والأحلام، في حركات الأطفال وابتسامات الشّيوخ، يصطادُ حكمتهُ من اهتزازات أثداء النّساء اللواتي تجاوزن الأربعين وأنجبن، كانت الحكمة مستلقية في كلّ الأماكن وهو يرعاها، وترعاه رحمة بكثير من الشّفقة المغلّفة بالاحتماء، كأنّها اكتشفت أنّه لا يحتاج إلى شفقة واضحة. ومثلَ الدّواء الذي يوضع في الأكل أو في الماء، وضعت شفقتها ونبلها في رغبتها بالاحتماء.

ظلّت سخرية بايزيد من عمامته جاثمة على صدرهِ، وشكا الدّيلي

ألما من وضع ابنه. الحقيقة أنّه لم يكن بوسعه وهو شاب في السبعينيات أن يفعل ما فعلهُ مينا، لقد صدم تلقّي الجميع بلباسه. في السبعينيات من القرن الماضي التهم الشّباب كلّ جديد بلهفة، أصبحوا بتسريحة واحدة، وبأرجل فيلة تمشي كأنّها خطى مكرّرة، العالم كلّه كان كذلك، وقتها قادت الحكمة والد مينا إلى أمّه فأنجباه، أمّا مينا فقادتهُ حكمته إلى رحمة، المرأة التي لا يذكُر النّاس اسمها إلا سرّا، والتي تثير غيرة الفاتنات، لم تكن أجمل امرأة، العارفة والتالية وزليخة وفتيحة ومنى وجويدة وزهرة وحبيبة وضياء وسّعدية كلّهن أجمل، لكنّها امرأة بسلطة، سيّدة بيد مطلقة، تمنحُ وتقرّر ما تشاء. رحمة أيضا تعرف أنّ مينا كوالده أقلّ شأنا من غيره، تُدرك تماما كم هو ورقيٌّ ومهملٌ، لكنها تجدُ لذّة في مسعاها لتحويلهِ إلى رقم حقيقيّ فاعلٍ.

قالت له يومها إنّ بايزيد يبتعد وسوف يتركنا، لقد اختار أن ينأى، وكانت تبكي الرّجل وهو يشعرُ بحنق، لقد قصفَهُ قبل قليل ومضى، ألا يفترضُ أن تبكيَ المقصوفَ بدل أن تبكي القاصف؟ لم يتجاوب مع حزنها، استجاب تماما لألمه. نزعَ العمامة ووضعها على المائدة كأنّها على رأسه، محافظا على اعتدالها، ورغبَ أن يقدّسها، أن يحنّطها، أن يجعلها تمثالا وسط المدينة بدلَ الكبش المخصيّ المهزوم. قرّرَ داخلهُ أن يسخر من بايزيد، وفتّشَ فلم يعثر على شيء. قفزت إلى ذهنه خالتهُ ربيحة التي ربّتهُ، ولكنّ رحمة مرّت أمامه فتلاشت ربيحة، هو أيضا تربّيه رحمة، فكّر أن يعيّره بالكرموس الذي كان يعملُ عندهُ في صباه، لكنّ الكرموس يقول إنّ بايزيد يساعدهُ ويبرّهُ كابن له، ليس في بايزيد ما يثير السّخرية.

كانت تلك آخر زيارة لبايزيد، اهتمَّ برحمة من بعيد، ولم يكن السّببُ زواجهُ من التالية فقط، بل رغبة منه في منحها الحقَّ في حياة

ترضاها. تمنّى أن تتزوّجَ مينا أو غيرهُ، وأن تبدأ حياة تستحقّها، وتقلّصت سعادة مينا بلباسه التّقليديّ، واستغرقَ أيّاما يفكّرُ في حلّ لمعضلته تلك، أيخون توجّههُ ويعود إلى سابق عهده، أم يتحدّى الجميع ويواصل غوصه في التراث، فينفصل عن العالم الرّقمي الصّادم؟ ساعدتهُ رحمة ليجتاز امتحانه العسير بسلامة، فكانت تطلب منه أن يرتدي ما يريد في شقّتها، ويواكب النّاس في الشّارع، وجدهُ حلّاً سحريًّا، والتزمَ به.

مرّ وقت صعبٌ على رحمة وهي تعدّدُ خصال ومزايا بايزيد، بدت وكأنّها تبكيهِ في كلّ حركة، كانت أوّل شخص يبكي بايزيد ستة عشر سنة قبل رحيله، وكان يتوقٌ لتدخين سيجارة فتمنعهُ وترفض الخروج معهُ إلى الشّرفة. بدا أنّ رأسهُ سينفجر بسبب اتّساع بايزيد داخله وهوّة السيجارة والشّعور بقلّة الحيلة. بدا لهُ أنّ كلّ خطاب يصدُرُ منها هو إلغاء لوجوده وتشكيكٌ في قدراته، هي تصفُ بايزيد وهو يبحثُ عن الصّفة أو ما يقابلها عندهُ.

في تلك المرحلة تأكّدَ لهُ أنّ كلّ المشاوير التي قام بها كانت هباء، وقرّرَ أن يغيّر الكثير من معالم حياته. كانت مصدومة من رحيل رجلها، ولن يصدمها برحيل آخر؛ لهذا أجّل رحيلهُ وغرق في تأمّله وتخطيطه للقادم، وتسرّبَ إليها الرّحيل القادم، فاقتربت أكثر تستنزفُ حضورهُ وتخزّنُ منهُ ما يسلّي القادم.

(3)

غادر رحمة وفي قلبهِ بقية منها، لم يكن فاشلا، هذه المرّة الوحيدة التي أطمأنّ فيها إلى نفسه، لم يقرأ عاصفة بايزيد القاسية مرّة واحدة، بدأها ورقة حاقدةً، وأنهاها متحفّزاً، أراد من قلبهِ أن

يخيّبَ نظرتهُ تلك، وفي مساره لم يجد أفضل من التقلّب في أكثر من نشاط جمعويّ، والاستفادة من الوساطات التي قام بها بين الحرفيّين والإدارة، وبين زبائن من خارج الولاية وباعة القشابية والبرنُس الوبريين. جمع في وقت قصير ما يكفيه ليقف على قدميه، بعد سنتين كان الرّئيس الجديد يطوف البلاد كلّها، واختاره مستقبلوهُ ليحضّر لهم بُرنسا يليق به، كانت مهمّة صعبة، فالبّرنس الوبريّ يصنع عادة لرجال كاملين، بقامات وأكتاف وهمّة، وهذا ما يعوزهُ الرّئيس القصيرُ، ولكنّهُ نجحَ حقّا ووجد البرنُس المناسب، وحصلَ على ضعف سعره، ومنذ برنس الرّئيس ترسّمَ كمقصد للسياسيّين والرّشاة والمتسلّقين من أجل الحصول على البرنُس الوبريّ. كان هذا اللّباس التقليديّ رمزاً للفحولة والعظمة، وتحوّلَ إلى فراش يَدوسُهُ القوّادون وتجّار المناصب والوافدون الجدد على السّياسة. لم يكن التراثُ الذي يدافعُ عنهُ ليمنعهُ من ترويج أكبر قدرٍ من البرانس، بل تمنّى في داخله أن يكثر الوافدون على الجلفة، وأن يتعاظم عددُ القوّادين، وأن يحلمَ الجميعُ بالتّرقية والصّعود، ويقتني كلّ فرد برنسهُ لرشوة العام تحت عنوان هدية أو احتفاء.

انتظرَ الدّيلي أن يحصلَ على برنس من مينا يقدّمهُ إلى آلهة الشّعرِ، اعتقد أنّ الحياة كلّها عملٌ ومقابلٌ، وأنّهُ لم يُقدّم شيئا لهذه الآلهة الجاحدة، لم يمنحها ما يجعلها تدنيه، ولكن أين يعثرُ على هذه الآلهة؟ مينا لم يرشُ والدهُ ببرنس، لكنّهُ بدأ يحفظُ له بعض الودّ ويرسل إليه ببعض الفواكه أو الأكلات الجاهزة، وأحيانا كثيرة السّجائر الرّفيعة التي حلّت بديلا عن سجائر الأفراز الرّديئة.

بدأَ الدّيلي إجراءات التّقاعد أملا في التفرّغ لمينا والشّعر، خطّطَ أن يلتقيه يوميّا، أن يزوره حيث هو، ولم يضع في حسبانه أنّهما تحت

سماءين مختلفتين، هو كان تحت سماء الانتخابات، ترشّح في قائمة حزب سلطويّ للبرلمان، وكان مؤلما له أن يجدهُ في ذيل القائمة، حيث لا أمل له في البرلمان، شعرَ أنّهُ باع اسمهُ وهويّتهُ التي كان هو جزءا منها، وحين التقاهُ بالمقهى بعدها كان مع حشد من المتسلّقين والوصوليّين السّياسيين. لم يتجاهلهُ، وقف وقصد طاولتهُ وحيّاه، ثمّ فتحا نقاشا سريعا حول تقاعده، وشجّعهُ أن يفعل سريعا. كان في الخمسين، ومينا في السّابعة والعشرين، وكانت أولى الانتخابات المحليّة في عهد الرّئيس بوتفليقة، وخضعَ لرأيه. بعد أسابيع قليلة ملأت صوره الشّوارع مرشّحا متقدّما في ذات الحزب لانتخابات المجلس البلديّ، وفاز بمقعد بالبلديّة، ثمّ برئاسة لجنة، ثمّ بحبّ النّاس وهو يحتكّ بهم دون أن يقدّمَ شيئا، وفاز الدّيلي بالتقاعد، لو أنّهُ ما زال موظّفًا بالبلديّة لالتقاهُ يوميّا، كان ذلك فخّا رصدهُ وزيّنه لهُ، ولو كان يعلم أنّه سينجح عضوا في المجلس البلديّ لواصلَ العمل. فشل ما خطّطَ له ونجحَت خططُ مينا، أراد أن يتقاعد ليتفرّغ له، وأرادهُ أن يتقاعد ليزيحهُ من أمامه، «تراهُ كان يتألّمُ من وجودي؟» يشكُّ الدّيلي في تقاعده ليشغل وظيفة الأب والشّاعر.

شعرَ بغيرة من الولد الذي يزحفُ نحو النّجاح. في سنّهِ ملأ ورفاقه الدّنيا نظريّات، لكنّهم لم يفعلوا شيئا، في سنّهِ لم يكن يروق لهم الوضعُ والسياسة والحياة والموت، لا شيء مطلقا، لكنهم لم يملكوا هذه السّطوة والقدرة التي يواجه بها هو ومجموعة من الشّباب المشتعلين، ليس من أجل الوطن، فقط من أجل موقع لهم، فالذي لم يعثر على وظيفة يمكنه أن يكون قوّادا أو سياسيّا رديئاً، أو محترفَ رشوة. أصبح الفساد كالدّيمقراطيّة، خطاباً يوميّا مائعاً لا يمكن القبض على أوّله ولا الوصول إلى آخره.

لم يعد لخيمة رحمة إلا في زيارات عابرة، ولم تكن تريد أكثر من وجهه لفترات متباعدة. أمّا الدّيلي فقد وصل لمرحلة صعب فيها أن يكتم حاجته إليه، ويكاد شوقهُ يصل شوقَ الخونية أو الشّعر. مرّت السّنوات سريعا، والتصقَ هو تماما بالمجلس البلديّ. فمنذ الانتخابات الأولى في عهد السّلم إلى غاية الثانية والثالثة لم يبرح المجلس البلديّ، وهو طموح أن يصل مجلس الأمّة، لولا أنّ عرّابَ الحزب الذي ينتمي إليه يفضّل عليه من يملك رشوة أكبر من البُرنس. أمضى أزيد من عشر سنوات، ثلاث عهدات في المجلس البلدي، ولم يحظ بوالده عهدة واحدة، ولا حظيَ بأمّهِ، يستحقُّ تعويضا كهذا، ولكنّ بشير يستحقُّ تعويضا أيضا.

بايزيد ساعد مينا في الانتخابات الأولى، وقف إلى جانبه عندما حاولوا إزاحته. كانت لهُ كلمة، وعرفَ أنّ مينا إذا وُضعَ في أوّل السكّة فإنّ قطاره لن يتوقّف. دفعه وغادر الحياة سريعا، وعندما مات كان يتنعّمُ في أوّل العهدة الثالثة، والرّئيسُ يتأهّبُ للعهدة الرّابعة بالقليل الذي تبقّى منه. أ تكون الرّئاسة تعويضا لبوتفليقة عن خسارات أخرى؟ وما خساراتُ الرّئيس إذا كانت خسارات مينا والديه؟

نظّم دورة في كرة القدم إحياءً لذكرى بايزيد، وجمع لها ما استطاع لتكون ناجحة، وتوّجَ الفريقُ الفائز بعمامة البطولة، ولم يفهم أحدٌ ما علاقة العمامة بكرة القدم، وكيف أمكنهُ أن يحضّر تلك العمامة المعدنيّة التي كانت صورة عن عمامته التي اعتمرها قبلَ سنوات في خيمة رحمة، وسلّمَ شوقي ابن بايزيد العمامة لفريق القرابة الذي فاز، رغم أنّ منافسيه من باقي الأحياء كانوا أكثر تنظيما وقوّةً، بفضل موهبة البُرنس التي يعرفها مينا.

مرّت رحمة على ملعب بن جرمة الذي استضاف الدّورة، وأوقفت

سيّارتها أمامه، وانتظرت قليلا قبل أن تتجاوزَ خوفها وتردّدها. نزلت، وتوجّهت إلى الملعب. جلست في المدرّجات الشّرقيّة، حيث وجّهها المنظّمون، وحيّت مينا من بعيد. كان رئيس البلديّة جالسا أمامه، وكذلك الوالي وأعضاء من البرلمان. وعندما انتهت المباراة النهائيّة الشّاقة، وفاز فريق القرابة، انشغل مينا بتسليم العمامة إلى جانب الوالي، ولم ينس أن يرمي عينا إلى المدرّجات، وفي غفلة منه اختفت رحمة، وأصغى الجميع لكلمة شوقي التي كتبتها له أمّهُ، وممّا جاء فيها: «لم يكن بايزيد رجلا فقط، ولم يكن ذكيّا فقط، ولم يكن خدوما ومحبّا للجميع فقط، ولكنّهُ كان مؤمنا بقدرات الإنسان، وظلّ طوال حياته يساعد الشّباب وأهلهُ وسكّان الجلفة، وفي هذا اليوم نتمنّى من الجميع أن يترحّموا على روحه الطّاهرة، ونرجو أن تتذكّر الجلفة ابنها الذي بدأ من الصّفر ولم يتوقّف قبل أن يصنع مجدهُ ومجدها».

في سيارتهِ كان يتذكّرُ وجهَ رحمة، ويرى مجدّدًا تلك الشّامة على يسار ثديها اليَمين، وتكبرُ الشّامةُ حتّى تصيرَ فكرتهُ الأهمّ. «ترى من أيضا يعرفُ بشأن الشّامة؟».

أرأيت النملة تبول؟

(1)

مينا ساحرٌ لا يفوتهُ أمرٌ في المدينة، يسأل ويتحرّى ما يدور في كلّ مكان، يعرفُ المشاريع والمقاولين، المساجد والأئمة، الزّوايا والمشايخ، المقابر والموتى، يعرفُ الشّوارع، البيوت، القبائل والعائلات، يتّسعُ وينأى، وفي الوقت الذي صار بارّا والدهُ ويسأل عنه، صار أبعد من أي وقت. كان الدّيلي يسعى سعيا ليلقاهُ، وكان مينا يستعيض بفاتح ليكون موفدهُ، وكأنّ الجميع يريدُ العثورَ على موفَدين عنهم، لا أحد يروقهُ أن يؤدّي واجبه، فموفدٌ من كان مينا وموفدٌ من كان والدهُ؟

الآن يحضرُ حفلات الزّوايا، ويتقرّبُ من أقطاب الصُّوفيّة. مينا وحشُ سياسة وتخطيط، ولا ينظر في أيّ اتجاه إذا حدّد الهدفَ، ولأنّهُ ابن العارفة فقد ملك بعضا من لغتها، بضعا من سلوكها، ووظّفهُ متى احتاج إليه، ورغم أنّ المسافة بينهُ وبينَ بشير الدّيلي قريبة إلا أنّهُ لم يستغلّهُ يوما، لا شيء فيه يغريه. لم يستخدم فهمهُ للسياسة، فهو بقايا يساريّ مفلس، ولم يستخدم فهمهُ للثّقافة، فهو مشروع مثقّف لم يكتمل، ولم يستغلّ قِدمهُ في القرابة، فهو حديث مقارنة بجدّه لأمّه الذي مات قبل سنوات، بينما كان هو في مؤتمر الحزب بالعاصمة، ودُفنَ قبل أن يصلَ، ومرّة أخرى تلقّى الدّيلي التعازي بدل ابنه، وفي زقّاق الحمامة كانت الشّمس عموديّة لوقت أطول من المعتاد، دوّخت

المعزّين، وجعلت الجثمان يتعرّقُ، وأضاءت لبشير الفضاء، فكان يستعيد نفسهُ طفلا يعدو قاطعا الزّقاق، ويرى جدّهُ عبد الله الكرّوش يمشي في هيبة. جدّهُ الذي فقد ابنه من أجل الوطن، تماما مثلهُ. فابنه أصبح مهموما بالسياسة في الوطن، الحقيقة أنّهُ لم يكن يوما ابنه، لقد ردّد الدّيلي حتّى اقتنع: «كنتُ والدهُ فقط!». في الواقع كانا أقرباء دم، كان يحملُ اسمه. مرّت الجنازة بسلام فلم يحضر الشّاعر الرّاحلُ مسعود بلخضر، ولا السلطات المحليّة. جاء قليلٌ جدّا من الدّراويش والمخلصين لذكرى العارفة، وكان أغلبهم قد عجز أو مات، ومضوا بميّتهم إلى مقبرة المجحودة، على المسار نفسه لدفن الخونية، وكان الدّيلي في رهبة يخشى أن تنطقَ أو تخرجَ فتدينَ سلبيّتهُ نحو مينا، ولم يجد جوابا يطفئُ غضبها، أفضل من لغة تشبهها، فراح يقول لها: «الله يعرفُ لمَ يسّر كلّا لأمره، فليس بوسعي أن أغيّر قدر مينا بحيلة دنيويّة دنيئة، ولا أملك صفة إلهيّة، وأستغفر الله أن أكون، فلا أجدني في غيابك إلاّ وحيدا يفتّشُ عن سبب لغده، وغريباً يأملُ في أوبة لوطنه، وأمّا الولدُ الذي بثثت من روحك فيه، فستحميه القدرة الالهيّةُ وأدعيةُ الصّالحين، كما كسرت ساقهُ يومَ همّ برحمة، وسترين منه ما تأملُ الأمّ وأرى منهُ ما يأمل المحبُّ، فلا تقسي عليّ يا الخونية ولا عليه». كانت الجنازةُ تصل خاتمتها بدعاء الإمام وقراءة الفاتحة أمام قبر العجوز. وقف الدّيلي عند قبر العارفة الذي نمت حوله أعشابٌ كثيرة لا تتشابهُ، ورفعَ يديه يتذكّرُ الفاتحة، وفي كلّ آية يستعيد سنوات طويلة من الوحدة، ويتوقُ إلى العارفة. على يمينها كان هناك فراغ يناسب جسمه، ودّ أن يطلبهُ لنفسه، أن يحجزهُ، لكنّ اليمين لا يروقهُ. تساءلَ إن أمكنهم زحزحة العارفة قليلا وتدبّرَ مكانٍ لهُ جهة اليسار، جهة القلبِ.

مينا لم يستخدم جدّهُ الشّهيد؛ لأنّهُ لا وجود لحكاية واضحة عن

بطولته المزعومة، فأب الدّيلي مات مقتولا، قد يكون قتيل زوج أمّه المجاهد الذي عرفهُ وتكتّم عن تاريخهما المشترك. مينا لم يكن ليعثر عند والده على شيء. قال الدّيلي لقبر الخونية وهو يُغادر المقبرة بعد تعازي فئة قليلة حضرت دفن أبيها: «لو أني كتبتُ قصيدتي قبل ميلاد ابنك، لكان الآن فخورا بوجودي، لكنت أبا يُعتدُّ به، لكنّني منحتهُ فرصة أن يكون ابنك، ألا يعتبرُ هذا انجازا منّي يستحقُّ التحيّة والثّناء، لو أنّي انحزتُ للقصيدة لما وُجدَ مينا ولا وجدت في حياتي أبدا». وأثناء مغادرته المقبرة رأى سؤالهُ عن الإشارة التي حوّلتها إلى زاهدة يتنطّطُ أعلى القبور بسرعة مذهلة، لكنّهُ عجزَ أن ينطقهُ، فمضى صامتا مقلوب القبّعة.

عندما رجعَ مينا أعيد ترتيب جلسة عزاء مناسبة، ثمّ وجبة دعا إليها أهمّ الوجوه السياسيّة العفنة، وأهمّ التجّار والمقاولين وكبار المدينة. طبعا لم يكن بينهم الأبُ الموعود لحفل أكبر. بعد أن أهتمّ بتجديد المأتم التفت لجدّته المقعدة منذ أشهر، أحضر امرأة تخدُمها، واتّفقَ معها أن تتّصل بالدّيلي متى حصل مكروهٌ مع أحد أفراد العائلة، يقصدُ الفرد الوحيد المتبقّي له جدّتهُ التي خيّبت نبوءة بشير، وماتت في حضور حفيدها بعد أيّام من رحيل زوجها، وخيّبَ الدّيلي الجميع عندما اكتفى بانتظار الموكب في المقبرة، وأخذت هي قبرهُ المرجوّ دون أن يستأذنهُ أحدٌ. دُفنت يمينَ العارفة، وبقيَ مدفوناً في حياة معلّقة.

كانت المقاهي تبدّدُ وحدتهُ،كأنّها سحرٌ، فكلّما فقد وجهةً لجأ إليها. الدّخول للمقاهي يجعلهُ يلبسُ طمأنينة الفناجين إزاء الشّفاه، والخروجُ منها يعيدُها لترتدي خطاه وأفكارهُ، كأنّهُ لعنةٌ يجب اقتسامها مع طرف آخر. يجلسُ في مقهى يتناولُ فرارة، فيسمع بعض الأخبار عن العالم، ولا يدري لماذا ينتابهُ شعور بأنّ هناك خديعة كبرى في هذا

العالم، خديعةً تجعلُ العالم أنواعاً ونماذجَ، كلٌّ يغيّرُ قناعهُ وقناعتهُ وفق منفعته أو مضرّة عدوّه.

(2)

«تبّا للفلسفة، تبّا لعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والأركيولوجيا والميتافيريقا والفيزيقا وعلم السياسة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، تبّا لمحكمة العدل الدّوليّة وللعدل المحلّي وللمبشّرين بالسنوات الجديدة وللمستشرفين، تبّا للمقهى الذي يفتتحونه بعد أيّام في الجلفة الجديدة، وللمقاهي التي تمّ افتتاحها خلال السّنة الماضية ولكلّ مقاهي المدينة، تبّا لي أيضا، وللجميع... وطوبى للعارفة ولأبي الذي رحل لا يفهمُ ممّا ذكرتُ شيئا». هكذا حدّثتهُ نفسهُ وهو يجلسُ في شرفة شقّته مدخّنا ويائسا. لقد أرهقهُ تحليلهُ للعالم من منظورٍ ذاتيّ. تطلّع إلى الجميع بوضعه القادم، يتحدّثُ وكأنّهُ كتبَ القصيدةَ، ويُفكّرُ في الذي يلي القصيدة، ويَعيشُ غد القصيدة، والحقيقة تصدحُ أمامهُ أنّهُ في فترة مبكّرة من الحقب التي تسبقُ القصيدة: «إيه يا الدّيلي أكلت عمرك ترقُبُ وصولها في المكان الخطأ»، يقول وهو يلجُ الصّالون خلف دخّان سيجارته الذي دفعتهُ نسائم خفيفة إلى الدّاخل.

كان الشّعر كلّ العلوم وكلّ الرؤى، والنّاس عبيداً يتعافون من ألمهم البشريّ في مملكته، كان الشّعرُ طقسَ الحياة الأول والأخير، ولم يكن يشقى بهِ، تماما كمينا. كان ابنه يعيشُ قريبا منهُ، لكنّهُ لا يلقاهُ، حتّى لقاءاتهما لا تشفي شوق الأبَ، ولا تفي بحاجة الابن، كأنّهما معنى يُخفي لفظهُ، كأنّهما قصيدة لا تُكتب أبداً.

في المقهى بدا أنّ مينا يوجّهُ الكثيرين، بعض الذين عرفوا أنّ الدّيلي والدهُ المسكين اقتربوا منّه يقترحون مساعدتهم، وجميعهم

مصرّ أن يناديهُ «الحاج»، وهو مستغربٌ متسائلٌ: «هل اختفت الألقاب من هذه المدينة؟ لم يعد من لقب إلا هذا». اقتربَ موسمُ الحجّ. بشير يملك اللّقب فلا حاجة له بالفريضة، لكنّ مينا يطرق عامه الثّالث بعد الأربعين قريبا؛ لهذا فقد شدّ الرّحال إلى جدّه رسول الله، وعلّقَ العار برقبة والده المشبوه. سيقول المهتمّون إنّ الأب الملحدَ قد أنجب مؤمنا، ولا مشكل في هذا؛ فالفاسقُ يولد من ظهر عالم أو تقيّ.

لا يذكُرُ بشير كم استغرق حجُّ مينا، فغيابهُ كان يعادل فترة حجّة عادة، لكنّهُ عاد أبيض، كأنّهُ الشّيخ الأبيض الرّائي، وهادئا كأنّهُ شفيَ من دم أبيه البوهيميّ. زارهُ في بيت زقّاق الحمامة، ووجدَ عنده كلّ عمّال البلديّة الذين عملَ معهم سنوات طويلة، ولم يلتق بهم خارج العمل أو المقهى، ولم يزرهُ أحد منهم في غياباتهِ عن العمل. وجدهُ في وضع يُحسدُ عليه، وقد وقفَ لدخوله وقرّبهُ من موقعه، ينظرُ إلى نفسه وقد علا جبهتهُ سوادٌ، وجبهة ابنه الحاج نورٌ، ولم يكن لينتبه لدرن لباسه، لولا أن جلس أمام مينا بثوبه الأبيض الفاخر. شعرَ بكثير من الحرج وهو يقدّمهُ فخورا به، ويصنَعُ لهُ مكانة ولقبا؛ فيقول: «هذا الوالدَ الحاج بشير»، ويتّجه من أشار إليهم نحوهُ ويسلّمون عليه بحرارة، وسمعَ الدّيلي للمرّة الأولى النّاس ينادون ابنه: «الحاج إبراهيم»، وتفاجأ، فكان يشعر أنّهُ التقى بشخص آخرَ، تعاملهُ مختلفٌ ووجههُ مختلفٌ وحتّى اسمه آخر. من هو إبراهيمُ هذا؟ نسي تماما أنّ مينا اسمهُ إبراهيم، لكن اسم من يحمل؟

جاء بعضُ أهل الحيّ، كان يحيى أوّل الوافدين ولم يطل البقاء، شربَ قهوته مقرفصا، ثمّ رفعَ رأسه وغادر مسرعا، كأنّ شؤون الدّولة عالقة برأسه لا برأس بوتفليقة الذي يملك الوقت فيسافر أسابيع للعلاج خارج البلاد. جاء منصور شقيق التالية، وسلّم على الجميع،

ثمّ قبّل رأس الدّيلي، وهو أوّل شخص يفعلُ هذا في تاريخه المبتذل، وكان فاتح ينظّمُ دخول وخروج الزّائرين في المحفل المينيّ العظيم.

شعرَ بالرّغبة في المغادرة. كان الجميعُ مفتوناً بمكّة وبالحجّ وعوالمهُ إلا هو، كانوا يمجّدون التكنولوجيا الإيمانية التي سهّلت المناسك، وكان يريد المغادرة بسرعة، ولكنّ مينا ظلّ يضعُ يده على ركبته في كلّ مرّة وهو يحدّثُ وفود المُهنّئين، ويطلقُ لسانهُ الخطيب يحفرُ رُخام القصيدة الذي يسكن أباهُ، لهذا فقد تعذّرَ عليه الخروج، لكنّهُ ـ وفي لحظة ما ـ طلبَ منهُ أن يُرافقهُ. دخلا إلى غرفة داخليّة، وسحب علبة سجائر ومنحهُ سيجارة. أوقدا سيجارتين، وتنفّسا بعيدا عن فوضى المهنّئين وأجواء الإيمان العابرة. قال إنّهُ أحضر برنسا خليجيّا، وبعض الأشياء التي ستروقهُ، وشكره رغم أنّهُ لا يعلم إن كان سيهتمّ بما جلب من أجله. طلبَ سيجارة أخرى من المارلبورو، وتركهُ يعود إلى مهنّئيه. دخّنَ جالسًا في فناء بيت العارفة، وكان يسمعُ عبارات التهنئة المنافقة تصعدُ من الحناجر المهزومة: «حجّ مبرور يا سي إبراهيم». «الله يبارك... الله يبارك نور على نور».

أدار رأسهُ وكان يعرفُ خلوة الخونيّة. اتّجهَ نحو بابها ومسحَ برفق. هدأت عروقه، وسرى دمٌ حكيم في جسدهز وقفَ أمام الباب الخشبيّ الخشن. دفعهُ قليلا، فأنّ لهُ بصوت طفوليٍّ. دفعَ أكثر، ففُتحَ الباب وتوقّفَ عن الأنين. تلمّسَ عن يسارهِ وأنار الخلوة. كانت أوّل مرّة في حياته يدخلُ فيها خلوة عاشقة إلهيّة ومجذوبة وزاهدة، بل لم يدخل يوما خلوة. جالَ ببصره مصدوما، وكانت أناشيد تصعدُ من الغرفة، أو تُبعثُ من رأسه. لم يتصوّر أنّ الخونيّة كانت تمضي سنوات طويلة هنا. غرفةٌ منظّمَةٌ، مكتبةٌ صغيرةٌ، سريرٌ في الوسط عليه فراشٌ أصفر، لا يعرفُ إن كانت تركته هكذا. اقتربَ من الخزانة على الجدار

المقابل للباب، مرآة واحدة من الأعلى إلى الأسفل في الباب الأوسط، وبابان مغلقان عن اليمين والشّمال. مسحَ على الأبواب كلّها، لا جرأةٌ لهُ ليفتحها، وكان مشدودا لسجّادة بيضاء، وعليها مسبحة أطول ممّا رأى، ربّما تتجاوزُ حبّاتها المائة. كان عالما نقيّا وهادئا وبسيطا، وارتفعتْ أصوات المنشدين الذين يسكنون الجدران.

في خلوتها راح يُفتّشُ عن مخبأ سريّ يكون مأوى للجنّ، عن مهبط يفضي إلى أسفل الأرض، عن سبب عظيم يدفعُها لتترك كلّ الدّنيا وتخلو بنفسها هنا. كان بعض دنياها، ولكنّهُ كان أقرب إلى الموت، فلمَ لمْ تسحبهُ معها إلى خلوتها ويتركا كلّ العالم. لماذا مرّت وحدها إلى سرّها ولم تعرض عليه السرّ فينوء به معها؟ ترتفعُ أصوات الإنشاد كأنّها تخرجُ من الخزانة، خزانة السرّ الربّانيّ.

شيطانهُ يقول لهُ افتح الخزانة، وبما أنّهُ لم يَحجّ فيمكنهُ اقتراف ذنب مشابه، ثمّ الحجّ ومحو كلّ الذّنوب. لم ينجح الأمر، وفشل شيطانهُ في خلوة العارفة التي تحرسها الملائكة، فخرجَ مسرعا يستجدي سيجارة، ثمّ يستجدي الفرار، بينما ارتدّت أصوات الإنشاد والمنشدين لتسكن السّكون في الغرفة والجدران والخزانة. بعد يومين زارهُ فاتح يحملُ كيسا، ولم يسعد كثيرا بما أحضر لهُ، حملَ المصحف ووضعهُ في ركن بالصّالون، وعلّقَ الألبسة في الخزانة بغرفته، وفتحَ الهاتف النقّال وراح يعبث به لعلّهُ يفهم ما يخزّنهُ هذا الجنّ، وكان يأملُ أن يعثرَ داخله على رسالة أو صورة، أن يسمع من خلاله إنشادا يتسرّب إلى الرّوح، كالذي يطلعُ من غرفة العارفة، تلك الغرفة التي لم تكُن تعني لمينا والبقيّة أكثر من متحف صغير، وفي أبلغ الحالات فضاءً روحيّا يمكنُ أن يحمي قاصدها من الخوف والشكّ، لكنّهُ لم يفكّر يوما أن ينأى عن الحيرة، تلك سمته الاهمّ.

ظلّ مينا مرتبطا بتلك الغرفة سرّا، ينام فيها متى شعرَ بثقل فيصحو أفضل، ويدخلها مستعجلا ومتضايقا وغاضبا فيخرج منها هادئا وحكيما. ارتبط بالأمكنة وأراد أن يطوّعها، كانت غرفة العارفة تعويضا كبيرا عن إخفاقات مينا الصّغيرة، ولم تكن العرافة إلا خسارة الدّيلي العظمى.

(3)

بينهُ وبين مينا خطوات متبادلة، أحدُهما يأخذُ من خطى الثّاني. لا حرج في ذلك؛ فهو جزؤه الذي يمشي على الأرض وينمو ليصبح أكبر من الأصل، ويبدو أنّهُ نجح في خياره، ووضع قانون العلاقة بينهما. هو خبيرٌ، ويعرف من أين تبولُ السّمكة، أمّا الدّيلي فقد أصغى لمسارٍ مختلف. كان يعتقد في شبابه أنّ خياراته ستضعهُ في قمّة ما، ولم يحلم أن يكونَ مشهورا أو نجما، حلمَ من أجل شِعرهِ ومن أجل الإنسانيّة، لم يضع فرقا بين الجيران والأشخاص الذين يظهرون على التلفزيون في هايتي أو الموزنبيق أو كوبا، كان يعتقدُ أنّ الجميع هنا ليؤثّثوا الأرض، وبعضهم ضروريّ لبعض. كان يميلُ إلى اليسار الجديد، يصغي رفقة ناصر بكثير من الفرح لأخبار الصّين الماوية، ويتمنيان ثورة ثقافية، ثمّ فجأة غاصت قدماه إلى الأسفل، كأنّه كان يمضي على طبقة هشّة لا على الأرض، لم يعد ماويا ولا ماركسيا تروتسكيا ولا يساريّا، لم يعد شيئا سوى هذا الكائن الذي يزحفُ ببطء ليسلم من ورطة الوقت من مأزق العالم. مينا لا يعنيه كثيرا أن يسمعَ أخبار العالم، يهتمُّ فقط بأخبار محيطه الضيّق ويتمنّى الخير للبقيّة، ربّما لأنّ اليسار لم يكن قُطريّا عكس اليمين، ربّما لأنّ الفكر الذي رضعه الدّيلي أو أرضعهُ نفسهُ كان متحرّرا من الأفراد.

بعد مرور شهر كان الدّيلي يشتاقُ القرابة، ورغبَ أن يزور مينا، لكنّهُ قاومَ تلك الرّغبة، شعرَ دائما أنّهُ عليه أن يمنحهُ فرصة ليرتاح منهُ، لكنّهُ كان يطرقُ باب شقّته صباحا ويطلبُ منهُ أن يتجهّز ليرافقه إلى عين الإبل تلبية لدعوة غداء عند أحدهم، راقهُ أن يطلب رفقتهُ فاستعجلَ وجهّزَ نفسهُ، وخرجَ مسرعا، بينما كان مينا في سيّارته أسفل العمارة يتحدّثُ في الهاتف. بدا لهُ أوسم بكثير ممّا كان دائما، هو يعرفُ الآن كيف يسيّر أمورهُ، وهذا يسعدُ الأب فيه، وهو ينتظر أن يتعلّم أيضا كيف يُسيّرُ أمورهُ قريبا، فقط بمجرّد كتابة القصيدة التي أمل فيها منذ نصف قرن مضى.

فقد كلّ منهما الشّعور بالوقت، ربّما كانا ميقاتا مشتركاً، كانا يتّوحّدان للمرّة الأولى، ولم يُرد الدّيلي العودة من إغفاءته تلك، ولا مينا أرادَ أن يفعل. ركّزا معا في الصّمت البليغ، ولم يشعرا بالشّاحنات التي كانت تهزّ السيّارة، لا بوقوفهما في منعرج، لا بالرّيح التي كانت تعبر السيّارة عبر نافذتيهما المفتوحتين. لم يستغرق الأمر إلا دقائق، لكنّ وقعهُ كان أكبر. أدار مينا المحرّك مجدّدا، وخلال الطّريق إلى عين الإبل تحدّثا في كلّ شيء، ولم يتحدّثا عن شيء. أرادا التعرُّفَ على بعض أكثر. كانا كصديقين حميمين، نكتٌ وذكريات وسخرية من الجميع. حكى مينا قصّة العمامة وبايزيد، وقصّ الدّيلي بغصّة قصّة الزّين وأوّل قصيدة. وحين وصلا تناولا خروفا مشويّا مع مجموعة صغيرة من السياسيّين المتسلّقين. أثناءَ العودة لم يُخف الأبُ المزهوّ عن ابنه وصفهُ لشركاء الخروف المشويّ، وكان الابن سعيدا بوصفه ذاك، واعترف له أنّه لا أحد يفكّر في المواطن أو الوطن، جميعهم متسلّقون يسعون لتنفيذ مشاريعهم الشّخصية، وآخر همّ لهم هو الصّالح العام، ثمّ ردّد: «انتشر الفساد يا سي بشير»، وتنهّدَ كأنّ فيه بعض اليسار.

توقّف في محطّة خدمات بمدخل مدينة الجلفة الجنوبيّ للتزوّد بالبنزين، فاغتنمَ الدّيلي الفرصة ليفرج عن بولة حارّة ظلّت حبيسة منذ ساعات. دخلَ مراحيض المحطّة، سحب حزام السّروال ليمنح لروحه الحريّة. ألا يشعرُ الآخرون بأنّهم في أسرٍ إذا احتبس البول داخلهم؟ علاقة مضطربة أن تحبس في جوفك ما يجعلكَ محبوسا. المهمّ أنّهُ رأى نملة على مرمى بولته، فودّ أن يُغيّر وجهتها، لكنّ فريقا كاملا من النّمل كان ينتشرُ سريعا في جفاف المكان العفن. أعاد كلّ شيء إلى مكانه، وخرجَ يطلب كابينة أخرى، كانت حالتها أقذر من تحمّل المنظر والرّائحة معا، الكابينة الأخيرة مغلقة بإحكام، لعلّها مستعمرة من أحدهم أو مخصّصة لصاحب المحطّة وعمّاله. يكاد ينفجر؛ لهذا يعود إلى النملات الصّغيرات. عندما دخلَ وجدَ النّمل قد احتلّ المكان، وأصبح رفقة البولة حالة عصية على الفهم. تضامنت النملات، خاصّة النّملة التي تتجوّل في مرماه مع البولة العنيفة، وحطّما عقلهُ تماما، فصارَ أقرب إلى المجنون. في النّهاية أغمضَ عينهُ وأطلقها كما فعل مينا بقنابله في معركته المشهودة، ولم يكن يستطيعُ أن يُواصل البولة الطّويلة مغمضَ العينين، لأجل هذا فتحتهما، وإذا بالنّمل متفرقٌ في كلّ جهة، كجيش ينزفُ. شعرَ أنّهُ نجحَ في تشتيتهم، «لكنّ ما سبب معركتي معهم؟»، كان هذا السّؤال الفلسفيّ العميق ما يشغلهُ في انصرافه من المكان القذر الأهمّ.

«أيقتُل الشّعراء النمل؟ وهل يبول شاعرٌ في الحداثة على نملة عزلاء؟». خرجَ مرتاحا من جوفه، لكنّهُ متأزّمٌ من سلوكه غير الإنسانيّ تجاه النّمل. «تراهُ فكّر مينا في تأسيس جمعيّة لحماية النّمل من البولِ والخطى والتقلّبات الجويّة؟». في السيّارة سألهُ: «هل تعرفُ كيف تبولُ النّملة؟»، وأجابهُ أنّ النّمل له جلدٌ، واستغربَ لذلك فأكّد لهُ الأمر.

«هناك حتما كائنات أكثر دقّة يبولَ النّمل عليها ويأسى»، قال الدّيلي، بينما هزّ الحاج إبراهيم رأسهُ موافقا. كان يرتدُّ إلى طفولة ابنهز وجدهُ يوما أسفل زقّاق الحمامة منكبّا على جُحر نمل يحدّث القبيلة، وقف يصغي لخطابه الذي كان استجداء للنمل أن يحافظ على اختفائه؛ لأنّ الأطفال متوحشون وسيدوسونهم جميعا، ساعتها نفرت دمعة من عينه، أحسّ أنّ الطّفل يشكو وحدةً، أنّهُ ملعون مثل أبيه، وسيتعذّب بحمل ما. انصرف وتركهُ يخطبُ في جحر النّمل. في اللّيل توقّف عند الجحر ذاته. أشعل شمعة واستجدى النّمل أن يكون رؤوفا بابنه، أن يسمع خطابهُ، لكنّهُ نسي كلّ هذا وبدّد جمعهم بطوفان بول.

قال لهُ: «لماذا لا تكتُب كتابا؟»، وأسعدهُ أن يكون هناك بعدٌ معرفيّ في حوارهما، فردّ بسؤال: «عن أيّ شيء سأكتب؟». اقترحَ أن يكتب عن تاريخ مدينة الجلفة، أو عن القرابة، ولم يجد الدّيلي الفكرة ساذجة، لكنّهُ فكّرَ في قصيدة أكثر من أيّ أمر. كان مينا يتحدّث عن الكُتّاب الجدد في المدينة، يقول إنّ عدد الشّعراء والكتّاب أكثر من عدد السكّان، ثمّ يضحكان معاً بصوت مرتفع. يقول الأبُ المنتشي كسكران: «عليك أنت أن تكتبَ أيضا إذاً كان الجميع يفعلُ». عندما كان يضعُ قدمهُ مغادرا السيّارة سألهُ ابنهُ: «هل أنت شاعر؟»، فارتبكَ وصمتَ، وغارت عيناهُ، وصعد كلّ دمه إلى أعلى رأسه، لا جوابَ يملكه سوى ابتسامة، ولا يعرف كم من العمر مضى وهو يصعد إلى شقّته دون أن يصل، وكانت تلك اللّيلة عسيرة جدّا، فلم ينم بعدها لليلتين، وتكثّفَ داخلهُ شوقٌ كبير للقرابة، شوقٌ ليس يحدُّ، الأمر الذي دفعه إلى زيارتها.

2/ أرض النّاجي

زقاق الحمامة

(1)

ما زال الزُّقاقُ الذي يحملُ تفاصيل هذيانه على حاله. أطلقَ عليه الرِّفاق: «زقاق الحمامة»، وبلا فلسفة أو مقدّمات لشرح السّبب. كان بشير الطّفل يتسابقُ مع الأولاد بإطار عجلة أو بمعدنَ طويَ ليأخذ شكلها، واتُّخذتْ له دعامة من السّلك الصّلب لتدفعه، كانت أداة بسيطة، لكنّهم يتفنّنُون في قيادتها ويملكُون حيل وخبرات توجيهها والتمايل بها. لم يكن قد أصبح الدّيلي بعد. أظهر مهارة عاليةً في قيادته للعجلة خارجَ السّباق، وفشلا ذريعا في كلّ مرّة تنافس فيها، والسببُ أنّهُ لا يرى شيئًا من فرط السُّرعة، وبالكاد يميّز أصوات الأطفال الذي يجرون في خطٍّ واحد معهُ، وتتداخل عليه الجدران الصّفراء المتشابهة وأرض الزّقاق الترابية المائلة، وفي ذروة التهام المضمار لهُ كانت تطلعُ أمامهُ حمامة بنية صغيرة، فيصيح: «الحمامة...الحمامة»، ويتوقّف عن السّباق، ملتقطا عجلتهُ بكفّ الدّعامة المعكوفة، وتتلاشى الحمامة، ويصيح بهِ الأولاد: «ينعل دين أمّك»، ويصمتُ لأنّهُ لا يستطيعُ أن يردّ على شتيمتهم القاسية. الطّفل الذي كان إياه مؤدّبٌ لدرجة عجزه عن التهوّر، حدّ الصّراخ باكيا في وجه أحد أترابه، تكفي «إن شاء الله تمرض»، والإسراع إلى جدّه عبد الله لحكي التفاصيل. يضحكُ الجدُّ، وتُخزّنُ الجدّة الحكاية لمساء جماعيّ مع نساء من الحيّ. بعد أشهر قليلة اكتشفَ أنّ جدّتهُ تتسلّى بعذاباته الصّغيرة، فأصبحَ يؤلّف لهاً

خصامات وشجارات يومية لمتعتها، ويتجنّب في الواقع أيّ خصام مع الأولاد. كان زقاق الحمامة الخرطوم الطّويل المتلوّي هو ذاته الفضاء الذي طلعت منه «العارفة»، وبدأت حكايتهما وحبّهما فيه. ظلّ مرتبطا به؛ فقد كبرت فيه أحلامه، وتحوّل الزقاق من مضمار سباق إلى فضاء ساحر يطلقُ الحمامات والعارفات، فأيّ فضاء يمكنهُ أن يصلَ سُدّتهُ الأعلى؟

الأطفالُ من أبناء الحيّ أو المنتمون إليه؛ لأنّ أجدادهم أقاموا فيه أو يقيمون، ارتبطوا بأزقّته. اليوم كلّه كان عدوًا في كلّ الاتجاهات. أسرابٌ من الملائكة تقفزُ من زقاق إلى آخر. بعضُ الأزقّة لا تبخلُ على المارّة، فتلقي بهم إلى وسط بيت ما. تلكَ الأبوابُ الخشبيّة الهرمةُ لا تتوانى في الإصغاء لأيّ نسيم، لتُشرّع عن آخرها. لم يكن الجميع ملائكة؛ فبشير خبّأ داخلهُ شرّا صغيرا يكفيه، ورغم أنّ ذلك الشرّ الجميل أدّى واجبه غير مرّة، إلا أنّهُ لم يجده مجديا مع رفاقه في اليسار سابقا، وفي جهة العدم لاحقا.

كانت العارفة تَتعلّمُ الجريَ في شارع الحمامة عندما بدأ هو يرعى شرّهُ الصّغير، ولعلّ شرّهُ من عمرها لو كانت حيّة الآن؛ ربّما لهذا هو يُحبّها كثيرا، وربّما لأنها شكّلت بالنسبة لهُ وجها آخر للشرّ اللّذيذ الذي اكتشفه تزامنا مع اكتشافها، بهذا يكون يكبرها بأربع سنوات وبعض الأشهر، لكنّها - وبقفزة واحدة - رمت به إلى هوّة سحيقة، وقبل أن يصل العشرين كانت هي تفّاحة أمام نهمه الأعظم.

عرف كلّ شباب القرابة أنّهُ مولعٌ بها. أصبحَت حروف اسمها تحرجُهُ ولو في كلمات أخرى، فإذا ذكر حرف من اسمها ارتبكتْ أرضهُ، كأنّ الآخرين يكتشفون بقيّة الحروف التي تعرّيه فجأة، لكن لمَ أحبَّ الدّيلي العارفةَ كلّ هذا الحبّ قبل أن يُكلّمها أو تكلّمهُ؟ قبل

أن يعرفَ منها أو تعرف منهُ شيئا؟ لمَ أصبحَ مهووسا بها وأصبحت هي كائنا غير مبالٍ بأمر سوى بالطّريق التي تقطعُ كلّ يوم من وإلى المدرسةِ، صارمة وواثقة كأنّها تدرّسُ لا تدرسُ؟ هو هكذا الحبُّ في القرابةِ والجلفة كلّها، تعرفُ اسم الفتاة ثمّ تبدأ حكايتك الطّويلة، تكتشفُ الزّاوية التي تستضيفُ هوسك بها وتعمّرها بأحلامك كلّ يوم.

من سوء حظّه أنّ بيت العارفة كان في زقّاق الحمامة، ولم يكن هناك طريق إليه سوى العبور المكشوف مرّة أو مرّتين على بابهم الأخضر، كان بابا من حديد، على عكس عادة السّكان في تلك السّنوات، إذْ ظلّوا أوفياء لأبواب الخشب، ولم يغيّروها حتّى مطلع الثّمانينيات؛ عندما بدأ القصير عكاشة يصنعُ الحدث في المدينة والقُرى المجاورة. عكّاشة كان حالة بين الحقيقة والأسطورة، يخرجُ أحيانا من دلو الدّهان الصّغير، وينزلُ أحيانا من المدخنة، وقد يدخل من الباب أيضا مستخدما مفاتيحه الخاصة، لعلّه قَتلَ، لكنّ الأسطورة حوّلته إلى قاتل مفترس، لا يستطيع من لقيهُ إلا تسليم عُنقه، لم يكن عكاشة شيطانا فقط؛ بل كان شيطانا وإنسانا في آن، يعني أن شرّ الدّيلي الصّغير لم يكن لينجّيَه منه لو وقعَ بين يديه. لكن هذا حصل في شبابه، ولم يشغلهُ كما شغلتهُ العارفة والشّعر وأصحابهُ الذين تفرّقوا. أمر بسيط آخر ظلّ يربكهُ هو «رائحة الكرّوش والعرعار»[1] في فصل الشّتاء، لا أحد يعرف كيف كان ينتشي برائحتهما، وعندما اتّفق هو والحبّ صار يُمضي ليلهُ متنقلا بين أزقّة القرابة، ويعودُ في كلّ مرّة إلى شارع الحمامة، في طواف ممتعٍ، مغلّف بالقدر الكافي من الحزن؛ لتحسّس الشّعر داخلهُ.

كان في الحيّ حكواتيّ، لسبب ما أطلق عليه السّكّان اسم: «دحمان

(1) الكرّوش: حطب البلوط الأخضر.

التريسيتي». لكن دحمان هذا لم يكن حالة متاحةً في فضائهم ذاك، ظلّ يأتي بأخبار عجيبة، بينما يجلسُ الجميعُ في خشوع، كلّ ما بدر منه لم يكن مفهوما إلا في جزء قليل. دحمان التريسيتي كان مهووسا بجرير والفرزدق وما دار بينهما، فكان الشّاعران مُقيمَين في القرابة أكثر من التاريخ، بل إنّ بعض المستمعين لأخبارهما راحوا يجدون أصول الشاعرين.

التريسيتي كان ليليًّا أيضا، لا يُعرفُ ما يخفيه ببيته من أسرار أو كتب، ظلّ يلتقي الدّيلي في طوافه ذاك غير مرّة، وفي كلّ لقاء يلقي بتعليق يربكُهُ، يقفُ يتفرّسُ وجههُ في الظّلام ويسأل في مكر: «وش خرجك يا طفل؟». بينما يسحبُ ورق الماصة وعلبة التبغ السّوفي، ويشرع في لفّ سيجارته، كلّ ذلك وبشير يلتفتُ ويُشيرُ بيديه نحو الفراغ مفتّشاً عن جواب. في إحدى المرّات طلبَ منهُ أن يرافقه، وربّما طلبهُ الحقيقيّ أن يعرفَ خارطة طوافه، لعلّهُ يكتشفُ شيئاً. مشَيَا عابرين من أعلى الحيّ إلى الأسفل، ثمّ العكس، وخرجا إلى الطّريق، ثمّ لفّا على الحيّ ليعودا من جهة «دشرة عيسى القايد». أثناء الرّحلة البطيئة بدا أن التريسيتي حزينا، كان يفكّر أن يبيع بيته ويغادر إلى مدينة حاسي بحبح، ليقيم بجانب شقيقته الوحيدة وأبنائها. قال لهُ: «لم تريد الرّحيل؟»، أجاب: «دوري تقلّص، بعض المهتمين برغيي غادروا الحياة، وبعضهم غيّر سكنهُ، الآن يتّجهون إلى أحياء الضّاية وبن جرمة وقناني، اكتشفوا الحياة خارج القرابة، وأنا لن أبقى هنا عالة». كان التريسيتي قد زوّجَ بناته الثلاث قبل سنوات، لا يذكر مُرافق طوافه إلا آخرهن «أم هاني»، التي كانت ممتلئة الجسم، كأنّ دحمان النّحيلِ المحنيّ منحها كلّ لحمه. استطاع أن يشتمَّ جنونهُ بالعارفة. عندما ولجا زقّاق الحمامة كانا قد ولجَا حكايات الحبّ، أربكهُ أكثر

وهو يقحمُهُ في هذا العالمَ، حيثُ لم يعتد الأمرَ من رجلٍ بسنّه في الحيّ. لم يكن يلمّح، كان صريحا جدّا.

عمّر دحمان التريسيتي حتّى شهد مينا، وحكى له بعض الحكايات، وامتلأ بيته بالأطفال الذين أخذوا شبه أمّهاتهم، وحين مات لم ينتبه أحدٌ في غمرة الخوف. كان النّاس مشدودين إلى انفجار قنبلة وسط المدينة، وكان الدّيلي غائبا عن الحيّ، فلم يصلهُ خبر رحيل رفيق طواف الحبّ الأوّل والأخير. بعد أيّام بلّغهُ مينا بالخبر، ولم تكن زيارتهُ لأجل نعي دحمان، ولكنّها زيارةٌ لنفسه، لصورته فيما مضى، لمولى الحيرة؛ لعلّهُ يقبضُ عنه بعض الحيرة التي لفّت خطاه.

لم يجد زاوية يتعشّقُ في ها العارفة. بقيَ يمرّ حذرا؛ خشيةَ أن يكتشفَ الآخرون ولههُ السريّ. يسحبُ نفسا من السّيجارة، ويمرّ سريعا عبر الزقاق ولا يرى الحمامة البنيّةَ، فمنذ ظهرت العارفة لم يعد هناك حمامٌ، وأضحى هديلها أغنية الحيّ الأثيرة. كان باب بيت العارفة الأخضر يصبحُ مضيئا في اللّيل، وكثيرا ما تحسّس حظّهُ، إذ يُحبَّ فتاة مشغولة بالدّراسة لأبٍ متفتّح وأمّ تقرأ القرآن. أوشكَ أن يُصبح نجما وهو ينفثُ دخان سيجارتهِ الذي يضيعُ أكثرهُ في صدره، قبل أن يصل إلى منتصف عنق الحمامة، حيث بيت العارفة.

(2)

في السّبعينيات من القرن الماضي، أمضى الدّيلي أشهرا عديدة رفقة زين العابدين وناصر وعبد الحميد، يناضلون لتغيير الوضع. أرادوا عالما أفضل، ووطنا أجمل، ومدينة أهمّ، وحيّا كما هو يفيضَ سحرا وجمالا. كانوا يفكّرون، يتحاورون، يتجادلون، يتصادمون، يتفكّكون وينبنون مجدّدا. كانوا بصدد إقامة دستورهم ليلا ومحوه

نهارا، يرسمُون أفقا ويتوبُون عنه، يحلمون بمسار ويزيدُون عليه إلى أن يصبح كابوسا، فيشرعون من جديد. كانت تلك أشهُر نضال سريّ، لا يعرف أحد عنها سواهم، بينما اعتقدَ باقي شباب الحيّ أنّ الأمر مرتبطٌ بلهو وطيش لا غير. زين العابدين كان يقرأ كتب اليسار والشّيوعيين وكتبَ التراث والدّين، ثمّ توقّف عن ذلك وقرّر أنّه «لا فائدة من الثّقافة، الأمورُ تحتاجُ ممارسةً»، والتحقَ بمدرسة الحزب. ناصر كان موسوعة حقيقيّة، يقرأ بنهم، ويعتقدُ أنّ الحلّ اجتماعيّ قبل أن يكون سياسيا. كوّن أغنى مكتبةً في الحيّ، وربّما في المدينة. عبد الحميد ظلّ محافظا على الحزب الرّاتب بين المغرب والعشاء، يوازنُ بين اليسار والتديّن، تعلو جبهته مارة سجود خفيفة، وهو يؤمنُ على الدّوام بالحبّ، ويتحدّثُ عنه أكثر من أيّ شيء آخر، لو أراد لكان أقرب له أن يتصوّف، هو مربّي الحيّ الأهمّ في شيخوختنا، تزداد نظّاراتهُ سمكا كلّ عقد، ويزدادُ فرحا.

لم يعرف الدّيلي من القراءة إلا الشّعر. جرّبَ قراءة نصوص أخرى، لكنّ الأمرَ لمْ يعدُ بعض المسرحيات أو الرّوايات. قرأَ قليلًا من الكتب الفكرية التي جلبها الرّفاق، ولم ترقهُ، قصيدة واحدة تفي بالغرض، طالما كان يقول لهم: «بإمكاني أن أكتب عشر مجلدات في شرح عوالم قصيدة ما». وكان الزّين ينفعلُ من هذا ويحمل نفسه ككلّ مرّة، ويتحدّاهُ أن يكتب عشر صفحات فقط في شرح قصيدة، ويقبلُ تحدّيه ويستعدّ ليفعل إخراسا له، ثمّ يستسلمُ للقصيدة تشرحهُ وتفعل به ما تشاء، وكلّما شعرَ بالامتلاء شعرا انصرفَ ليمشي. أحيانا يستغرقُ أربع أو خمس ساعات في جولات فوضويّة عبر أزقّة الحيّ، حتى وقت متأخّر من اللّيل، وكثيرا ما أرسلت السّماء خيوطا من نور وهو يمضي، كأنّهُ يُوزّعُ من الشّعر على أرجاء الحيّ. في النّهار ينامُ،

ومساء ينتبهُ أنّهُ لم يشرح بيتا واحدا من تلك القصيدة، يعرفُ سلفا أنهم سيقولون لهُ: «أنت شاعر فاشل»، لهذا لم يتمكّن من الحديث عن الشّعر كثيرا معهم. دار بهم العالم فقط ليقبلوا العودةَ إلى القصيدة التي تسكُنهُ. مع الوقت عرفَ الجميع ما يُريدُ، فأصبحوا يطلبونَ أن يختصر، وصارَ يعرفُ ما يُريدون فاختصرَ قدر اتساع صبرهم.

أصبح زين العابدين مناضلا بسيطا في صفوف الحزب الحاكم، وتحوّل من حالم معهم بعالم يوتوبيّ وأزقّة فاضلة إلى صانع للخراب. الآنَ بالكاد يذكرهم. في آخر لقاء منذ سنتين ابتسم في وجهِه، وسألهُ: «راك مليح وش أخبارك يا الدّيلي؟»، وقبل أن يشرعَ في الإجابة وسرد أخبارِه كان غارقا في الضّحك لنكتة ألقاها زميل له بالبرلمان، لم ينتبه أنّ موعودَ القصيدة قد انصرفَ، ولا سأل عنهُ لاحقا، ربّما لن يعثرَ عليه، وإن سأل فهو لا يملك هاتفا نقّالا. رغم ذلك لم يَشعر بالصّدمة، لقد جاء من أقصى الحلم إلى أقصى الكابوس، هو ذاته قال مرّة: «علينا التشبّث بالحلم باعتدال حتى لا يلفظنا». لم يعد يحمل الشيء الكثير من زينو، ولا بشير يذكُرُ الكثير ممّا كان عليه. ضمن صناديقه الكثيرة في بيت القرابة يوجد ما يمكنه أن يستدعي بعضهُ من كتب وأوراق، هو لا يملك الجرأة الكافية ليفعل. منذ سنوات كانت آخر مرّة يدنُو فيها من تلك الصّناديق، أراد أن ينفض الغبار عن إحداها فصُعقَ؛ غلاف الكتاب الأول وحده أغرقهُ في مدى، تظاهر بأنّهُ لم يقرأ عنوان كتاب: «تاريخ الشّعراء الملوك»، وخشي من بقيّة الكتب، أين كان منهم؟ وملكٌ على أيّ أرض هو؟ أغمض البيت وارتدّ إلى الشقّة.

ناصر لم يكبر أبدا، واحتفظ بالنّظرة ذاتها، عينان متذمّرتان حتّى في الفرح، لا يُعطي أقصى ما لديه، دائما يحتفظُ بالنّصف، لا يشبعُ أكلا، لا يتحدّث بكلّ شيء، لا يشتاقُ إلاّ قليلا، ولا ينفعل إلاّ

برفق، لا يحبّ علنا أو يحبّ بقليل ممّا ينبغي، لهذا فهو الأكثر صغرا رغمَ سنّه التي تقاطع أعمار الرّفاق.

عبد الحميد كان ـ وما يزال ـ شيخا، هو بدأ من الحكمة والحبّ، ولم يغيرهما. كان هذا حزبه الذي يهزم كلّ الأحزاب في القرابة، لو ترشّح لهزم الجميع؛ بسبب سنوات دعوته ورعايته للحبّ الطّويلة في أزقّة القرابة. لم يعد أحد يذكر حكاية ميمي التي التصقت به في بداية صباه، ولولا الجماعة اليساريّة المبكّرة لما أمكنهُ الخروج من صفة المخنّث، فقط بسبب أدبه الجمّ وحركاته المنتظمة وجدوا لهُ مأزقهُ الوجوديّ المناسب، الحقيقة أنّهُ تمكّن من تجاوز ارتخائه وتصلّبَ أكثر في فترة وجيزة، والنّتيجة أنّهُ تحوّل إلى مدرسةٍ غير معنيّة بباقي الرّؤى، يواصلُ بابتسامة وينجحُ دون لؤم.

عرف الرّفاقُ هوس رفيقهم بالعارفةً، واعتبروا الأمر أقربَ إلى الجنون. ناصر قال له: «أنت تتطلّع لطفلة يا الدّيلي»، وعبد الحميد اعتبر الأمر فراغا عاطفيّا لا غير، وجزمَ أنّهُ سينسى أمرها لو التقى امرأة حقيقيّة. أمّا الزّين فقد أيّدهُ وشجّعهُ أن يلتقطها صغيرة ويعتني بها ويربّيها لتكون نصفًا كاملا، وأسعدهُ أن اتفّق معه أخيرا في أمر ما. كانوا بالكاد يُقفلون السّنة الثانية من العقد الثّاني، ولم يدركوا بعدُ أنّهم سيكبرُون أكثرَ. كان ذلكَ هو أقصَى العمر وأقصى المعرفة. الآن وبعد أن قطعُوا تلك المسافة أصبح الزّمن ملعونهم، فهو منتصرٌ لا محالة. يقولُ عبد الحميد كلّما التقى أحد الرّفاق: «لقد تجاوزنا كلّ المراحل، نحن نتدحرج نحو النّهاية، وفي كلّ الحالات لن نعيش ثلث ما عشناه، لن نمشيَ أطول من المسافة التي قطعناها مهما أسرعنا، ما ننتظرهُ كلّهُ هو ما عشناهُ حقّا».

بعد سنوات، قال ناصر الماوي قليلا، والتروتسكي قليلا: «اليسار

سقط من أعلى قمّته يا الدّيلي، الصّين أصبحت بلدا ليبراليا، يقيم غرفة للشيوعيّة في متاحفه، والاتحاد السوفياتي تحوّل إلى وحش ليبرالي يأكل أعضاءهُ، لا يبدو أنّ العالم جهات، العالم جسدٌ لا يحتفي بالأبعاد ولا بالإنسان، كان يفترضُ أن يكون العالمُ حفلةً بهيجة للإنسان، لكنّهُ يدفعُ إلى مزيدٍ من الدّمار». أمّا الدّيلي فكان ينفث دخانهُ غير معنيّ بما يحصلُ في العالم، فالعالم كلّهُ مدين للشّعر ليشفى من أعراض التوحّش.

(3)

Elle disait : «J'ai déjà trop marché
Mon coeur est déjà trop lourd de secrets
Trop lourd de peines»
Elle disait : «Je ne continue plus
Ce qui m'attend, je l'ai déjà vécu
C'est plus la peine»[1]

كان فرانسيس كابريل يملأ الدّنيا صخبًا بأغنيته، بينما صوت مينا يملأ زقّاق الحمامة صخبا، وهو يجري ليلا حاملاً علبة مصبّرات. ثقبها العيدي من الثّقب وأسكن جوفها شمعةً، بعد أن طعنها بمقبضٍ خشبيّ. ها هو يفتحُ زقّاق الحمامة بقنديله، بينما يُصغي إلى كابريل وحدهُ في غرفته الكئيبة، يحتسي النّبيذ متألّما. كان يرقصُ أو يُعانق وسادة أو يُدخّن سيجارة أو يتعرّى ويبكي. كان رحيلهَا يزدادُ قسوةً، كلّما اقتربَ أكثر من زقّاقها، وكان مينا يكبرُ وحدهُ. كابريل بدا حزينا

(1) فرانسيس كابريل أغنية «كان الشتاء» «c'était l'hiver» صدرت سنة 1979.

وهو يتكلّمُ عنها، كم كان الشّتاءُ باردا مذ رحلت! وكم كان باردا عمقُ الدّيلي! احتفلتَ بعيد ميلادها التّاسع عشر بين ذراعيه، وبكلّ أعيادها بعيدة. وضعت الطّفل في بيته، وسعدَ بفكرة أن يكون أبا. كان ثاني الآباء ضمن الرّفاق، ولحق بهِ عبد الحميد بعد أسبوع واحد. أنجبَ طفلة جميلة. بدأت تكبرُ، وعرف أنّها لا تسمعُ بالولادة، إذن هي صمّاء بالعادة. يوم مولدها هنّأهُ وقال له: «هذه عروس ابني». كانوا سعداء بحجمهم في الحياة، لكنّ خطيبة مينا مرضت، ولم يكن ينقص كثير من الحزن عندما ماتت. كان ناصر أكثرهم حظّا؛ إذ احتفظ ببنتين أولا قبل أن يضيفَ إليهن ثلاث جميلات أخريات. أسعدهم أن يكون الدّيلي أبا، وتحضّر هو جيّدا ليُغيّر حياتهُ. كان الأمر مفرحا، ولكنّ العارفة شطبتهُ بعد أسابيع قليلة. بدا منقادا، ظنّ أنّهُ اكتئاب ما بعد الولادة، هكذا شرح لهُ ناصر الأمر، وارتاح قليلا ما دام الاكتئاب هو الذي أملى قرارات رحيلها. الاكتئاب هو الذي يقف وراء اكتشافها أنّه لا مكانَ لها عندهُ، ظنّها ستُعجبُ بدور الأمّ والزّوجة لاحقا، أنّهُ يستطيعُ التقاط قلبها من سمائه، ولم يحصل الذي أراد، ولم يصل قلبها.

البرد كان أبديّا، مساءً. مضت تحمل مينا في قمّاطه ملفوفا بالغطاء الأصفرِ، ولم يعد أبا ولا زوجا، ولم يكن شاعرا ولا يساريّا ساعتها، كان فقط رجلا يتداعى وهو يفقدُ حلما جميلا بسرعة، «لمَ أفقتُ ولمَ حلّ الصّباح سريعا؟»، قد يكون هذا هو السّببُ الذي دفعهُ إلى الشّعور بكثير من السّأم تجاه الصّباح وتفضيل اللّيل إلى الأبد.

تمنّى فعلا أن يقول لها: «أتيت من السّماء، حيث النجوم، لا تتكلّم بينها إلا عنك»[1]، لكنّهُ أصغى إلى النّجوم تتغزّل بها ولم يرتق السّماء. كان معلّقا منذ رحلت، يعيشُ ويتحسّسُ فقدهُ كلّ ثانية، لم يحجم عن

(1) من أغنية ماري الصغيرة لفرانسيس كابريل «petite Marie».

الابتسام، لم يُقاطع النّاس، لم ينتحر، ولم يتوقّف عن الحلم، طالما يعرف أنّها موجودة في القرابة فالحياة ستكون أفضل، ولم يُفكّر أنّها ستعود إليه يوما، ربّما قهرهُ أن ينهار، أكثر من قهر غيابها.

هكذا أمضى البقيّة من أيّامه الأولى بعد هجرتها، هي بعيدة في متاهة الكشف، وهو وحيد في متاهة الحيرة، ومينا بين متاهات كثيرة يتدحرجُ. في أوّل سنة من زواجهما صدرت أغنية «وإن لم تكوني موجودة»[1] الجميلة، ولم يعد بوسعه الكثير. احتفظ ببعض الذّكريات التي كان يُكرّرها كلّ مساء، لم يكن وحدهُ، كانت المساءات مؤثّثة بوجوه الرّفاق، كانوا يسعونَ لتضميدِ جُرحه النّافر بالأوجاع، لكنّ عيونهم كانت تعترفُ أنّه لا أمل، لم يرغب في البكاء لحاله، فقد أدركَ منذ البداية أنّ غيابها يعني غيابهُ، وأنّ وجودها يعني وجودهُ، ولكنّهُ شعرَ بالخوف على العارفة، لا قبل لهُ بالعوالم التي اختارتها، لا يملك حلاّ أو حيلة ليمنعها عمّا تمضي إليه، ثمّ إنّها انقطعت عنهُ وأصبحَ من المستحيل أن يراها أو يلتقيها ضمن قوانين القرابة القاسية، حتّى مساعي الأصدقاء لتنظيم جلسات صلح مع والدها لم تكن مقبولة، عن أيّ مشكلٍ سيتحدّث مع جماعة العقلاء التي ستحضر؟ هل سيقول لهم إنها شعرتْ أنّ قلبهُ متيّمٌ بأخرى هي القصيدة فاختارت الرّحيل؟ هل سيصدّقون أنّه لا مشكل بينهما وأنها خيارات فقط؟ هل سيفهمون أنّه أضعف من أن يفرض عليها البقاء أو يُرغمها على أمر، وأنّها أقوى من الخضوع والاستسلام لسلطته؟ انتهى كلّ شيء إلى فراغ، فراغ كبير، وتحوّل زقّاق الحمامة البنيّة إلى شارع غراب مظلم، وكلّما مرَّ منه سمعَ صوت مينا، حتّى وإن كان اللّيل أصغى إلى همساته وأنفاسه. كان أصعبُ عليه فراقها من فراقه، يتذكّرها كثيرا ولا يتذكّره إلا في

(1) Et Si Tu N'Existais Pas - Joe Dassin Lyrics لجو داسين ليريك صدرت سنة 1975.

زقّاق الحمامة، لم يكن أبا له إلا بضعة أسابيع، بعدها أصبحَ مهجورَ والدته، وصار عليه أن يهتمّ بهذيانهِ نحوها أكثر من تفكيرهِ فيه، بل لعلّهُ شعرَ أنّ ولادته كانت لعنة عليهِ؛ فقد سلبتهُ حبيبتهُ وملهمتهُ، لهذا فكلّ ذكرياته وأفكاره وتصوّراته نحو العارفة كانت ببطن غير منتفخة، حتّى حين يتذكرها في أشهر حملها في مواقع بين المطبخ والفناء وغرفتهما يراها بلا بطن؟ داخلهُ أيقنَ أنّهُ ينفي الطّفل من حياته الزّوجية، فهو لم ينجح في إبقاء رابطتهما، فشلَ في منعهما من الانفصال، بل ربّما كان سببا فيه.

اقتفاء الشاعر

(1)

فاتتهُ لحظة نُضجه، وهو الآن يرقُبُ لحظة شيخوخته بحذر، ولو حصل أنّ هذه اللّحظة أيضا فاتتهُ فستكون خسارة عظمى، والغالب أنّ نزقهُ وتمدّدهُ في الشوارع لا يوحي بأنّه يتأهّب لقبض شيخوخته واستثمار لحظتها، لا يمكنه بعد خيبة مماثلة إلا ترقّب لحظة موته، المؤسف أنّه لا وقت لهُ لاحقا لتأمّل تلك اللّحظة رفقة الآخرين، لا يمكنهُ أبدًا نقل التجربة، ولا يمكن لقصيدته الحبيسة أن تُنحتَ على إيقاع تجربة الموت.

في حيّ القرابة، لم يكن أحد يعرف عن «ايرك ساتيه» شيئا، أكثرهم ذوقا كان يعرفُ موزارت أو بيتهوفن. في السّبعينيات عاش شباب الحيّ الرُّومانسية مع الأغاني القادمة من فرنسا، بينما ظلّ فريق الطّرب العربي يُسمعُ من البيوت ليلا وصباحاً. الدّيلي أدمن ساتيه، صحيح أنّهُ يسمع غيره، لكنّهُ يعود إليه كلّما شعرَ أنّ جراحهُ فاغرةٌ، كان يزدادُ قربا منه كلّما أصغى إليه، ليست موسيقى ساتيه راقصة وليست هادئة، هي حالة تجعلُ زواياه تتحرّك دون أن تقتلعهُ من مكانه، تربتُ عليه حيث هو وتحوّلهُ إلى المعزوفة، كان معزوفة سرية في الحيّ الحزين، وكان يحترمُ شيخوختهُ رغم اعتقاده أنّه لم ينتبه للحظة نضجه، إلا أنّهُ اليوم يعي أنّ المأزق كان في تلقي رسائل

جدران الحيّ الهرمة. أصبح بوسعه التنصُّل من كلّ الأماكن والعودة إلى بيته بزقاق مبارك العتّال بائع الجلود سابقا، ليصغي لموسيقى تحكيه وفقط. كانت المرآة المثبّتة في غرفته الزّرقاء تواجه الزّمن بسواد يعلوها، وهو يُواجهه ببياض يعلُوه، ويقفان معا كعاشقين يتواجهان في كلّ مرّة دون خجل أو اكتشاف، يتواجهان بابتسامة متبادلة فقط. هي تعرفُ أنّهُ كثير الغياب، وهو يعرفُ أنّهُ قليل الوجود. لطالما زحفَ كأنّهُ لاصقٌ بالحائط، حمل منشفة ومسح المرآة من غبارها قبل أن تراه، يخشى أن تستاء وهي تقفُ على غبار وجهه، وربّما يبحثُ عن ألق ويتوقُ لضوء عينيه المعلّق منذ غادرت العارفة.

أرادَ أن يُحوّل الموسيقى إلى قصائد، فكرتهُ هذه رافقتهُ طويلا. ظلّت الخونية تقولُ لهُ: «أنت مجنون شعر أكثر منك شاعرا، أكتُب قصيدةً فيّ». يقول لها: «سأكتب لك شعرًا على جسدك»، وتختفي هي في المطبخ بينما يلحقها ليقف على شيء مثير زرعهُ في عمقها. كانت تحاول أن ترمي انتباههُ إلى الفناء حيث تعجزُ نبتةٌ عن الوقوف، «الجليد كسّر حلم لويزا يا الدّيلي». أراد أن ينقذها فعجّلَ بموتها. تلك النبتة التي زرعها يوم تحديد زفاف الخونية لم تصبر إلى غاية إنجابها مينا، سقاها الماء وغسلها في كلّ ليلة، وتحوّل الماء إلى جليد قاس يغلّفها، وهكذا تسبّبَ في موت نبتته، وفتحَ باب الشّؤم على مصراعيه.

سألتهُ العارفة: «متى عرفتَ أنّك شاعرٌ؟»، لم يجد جوابا أهمّ من الضّحك، ضحكَ طوال دقائقَ طويلة، بينما كانت هي تشعرُ بكثير من الحرج، ووجهُها يسودُّ ويحمرُّ ويبيضُّ. كان ذلك في زمن احتفظت فيه بشكل وجهها الصّغير الباسم، وعندما أنهى ضحكته الطّويلة كان يمشي خلفها نحو الغرفة ويدفعُ بجملة موجعة: «وهل كنت يوما شاعرا؟».

أراد أن يحكي لها في المساء تاريخَهُ الشّعريّ الطّويل، ألف خيبة وخيبة، لكنّها نامت باكرا في الوقت الذي استعاد فيه لحظتهُ الشّعرية الأولى. لم يكُن يومها الدّيلي، كان بشير وفقط، حتى والدهُ المنسيّ بلا قبر لم يكن معروفا تماما، كان شهيدا قضى في قرية عين معبد أو في ضواحيها، أو في قرية الشّارف أو في ضواحيها، أو في أيّ مكان آخر قد يكونُ اختُرِع خصّيصا لمقتله وفقط. الرّوايات كثيرة في شأن شهادته وبطولته، لكن لا تتّفق اثنتان، وقد بحث سنوات عن رأس الخيط في تاريخ والده دون جدوى. استشهد وحمل شارعٌ جانبيّ في عين معبد اسمه وانتهى الأمر، وهو غير معنيّ بشهادته، ولم يستغلّها يوما، حتّى أمّهُ تزوّجتْ سريعا ولم تحصل على منحة أرملة شهيد، لأنّ زوجها ووالد إخوته من الأمّ كان مجاهدا. كان بشيرا وفقط عندما راح سي عيسى يعلّمهُ أوّل الحروف ويحفّظهُ السّور الأولى من القرآن، وبقيَ كذلك في كنف جدّه لأبيه الذي رعاهُ حتّى بلغ الرّابعة عشرة، وأدخلهُ المدرسة وتدرّجَ فيها إلى أن توقّف تعليمهُ، لا فشلا؛ ولكن بسبب انعدام مسار آخر غير مدرسة «الميرابو» آنذاك. وفجأة أصبحَ بشير الدّيلي بسبب موقف غريب. يومها انتفضَ رفقة بعض متربّصي مؤسسة التكوين المهني في وجه المدير، طلبوا منه أن يوقفَ أستاذًا استهزأ بما يكفي من وضعهم ومدينتهم وأحلامهم، بينما كان الآباء البيض الفرنسيون الذين يدرّسون إلى جانبه يزرعون في دواخلهم الثّقة. كان المستهزئ يفتحُ النّقاش بدل الدّرس، وعجزوا عن مجاراة استفزازه. صرخ بشير في وجه المدير وقال له: «نريد ديلي، وقتا لمغادرة المصيبة تاع الفرنسية». كان يصرخ ولا يُصغى له، فرفعَ صوتهُ أكثر في هيستيريا حقيقية: «ديلي يا سي محمد ديلي»، ثمّ ردّدَ كلمة «ديلي»[1] أكثر من

(1) ديلي بالفرنسية un délai تعني أجل أو مهلة.

عشر مرات، وهنا اتّفق الجميع أنّهُ أصبحَ بشير الدّيلي، ولم يعترض، قال أحدهم: «إذا انتفضتَ في وجه اللّقب سيلصق بك»، لهذا قرّر أن يبتسم لمن ناداهُ بلقبه الجديد لينساهُ الجميع، وليتهُ انتفضَ لأنّه لم يعد مناسبا بعد كلّ تلك السّنوات أن يعترض على الاسم الأكثر شهرة من اسمهِ الحقيقيّ. في الحقيقة كانت تلك أجرأ مواجهة في حياته، ولعلّ قلبهَ واصل يخفق أيّاماً كلّما تذكّر ما أقدم عليه، وسيتجنّب مدير مؤسّسة التكوين سنوات قادمة.

طالما سمع جدّه يلقي شعرا شعبيا، كان يتغنّى بكثير من الوجد بأبيات شعرية يوميا، وحتّى رفاقه من الشّيوخ الذين قضوا الآن كانوا من عشاق الإنصات إليه، زرعَ شيئا من الشّعر داخلهُ، ثمّ جاءت حفلة الشّعر الكبرى التي ألقى فيها قصيدة، والتقى بعدها شاعرا في السرّ. كان يوزّع روحه بعدلٍ على من يلتقيه، كان يقدّم دروس تقوية في اللّغة العربية، يقرأ الشّعر في بداية ونهاية الدّرس، يأخذُ الشّواهد من الشّعر، ويحكي سير ومغامرات الشّعراء، يحكي الحبّ في الشّعر والوفاء والصّدق والوطن، كان الشّعر عالمه الحقيقيّ، وما دونه أو بعده مجرّدَ زيفٍ أو في أفضل الحالات تأهّب للّحظة الشّعرية، وأصبح أصغرَ منتظم في صفّه، ليس من أجل اللّغة أو التفوّق، بل من أجل الشّعر، قال لهم: «الشّعر سقف الفنون» وأصبحوا يُؤمنُون بذلك، لكن لا أحد منهم أصبحَ شاعرا. كان صفّا غير منسجم، طلبة ومعلمون وعمال، الجميع التحقوا فقط ليكتشفوا لغتهم، ولعلّ بعضهم حاول أن يكتب شعراً دون جدوى. كانوا يُسلّمون نصوصهم التي التبس عليها الشّعر، ويقرأ منها مبتسما، بل يعدّل قليلا من سذاجتها، كأنّه يعلّمهم الشّعر، وبقى الجميع غاوياً سنتين قبل أن يغادر المدينة. تركهم كاليتامى، بشير كان أكثرهم يتما، فقد فُجعَ في والده ثمّ في جدّهِ ومعلّمهِ في أسبوع واحد.

في تلك السّنة كتبَ ورقة صغيرة تعهّدَ فيها أن يَكون شاعرا كبيرا، وأن يُخلّد محبي الشّعر جدّهُ الحاج عبد الله ومعلمهُ الأستاذ عبد الله بن الجيلاني، وبدأ يتدرّبُ على الإلقاء أوّلا؛ لأنه يجبُّ أن يكون على قدرة معلّمه وجدّه البارعين. أمضى وقتا وهو يفعل، لكن إلقاءهُ لم يتحسّن، ونسيَ تماما أنّه عليهِ أن يكتب الشّعر، فقد توهّمَ طويلا أنّ كلّ القصائد الجميلة التي يقرأ هي قصائدهُ؛ فقط لأنّهُ يملكُ تلك المعاني.

(2)

«الشّعر فكرةٌ يسارية أليس كذلك يا ناصر؟» يسألُ راجيا سحب رفيقه إلى نقاش طويل حول الشّعر والحياة، وككلّ مرّة سيتدخّل زينو ويعترضُ، معتقداً أنّ الشّعر حالة بورجوازية لا ضرر إن وجدت، لكنّ وجودها يأتي بعد قضيّة الإنسان. كان الزّين بارعا في إفساد متعته دائما، وظلّ يُقاوم بركانا يريدهُ أن يتقيّأ حممهُ في وجهه الأخرق. في آخر المطاف صنع زين العابدين متعه، واختار أن ينتصر للإنسان الوحيد الذي كان إياه، أما اليسار والشّعر والإنسان فكلّها أحلام صبا.

اعتقد ناصر أنّ الشّعر وكلّ الأدب يتحوّل إلى علوم معقّدة، وركّز على تطوّر القصيدة الذي لم يعد يحتفي بالإنسان أحيانا بقدر احتفائه بالشّعر، وعارض تحوّل الشّعر إلى قضيّة مستقلة توازي قضيّة الإنسان. عبد الحميد كان يهزّ رأسهُ متّفقا معه، ويضيفُ أنّ القصيدة اليوم تتحوّل إلى نصّ غامض، وهي تنأى عن المتلقّي باسم الحداثة، وكان الدّيلي يشعر أنّهُ في جلسة عذاب، إذ لم يُقنعهم أنّ الوضع العام للإنسان العربيّ هو الذي يتأخّر، وهو الذي لا يجاري حداثة العالم، أمّا القصيدة فهي العنصر الوحيد الذي يقفزُ ويواكبُ العالم بكلّ

اللّغات، لكن لا فائدة، كان الرّفاق يفترقون وقد أفسدوا بهجتهُ، ويلتقون وقد قرّروا الابتعاد عن نقاشات الوهم تلك، لكنّ الشّيطان زرع سؤالا قاتلا في عمقه: «كيف يكون الشّعر يساريّا وهو يؤمن بالاختلاف والطّبقات؟».

يقرأ أكثر ويكاد يُصدّقهم أحيانا. بعض الشّعراء يقفونَ إلى جانب ناصر بما يكتبون، والبعض إلى جانب عبد الحميد، أمّا هو فيقفُ إلى جانب الشّعر، والعارفة تنظرُ إليهِ بكثير من الحيرة، لم تكن ضائعة بين كتبه وأوراقه، كانت تمرّ خفيفة فلا تشغلهُ، وهو يهتزُّ طربا لقصيدة أو يُعلّق جهرا على ما يصادفهُ، ولم ينتبه إليها، حتّى حين قالت لهُ إنّها اكتفت منهُ وإنّهُ أهمّ من أن يَعيش معها، وإنّها أهمّ من أن تبقى هنا كنبتته التي زرعها بحبّ وقتلها بحبّ أكبر. ظلّ غائصا في عالمه العلويّ.

فتّشَ عمّا قيل في العيون، سحرتهُ عينا العارفة، ونسيَ أن يتأمّل عينها لفترة. وقفَ قليلا عند السيّاب وهو يقول:

« عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحر
أو شرفتانِ راحَ ينأى عنهُما القمر
عيناكِ حين تبسمانِ تُورقُ الكروم
وترقصُ الأضواءُ.. كالأقمارِ في نهر»

وتمنّى لو عاش السيّاب عيشة وعُمرَ لويس أراغون الذي كتب كثيرا عن إيلزا، وعاش معها أكثر، وقال في عينيها:

Les Yeux d'Elsa
Tes yeux sont si profonds qu'en me penchant pour boire
J'ai vu tous les soleils y venir se mirer
S'y jeter à mourir tous les désespérés

Tes yeux sont si profonds que j'y perds la mémoire[1]

لم يكتب شيئا عنها، ولا عن عينيها العسليّتين ولا عن اتّساعهما وارتعاشتهما الدّائمة، ولم يعش معها كثيرا ليمنحها شيئا يسكُنها إلى الأبد، حتى طفلهما بدا مستقلّا وغير معنيّ بحياتهما، بطريقتهما، واختار نموذجهُ. هي عاشت داخلهُ كحلم، ولا يعلم إن عاش داخلها أم مات كأن لم يكن؟ بقيَ وحيدا يقارن مأساة أراغون مع أبيه ومأساته أيضا، ويودّ أن يكون التّشابه عطيّة من الشّعر.

ثمّ ماذا؟ واصلَ بعدها يبتعد كلّ مرّة عن الجميع، إلى أن أصبح ناصر وجها يتشبّه لهُ، وعبد الحميد قادما من التّاريخ، والزّين نزقاً منكرا. تغرّبَ عن الجميع ولم يلتقِ قصيدتهُ الموعودة، وخالَ أنّ كتابتهُ للشّعر قد تجعلها أقرب إليه، أنّ القراءة قد تبعثها مجدّدا. اعتقدَ أنّ قوّة خارقة ستحمل الثلاثة، هو وهي والطّفل؛ ليتّحدوا ويقيموا في بعد آخر، دون خشية شيء أو التفكير في غير الإنسان مجرّدا من أنانيته وتملّكه وغيرته. كابوسٌ واحد تفرّعَ في رأسه أشهراً، جعلهُ يعيشُ صدمة كبيرة، تلك الصّدمة لم يعرفها حتّى في سنوات الرّعب والتقتيل والفرار... لقد رآها تتزوّجُ رجلا آخر، رآهُ يجالسها في بيتها، يضع يده على كتفها وتضحكُ، يعبثُ بشعرها وهي سعيدة. سألها باكيا: «أتحبّينهُ؟»، وأجابت محرّكة رأسها بالرّضا، وبكى بشدّة أكثر وسألها: «هل تنامين معه؟»، واستغربت ثمّ نطقت: «إنّه زوجي يا الدّيلي زوجي»، وكانَ ينهارُ وهي تردّد ذلك، رغم أنّهُ لا يذكر لها جسدا، حتّى التفاصيلُ التي بينهما تلاشت، هي في ذاكرتهِ كلٌّ لا يتجزأ، وأهمّ ما فيها عيناها وشفتاها؛ لأنّهما تحدّثانه وتنقلان إليه الخبر، ويداها؛ لأنّهما كانتا الأكثر قربا منه في حياتهما القصيرة جدّا.

(1) من قصيدة Les Yeux d'Elsa «عيون إيلزا» للشاعر لويس أراغون.

لازمهُ ذلك الكابوس حتّى قضى على رغبته في النّوم، وكاد أن يذهب لراق من الذين انتشروا مؤخّرا، لكنّ بقيّة عقله منعتهُ، وتصوّرَ أنّ قصيدةً ما ستحرّرهُ من هذا الهذيان، وشرعَ يتقرّبُ من الورقة ويُدوّن العبارة المعهودة: «أنا الموقدُ» ويَكفّ بعدها، وكانت هذه العبارة تشبهُ الولادة عندهُ، فكلّما دوّنها اجتاحهُ الألمُ، وتعهّدَ أنّهُ لن يَفعل مرّة أخرى، تماما كما تفعلُ النساء لدى وضعهنّ قبل أن تَعُدنَ لتكرار العمليّة مرّات كثيرة.

في تلك الفترة تهيّأ لهُ أنّهُ سيموت بسبب التّعب الذي هدّهُ تماما، وتضاعفت خشيتهُ من الفراش والنوم أكثر من خوفه من الموت، ولا يذكر كيف سقطَ على الوسادة ونامَ نوما عميقا. زارهُ فيه الشّيخ الأبيض الرّائي، وحكى لهُ كلاما كثيرا. فسّرهُ وحفظهُ عن ظهر القلب، وردّدهُ مرارا في سباته غير المرتقب، بل إنّهُ أعاد ذات الرؤيا غير مرّة، كأنّهُ يُراجعُ درسا. في النّهاية تمكّنَ من النّوم، وطردَ الشّيخ الأبيض الرّائي الكابوسَ، وحين فتحَ عينيه وجد نفسهُ مرتاحا وسعيدا، ورغم أنّهُ تأكّد من حفظ ما قاله الشّيخ الأبيض الرّائي، فإنّ ذاكرتهُ لم تسعفهُ بغير عبارات قصيرة من السّحر الطّويل الذي ألقاهُ على رعبه فزالَ. بقيَ مساءهُ ذاك يُردّدُ قولهُ: «**اعلم يا الدّيلي. وهبكَ الله من السرّ وحماك من الضرّ، ورعى وحدتكَ وقضى حاجتك ومحا محنتك. أنّ الغد غير اليوم، ولو شئتَ فلن تكرّرَ ما فات. اعلم أن الزّمنَ يمضي لا يدورُ، فلا تبتئس إن خانك أمسك، ولا تنتكس إن تردّدَ يومك، ففي الغد ما ليس في الرّؤى وما لا تعلمُهُ. فترجّل عن راحلة الظّنّ ترَ الكشفَ الذي تنشدهُ**». تصوّر الشّيخ رسول العارفة، وكان كلّما زارهُ لفّتهُ السّعادةُ والشكّ معا. سعد لأنّهُ يهتمُّ لأمره، وشكَّ لأنّهُ لا يعرفُ إن كان من الصحيّ الارتباط بكائن لا يُعرفُ مكانهُ وزمانهُ ولا طبيعتهُ،

وصدّ ريبته تلك حتّى لا يجرحَ الشّيخ الأبيض وهو رائيه، والقصيدة التي هي رؤياه، والعارفة وعالمهما الأعلى بسؤاله السّفليّ الدنيء.

في مدرسة غوستاف مرتين للبنين قدّموهُ شاعراً للمرّة الأولى في حفل نهاية السّنة. دفعهُ المعلّمُ الذي لاحظ نبوغهُ إلى إلقاء قصيدة، واختار هو القصيدة وتدرّبَ على إلقائها، وفي صباح اليوم الموالي أصرّ الجميع على عبقريّته، وأصبحَ محرّر رسائل التلاميذ ومستشارهم في فنّ التواصل، وبقي أثر ذلك الإلقاء سنوات قليلة، حيثُ لجأ إليه بعض العشّاق ليحرّرَ لهم مشاعرهم نحو من أحبّوا. ورغم أنّهم اعترفوا بتفوّقهِ وعبقريّته إلاّ أنّ الأمر لم ينجح معهُ. كان يشتهي لهُ حبيبة أو صديقةَ قد تجمّلَ داخلهُ المشوّه باليتم والوحدة والحلم العسير دون جدوى، لم يفعل شيئا أكثر من الإعجاب ببعضهنّ من بعيد، أو محاولة لفت انتباههن، وكثيرا ما خشيَ من انتباه إحداهن إليه وإرسالها دلائل وصل، فهربَ مسرعا، كأنّهُ يخشى الحبّ، يخشى القصيدة، ويخشى اكتشاف الشّاعر داخلهُ، يؤجّل كلّ ذلك إلى أن ينضجَ، أتراهُ ضيّع القصيدة بتأجيلها، ضيّع الحياة بالأحلام؟

كانت مؤسّسة التكوين تقدّمُ دروسها بالفرنسيّة، ولم يكن بحاجة إلى تكثيف لغته الفرنسية لدراسة الميكانيك، ولم يرقهُ هذا المجال. ذهب بالصّدفة فقط ووجد نفسهُ منتظما في صفّ، وتقرّرَ أنّ الجزائر تحتاج إلى تقنيّين مثلهُ، وبعد التخرّج السّريع كان أجهل من أن يعمل في هذا المجال، لهذا فقد اكتفى بالمطالعة ومواصلة التسكّع بين القرابة وباقي أحياء المدينة، إلى أن وجد عملا بالبلديّة، وخدمته لغته العربية الجيّدة ليساهم في تعريب الجزء القريب منه في الإدارة لاحقاً. كانت العربيّة لغة ساحرة في وقتها، أصبحَ الكثير من الشّباب يتلقّون دروسا إضافية في المساءات ليحسّنوا لغتهم، وكان مستمتعا أنّه لا يحتاج تلك

الدّروس، فعبوره السّريع على الكتّاب ومدرسة الإصلاح، إلى جانب مطالعاته مكّناه من تجاوز أيّ صعوبة، في الحقيقة كان إلى جانبه الكثيرون، عدد من الشّباب الذي تلقّوا تعليمهم الابتدائي بالفرنسيّة أصبحوا بسرعة يتقنون العربيّة.

كيف أصبح الشّعراء شعراء؟ هم دون غيرهم؟ ظلّ يدحرجُ خجلهُ من خيارهِ الذي لا يملك تبريرهُ ولا يملكُ تحقيقهُ، منحته الحياة روحاً شاعرة معذّبةً بالأسر، ولم يحصل على النّصّ الواحد الذي يحرّرُ هذا التّوق. بدأ باكراً يخطّطُ لموته، لعلّ النّهاية الدراميّة التي تحيطُ به هي من صلبِ نوعه المتفرّد الذي يسعى إليه، قصيدة واحدة تصنعُ الفارق، تكون مزيجا بين التشكيل والسينما والمسرح والرّسائل والخطابات والرّقصات المبهرة والقفزات البارعة، قصيدة تكون بيانه السياسيّ والفكريّ، وموقفهُ من الحياة والأشياء، ووصيّته لمن تلاه على الأرض، قصيدة وفقط ليكون وصلهُ بالمحبوبة التي عبرت ذهنهُ وقلبه وروحه والحياة، وما تزال تنتظرُ أن يفعلها ويؤرّخ لخطوته المقدّسة على الأرض، قصيدة ليطفئ النّار التي تلتهم أركانهُ وأعماقهُ سرّا دون أن تتوهّجَ أو تنهيَ مسارهُ الموجوع، قصيدة فقط ما كان يطلبُ دائما، لكنّهُ لم يهتد يوما إلى الطّريقة، رغم أنّهُ مريدها، ولم يحفظ وردها رغم أنّ معانيه تُنشدُ داخلهُ.

ضاقت به الشقّة كثيرا. قبل أشهرٍ شعَر أنهَا أوسعُ من وجوده العبثيّ وغير الضروريّ، الآن صارت قبرًا ضيّقا، ولأنّهُ أعترضَ على موته دون أن يُحقّق شيئا يُذكر، لأنّهُ تجمّدَ في حالة مكرّرة، فقد صار يُفكّر في الهروب منها، وأصبحَ يتردّدُ على القرابة في جولاتٍ سريعة، مثل مدمن كحول يشربُ مغمض العينين جرعات سريعة متتالية، ويرمي القارورة، يزورُ بيتهُ المهجورَ فيسعف بعض أضراره، وقد زرعَ

نبتة لويزا في الحوضِ ذاته الذي قضت فيه نبتة حبّه قبل سنوات.

(3)

يعود إلى بيتهِ بالقرابة. الثّلجُ يلفُّ المدينة برداء أبيض، وهو يمضي يتذكّر صدمة مينا العنيفة شتاء 1996. كان يتّجهُ إلى المدرسة حيث يقيمُ عرضا، وبدا لهُ أنّ العرض سيروقهُ، وأنّهُ سيكونُ سعيدا ببذرته التي أطلعت فنّانا. قال عبد الحميد إنّ مينا يتفتّقُ ويطلقُ فنانا كبيرًا. كان الدّيلي محبّا للمسرح، ولكنّهُ لم يتوقّع أن يشاهد مسرحًا ينتمي إليه، يغرفُ من لعناته. وصلَ المدرسة وكان العرضُ قد تقدّم، ربّما اقترب من النّهاية أو من المنتصف، لا يعرفُ لمَ توقّف المهرّجُ فجأة عندما رآه. ألغى العرض، لفّ المسرح في حركة مستعجلة، وقال: «بعد ذلك اختار النّجيب أن يتعلّم الرّسم من الطّفل الكسول، واختار الكسول أن يتعلّم الدّراسة من الطّفل النّجيب، ونجحا معا»، وخرج من المدرسة يحمل حقيبته دون أنِ ينزعَ عنه ثوب المهرّج، بينما بقي فاتح الباقي واقفا بقامته لا يعرفُ ما يفعلُ، بعد أن ارتجل الممثّلُ الرّئيسيُّ نهاية صادمة، نهاية بلا أغنية ولا تلويحة للأطفال. مشى مينا في ثلج المدينة بشكله، وتبعهُ الدّيلي قليلا يستجديه التوقّف، شعرَ أنّهُ خرّبَ مشروعَهُ، وأنّ خيار حضوره العرض لم يكن مناسباً، أصغى لإصرار عبد الحميد الذي يريدُ أن ينظّم حياة الجميع، وكان مينا حانقاً لدرجة أنّه صرخ منتصف الطّريق: «روح يا الدّيلي يا رحم والديك أخطيني»، وأسرع في الاختفاء. منظرهُ الملوّن على صفحة البياض ترك جرحا عميقا في روح الأب. كان الشّارع خاويا، وخلفهُ وقف فاتح الباقي طفلا في الرابعة عشرة، بقامة رجلٍ يحملُ حقيبة ولا يدري ما يفعل، وعندما التفت الدّيلي إليه سلّم عليه باحترام جمّ، كان يعرفُ أنّهُ والد النّجم الذي

يساعده في عروضه. تواجهت نظرات الطّفل والرّجل، فقرأ كلّ منهما حيرة قاتلة لدى الآخر.

في البيت بدأَ يُعيد تنظيم ما نسيه، فراشهُ لم يكن قادرا على استقباله، نفضهُ في المستودع، وحرصَ أن يُنظّف غرفتهُ أوّلا، وفي اليوم الموالي اعتنى ببقية البيت، وهكذا قرّر أن يستعيدَ بعض الحياة، رأى العارفة تتنقّل من مكان إلى آخر. عندما سكنا البيت قالت: «إنّه صغير، لكنّه جميل»، ولعلّها طلبت أن يبني غرفة أخرى منتصف الفناء للأطفال، هل كانت واثقة أنّ لهما حياة معا؟ أم أنها كانت تشتري هدوءا فقط؟ شكّ في كلّ ما مضى، وصارت الحيرة عالما أكبر من رؤاه الواسعة، بل صارت رؤاه كلّها.

في غيابهما يصبحُ العالم أوسع، لا أثاث يحدّ من صحراء الغرفة، ولا يمكن أن يملأ مدى الجدران بشيء، في غيابهما ليس أمامهُ إلا اقتراف الصّخب ليعثر على طريق، كانت تعرف الطّريق وتلتزم الصّمت، يدور حول نفسه وتتشكّل كتيبة من الأسئلة أمامه: «من أحبّها أكثر مني؟ ومن أحبّتْ؟ كيف ربّي ابني على غير ما أملت؟ هل هو رجلٌ حقيقيّ أم صورةٌ عني؟ وكيف اختارت هي الانسحاب، هل تركت المجال للقصيدة؟». لطالما قال لها: «الشّاعر يموتُ إذا تزوّجَ»، لطالما ردّت عليه: «أقتلني وأكتب في رثائي قصيدةً جميلة».

ها هو بعدها بأزيد من أربعين سنة، يزدري نفسهُ، رغم أنّهُ لا يقفُ أمامها. في غيابها أعادَ ترتيب طوابق نفسه، بدا كعمارة من العُقد والخوف والفشل، أسفلها الخيبة وأعلاها التّوق إلى المجهول، وبينهُما طوابق تزدادُ وتتقلّص بحسب الأيّام. أصبحَ عجوزا ولا يعرفُ إلى أين يمضي. في العادة كان الكبارُ يمتلكون مسبحة ويربطون عماماتهم ويلبسون قناديرهم وسراويلهم العربية، ومنهم من يملك سترة زرقاء

يخبئ داخلها ساعة جيب وحاملة أوراق، في العادة يملكُ الشّيوخ ألقابا تكبر مع الزّمن، وتترسخّ مع تجاعيد الوجه، أمّا هو فكلّما وقفَ أمام المرآة تحسّسَ غيابها وغيابهُ عن نفسه، أمّا الطّفل الرّجل الشّاب؟ لا يدري كيف يُسمّي مينا، إنّه غائبٌ داخله، تركهُ يبكي كطفل، ثمّ أصبح يلقاهُ في المقهى كوجه عابر، ثمّ تحوّل إلى ندّ أو آخر بالنسبة لهُ، وما زال رغم ذلك يقيم داخلهُ. هل خطّطَ أحدٌ لكلّ هذا؟ أن تصبح أهمّ في غيابها ويُصبح أقلّ في حضوره وغيابه؟ هل سلّمها مصيرهُ ومصير العالم بعينيه الصّغيرتين؟

«من أرسلني إلى هذا العالم؟ من أخرجني من القرابة؟ إن لم يكن الشّعر سببي فلم أنا هنا؟». الرّيح لا ترحمُ، وجسدهُ يزداد ضمورا حتى لا يكاد يرى. تأكّد من وجوده عبر المسافات التي بينهُ وبين الجدران. كانت تقول لهُ: «أنت موقد الحبّ يا شاعري»، وتساءل كلّما نامت بجانبه، إن كان موقد الحبّ فما الذي ينبغي أن يقوله؟ لفّت الأسئلة حياتهُ قبلها وبعدها، ولم ترأف به في الأشهر القليلة التي مكثت فيها إلى جانبِه. ظلّ يدفعها كما يفعل اللّحظة، يقفزُ برؤاه نحو أيّ عالم مفترض ويقابلها بالصدّ، يتوهّمُ نجاحهُ، يبتسم، يُغيّر موقعهُ من الكسير الجريح إلى الموهوم بالانتصار ويمدّ الخطى.

لكان ذكرى لو لم تثقب جدّتهُ أذنهُ اليمنى وتعلّق بها عيّاشتهُ. بعد رحيل والده المفجع لها، كانت الجدّةُ تخشى أن يموت وريثُ وحيدها، ورغم أنّ العيّاشةَ فعلٌ مرتبطٌ بأطفال فقد آباؤهم أبناءً قبلهم، إلاّ أنّ الجدّة كانت أمّا وهي تضعُ قرطا نحاسيّا في البداية، ثمّ فضيّا في أذن حفيدها ابن الشّهيد مجهول القبر والحكاية، أكانت الفضّة حيلة العائلة، لأجل ذلك اتّخذ مينا ناب فضّة؟ وهل من حيلة للقبضِ على الشّعرِ؟ حيلة لوقف زحف الشّيخوخة؟

في بيته سيحرسُ جيّدا شيخوختهُ ولن يتركها تنفرطُ من بين يديه، سيرقُبُ نموّ نبتة لويزا، وسيحميها بحبّ متّزنٍ لا يدفع من يحبّ إلى خارج عوالمه. في بيته سيعيد تفتيش الأزقّة التي داخله. وهناك، هناك فقط سيعثرُ على الشّاعر الذي سقطَ منهُ واستعجلَ المسير فلم ينتبه أين ضيّعهُ. في بيته سيكتبُ قصيدتهُ الموعودة ويستسلمُ للموت أو للجنون أو لكشف ما. في بيتهِ سينتظر الشّيخ الأبيض الرّائي، ولن يعترض إن حملهُ وأخذهُ إلى العالم الذي يجيء منه، لن يعترض على شيء سوى غيابها وغياب القصيدة معا.

العرفان

(1)

الصّمت الذي حكوهُ عنها لم يعهدهُ، كانت تسألُ، تُحدّثُ وتلمّحُ، ذكيّة صاحبة رأي، إذا لم يتحدّث لسانها تنبئ حركاتها أو عيناها بفكرتها. حديثُ الأزقّة أنّها أصبحت امرأة بابتسامة ووجه أبيض، لا يفهم كيف لوجهها القمحيّ اللّامع أن يتحوّل إلى بياض؟ ما جدوى ذلك؟ وهل يحتاج النّقاء إلى البياض؟ كانت العارفة جنّة. في أي لون تريدُ، ومنحة إلهيّة للأرض في أيّ جسد تكون، ومعنى تحت أيّ اسم تُنادى، فلا يمكنُ أن يُلخّص مداها في اسم ما.

«وإني لتعروني لذكرك هزّة[1] يا الخونية» يقولُ بصوت صادق، يكادُ يجزمُ أنّهُ ما عاش لحظة دون أن يتذكّرها. تعلّمَ التّحايل كي يواصلَ، يضعُ عقلهُ وفكرهُ وحضورهُ طبقتين، طبقة عليا تحتلّها هي وذاكرة القصيدة، وطبقة سفلى يُصغي بها للآخرين ويتعاطى بها الحياة، دون أن يصوم الكلام والضّحك والمشي في الشّوارع والجلوس في المقاهي. طبقتُها لم تكن مغلقةً على كلّ هذا، لكنّهُ نأى بها فلم يتركها تنزلُ إلى الطّبقة السُّفلى. كان يهتزُّ حقّا متى ذكرها في أسفله، يهتزّ ويرتعشُ بحيثُ لا يمكن أن يكون الأمرُ عابراً، ولاحظ أغلبُ من جالسهم أنّهُ يفعلُ هذا، واختلفوا في تفسيره ولم يشغلهم.

---

(1) وإنّي لتعروني لذكراك هزّة كما انتفض العصفور بلّله القطرُ.

لا يعرفُ كم مرّت سنة وهو على هذا الحال، يعيشُ اللّحظة وكأنّها قبل ساعة، الفراقَ وكأنّه لتوّه، يتعذّبُ ويتألّمُ كأنّها غدرتهُ قبل ثانية. تدرّبَ كثيرا ليكونَ هجرها لذيذا، تدرّبَ كثيرا ليعبر فقط، ولم يُخطّط إلى أين! أصعبُ أمر يصيبُ المرء هو التّحايل على نفسه، أن يعيش مكابدات سريّة، أن يتلوّى مع أوجاعهِ كلّ يوم ولا يُظهر لها كم هي مؤلمة، كما لو أنّهُ يراقصها مبتسما. ليس أصعب من أن يسكنك الوجع في قلب العظم، وتبدي للآخرين أنّ مشكلتك الوحيدة هي أن تعتدل في جلستك.

تحدّثهُ روحُها في عزلته تلك، في يقينها الذي نازعهُ إياها، لا يملك الآن إلا الإصغاء، فروحهُ الدّرنة لا ترسلُ نحوها أيّ كلمة، يراها وهي تتكوّر في كلّ مرّة احتاج فيها تعاونها، يرى روحها وهي تأخذ صورتهُ في شبابه، تقفُ أمامهُ تستجديه تركها في سرّها، أمران يكفلان لهُ حياة أجمل، وراحة لا مثيل لها، الشّعر وذكر العارفة.

ظلّ يقرأ ما يمكنها أن تقول لهُ، وبتكرار هذه الرّياضة كاد يصير سالكا. اقتربَ كثيرا من عوالم صفائها، ولم يسألها يوما لمَ تركتهُ، ولا شرحَ لها كيف حوّلهُ هجرانها إلى كتلة من الضّياع. لم يُرد أن يقسوَ عليها، أو يشوّه حضورها البهيّ، غادرتهُ لأنّهُ لم يعرف الطّريق إلى قلبها، تماما كما قصيدة يسعى إليها شاعرٌ في عجلٍ فيفسدُها. كان في وسعه أن يقتربَ بهدوء منها، أن يتعلّم تفسيرها، لكنّهُ فشلَ. استعجلَ حبّها وبقاءها فنفّرها منّهُ. أتراهُ فعلَ الأمر ذاته مع القصيدة فتعسّرت؟ «هل الحياةُ طلاسم متتالية أم أنّي الطّلسمُ الأكبر؟»، ثمّ يطوي يوما ليطلع السؤالُ في اليوم الموالي، كأنّ الأيّام تمدّ أيديها لبعض.

كانت العارفة تقولُ لهُ: «لمَ تزوّجتَ إذن ما دمت شاعرا؟»، وكان يُجيبها مستنفراً غضبها البريء: «أخطأتُ التّقدير»، ويضحكُ بشدّةٍ،

فتقفُ مستغربةً قبل أن تندمجَ معهُ في الضّحك. صحيح هذا، لقد اعتقدَ أنّ القصيدة لا تعاشرُ امرأة بقدرة العارفة، القصيدة تريدُ شاعرها لها وحدها، تريدهُ عاريا بلا أسرار. مع امرأة يمكننا أن نخفي جزءا منا، أن نعيش وهما ما، ويمكننا أن نمثّل دور المحبّ والعاشق، ومع القصيدة لا يسعنا إلا أن نسلم أمرنا أو نرحل. كانت العارفة قصيدة وسرّا، ولم يكن شاعرها، فمن هو إذن؟ وكانت القصيدة معلّقة، لا نزلت على قلبهِ وأضاءت داخلهُ التيهَ، ولا غادرت وتركتهُ ينهار ويُفيق على وجه الرّجل الذي يشربُ قهوتهُ ويضحكُ سعيدا لأنّه بلا حِمل.

واقفا أمام النافذة يَرقبُ الشّمسَ، يتأمّلُ قدومها في إصرار ككلّ يوم، حتى في أقسى شتاءات المدينة ظلّت تطلّ لتلوّح، ربّما و«كأنّ نسيم الصّبحِ فرصة آيس[1]»، وهو الآيسُ الذي ينشدُ صباحا، ألا يشبهُ السّهرَ المتكرّر انتظار الصّباح، لكن فقط للتّأكّد أنّ هناك ضوءاً في هذا العالم يبدّد العتمة، رغم أنّها كالسّتار الجميلِ الذي يلفّ آلاما كثيرةً.

وفي كلّ صباح يُردّد بلا سأم:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا و حبّك مقرون بأنفاسي[2]

لا ينقضي اليوم سريعا، وهو يعدّ الخُطى لمشوار ما. يقضي الكثير من الوقت في ترتيب ما سيقوم به، لكنّهُ في النّهاية يُواجهُ غروب الشّمس مرّة أخرى، فلا يُغادرُ البيت ولا يُفكّر في شيء سوى في الدّخان الذي يغمّ الغُرفة. أمّا هي فتصبحُ مقدّسا يعذّبهُ، بعد أن كانت حلما يواسي وحدتهُ ويخفّف وطأة غيابها، مقدّسا يطوّق عفونتهُ الصّارخة وقذارتهُ المتراكمة.

---

(1) كأن نسيم الصّبح فرصة آيسٍ كأن سراب القيظ خجلة وامقِ (بديع الزّمان).

(2) الحلاّج.

لا يعرفُ لمَ عاش وحيدا طوال سنوات. خطّطَ ليربيَ كلبا أو قطّا، ليُربّي عصفورا أو صرصورًا، إذا كان ضروريا أن يعيش مع كائن ما. تذكّرَ دائما حكاية النّمل الذي حدّثه مينا، لقد كان وحيدا مثلهُ، قاوم شقاءه ولعنتهما وانتفضَ، حدّثَ النمل ثمّ عشق رحمة، وبقيَ هو بلا آخر، يُحاكي يحيى، هو لا يُسمع ولا يَسمع، كلاهما مصاب في مقتل بيد ما.

الحقيقةُ أنّ حبّها هو ما أنقذهُ وإلا كان منتحرا، حبّها هو الذي دفعهُ إلى البقاء، يتعذّبُ به ويعيشهُ بلذّة كبيرة. اعتقدَ ـ بعد سنوات من العُقد ـ أنّهُ إن استقبلها يوما فسيكون استقبالا باردا، كلّ هذه اللّهفة التي تسكنهُ لن تأخذهُ إلى غير إطفائه وإطفائها، لهذا ففي عمق حلمه كان هناك أملٌ غير مكشوف في بقائها بعيدة، بعيدة حدّ انقطاعها عنه، ألهذا ماتت العارفة وعمّر العتاة؟

يتسكّع اللّيل في أرجائهِ كأنّه عربيدٌ بلا مأوى، ويعيشُ بنور خافت يأتي من وجهها الذي يقيم في هوامش ومتون أحلامه وأفكاره، لم يعد يهتمّ بالسياسة، ورغم أنّهم يمجّدون الآن الرّئيس المنقذ، إلا أنّهُ يمقت وجههُ وشكلهُ وتاريخهُ الغامض، يكرهُ أن يكون هذا حاكما على بلد قارّة كالجزائر. ناصر وعبد الحميد يقاسمانه بعض الموقف، غير أنّهما يعتقدان أنّه ـ رغم غرابته وغموضه وأسراره واصطناعه المواقف والرّؤى ـ ضروري لتدمير سطوةِ الشّبح، لتفكيك النّظام ليقوم نظام مختلف. أمّا الزّين فقد أصبح رجلا مهمّا، يقومُ على الدّعوة لرئيسهِ المبجّل وينامُ عليها. أحضَر هذا الرّجل معاني غريبة عن تقاليد البلد، فجأة صار الجميع يقول: «فخامة الرّئيس»؟، لقد كان قبل سنوات يُسمّى، الأخ الرّئيس، ثمّ السيد الرّئيس. «كم هو نرجسيّ ونزقيّ ومدّع الحكمة هذا القصيرُ؟ لن يموت بسهولة»، يقولُ كلّما سمع اسمه أو رأى صورته.

اهتدى النّظام إلى ضرورة القضاء على الفُقراء؛ لأنّه عجز عن القضاء على الفقر. السياسة كانت درعا يحميه من الحبّ، كانت تخفّفُ من قسوة فشله كعاشق، وكشاعر، كانت تؤنس الضّباب. السياسة كانت حيلته، أمّا الآن فلا سياسة، لقد التهم أنصارُ القصير كلّ الأفكار، وأغرقوا الجميع في فساد رؤاهم وضحالتها، ويعرفُ أنّ زين العابدين لم ينجح سياسة بل تسلقًا، فيبتسم في وجهه، ويعطف عليه بنظرة الكبير على الصّغير والنّاجح على الفاشل، فلا يتمنى لقاءه في الغد الذي يرقبه.

يتكوّر في فراشه، يحفظُ دائما وضعيّة الجنين التي لازمتهُ، يتنفّسُ براحة كأنّهُ لم يُدخّن عشرات السّجائر، وفي منتصف النّوم يكون الصّباح قد تسلّل إلى وجهه المظلم كسؤال كبير لعقل صغير. يُفيق قليلا ليرى وجه العارفة يرقّبهُ، لم تكبر أبدا، يقولُ لها سرّا: «أحبّك جدّا»، وتسمعهُ فتبتسم قليلا، ويُقاومُ رغبات كثيرة تهبطُ في آن، أن ينام، وأن يُدخّن سيجارة، وأن يتبوّل، وأن يموت.

(2)

تعب من السّفر، وتعب العدمُ منهُ، لكنّ روحهُ تتوقُ إلى محطّة ما. هذا هو الصّوت الذي يأتي من داخله، حيثُ لم يجرؤ يوما أن يغوصَ بعمق، لطالما وصلَ المنتصفَ وارتدّ مرعوبا. كم كان وحيدا في هذه المرحلة المتقدّمة من وجوده المضطرب! كان عليه أن يمرّ هادئا، أو أن يُحدثَ ضجّة، لكنّهُ فشلَ في الأمرين، وها هو يُصغي بكثير من المحبّة إلى هذا الفشل، يتصالحُ معهُ، فهو سببٌ ليُعيدَ تأمّل العارفة، هي الآن عُقدتهُ وشفاؤه، نهمهُ واكتفاؤه، تعدّدهُ وانكفاؤه، نشوتهُ وعناؤه، يعيشُ على الأشهرِ التي جمعتهما، ولعلّ الذي قالهُ لها وهي مغادرة ما زال

معناه قائما. استعار من المتنبي بيتا يجمعُ القسوةَ كلّها في عجزه، والإعجاب كلّه في صدره:

فلمْ أرَ بدراً ضاحكاً قبل وجهها   ولم ترَ قبلِيَ ميّتًا يتكلّمُ

أكانت تعتقدُ أنّهُ ميّتٌ عاشرَتهُ أشهراً، هل اكتشفتْ هذا لاحقا، أم ضحّت بنفسها وارتمت في أحضانه الباردة؟ لعلّهُ جثّة حالمة ليست تتآكلُ في انتظار قصيدة، لعلّهُ معلّقٌ لا هو ميّت ولا هو حيّ. خلّفتهُ يُحدّثُ نفسهُ، ووجعٌ رهيبٌ يسكُنُ رأسهُ ويضعُهُ على مشارف الجنون. عندما غادرتْ لم تحمل في عينها أيّ ضغينة، مضت كأنّها تحرّرت من سجن، وحيّتهُ كأنّهُ سجين معها، وهذا الذي جعلهُ في البداية يتصوّرُ أنّ تغييرَ البيت أو السّجن، وربّما الحيّ أو المدينة، قد يجعلها تراجعُ قرارها، ليعودُ مفزوعًا من الفكرة. يكفي فقدانُ العارفة والقصيدة، لن يُفرّط في القرابة، ومينا ليس في بيتهِ الذي يضمّ نبتة لويزا.

لم تشأ الظهور للعلن، وتوارت تماما حتّى نسيها النّاس، وبقيَ وحيداً يتذكّرها، استغرقت عودتها إلى القرابة سنوات انزوت خلالها في غُرفة ببيت والدها، وعندما عادت كان ذلك عبر الدّراويش الذين تردّدوا عليها، كانوا يزورون القرابة فتحتفي بخطاهم، يقصدون الخونية التي تحضّر لهم الرّوينة وتمنحهم من بركاتها، ويخرجونَ بوجوه صافية مستبشرة يوزّعون الفرحَ. البُسطاء من النّاس أيضا تردّدوا على الباب الأخضر، قرعُوه فوجدوها تفتحُ لهم أفقا. يدٌ واحدةٌ شُلّت ولم تقرع الباب الأخضر فيفتح الأفق، يدهُ التي تردّدت أيضا في تحرير الشّيء العسير الذي يتخبّطُ فيه.

لم يسمح لناصر وعبد الحميد ولا للزّين أن يتحدّثوا في أمرها. عبد الحميد كان يعتقد أنّها تعيشُ حالة صفاء وتصالح مع ذاتها،

ويعتقدُ أنّ إخلاصها في الأمر يرقى بها من درجة إلى أخرى، ولكلٍّ طاقتهُ في هذا الشّأن. وناصر يصرّ أنّ الأمرَ يتعلّقُ بحيلة نفسيّة اهتدت إليها لتأسرَ قلوب اليائسين، وراحَ يفسّرُ حُكمهُ المعرفيّ القاسي على العارفة، وكأنّ بينهما خلاف أو ضغينة. وشعر الدّيلي بغيظ لا يحدّ. اليائسون برأي ناصر الحاقد يبحثونَ عن حبل يتمسّكون به، وهي توفّر لهم رعاية وحماية وكلاما غير معهود، ولم يكُن في وسع العاشق أن يصمتَ أكثر، فأمرَهُ أن يكفّ عن الحديث في مسائل لا يفهمها ولا يشهدها، وتحوّل الحنق الذي داخلهُ إلى ناصر، فسكنه حتّى انتفخَ، ولم يسمع من حديثه الكثير؛ إذ توقّفَ عند استماتته في التحليل، وبعد قليل راح يتنازلُ عن مسلّماته كلّها ويهدأ، ولم يعد أيّ شخص تقول لهُ: «أنت مغبون ومتعب، أحدهم يحسدك ولديك شعور بالثقل ورغبة في الهرب»، يقول لكَ: «فعلا هذا ما أشكوه ويترجّاك أن تجد له مخرجا»، فالذي يشكو ألما تقولهُ نظرتهُ السّاهمة وخطوتهُ الضالّة. مضى الدّيلي لا يتمنّى لعنة أو غضبا يحلّ على رفيقه، فيلجأ إلى العارفة معتذرا مقبّلا أرض غرفتها الطّاهرة.

كان الحديثُ الجانبيّ عنها يُجرحهُ، ما زال يشعر أنّها جزء منهُ، ولم يشاركهُ في الوجعِ ذاك أحدٌ مثل مينا، هو بدا على الدّوام أجرأ، فلم يسمح يوما لأحدٍ أن يتحدّثَ عن أمّه، واقترب منها وحماها من حديث النّزقين، وبقيَ هو في عودته إلى البيت يستعيدُ وجهَ ناصر وهو يتحدّثُ عنها. كان يلومها أكثر من أيّ شيء آخر، أراد أن يصرخَ في وجهها متضامنا مع صديقه الذي تركتهُ، وتأكّد أنّها لو أقامت ببيت الدّيلي خلوتها لما ضرّهُ ذلك في شيء، لكنّه مستاء من وحدة رفيقه وغيابها المخادع عنه. الدّيلي أيضا يعيبُ عليها أن قرّبته وأسكنتهُ عمقها، ثمّ رمت به بعيدا كأنّهُ فضلة حبّ. قال لها سرّا غير مرّةٍ:

أدنَيْتَنــي منكَ حتى ظَنَـنْـتُ أنَّــكَ أني
وغبتُ في الوجدِ حتى أفْنَيْتَنــي بـكَ عنّي[1]

ولم يسمع منها شيئا، حتّى على لسان الشّيخ الأبيض الرّائي لم تنقل رسالة، أيكون تضحيتها من أجل اليقين الذي أرادت؟ أهو هي وهي هو؟، يعني أنّها تخلّت عن نشوة النّفس ومتعة الدّنيا لترتقي، يعني أنّهُ في جزء ما ثمن العرفان.

أحبّها ولم يصغِ لأيّ صوت، وها هو يلاحقُ رسمها وصوتها وأنفاسها في الحلم واليقظة، استولت عليه تماما، وتوقّفَ عن التقاء أصدقائه. اكتفى في البداية بالنّوم، ثمّ في نفخ حلمه بها حتّى صارت عالماً بديلا لا يطلبُ معهُ شيئاً، حوّلها من معشوقةٍ إلى قضيّة ووطن وسبب حياة، بل إلى حياة.

كانت جدّتهُ نهمة لكلّ شيء في أيّامها الأخيرة، حتّى في خطبتها له تورّدت وجنتاها وفقدت من سنينها الطّويلة قليلا. عادت تتذكّر يوم خطبت أمّهُ لأبيه، وأخبرتهُ أنّهُ كان يريدُ الزّواج من امرأة أخرى، لكنّ أحدهم سبقه إليها، وقد استعان خاطف حبيبة أبيه بالسّاحر الكبير للمدينة، ثمّ اختارت له هي أمّهُ كنّة، ولم تنس أن تكرّرَ أنّها لم ترُقْ لها، وأنّها كثيرا ما أرادت أن تعدل عن هذا الزّواج، لكنّ جدّهُ رفض أن يعود في كلمته. «أين كان أبي في كلّ هذا؟»، لم تكُن تتقنُ الوصف لتقول له كان أبوك مصدوما بفقدان حبيبته. كان قدرُ أبيه أن يأخذوا منه حبيباته، فأمّهُ تزوّجت بعد رحيله، وحبيبته قبل الوصل، والجزائر التي منحها نفسه اغتصبت غير مرّة.

جدّهُ كان يقول إنّهم أخذوا منّا الوطن وأبناءنا والدّنيا والآخرة، شاركهُ الشّعور بأنّهم تركوهم يستجدون الزّمن، وقلّصوا الوطن

(1) الحلاّج.

داخلهم. في النّهاية لم تحضُر جدّتهُ زفافهُ، ودفنها إلى جانب جدّه، وقفزَ على الحزن، فوأدهُ سريعا دون أن يَرثيها ولو ببيت شعر معطوب الرّوي، وليبدوَ أكثر عتَهًا ممّا تقصّدَ كان يقرأ لها شعرا في ليلتهما الأولى، ورغم ما خزّنهُ من توقٍ ورغبة وشبق وحبّ لها، فقد شُغلَ وقتاً بالشّعر، بدا وكأنّهُ يعرّفها بالقصيدة ويسحبها من الواقع إلى عالمه المليء بالشّعر والجافّ من قصيدته دائما. هي لم تنبس ببنت شفة، وغلّفها الحياء تماما، ولكنّها تجرّأت وطلبت منهُ أن يُعيد بيتين غير مرّة، وطربتْ لهما، وسعدَ أن وجدَ الشّعر وقعا في روحها الشّغوفة. ألقى بكثير من الرّقّة:

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

وعش خاليا فالحبّ راحته عنا

وأوّلــــه سُقــم، وآخــره قتــلُ[1]

قتلهُ الشّعر كما فعل مع عظام الشّعراء، أيقرأ زوجٌ هذين البيتين في ليلة دخلته؟ كان يُحرّضها على تركه، ويدفعُها للسّلامة منه ومن حبه وهوسه، ولم تكن تدري أنّ بذرة النّوى تلك قد زُرعت داخلها، وستنمو مع الجنين الذي وضعَتهُ بعد تسعة أشهر من ليلتهما. هكذا افترقا في أوّل ليلة، سعدين وجميلين وبهيّين إلى حدّ أسطوريٍّ، ولا أحدٌ شهدَ قصّتهما المكثّفة كبيت شعريٍّ حداثيّ. البيتُ الذي لا يحترمُ الوزن والتّفعيلة ما حاجتهُ إلى القافية؟ وما حاجة الدّيلي إلى السّرير الكبير؟ خلال عقود غيابها نامَ على الأرض.

---

(1) ابن الفارض.

(3)

تخلّفَ عن القرابة يوم احترق بيتها، لو كان هناك لأخرجها، لدخلَ النّار مبتسما ليرى نورها، لو أنّهُ ملك فرصة كتلك لشُفيَ من وجده، لتعافى من الحياة. التهبَ البيت، بينما هي جالسة في ركنها لا تلوي على شيء. كم كان الأمر مُدهشا! جرى الجميعُ في كلّ اتجاه يصيحُون: «بيت الخونية يحترق!»، وتحلّقوا على عتبة زقاق الحمامة، لعلّهم ينظرون ما يؤثّث مساءاتهم وخيباتهم، ما يجعلهم شهود الواقعة العظيمة. لم يكن في وسعهم شيء طالما ثكنةُ الإطفاء أقرب إلى القرابة من أيّ حيّ آخر، بُنيت بمحاذاة الحيّ كأنها تحرسُ احتراقها المنشود، لكنّ القرابة حبيبة الدّيلي لا تؤمن بالنّار؛ بل بالنّور. كان يعرفُ أنّهُ من نار ويكتم هذا، لقد قالت هذا جدّتهُ: «ولدت من النّار، ولدت في النّار»؛ لهذا لم تؤمن به القرابة، لا القصيدة ولا العارفة.

ذلك الحريق جعلها قدّيسة الحيّ، بعضهم يقولُ: إنّها خرجت وسط النّار تمشي على قدميها الحافيتين بهدوء، والماء ينزلُ من أعلى رأسها. والبعض يقولُ: إنها كانت كلّما ألقت خطوة أطفأت موطئ قدمها. واتّسعت الحكايةُ حتّى أصبحت بلا حدود، يعرفُ أنّها تملك كلّ تلك القدرات الخارقة، فهي المرأة التي أحبّها، وهي الوجهُ الغائب للقصيدة، والعالم البائس لا يحتاجُ شيئا اليوم كالشّعر، بمعنى أنّ هلاكها هو هلاك الجنس البشريّ، إذن أتخلّدُ هذه القدّيسة من أجل البشريّة جمعاء؟

صحيحٌ أنها أطفأت نارهُ يوما، لكنّها ألهبتهُ برحيلها.

تمنّى لو أنّ الخبر وصلهُ، لطار من مكانهِ إليها ليراها، فقد ألهبهُ الشّوق إليها سرّا، ولا يعلم ما تحملُ لهُ بقلبها بعد سنوات، جرى إلى زقّاق الحمامة يردّد:

اقتلوني واحرقوني   بعظامي الفـانيـات

ثمّ مرُّوا برفـــاتي   في القبور الدّارسات[1]

وصلَ وقد أُطفأت النّار وتفرّق الناسُ. حين مرّ قريبا من الرّماد انتبه إليه الجميع، وكان المشهدُ غريبا عليهم، فالجميعُ يعرف أنّهُ طليق مطوّعة النّار، والدُ ابنها، الجميعُ ينتظرُ منّهُ كرامة زرعتها فيه، وهو لا ينتظرُ إلا القصيدة. مشى محرجا حيثُ، تحوّل حضورهُ إلى الحدث لا النّار المطفأة، والتهبَ داخلهُ. كان الباب الأخضر قد التحقَ باللّون الرّماديّ تماما، والجدران سوداء فحميّة. بدا المظهرُ موجعًا، ونما حولهُ سؤال عنها، ولم يصل كلّ الزّقاق؛ إذ بدّدهُ حمّة الكوردوني وهو يزحفُ خلفهُ كديناصور على عتبة سنته المائة: «الحمدُ لله على سلامة الخونية يا بشير». التفتَ إليه: «يحمد رايك يا الحاج حمّة». أراحهُ أنّها بخير، فألقى عليه سؤالا مغلّفا: «أين أهلُ البيت؟» أرادَ أن يقول لهُ: «أينَ هي العارفة؟»، وفهمَ المغزى فأجاب: «الخونية في دارها، النّار ما لحقتش الخلوة والشّيخ بَيّها والعزوج امّها معاها».

لم يُصغِ إلى كلّ الكرامات التي تطوّرت في الأيّام اللاحقة، اكتفى بنجاتها، واستنسخ الشّوق إليه، حتّى صار أمّة. أراد أن يحميها، يعرفُ أنّها تحمي الآخرين، ولكنّها امرأتهُ وحبيبتهُ وعشقهُ، ألا يفعل العاشقُ؟ يريدُ أن يكون شهيدها طالما فشلَ في تحرير قصيدته. بعد يومين كان بيت شعر قد انتشرَ في القرابة، قال الذين شهدوا خروجها الأوّل من النّار أنّها ردّدته بصوت ساحر خطفَ الألباب وعلّق الأفئدة:

أتحرقني بالنّار يا غاية المُنى   فأين رجائي منك؟ أين محبتي؟[2]

لم يُعثُر على صاحب البيت، الأمرُ الذي جعلهُ يُصابُ بخوف كبير،

---

(1) الحلاّج.

(2) رابعة الشامية.

أتكونُ شاعرة أيضا؟ لو أنّها قائلة هذا البيت فسيكون عدما، إذ ترحل وتتركهُ ثمّ تسلبهُ الشّعرَ. أمضى وقتا مشغولاً بالبيت، وقد تسرّبَ إليه أنّ أحدهم أطلقَ الكذبة حتّى يؤزّمَهُ أكثر، لكن من الذي يريدُ للكهل الذي كان إياه أن يتعذّبَ أكثر من عذاب الوحدة التي ترسُمُ ظلّهُ؟ وتدريجيا نسي سكان القرابة النّارَ التي أخرجت العارفة، ونسيَ هو ذلك البيت، وركّزَ في قصيدته التي فقدتهُ وفقدتها.

اعتاد أن يفيقَ كلّ ليلة مفزوعا من الفراغ الذي تركَتهُ، ورغم مرور سنوات طويلة على رحيلها تحسّسَ غيابها كلّ ليلة، وما يزال فراغها إلى جانبه يرافقهُ، ويكادُ يُقسمُ أنّه من كراماتها أن تركت فراغا مجسّدا يرافقهُ.

عندما رحلتْ توهّمَ أنّها تركت المجال لقصيدته، تأهّبَ وأخذَ موقع الشّاعر وما يزال، جلسَ ساعات طويلة إلى مكتبه البنيّ دون جدوى، حملَ القلمَ وشرعَ فعلا، لم يجد إلا عبارةً واحدةً تتردّد، في كلّ مرّة كتب: «أنا الموفدُ...»، ثمّ كفَّ، وتعذّبَ بعبارته تلك. بعد سنوات صار يكتبُ في نومه ما لا يقبضُ عليه يقظةً، رغبَ لو يسأل الشيخ الأبيض الرّائي حفظ قصائده، لكنّهُ فضّلَ انتظارَ قصيدة اليقظة التي تتأخّرُ.

بدأ ينسى أنّهُ وحيدها في القرابة، وأسعفهُ العملُ الذي كان يتكَاثرُ كلّ سنة. في البداية كانت البلديّةُ تحصي القليلَ من السّكان، حفظ تواريخ ميلادهم وزواجهم، أو اقتربَ منها أحيانا، ولكنّ المدينة تناسلت والأحياء تضاعفت، وفي ظرف وجيز أصبحَ العملُ أكبر. استمتعَ بعمله دائما، ورغم أنّ الكثير من سكّان القرابة كانوا يكلّفونهُ استخراج وثائقهم المدنيّة بقرعهم باب البيت لا بالذّهاب إلى البلدية، فإنّ الأمر لم يزعجهُ، كثيراً ما جهّزَ لهم الوثائق وأودعها أحد الشّباب يوزّعها على أصحابها دون أن يتلقّى الشُّكر.

قرّرَ أن يتقاعدَ، شعرَ أنّ العملَ يستنزفُ الجانبَ الفنيّ فيه، وتفرّغَ بعد التقاعد المسبق للقراءة والكتابة، تحديدا لمحاولة كتابة قصيدة وقراءة مينا، لم تُثمر سنوات تقاعده شيئًا كثيرا، عدا متعة الكتب، وتصويب القصائد التي شعرَ أنّ بها خَللاً.

بلاغات عسيرة

(1)

عندما ماتت وكبّرَ بعضُ المتطرّفين، كاد ذلك أن يُوقعَ حربا في الحيّ، لقد مرّت خفيفة لا تؤذي أحدا، كانت متواريةً عن الأنظار منذ سنوات، ولم يفلح أحد في الوصول إلى كنهها، ولم ير نورها إلا من شهد حريق بيت والدها.

مينا قال إنّه سيحرقُ القرابة، وماذا قال الدّيلي؟ تكثّفَ صمتهُ، شعرَ أنّه لم تعد لهُ صفة يُبصرها أو تبصرهُ فيها سوى الشّوق الذي راح يتكثّف بسرعة، ويجعلُ من جسدهِ مرثيّة لها، لم يكن بقدرة الرّثاء والبكاء. عندما شيّعوها إلى مقبرة المجحودة مشى الكثير من الدّراويشِ في جنازتها، وطلعت شمسٌ لطيفةٌ في يوم بارد، فجعلت نهار الجلفة مبتسما. مشى في الجنازة لا يرى أحدا، حتى مينا كان يظهَرُ لهُ في كلّ مكان ثمّ لا يراهُ. مشى خلفَ وجهها وهي في العشرين حين خلّفتهُ، وكان النّاس يمشُون خلف وجه مجهول في الخمسين، سمعَ صوتها وهي تقرأ بصوتٍ بكائيّ:

«أتأخذني منكَ نحوي وتتركني فيك أذوي
إشارتيَ الآن حقّ وشيطانكَ الفجُّ يعوي»

كان الخطاب لهُ، سمعها ورآها وهي تشير إليه. أمضى شهرا يستعيد بيتيها، ويبحث عن شاعرها، ولم يجده إلى اليوم. والحقيقة

أنّها كانت تحبّهُ وهي ميتة أكثر من حبّها لهُ وهي حيّة. أتراهُ كان ميّتا لا يحبّه الأحياء؟ زارهُ طيفها مرارا في أحلامه، وكان لا يرى الكابوس إلا وولجه نور منها فبعثرهُ. منذ موتها والحياة أكثر حكمة، أصبحت تحرسهُ وتصلهُ كما لم تفعل من قبل، ومازال يتحسّسُ كلّ المعاني والصّور التي يملكها، ويعبدُ وحدتهُ التي تعذّبهُ سرّا وتتوّجهُ سيّدا علنا. صار يشكو عسرا رهيبا في الكلام، حتّى الكلام البسيط أصبح لا يترتّب على شفتيهِ بيسر، والناس يشفقون على فشلهِ الكبير. ركّزَ كثيرا كي يتواصل دون أن يكشف للبقية أنّ المعاني كالكلمات اختلطت.

حسبَ أنّ ما أصابهُ هو اقتدار شعريّ مأمولٌ، فراجعَ أوراقهُ غير مرّة علّهُ يكتب شيئا، كرّر العبارة ذاتها: «أنا الموفد...» ولم يجد بعدها ما يتمّ المعنى. كان يسعدهُ أن يُكملها بما يقوّم معناها وفقط. بدت لهُ قصيدة حقيقيّة لا تحتاج إلا إلى النّشر، وستكون مرجعيّة شعريّة في غضون سنوات قليلة من رحيلهِ. راح يُردّد: «أنا الموفد...أنا» ويُحاول أن يُساعدها لتقف فلا ينجحُ شيء.

يتبلّل المعنى بصدرهِ كلّما دنا من الورقة، وتنهارُ أحلامهُ كلّها، ويتعذّبُ الطّفل الذي يسكنهُ بالشّيخ الذي يبدو، لهذا فقد أعرضَ عن الكتابة واستماتَ في القراءة. في البدايةِ لم يكن يقرأ إلا كتب الشّعر ونقدَ الشّعر، لكنّهُ وبعد تفاقم عذاباتهِ وخرسهِ الشّعريّ القهريّ اكتشفَ الرّواية، وكتبَ التّاريخ، ووجدَ فيها عزاءً وأنسا، وانتظرَ وقتا ليقرأ بعض كُتب الصّوفيّة، بالكاد قرأ سير الزّهاد والعارفين بالله، بدوا كأنهم أصحابها، بل شكّ أنّها قائدهم وقطبهم.

زارهُ مرّة واحدة عبد الحميد، بعد أن أدخل زوجته المستشفى. كانت تشكو ألما واستأصلت الزائدة الدّوديّة، ولسبب ما فقد تجاوز عسرهُ في استرجاع حكايته مع ضياء. كان يُعلن حبّها، لكنّه لا يحكيه، أمضى معهُ

مساء طويلا لم يمنحهُ فيه الحقّ في البوح، وكان الدّيلي مملوءا، ويرغبُ في الحكي أيضا. فقدَ العارفة، أمّا رفيقهُ فيفتقد ضياء للمرّة الأولى. يقول عبد الحميد: «العالم تمدّدَ في اتجاه واحد، هو الظّلم، ورغبات الطّيبين تقلّصت في البقاء حتّى اختفت، وتضاعفت رغبات السّيئين»، فيقول الدّيلي: «تضاعفت كثيرا يا عبد الحميد»، ويُريد أن يُخفّف من خوفه وشعوره بالضّياع لغياب ضياء ليلتين، فلا يعثر على شيء يناسبهُ. تعذّر عليه مواساة صديقه؛ لهذا فقد كان أمامهُ فشلهُ الكبير كموضوع يجعل النّاس ينتبهون لنعمهم، ولم يرُق كثيرا لعبد الحميد أن يشكو مضيفهُ من هباء يعتقد أنّهُ يتوهّمهُ، ومن حيرة يعتقد أنّها غير مبرّرة.

يعرفُ الدّيلي أنّ ضياء لا تعدّ زوجها رجلا، ليسَ زوجا ولا رفيق دربٍ. في غياب أبناءٍ لها تحوّل إلى ابن مفترضٍ، هي ترعى يومها لأنّه فيه، وهو يحثّ الخطى ويرى العالم بأكثر منْ عين؛ ليهديها كلّ يوم ما يجدّدُ خلوتهما. لم يكن يعرفُ امرأة قبلها، لم يدهشهُ أمر الكائن المشعّ الذي شغل الجميع في الحيّ والمدينة والعالم، ربّما هذا سببٌ آخر في تبرّع العين اللّئيمة عليه بصفة المخنّث بالخطأ، ظلّ هادئا. في ذلك المساء، جاءت أمّهُ تحكي واقعة ضياء وزوجها النّذل، طلّقها بعد أن أبرحها ضربا، وهي الآن في المستشفى تنزفُ بين الحياة والموت. كانت تحكي وتشدُّ فمها في كلّ مرّة، كأنّها تلجمه عن قول قبيح، وتعُودُ لتردّد الحكاية بشكل مختلف ولغة أقسى مضيفة تساؤلاتها، وكان هو يصغي إليها ويستعجلها في تفصيل، أو يوقف سردها مستغربا، وأضفت الأمّ دراميّة أشدّ على الموقف. كان مستغرقًا في أسئلته وشكّه العارم في الحياة عندما التهب ذهنه بفكرة ضياء. قرّر فجأة أن يخلّصها ويخلّص نفسه فيها. صرخ في «الحوش»[1]، حيث كانت أمّه

---

(1) الحوش: فناء الدار.

حكّاءة متنقّلة بصعوبة بين الصّوف الذي تغسله والمطبخ: «سأخلّصها من عذابها»، سألته أمّه وهو يغادر: «إلى أين؟»، فألقى يقينه الذي لم يصل منه إلا القليل إلى أذني العجوز: «سأجدُ قضيّة في غياب القضايا الحقيقية».

إلى غاية ذلك اليوم، لم يتعدّ تكوينُ عبد الحميد التعليم المتوسّط، لكنّه أمضى بعض الشّهور المتقطّعة في زوايا مختلفة، وتلقّى شروح عدد من المتون، حتى صار بوسعه شرحها، وكان أهمّ ما وفد على حياته قراءة الكتب الفلسفية والوجوديّة، واعتناق اليسار بنكهة إيمانية روحيّة، فهو لا يكاد يفوّت صلاة بمسجد الضّاية أو المسجد العتيق بالقرابة. مزيجٌ من المبادئ والمذاهب والرّؤى، كأنّه رجلٌ اختار نموذجهُ ولم يرفض أحدا، فقَبلهُ الجميع؛ لأنّه يلامس أسمى معانيهم ولا يبحث لهم عن معاني بديلة، واحترمه الجميع لأنّهُ لا يقسو على حالاتهم النّزقة والمجنونة، ولا يدين فلتات خطاهم.

كانت ضياء مستلقية على السّرير تضيء الغرفة، رأى رجلها ملفوفةً بالجبس ويدها في الضمّادة. وجهها كان سالما كأنّه رأف به وبقراره، وكانوا قد خاطوا جرحا غائرا خلف أذنها اليُمنى، ذلك الجرح ظلّ صدمتهُ سنوات. كثيرا ما كان يعانقها ويضعُ رأسهُ يسارها، ولم يقبّل عنقها جهة اليمين إلا بعد أن التأم في قلبه، حتى عندما مدّت عنقها غير مرّة تهيّئهُ، نجحَ في الإفلات من اقتراحها، متفانيا جهة اليسار.

أخرجها بعد يومين من المستشفى، لم يفقدها، ولم يعد ليزورَ الدّيلي لاحقا. ربّما مسافة أكثر من نصف ساعة مشيا بين بيته في القرابة وشقّة رفيقه في حي شي غيفارا أطولَ من مكانته لديه. كان قاسيا جدّا أن يبقى وحدهُ، ولديه صديق رقيقٌ مثل عبد الحميد. كان مشغولا بعودتها، ولأنّها كائنٌ لا يشيخُ فيمكن أن تبدو كابنة له، وقد

كانت عودتها من العمليّة الجراحيّة البسيطة سببا في تكثيف قصيدة حبّهما. في تلك الفترة بقيَ بشير الدّيلي وحدهُ يتحسّس قلبهُ كأعمى، ويتصوّرُ أنّ يدا ما ستقتلعهُ بعد أن رحلت العارفة عن الدّنيا، واقترب منهُ مينا قليلا، فبدأ يبرّهُ بالسّجائر ويسعى للسّؤال عنهُ، لكن بملامح الجِدّ وبمشاعر الحاجز.

(2)

أفاقَ متعرّقا وقد نزلَ وحيهُ. كتبَ شيئا ما. قال بعض ما اشتهى منذ سكنتْ روحهُ جسدهُ، ولكنّهُ لا يقبضُ على شيء. يفتحُ عينهُ أول ما يفعل على النّص والمعنى مكتملا، ثمّ وفي ثانية يبقى بعض الكلام وكلّ المعنى، وفي أقلّ من ثانية يذوي الكلامُ كلّه ولا يبقى معهُ إلا المعنى. يُفكّر أنّهُ لو كتبَ ما شعر به نثرا لحفظهُ إلى أن يستقيمُ لهُ الأمرُ، فلا يمكنهُ ذلك. يُجفّفُ عرقهُ أسفل الغطاء، ويبردُ تماما ،كما يحصل مع شعريّته الغضّة منذ بدأت. يتكوّرُ كجنين في بطن أمّه، تمامًا كالقصيدة التي يحملُ. يريدُ أن ينامَ، أن يغذّي حلمًا ما، ويُسلّمه نفسهُ ليكون واقعا في نومه الآتي، لا يستطيع طالما رأسهُ يستقطبُ ألما نزقا عصبيّا ومتوحّشاً. لا يعرفُ إن كان في ثلاّجته مهدئ أم لا، لا يعرفُ إن كانت سجائرهُ قريبة أم بعيدة، كلّ يقينه أنّهُ في لحظته تلك عارٍ وبالٍ وخفيفٌ على الهواء، لكنّ الذي يتوغّلُ فيه عكس ذلك، فهو بثقل الفشلِ المتراكم والتيه الذي لفّ الخُطى، والتّوق العالي لها، والوحدة التي عظُمت حتّى تعدّدت، والسُّؤال الملحّ منذ الأزل، والقصيدةِ الغرغرةِ التي لا تنفكّ تخدشُ حلقهُ بانفجاراتها الوهمية، واتّساع المدينة وميلاد الشّعراء واحتفال الجميع بغيابهِ... هو بكلّ هذا فاقد للمعنى والصّوت والسّبب، لا معنى لحركتهِ القادمة، ولا صوتٌ لسقوطهِ العنيف المكرّر، ولا سببٌ

يكفلُ البقاء أو المضيّ. ما أعسر الوجود وما أقسى الفناء، وما أبعد البلاغة في ضياع الكلام!

كان لزاما عليه أن يتحرّكَ صوبَ الحمّام، أن يُغيّر لباسهُ ليتجاوزَ متلازمة البرودة التي أدمنتهُ. كان من واجبه على نفسه - كبقايا ذاكرة معذّبة - أن يهتمّ بها في البقيّة الباقية، لهذا فقد أخذَ حمّاما طويلاً حتّى بدأ يَشعرُ بالدوّار من الحرّ والبخار، وخرجَ أقرب إلى المغمى عليه، وتمدّدَ، يتمنّى أن تكون فرصهُ في البقاء أقلّ من فرصه في المواصلة. «آه يا الخونية لو أنّي فعلتُ شيئا بكلّ تلك السّنوات».

الزّين يزداد نجوميّة، وهو يتحدّثُ ضمن مجموعة شباب كأنّه من جيلهم، اعتناؤه بنفسه منحهُ قفزة ارتداديّة متكرّرة إلى الوراء، فكان يمضي نحو الشّباب لا نحو الشّيخوخة. الزّين لا يذكرهُ، أو ربّما يذكرهُ ويذكرُ تفاصيل البدايات، ولكنّهُ يتنكّرُ لهُ خشية أن تصيبهُ لعنة مَولى الحيرة والتية. رغم ذلك ما زال يحفظُ هديّته ولم يعد مستاء ممّا كتب له، لم يعد يزعجهُ أن يكون شاعر القرابة، ليس أن يكون شاعر بيته وفقط، بل إنّهُ يتوق ليكون شاعرا فحسب. يفتّشُ عبثا عن عذرٍ لرفيقه القديم، لا يعثر على عذرٍ فلا يحقدُ عليه. لو أنّهُ الناجحُ والزّينَ الفاشل لما تركه دون رعاية، هو الآن سيّدُ الحزب في المدينة، يصنع من يشاء اسمًا وقيمةً ويقتل من يشاء، ولكنّ مشيئته عاهرة، لا تمنح المدينة إلا كلّ مترف أو منتقم، مشيئته غدّارة لا تقفُ مع أحد إلا سدنة الحقد والمكر. ميناً مرّ من أمامه برعاية الخونية التي بركاتها له دونا عن الدّيلي.

ناصر يتحاشى الجميع، ما زال يجهل أنّ كتابي «ما الاشتراكية؟» و«ما الماركسية؟» عند الدّيلي، يوما ما سيرسلهما له، لقد قرأهما مرّات كثيرة، الآن لا يريدُ منهما شيئا. في سنوات الشّباب الأولى كانوا

يريدون المضيّ إلى الضّوء جميعا، لم يفكّروا في الفرد فيهم، الآن في هوّته السّحيقةِ يُفكّر في نفسه وحيدا ومعزولا، لا يخطرُ على باله مينا بكلّ الحبّ الذي يكنّه لأمّه، بكلّ العطف والذّنب الذي يشعرُه نحوهُ، لا يهتم لأمر أحد، تماما كما يفعل معهُ ناصر، ينتظرُ أن يشتاق إليه أن يرمي قدما صوب شقّته فلا يفعل، لكان خرجَ إليه جريا وعانقه، لكنّه نجح في تشكيل أسباب لبقائه. زوّج اثنتين من بناته، وهو ينعم بخدمات أحفاده وكرم صهريه وعناية الجميع رفقة زوجتِه. «كم أنت وحيد يا الدّيلي وكم هم كثر!».

بالنسبة لعبد الحميد الذي ظلّ يناقشهُ في أمور اللّغة، ويعفيه من البلاغة والمعنى، هو ليس فكرة حبّ، هو قدّيس لا يؤمن إلا بالحبّ، لا يملكُ وقتا ليدخل تجربتهُ المريرة، أو لينأى عن الأنوار في ظلمات رؤى مريد القصيدة، كلّما قابله ابتسم وضحك لهُ: «آه يا الدّيلي عمرك طويلة كنت نفكر فيك»، ولكنّهُ لا يلقاه أبدا، و«أنا أيضا أفكّر فيك يا عبد الحميد، أفكّر في الرّفاق وفي الرّيح التي تحملني كورقة مهملة في آخر السّنة الدّراسيّة»، يقول الدّيلي موجوعا، وهو يمرّرُ كلماته بين ابتسامة وارتعاشة شفتيه. عبد الحميد لم يعد معنيّا بأحد كضياء، كلّما زاد سنّهما زاد اتساقا بها وأصبحا «أكثر من واحد، أقلّ من اثنين». سيكونُ وحده قريبا إذا أدخل ضياء داخله أو أسكنته داخلها، وهذا على الغالب حالهما، فهو الآن لا يهتمّ لأمر العشّاق من حوله كما كان، لا يستنتجُ من أحبّ من، ولا يتدخّل في إتمام زيجات المحبّين، سيؤول إلى ما هو عليه الدّيلي. لكنّه يملك صوتين، صوته وصوت ضياء، أمّا بائسُ الشّعر فلا صوت لهُ إلا الشّداهُ الأعظم الذي يشقُّ كهفا في الامتداد الذي يسكنهُ.

تفرّق العالم مِللا ونحلا، ولا أحد يريدهُ في صفّه إلا الخونية.

يرغبُ أن يُخاطبها، فلا يعرفُ أين تقبعُ اللّغة الآن. يستلُّ قلمهُ وأوراقهُ، ويكتبُ لها عسرا، لا يخرجُ غير«أنا الموفد... أنا». يشعر أنّ اللّغة العصيّة تنكرهُ كلّما تنبّأ بخيبتها، فيُواصل بلا إفصاح يرجو فقط أن يجد الجميعُ طريقة لقراءة ما هو عصيّ عليه في لحظته المتأخرة. عندما شكا الأمر لحمّه الكوردوني، أصغى إليه بكثير من الاهتمام، وهو يعيد تصليح ذراع نظارته بشريط لاصق، وفاجأهُ بلغة عربيّة، كأنّ الهمّ ليس عاميّا. قال لهُ، وكأنّ جنّا نطق على لسانه: «البلاد كلّها محرجة بسبب عجزها عن البوح، العالم متأزّمٌ لأنّهُ وصل حيث يكرّرُ خطاباته ومعانيه». لا يعرفُ إلى اليوم لمَ قال له حمّة إنّهُ يجبُ أن يتجنّبَ خطيئة بلقاسم الحجّام، عليه أن يحرّرَ روحه وأشياءه الجميلة، ولا يطوّقها حتّى تكون في صفّه. بلقاسم الحجّام أوّل شيخ تهربُ عجوزهُ بعد خمسة عقود من الزّواج، فعلت لأنّهُ احتجزها طوال ذلك الوقت، كان يغادرُ البيت ويغلقُ بمفتاحه الخشن، ثمّ يفتح مساء ليجدها حيث تركها. أمضت خمسين سنة وحيدة، لا أطفال ولا زوج ولا جيران ولا أحبّة. خمسين سنة لا تُرى إلا في جنازة. لم تزر يوما الحمّام، لم تحدّث طفلا، لم تصغ لوشاية أو غيبة، لم تشترِ ما اشتهت. أنساها الحجّام كلّ الألوان والرّوائح، ومسحها من الزّمن أو مسح الزّمن منها، أصبح هو كلّ الوجود، وعندما عجز ولم يعد ساعدهُ يملكُ الدقّة ليواصل عمله، وأعرض النّاس عن محلّه المظلم، عاد وأراد أن يفتح لها الباب، بعدها خرجت ولم تعد. اختارت أن تنأى. ألقى حمّة الاسكافيّ عبرة ومأساة عدوّه بلقاسم، وكان سعيدا أنّ الجزائر اختارت رئيسا لتقاتل به رعبها، لعلّ اللّغة تعود قريبا.

كان مشهدا بليغا، عندما جاء الجنرال اليامين زروال ممتطيًا الحلم. بكى الدّيلي وهو يمرّ بعاهرات دار البارود، خرجن يرقصن

ويزغردن لفوزه بالانتخابات الرّئاسية. كان منقذ الجميع بصلابته ونظرته وأناقته. العاهراتُ كنّ سعيدات جدّا، كأنّ زروال هو شرفهنّ المفقود على أبواب الحديد[1]. بكى معهنّ، وبكى الكثيرون في حفل بكاء جماعيّ. الضّائعون يتشابهون في الملامح ويتشاركون المشاعر، وهذا شعبٌ ضيّعه حكّامه في إحصاءاتهم المتلاحقة. لم يُرد التساؤلَ في موقف مشابه: «لماذا قاومن الهمجيّة والتقتيل وواصلن عهرهنّ؟»، كان عملا نبيلا منهنّ أن توقّفن عن الدّعارة لاحقا ولم يعد هناك «باب الحديد». عندما هدأت العاصفة، لم يعرف أحدٌ أين ذهبن. بايزيد الذي ربّتهُ ربيحة يعرفُ هذا الفضاء جيّدا، فربيحة كانت كبيرتهنّ في زمن ما، وهو رجلٌ بلا نقيصة، أ يكون الرّجال الكاملون من حولنا أبناء عاهرات باب الحديد؟ إذن فنحن بحاجة لأبناء العاهرات الذين رضعوا الشّهامة كي نصلحَ وضعنا ونمحو زيفنا.

لم يعد هذا عصرُ ماخورٍ، ولا عصر خلوات. العاهراتُ الجديدات أقدر، يملكن شققا وبيوتا مستقلّة، ويعملنَ وفق أجندة، ومنهنّ من تملك علاقات، ولا تعملُ؛ بل تدبّرُ أمور العمل، ومنهنّ من تملكُ مدير أعمال أهمّ من مرتبة «قوّاد»، والقوّاد رجلٌ محترمٌ إذا ما قيس بأشباح السّياسة في البرلمان، وهم يرفعون أياديهم ويُنزلون سراويلهم في كلّ حين. لقد شاركت العاهرات الشّريفات شعبهنّ آلامهُ، ولم يغدرن الوطن كما فعل بعض الكتاب والفنانين، واصلن الحياة في الجزائر، وقُتلت أجمل العاهرات في زمن الموت ذاك، ومنهنّ عاهرات الدّيلي الثلاث، أطهرُ المومسات وأعفّهن كنّ زمن الموت.

---

(1) باب الحديد كان مرتبطا بالمواخير وبيوت الدّعارة، فمعظم السّكان لم يضعوا أبواب حديد في القرن العشرين، ولم تعرف أبواب الحديد إلا في منتصف الخمسينيات، بعدها انتشرت وأصبحت عامّة، لهذا فإنّ باب الحديد كان لفظا لا يمكن النّطق به في البيوت.

ينظُر النّاسُ إلى أنفسهم كلغة عسيرة، لا يفهمون ما تقول ملامحهم، كأنّهم واقفون خلف مرآة، وراء زجاج، داخل بلّور، ولا يملكون إلا الانتظارَ، إلى أن يحرّكهم القدرُ فيمضون أو يواصلون حبستهم تلك إزاء المرايا والزّجاج. «تلزمُنا لغةٌ، واللّغة مجروحةٌ في العمق. يلزمُنا وقت، والوقت تيهٌ. يلزمنا نبيٌّ، والنبوّةُ حيرة» يقول الدّيلي لحمّة الكوردوني الذي يفشلُ في إخفاء حزنه على مصير بلقاسم الحجّام، ويفشل أيضا في إصلاح نظّارته، ثمّ كان العسرُ يتّسعُ رغم أنّ النّار هدأت، والموت تراجع وعاد ينظّمُ انتقاءهُ.

(3)

في ذلك المساء توقّفَ عن التّدخين، ارتدى لباسا رياضيا بحذاءٍ قبعَ سنواتٍ في النّسيان، كان قد اقتناه ليغيّر نمط حياته. خرجَ من الشقّة لا يلوي على شيء سوى المشي دون أن يُفكّر في أمر. شعرَ براحة كبيرة وهو ينسحب من مكتبهِ الهرِم، تركهُ كضريح نهم، وقفَ أمامه بإجلال وودّعه. أخذَ حمّاما سريعا، وخرجَ كشابّ رياضيّ يتّجه إلى الملعب مفعما بالحياة.

مشى عبر طريق الأغواط، حتى وصلَ رؤوس العيون، ثمّ انعطفَ نحو المنطقة الصّناعية، وطوّقَ جزءا من المدينة إلى غاية محطّة المسافرين بعين الشّيح. لم يتعب من المشوار الطّويل، لم يكن يُفكّرُ بسرعة كعادته، لم يتملّكه القلقُ لعدم وصوله إلى نتيجة، كان ساهما كمن فقد العقل والرّغبة في العودة، مهاجرا نحو اللاّمعنى عن قصد، كأنّهُ يهدمُ بناية ليعيد تشييدها، يُغامر بنفسه، هذا كلّ ما لديه، فإن عاد أفضل سجّلَ أوّل نجاح له، وإن ضاعَ يكون قد استعاد الوضع المربك وفقط. توقّفَ قليلا في حيّ بن جرمة. في جولتهِ تلك أراد أن يلتقي

نفسهُ في مكان ما، فمنذ خرجَ يبحث عن القصيدة لم يلتق نفسهُ، وليغري ضياعهُ ردّدَ واحدة من مسلّماته العديدة، قال بصوت مرتفع حتّى يُواجه صوت الشّاحنات التي كانت تمرُّ على الطّريق الذي يمشيَ بمحاذاته: «الأرضُ التي نغيبُ عنها تنبتُ عشباً لا يعرفنا، والخطى التي نتأخّرُ عنها تلبسُ قدمَ الغريب».

في جولته تلك استعدّ لكلّ الخيارات التي ستواجههُ، ولأنّ فشلهُ أصبحَ حقيقيّا وواضحا فقد فرغَ منهُ، وصار مشغولا بوضع البلاد، يُفكّرُ وهوَ أمام مسجد عثمان بن عفان في الدّخول لقضاء حاجته، ويخشى أن يجد أعداءهُ، في الواقع لا عدوّ لهُ، كما لا حليف لحيرته، تشجّعَ ودخلَ بيت الوضوء، ثمّ تشجّعَ أكثرَ وتوضأَ، وتشجّعَ وبلغت جرأتهُ مداها، وها هو يجلسُ داخل المسجد. كان هادئا، طاهرا، مرتاحا، لهذا يتصلّب المتديّنون في خياراتهم، يبحثُون عن راحة وطمأنينة، يفرّون من الأسئلة، يتعرّفون على الله، ولكن هل بطريقة العارفة، أم بطريقة مسعود بلخضر، أم بطريقة زروال الذي تهاجمه الصّحافة كلّ يوم؟

شغل نفسهُ بالسياسة عندما قام الجميع للصّلاة، تردّد في الخروج وانتظرَ حتّى اصطفّوا جيّدا وكبّروا، وقبل أن يركعوا كان يَضعُ رجلهُ على طريق الغبار، تبعهُ أحدُ الشّباب، ونادى عليه: «حضرات... حضرات»[1]. التفتَ فاقتربَ، وسألهُ إن كانَ يُفتّشُ عن شخص بعينه؟ كان الشّابُّ عميلا أو جاسوسا، واعتقد الدّيلي ضابطا، بعدها لم يعد لارتداء اللّباس الرياضيّ وجاكيت الجلد، ولم يقل إنّهُ مواطن بسيطٌ ضيّعَ حبيبته وقصيدتهُ، ولم يبق له سوى التّفتيش عن وطنه.

العالم أصبحَ واسعا فجأةً، ورغم يأسهِ من الحياة، رغمَ إقامته

(1) حضرات: لقب ينادى به داخل الثكنات ومخافر الأمن للضباط.

المديدة في فشله، إلا أنهُ يشكر الله أن سمح لهُ بالوصول إلى هذه اللّحظة. لو سألهُ أحدهم: هل أنت يساريّ، تقدّميّ، حداثيّ، علمانيّ، عالم ثالثيّ؟ هل أنت إسلاميّ، عروبيّ، وطنيّ؟ لو سألهُ: ما أنت؟ لصمتَ وغادرهُ؛ لأنّه يتحوّل إلى مأزق وجوديّ هوياتيّ. وقد انتمى للإنسان الذي يحتاجُ أفضل من عنايته يوما ما بنبتة لويزا بفناء بيته، عناية عارف، الإنسان الذي يسكن الخونية ومينا ويحيى والتالية وبايزيد وعبد الحميد، الإنسان الذي يقيم في قلب ناصر ويخشاهُ فيداري عليه برفض المختلف، الإنسان الذي يبدو غير مهتمّ بالمذاهب والعقائد. لو سألهُ أحدٌ لقالَ: «لم تعد هناك حواجزٌ، اليسار أفلس، اليمين والاعتدال والإرهاب والاقتتال والدّين واللادين والخوف والحلم والنظام والفوضى والثّورة والدّولة والفرد، كلّها أفلست، لم يعد هناك مفاهيم، كلّ مفهوم يستولي على باقي المفاهيم ويذيبها أو يسلخها، يمكنُ للاشتراكية أن تكون دعوة دينية، يمكن للامبريالية أن تكون تنافسا شريفا، يمكن للإرهاب أن يكون جهادا والعكس، يمكنُ للخوف أن يكون قتلا، يمكن للقاتل أن يكون مخلّصا، يمكنُ للنظام أن يشيع الفوضى، يمكن للثورة أن تسحق الأبطال، يمكن للدّولة أن تزول، ويمكن للفرد أن يُصاب بفصام حادّ يعدّدهُ، وهذا وجهٌ من وجوه الدّيمقراطيّة، يمكنُ للفرد أن ينسى عددَهُ وترتيبه وهويّته ولغتهُ، أن يصاب بعسرٍ في التّواصلِ، وعسرٍ في تفسير اليوميّ».

التقى الحفناوي سعيدا وهو يقتربُ من مسجد بن دنيدينة وسط المدينة. تلقّفهُ كأنّهُ رفيقه في النّضال. وقفا في الزّاوية، وكان وفيّا لجدّيّته التي توحي للعابرين أنّه سيعلنُ الثّورة بعد دقائق. كان يعرفُ أنّهُ مهووسٌ بالسياسة، ولكنّهُ قليل التّعاطي معها. بدأ في خطاب مطوّل لم يكن مستعدّا له، غير أنّهُ لم يسمح لنفسه بتوقيفه أو دعوته

لتأجيل تحليله الاستراتيجي التاريخيّ. قال لهُ وهو يمسكُ يده: «أنظر يا الدّيلي، أنت مثقّف وتفهمني، نبدأ من الثورة، لقد سرقوا حقائقها ولم يصلنا منها إلا ما يبرّر بقاءهم على رؤوسنا»، كان يحدّثهُ ويستعيد ذاكرتهُ تجاه الثّورة الأعظم، كان يتذكّرُ الشّهداء ومن لبس عباءتهم من قتلى الثوّار، ويتأمّلُ وجه الدّيلي، ويعلنُ أنّهُ يملك نظرة ووجه وقامة أبيه، وللمرّة الأولى يعرفُ فيها الدّيلي أنّ الحفناوي يعرفُ والده، اعتقد دائما أنّ أباه مجهول القرابة، فبالكاد وجد من عرفهُ، لكنّهُ لم يعثر يوما على صديق أو رفيق أو شخص حدّثهُ، تاريخه مبتورٌ، بدأ يوم مولده، وانتهى يوم رحيله. أمسك به يريد أن يعرف أكثر عن أبيه، لكنّهُ اكتفى أن أقسم أنّهُ اختفى ولا أحد يعرفُ أيّ طريق سلك. «أيكون خائنا ألبسوه عباءة شهيد؟».

اعتقد الجميع أنّهُ يريد الانتحار عندما قرّرَ أن يكتبَ رسالة مطوّلة إلى منظّمة الأمم المتحدة والرّئاسة وكلّ الهيئات والمنظّمات الإنسانيّة، ليكشف فيها أن الثّورة الجزائريّة قد سُرقت من الشّعب، وأنّ فرنسا وبقاياها نطحوا الجميع وعزفوا على وتر الأفلان وفلسطين ظالمة أومظلومة. صرخَ الرّفاق: «هذا ضرب من الجنون، سوف يعدمُك الشّاذلي في (البلاصة)[1]»، ويُردّد فكرتهُ فلا يتّفقُ معهُ ناصر ولا عبد الحميد، أمّا الزّين فيعتقدُ أنّ الثّورة فكرة مقدّسةٌ تحتاجها الدّولة للبقاء، طرحٌ انتهازيٌّ وصوليٌّ يناسبُ الزّين وتطلّعاته، يُشكّكُ في طرحه لأنّ الدّولة التي بنيت على فكرة منقوصة كالثّورة قد تزول. كان الجميع ينتفضون لأنهُ قال إنّ الثورة فكرة منقوصة، وكان يصرخ فيهم: «يا دين ربي ورّاه قبر بي».

كان الحفناوي يواصل. يعود الدّيلي إليه فيجدهُ مستغرقاً في مدحِ

---

(1) البلاصة: ساحة وسط مدينة الجلفة.

الجيش الذي يحارب الإرهاب، يمنع انهيار الدّولة، يرفعُ من صوته ليسمعَ العابرون ما يقول. بالنسبة للدّيلي لا يمكن أن تتقدّم دولة يحكمها الجيش، هذا رأيهُ قبل أن تنشب الحرب الأهليّة. وقتها كان الزّين يرفض ما يقول، ويردّد أنّ الجزائر يحكمها الحزب لا الجيش، لا يفهم لم قادهم الكولونيل بن جديد الذي جاء بعد الكولونيل بومدين! يقول الزّين: إنهما لم يقرّرا، فالقرار بيد الحزب ومن أمينه العام؟ أليسَ الحاكم بأمره الكولونيل؟ سألهُ: إن كان يدرك أن الدّرك الوطني جهازٌ تابع لوزارة الدّفاع وهو يسيّر الحياة المدنية، فقال: إنّه موجود لحفظ النظام. ولم يكن حوارهما يصل إلى نتيجة، فالذي اعتقدهُ الدّيلي دائما بدا جليّا بعد سنوات. «لقد استرجعنا الأرض التي نمشي عليها، لكنّ الوطن مسروق».

ودّعَ الحفناوي، وقصدَ شقّة شي غيفارا، وأغفى يستجدي الشيخ الأبيض الرّائي. وبعدها أفاق ليُدخّن سيجارة، ويُشعل التلفزيون. لم ينجح في الإقلاع عن التّدخين، وثوبُ الرّياضي لا يناسبُ شاعرا تروبادورا بائسا ومنتشياً دون أن يشرب شيئا، لهذا أودعهُ الخزانة مجدّدًا. سجائر كثيرة هي في الانتظار خلال الزّمن القادم.

بعد سنوات، ما زال يجدّدُ الدّم، يصرخُ بقصيدته أن اطلعي إلى أعلى سماء، ويحاول أن يتعلّمَ الكتابة، لكنّهُ لم يتنبّأ بالوصول إلى هذا، قاصرٌ هو في بيته، والرّئيس القسريّ قاصرٌ في قصره، والشّعب قاصر في رأيه، والمعارضة قاصرةٌ في موقفها، والجميع يتملّكه قصورٌ في الرّؤيا. لم يتوقّع كلّ هذا الخراب الذي يطالُ الوطن. إنّها الهاوية، والرّؤوسُ معلّقة إلى الأسفل، فلا ترى الضّوء أو السّماء ولا تأمل في شيء. لا شيء.

أنكيدو

(1)

يصغي إلى صوت الماء المندفع بقوة من المزاريب نحو فناء بيته بالقرابة، يُزعجهُ كثيرا هديرهُ، أراد أن يفعلَ شيئًا ضدّ هذا الهجوم الصّوتيّ الذي يلوّثُ سمعهُ، تذكّرَ زين العابدين وهو يسخرُ من المتذمّرين دائمًا، طالما كان مصرًا أنّ البؤسَ هو نتيجة لحلم بائس، نصيحته المكرورة: «عليك أن تنظر الايجابي في ما تواجه». ما الإيجابيّ هنا؟ قفزَ من فراشه البارد، ارتدى قشّابيتهُ ذات الموقف الحيادي منذ الأزل، فصدّرت برودة موقفها إليه، تجرّدَ منها، ومضى فارسًا عاري الصّدر، فتحَ الباب العجوز. كانت السّماء قريبةً جدّا يمكنهُ أن يلمسها، بدت قاسية وهي تحدّق فيه بأوسع عينين، وبدا صغيرا جدّا وهو يتحاشى النّظر إليها، كان المشهدُ أقرب إلى الكشف، أوشكَ أن يصدّق أنّهُ وصلَ اليقين الذي بحثَتْ عنه هيَ طوال ست سنوات، بينما بحث عنها هو في كتب الشّعر وأخبار الشّعراء. اعتقدتْ أنّهُ اليقين عندما وافقت عليه زوجا، واعتقدها القصيدة وما يزال.

جلسَ على حافّة الحوض الصّغير يمين الفناء، كنبتة شريدة تواجه نبتة لويزا، وتداعى مع الماء، كلّما أمطرت أقفر داخلهُ، كلّما أقفر داخلهُ اشتدّ المطر، لم يعد بشير الدّيلي هو الآن ما تبقّى من بشير، يُخيّل إليه في الكثير من أوقات وحدته الدّائمة أنّهُ سيموت حالا،

يرى الموت واقفا في مهابة وجلال ووقار، كم هو قادر هذا الموت! يُسلّم أمرهُ بكثير من الحزن ولا يتسلّمهُ خشية أن يكون أقلّ شأنا من الحياة والموت معا، ترى أين ينبغي أن يكون؟

كان المطر يزداد غزارة، والسّماء نزولا إلى أرض الفناء، وكان يصغُر حدّ التلاشي، لم يعد يحدّد حجمه، أصغر من العين، لم يعد هنا ولا هناك، هنا في بيته المنسيّ، أو هناك في شقّته المعمورة، كلّما كان وجعا تنكّر لمكان الوجع، لا غرابة أنّ العارفة التي مرّت بحياته منذ اثنتين وأربعين سنة مضت، عرفت طريقها، فرغت من الحياة، أمّا هو فأمضى تلك السّنين يتقفّى أثرها. «هل كانت عارفة بالله ووصلت يقينها وانتهى الأمر؟ أكنتُ جاحدًا فأضعتُ الطّريق ولم ينته الأمر؟». تساعدُ الأسئلة المطرَ على قزم وحيد.

لم يتوقّف الهطول ولم يغرّق فناؤه، رغم أن المجاري في هذا الحيّ مسدودة، كان يرمي بعينيه إلى الأرض ليكتشف نمو الماء وتحوّله إلى وحش رماديّ يلتهمهُ، كان صغيرا جدّا، بحيث يمكن لقطرة أن تغرقهُ، وعطشانَ جدّا، بحيث لا يكفي هذا المطر لإروائه. مرّ دهر على الحال ذاته، المطرُ مجتهدٌ كأنّ المعركة لتوّها بدأت، وهو مجلودٌ دون أن يموت، والباب العجوز يئزُّ، يغلقهُ الرّيحُ إلا قليلا ويفتحهُ فيصطدمُ بالجدار محدثًا دويًّا، وبقليل من الشّوق يتطلّع إلى قلب بيته وإلى الضّوء القادم بحياء من غرفته نحو المطبخ، يُريد أن تحملهُ يد ما إلى هناك وتبعدهُ عن المطر والخوف والشّيخوخة، يُريدُ أن يجدَ رفيقا واحدا، قطّا فقط يموءُ ليعرفَ أنّهُ موصول بهذه الدُّنيا، يُريدُ الولوج إلى الدّاخل بعد أن عاشَ عقودا مقلوبا مثل جورب عفن، لقد تحقّقت نبوءة جدّه الّذي ظلّ ينعتهُ بمغربل الماء في معارضة لنعت جدّته له بالذي يُغربلُ عليه الماء.

أراد الوقوفَ، لكنّهُ خشيَ من السّماء. كان رأسهُ سيرتطمُ

بأسفلها، وربّما سيمزّق غلافها وينبعثُ الماء شلالا ليقضي على تردّده في النهاية، ربّما لو فعلَ لأراح هذه الرّوح المعذّبة والجسد العاطل، لأطفأ لهبهُ.

ما الذي منعهُ تجنُّبَ هذا البلل حدّ امّحاء ملامحه؟ ما الذي دفعهُ للخروج من غرفتهِ؟ كان مجذوبًا، ولكن بلا طريقة أو شيخ، مهووسا بلا هوس، حالة غريبة وعصيّة، وبقفزة واحدة وجد نفسهُ يدفعُ الباب ليغلقَ السّماء، ويجلس مقرفصا وسط المطبخ يُمطرُ، يمطرُ، يمطرُ بغزارة.

فكّرَ في البرد وما يقلّصُ قدرته الآن على جسده، يعرفُ أنّ لونهُ أصبح أقرب إلى الأزرق، أنّهُ الآن في جلسته يُمسْرِحُ حياتهُ، ولكن المشهد مكثّف، إنّه نهاية مفترضة، والستار الوحيدُ هو جسدهُ المتهالك بعد أن جعلهُ الماء لوحة سوريالية غير مفهومة، البردُ الذي قاومهُ معها في القرابة بكثير من الفرح ستة أشهر، البردُ الذي أضحكهما ودفعهما إلى الانصهار في جسد واحد، البرد الذي كان متعة هو الذي سيقضي عليه.

يدخل الحمام ويفتح الماء السّاخن، يقفُ تحت المرشّ ببيجامته المبلّلة، يشعرُ بصعقة تتجوّل عبر كامل جسده بسرعة ضوئيّة، يتجرّد من ملابسه في تشنّجٍ عظيم، ها هو يشعر بالدّفء أخيرا، الماء هو ذاته الذي يعيدهُ من رعبهِ إلى لحظة اطمئنان.

كانت السّاعة محنّطة كجسد فرعونيّ في بيته، لهذا فإن الزّمن الذي يعتبره الجميع متسارعا مرهقٌ في فضائه، ينام نوما متقطّعا منذ عاد إلى المنزل القرابيّ، يصحو أكثر من مرّة ليشرب الماء أو ليقضي حاجتهُ أو ليُطلّ من النّافذة التي تحيل على منظرٍ إسمنتيٍّ كئيب وأكوام من التراب في طول الزّقاق الذي تحوّل إلى ورشة، ليس

هناك إلا فتى يتبعُ كلبه في شموخ قيصر، أحيانا يقرأُ بعض الشّعر الذي أغفلهُ منذ سنوات، لم يعثر يوما على العارفة التي أقامت في السّماء السّابعة، بينما كان نبتة مرعوبة مجهولة النّسب تحت السّماء الأولى.

عندما خرجَ من الحمّام قرّرَ أن يُعيد للسّاعة بعض الشّعورِ، فكّرَ أنّ الوقتَ الآن يكون في أقصاه، لكن ما أقصى الوقت؟ التقطها من جدار المطبخ وأدار العقرب، أداره أيضا، مرّة أخرى وأخرى وأخرى، حتى وصل أو كاد إلى الأقصى، تسمّر عند السّاعة الثالثة ورضيَ. مشى خفيفا أو ثقيلا نحو فراشه، لم يرد أن يلبس شيئا، كان ثوب الحمّام يدفئهُ، لهذا دسّ نفسهُ في فراشهِ كتلة معذبة ومطمئنة.

الفراش باردٌ بسبب عجزه عن إحضار سخّان، يلسعهُ البّرد، وعليه أن يثبُتَ مثل جثّة، فأدنى حركة تجعل البرد أخطبوطا يتسلّلُ من كلّ الجهات، شعرَ وهو فريسة ملفوفة بثوب الحمّام بالأسى لما آلت إليه أحلامهُ، أغمضَ عينيهِ هربا من هذا الكابوس.

(2)

اشتهى في الصّباح أن يجدَ شخصًا يعتني بشيخوخته الصّارخة، أن يعثر على بنت أو ابن أو عجوز تشاركهُ هذا المدى المكوّن من غرفتين ومطبخ وفناء ومستودع يحيلُ على زقّاق، ودّ أن يَشمّ رائحة قهوة «صفّاي» لا أن يُحضّرها، لكنّهُ في صباحه هذا يَقفُ كالمصلوب يُعيدُ الحركات ذاتها تحضيرا لقهوته، أرادَ أن يُصغيَ إلى صوت يقول: «أنت الآن أفضل»، لكنّه لم يقل شيئا، ينظرُ إلى الإيجابيّ فيه ويحكّ وجههُ كأنّهُ يمحوهُ، يداهُ ناعمتان، منذ عشرة أيّام تنمُو أظافرهُ لأنّهُ تركَ قضمَها، ومنعَ يدهُ أن تتسلّقَ خلسةً نحوَ ثُقب العيّاشة. لقد قرّرَ

أن يتحوّل إلى شخص آخر، سوفَ يُعيدُ ترتيبَ حياته الآسنة، هذا الذي يُردّدُهُ على الأقلّ كي لا يَموت، كي لا يَنتحر. كانَ التوقّفُ عن قضم أظافرهِ أصعبَ أمر أقدمَ عليه، منذ تركَ حياتهُ الأولى، لقد اعتادَ أن يضعَ أصابعهُ في فمه لتأمّل الحياة للتّفكير، لدى انزعاجه أو اضطرابه، حتى عندما كان يبكي صغيرا لا يستطيعُ أن يُراقب يدهُ وهي تزحفُ نحو فمه، يقضم بعنف، يجتثّ الأظافر ويُمزّقها، ويسيلُ دمٌ من أصابعهِ بينما يُواصل البكاء، لعلّها طريقةٌ لاستدعاء الألم، اليوم لم يعد يفعل، وبدأ يرقُبُ بعض البياض على رؤوس أصابعه، تماما كما يحصلُ مع شعره الذي سكنه البياض على الجانبين وفي الناصية.

الحقيقةُ أنّهُ حقّقَ انجازا كبيرا عندما توقّفَ عن قضم أظافرهِ، والعبث بحبّةِ ثقب أذنه، الأمر الذي جعلهُ يتمسّكُ أكثر ويتطلّع إلى النهار. فكّرَ بجدّ أن يزور الحيّ، اشتاقَ إلى أزقّته وحالاته واشتهى سلوكات سكّانه، سكنتهُ للحظة كلّ ظواهره العجيبة، لكنّ رغبة أخرى كانت تنازعهُ هذه، أراد أن يكتبَ شيئا، تدور بذهنه فكرة أن يُسجّل أفكارا ورؤى حول حياته في القرابة، ربّما يَستطيعُ أن يحفظَ شيئا للاّحقين. في سنّه هذه تأتي الموت غيلةً، تخطفُ من الجهة التي تأمنها، يلتفتُ ولا يعرفُ تماما الجهة التي يأمن.

حملَ أوراق التغليف التي فضّلها للكتابة والخربشة، وهو متيقّنٌ أنّهُ لم يكن كاتبا يوما ولا شاعرا، فقط مشروعا معلّقا لا يتمُّ أبدا، لهذا فهو مستعدٌّ على الدّوام ليصطدم بتلك الأوراق الفقيرة والسّاحرة في آن، كانت أخفّ من ورق مقوّى وأثقل من ورق الكتابة، تعلّقَ بها صدفةً، فأوّل الأمر حصلَ على رزمة معتبرة منها في مطلع شبابهِ من عند جزّارٍ بالسّوق المغطّاة يدعى بشير، احتفى باسمه الذي يقاسمه، فقرّر أن يمنحهُ شيئا، ولأنّ دجاجة أو فخذ لحم كان أمرا كبيرا، فقد جمع

كتلة الأوراق تلك وألقى بها إليه: «هذه تناسبك يمكنك الدّراسة فيها»، وأعجبهُ مسلك القلم الرّصاص فيها. كان يمشي بأريحيّة كبيرة، قامَ بافتراشها أحيانا والكتابة في آن، كان حجمها يمنحهُ راحة في تعذيبِ المعاني الكامنة. بقيَ على عادته يقتني أوراقَ التّغليف التي يستخدمها الجزّارون، وشهدَ انتقالها من الورق الخشن الصّلب الحكيم إلى الورق الرّماديّ المخنّث الرّقيق، ثمّ إلى الورق الأنثويّ الملوّن. ما عاد يروقهُ ورق التّغليف، لهذا فقد لجأ إلى باعة الجملة الذين وفّروا لهُ نوعا مختلفا من الورق يقبع بين الورق المحبّب إليه والورق الجديد. لجأ إلى غرفتهِ وكتبَ مسرعا شيئا طالما ردّدهُ خارجَ وعيهِ:

«أنا الموقد الأبديّ أمرّ كنجم،
إلى الضّوء أحمل بعضَ النّهار
وأرتدُّ،
أَخجلُ من قامة النّور
حين أعودُ إلى البيت منتصف الحبّ وحديَ دون الرّفيقة
أخجل حين سأخطبُ دونَ الحقيقةَ
أخجلُ حين أخيّب عرسَ التلقّيْ
أنا المتبقّيْ
ولا حلفَ لي كي أهدّد خوفا هجيناً بلا ذكرياتِ
كأنّ الذي حوليَ الآنَ
روحُ القصيدة أو حكمةُ العارفينَ
شؤونٌ إلهيّةٌ لا يُفسّرُها البشريُّ

...»

راقَهُ الأمر. هناكَ حدثٌ عظيمٌ في العالم، لقد بدأ يكتبُ معنى

يسكنهُ، قسوة العمليّة جعلتهُ يُصابُ بدوار. بدأَ يستعجل إكمال النّصّ، خشية أن يضيع منهُ. يعود يقرأ ما كتبَ ليُواصل، ويُضيف كلمة ثمّ يمحوها، يتوقّف مجدّدا ويقرأ، ويضيف، ويفقدُ العالم كلّهُ، فيصبح ككتلة إنسان داخل دائرة معنى مغلقة:

«أنا قادمٌ كي أقيم احتفالاً
لأشعلَ كلّ الأزقّة،
لا تبرحي الضّوءَ كي أتوهّجَ يا سدّة العاشقينَ
(ألست مدى الحبّ،
وقت المحبّينَ؟)
لا تبرحي النّورَ كي لا تموت العصافيرُ في حيّنا
قادمٌ لأقولَ: «أحبّكِ يا جنّة الشّعرِ جدّاً»
فتبّا لكلّ الحداثة،
للقاعدين على جبهة النّقدِ دون قلوب،
وللقافياتِ بأثوابهنّ الثّقيلة
تبّاً لأرض بلا عاشقينَ..
وحينَ أقول أحبّكِ لا أستطيعُ احترامَ القوانين.
أنا الموفدُ العبثيُّ التقيني
مساءً على أيّ أرض
بثوبِ الحبيبة.. حتّى أرى خطواتيَ تورقُ وقتاً..
مضى كلّ عمريَ بين الأزقّة دونَ اكتشاف القصيدة
إنّي أنامُ وحيداً وأصحو على هلعٍ
في غيابيَ عنك
أنامُ بكلّ الثيابِ

وأسحبُ وجهيَ قبلَ طلوعِ الصّباحِ
وأشعلُ نورَ المكانِ
كأنّيَ ما نمتُ قبلكِ،
أنسى التمدُّدَ،
أنسى الطّريقَ إلى البيتِ،
أنسى الكلامَ
وأنسى البقاء وحيداً؛
أكلّمُ وجهيَ عنكِ
فيفهمُ ماذا جرى مذُ تغيّبتِ،
أفهمُ كيفَ انفصلتُ عن الآخرين
صرتُ أنا
صرتِ أنت إشاراتِ ربّي إليّ،
وأنتِ عذاباتُ ذنبي عليّ،
وأنت أنا ما استطعتُ التقاط الحروف من الأبجديّه
.........،

كان رأسهُ يدورُ في كلّ اتجاه، ولم يعرف إن كتبَ حقّا أم أنّه حلمٌ فقط تراءى لهُ ليداويَ وهنه واستسلامه. تحضّرَ ليفيقَ سريعا على صدمة الفراغ، لهذا سارعَ في تدوين القصيدة الموعودة في غيبته تلك. خافَ أن يكون رجلا ميتا أو آخرَ توهّم أنّهُ الدّيلي، فواصلَ بينما كان وعيهُ يتراجعُ. فقد الشّعورَ بأصابعه أوّلا، ثمّ اسندَ رأسهُ بيسراه، واجتاحهُ صداعٌ قاسٍ. فقد التّركيز على الورقة، ثمّ استسلمَ لألم قاتل في بطنه. وضع القلمَ وأمسك الورقة، وقرأ متحايلا على الألم ما كتبهُ. ملامحُ وجهه تتألّمُ مع بطنه، وقلبهُ يطير فرحا مع نصّه الذي لم يكتمل.

زحفَ على طريقة حمّه الكوردوني، وألقَى بجسدهِ الذي يُحتضر على الفراش، ولم يشأ أن يُطلقَ ورقتهُ تلك. عيناه غائرتان لكنّهما تدمعان، من عمقهما ترسلان ماءً، ووجههُ عجوزٌ، لكنّهُ مضيءٌ، وجسدهُ منهكٌ، لكنّ الدّم يجري فيه ناقلا خبر القصيدة من عضو إلى آخر. كتبَ القصيدة، لا بدّ وأنّها كُتبت أخيراً، لكن بدمِ الكبدِ.

(3)

شعر وهو يتوسّد نصهُ أنّهُ ناج من عذابه ومكابداته. شعرَ أنّ هذه الأرض أرضُ النّاجين لا المعذّبين. نام عميقًا، ولم يكن يُريد شيئا رغم الجوع الذي مزّقَ بطنهُ، لا يحفل إلا بالقصيدة. قرّرَ أن يتفرّغَ لها، أن يُدلّلها ويحتفيَ بها، أن يعتنيَ بقوامها وجمالها وجنونها، أليست القصائد مجنونة؟ قرّرَ أن يُخبّئَ النّصَّ في مكان آمن، أين تراهُ واضعه؟ طافَ بيتهُ كلّه بغرفتيه ومطبخه ومستودعه، ولم يعثر على مكان يستحقُّ استقبال قصيدته. كان سيستحمّ ويشرع في القصيدة مجدّدا.

تهافتت عليهِ الهواجسُ: «ماذا لو متُّ قبل أن أكملها؟ ماذا لو ضربَ زلزالٌ وأتى عليها؟ ماذا لو سرقها أحدهم ونشرها باسمه ونال الخلود؟ ماذا لو أفقتُ الآن أو التقيت الشّيخ الأبيض الرّائي؟». في الحمّام استعاد العارفة فرحا، وشعر أنّهُ لو كتبَ هذه القصيدة عشيّة رحيلها لعادت إليه طواعيةً. أسِفَ على التأخُّر الشعريّ، ولكنّ سرورهُ كان كبيرا أنّهُ سيُغادر الدّنيا بعد أن كتبَ قصيدة تسجّلُ اسمهُ مع الشّعراءِ، لا يجزمُ أنّ أحدهم سيكتبُ عنهُ، لكنّ التّاريخ واسعٌ كحلمه وأكثر، لا بدّ وأنّه سيأتي اليوم الذي يتحدّثونَ فيه عن شعراء كبار مجهولين، وسيكونُ أحدهم، «أ لستُ كبيرا ما يكفي؟». يقفُ أمام

المرآة حاملا أوراقهُ، يديرُ رأسهُ يمينا وشمالا، ويعجبُ بملامحه للمرّة الأولى. تعبَ دهرا لأجل هذه القصيدة، راهنَ بكلّ ما عنده، قامرَ بنفسه ليكتبها.

توقّفَ الماء وهو تحت المرش، وكان هذا نذير شؤم، فأسرعَ الخروجَ يتفقّدُ قصيدتهُ. أمضى بعدها أسبوعا يقرأ وينقّحُ ويسعى لتصليحها، لم ينجح شيء من التّصليح، إنها قصيدة تخمّرت، كُتبت ذهنيّا عشرات المرّات، عاشها نائما ويقظا، شاركتهُ عذاب السّنين، شهدت كلّ تحوّلاته الدّرامية، هلعهُ، شكّهُ، أحلامهُ، وكانت تنتظرُ الوقت والحقّ في الظّهور. بعد انقضاء الأسبوع لم يَعرف ما يفعل بها، وأصبح يكتبها في اليوم خمس مرّات كصلاة، ويُوزّعُ الأوراقَ على زوايا البيت. حضّرَ نفسهُ لأيّ طارئ، وحفظَ جزءا كبيرا منها.

الآن وقد كتبَ القصيدة، لكنّ العارفة ليست هنا، مينا ابنهُ لم يزرهُ أو يسأل، منشغلٌ بانتخابات تجديد مجلس الأمّة، ناصر ازداد صلابة وقسوةً، وعبد الحميد مشغول بضياء كأنّه التقاها أمس، والزّين يدافعُ عن خيارات الحكومة ليل نهار، ويأملُ في رضا الرّئيس وجماعته مع الآلاف من أمثاله. الشّيوخ والشّباب والنّساء والأطفال، كلّ سكّان القرابة لا يهمّهم أن يعرفوا بشأن القصيدة. «أيكون عذاب كتابة قصيدة أشدّ وطأة من عذاب احتباسها؟». يطلعُ هذا السؤال الملوّن من أوراقه. بعد مرور شهر وجدَ نفسهُ يُفكّرُ في العارفة، ويستجدي الشيخ الأبيض الرّائي أن يعود. كادت حياتهُ أن تتغيّر، لكنّ قصيدتهُ التي حلمَ بها ما تزال بين يديه مجهولةً، كان هذا أقصى ما ظلّ ينشدُ.

قرّرَ الخروج بها، حملَ نسخة منها ودخلَ مركز تنشيط الشّباب بمحاذاة الأروقة الجزائرية سابقا. وجدَ شابّة أنيقةً قصيرة القامة طربةً لموسيقى ما، تجلسُ على كرسيّ يدورُ بها، ألقى عليها التحيّة

فنزعت عنها السمّاعات: «مرحبا الحاج وش تسحق؟». لم تصدمهُ الطّفلة إذ تنعتهُ بالحاج، فهو فعلا يكاد يموت ويترك قصيدتهُ اليافعة يتيمة بعدهُ، ثمّ إنّ مينا الذي هو ابنهُ يحوزُ لقب «الحاج». أخبر الفتاة أنّهُ يُريدُ شخصا لنسخ نصّ، فاعتذرت لأنّه لا يمكنهم فعل هذا، ووجّهتهُ إلى مقهى انترنيت خاصّ بالجوار. همَّ بالخروج لتنادي عليه: «يا الحاج!». التفتَ مبتسما وسعيدا بصوتها الأنثويّ المفعم، وعرضت عليهِ المساعدة بنسخ النصّ، سعدَ لذلك وقرّرَ أن يكافئها بشيء ما، وليكن نسخة من ديوانه القادم، طبعا كان يأمل أن يكتبَ قصائد أخرى، ولا يهم إن كانت رديئة أو أقلّ مستوى، فأسمى أهدافه كان القصيدة التي أجلستهُ جوار الفتاة الحسناء القصيرة.

كان يقرأ لها كلمة بكلمة وهي تطبعُ الكلمات على الشّاشة، ويُصحّحُ بعض أخطائها، وبين الحين والآخر تحكي لهُ أو تسألهُ أمرا. قالت في البداية: «هذه قصيدة لنزار قباني؟»، وأخبرها أنّها لشاعر آخر. بعد بيتين خطّيين كانت تعتقدُ أنّ الشّاعر يكتُبُ لامرأتين، وفي نهاية القصيدة لم تتحرّج أن تطلب منهُ الاحتفاظ بنسخة، وأسعدهُ ذلك، وعند طلبها اسم الشّاعر لتدوّنه أسفل العنوان قال لها: «بشير الدّيلي»، فتوقّفت قليلا وعلّقت: «عمري ما سمعت بيه»، وأجابها مبتهجًا هو شاعر جديد لأوّل مرّة يكتب يُقيم في القرابة، وطارت فرحا حين عرفت أنّه ابن حيّها، كانت الفتاة حفيدة ناصر.

فازت قصيدتهُ بجائزة متواضعة تقدّمها مؤسّسةٌ ثقافيّةٌ بالعاصمة، ولم يحضر حفل توزيع الجوائز؛ لأنّهُ لم يعتد مغادرة الجلفة، وكلّ حياته كانت افتراضا، هذا سلوك الكبار ولا يتناسبُ مع حجم الجائزة. كان كنجيبٍ محفوظ حين حصل نوبل، لكنّ مينا لم يذهب لاستلام الجائزة، وأرسِلتْ لهُ قيمتها عبر البريد، وتحدّثت

ثلاث صحف عن تتويجه، وكذلك إذاعة الجلفة. لم يكن من أرسل القصيدة، حفيدة ناصر هي من فعلت من أجل ابن الحيّ الهرم، لم يحدّث ناصر أحفاده عن أصدقاء النضال والحلم والشّباب، لم يعرّفهم أبداً على الدّيلي.

أصبح البعض يعرف أنّهُ كتبت قصيدة، فقد وزّعَ منها عشرات النُّسخ على ناصر وعبد الحميد واحتفظَ للزّين بواحدة، مينا تسلّم نسختهُ ويحيى والتّالية وحمّه الكوردوني، وتركَ نسخا عند فاتح الباقي لعلّهُ يجد من يهتمّ بها. بعد شهرين احتفل بعيد ميلاده الرّابع والستّين، وقد فتحَ حسابا فايسبوكيّا باسم مستعار هو: «le dernier délai»، أو «الموعد الأخير»، وتوَاصلَ مع بعض المثقّفين والكتّاب. رغبَ أن تجدَ قصيدة «الموفد» من يقرأها، ولا يهمّ اسمهُ، ما يهمّهُ أن تصِل إلى محبّي الشّعر فقط.

كان يقولُ: «أنا مثل أنكيدو، لا خلود لي، لا تجري في عُروقي دماء الآلهة، هي مثل جلجامش نصف آلهة»، أنكر ذاتهُ تماما أمام العالم، رغم أنّهُ كتبَ القصيدةَ التي قطع من أجلها رحلة مكابدة سنوات طويلة، لكنّهُ يتساءلُ: كيف ستجدُ قصيدتهُ؟ يشعرُ وكأنّ الحياة عادت بهِ، ويرى ابتسامتها العريضة، يلمسُ سعادتها الكبيرة أنّ زوجها حظي بجائزة وبوعود نشر في جرائد، سرّهُ أن كان زوجا أسطورة وكانت امرأة وفقط. غير أنّ عادتهُ في الشكّ والخيبة لا تغادرهُ تماما، لأجل هذا فهو يعتقدُ أن القصيدة كانت ستجدي وتغريها بالبقاء قبل أن تتحوّل إلى سالكة. بعد اليقين لا تعدو القصيدة أن تكون أغنية سرعان ما تنتهي، ويغالب خيبتهُ فيعتبر أنّ «القصيدة مهمّة لي أنا، لقد استعدتني عبرها».

وهو عائدٌ في المساء إلى المنزل يحملُ جريدتين، فكّرَ قليلا في

السّأم الذي يسكبانه، فتخلّصَ منهما، لم يكن مستعدًّا لمراجعة وجوه العذاب السياسي في الجزائر. قال بتهكّم: «أنا مثقّف سلبيّ نرجسيّ يؤمن في الفردانيّة، أنا عكس ناصر الذيً أبعد أحفاده عنّي، وعكس الزّين الذي ابتعد عن القرابة، وعكس عبد الحميد الذي يعيش في وطن مواز اسمه ضياء».

نظرَ إلى تراب القرابة، وقال بكثير من الفرح: «كنت أعرف أنّها أرض نجاة، وكنت مستعدًّا لأكون النّاجي ولو بقصيدة واحدة».

فصل الحكاية

«اعلم يا بشير - أعزّكَ اللّهُ وزيّنَ رؤاك - أنّ الصّدق منجاةٌ، فكن صادقًا ما بقيَ لك. والحبّ مأساةٌ ليست تزول بغير الوصل. والوحدةُ مكرُ الفكرة، لا تروق إلا المجانين أو العارفين. والوطن قداسةٌ لا يصلحُ بوضيع ولا يضيعُ به»

لطالما تحرّجَ من الذّهاب إلى مقاهي الفرارة القذرة. في السّابق اعتنقَ - بعض الوقت - مقهى العروسي، قبله أحبّ مقهى «الكلوة»، حيثُ يحضّرون الفرارة على نار الحطب. تأثّرَ ببعض الحداثة، وجرّبَ المقاهي الجديدة التي انتشرت فجأة، وأصبحت أكبر تجارة أو خدمة تزهو بها شوارع المدينة.

يجلسُ عبد الحميد إلى جانب ناصر في مقهى يتوسّطُ مقاهي الفرارة، غير بعيد عنهما، وفي طاولة خارج المقهى يجلسُ مينا إلى بعض السياسيين المتواضعين جدّا في فهم السياسة، والمتورّطين في التآمر والتحايل، حيلتهم في السياسة هي اختطاف المناصب ثمّ المكاسب، ثمّ التملّص وإتقان دور الكبار. في طاولة منبوذة اعتادَ هو الجلوسَ قليلا، يشربُ شايا تعلوهُ ورقتا نعناع في كأس زهيدة بلا لون واضح. هذه المرّة لم يكن موجودا، رغم أنّ كوب الشّاي كان يتوسّط الطّاولة. عبد الحميد كناصر، يقتربان من الشّحوب أكثر، يضعُ ناصر نظّارةً جديدة بإطار أسود أضفت عليه أناقة، وعكست شيبه الذي نزل كأنّه جنود تغزو شعره، يُفرطُ في طيّ بوق الجرائد التي يحملها، وما زالت عادته أن يقبض عليها حتّى تتعرّقَ يديه، ويقرؤها مع من استعارها منه، كأنّه لن يستعيدها. عبد الحميد بنظّارات بُنيّة كلاسيكيّة يبدو وكأنّه فارٌّ من آخر، وهو لا يكفُّ عن ملاحظة الجميع حتّى وهو يرتشفُ قهوتهُ.

مينا لا يهتمُّ لأحد، يرتدي بدلة رسميّةً وحذاءً لمّاعا. أخيرا تحقّقَ بعض ما أراد، الآن يوغل في تفسير أسباب فشل مرشّحه لمجلس الأمّة، وجلساؤه يصغون لحكَمِهِ في خشوعٍ. قبل سنوات قليلة ما كان يحلمُ أن

يفعل هذا، لكنّهُ أصبحَ مقرّبا من السيناتور، بل هو يدهُ التي ينفّذ بها، لأنّه أبوه؛ فهو سعيد بكونه زعيما مفترضا، لكنّ تعاستهُ عظيمة وتُغرقُ كلّ أحلامه، إذا كان السّيناتور بعض رجلٍ حقّا ووجد في مينا فحلا.

في طاولة خارج المقهى يحتسي يحيى منقوع أعشاب في هدوء، وللحظة تقعُ عينه على عيني عبد الحميد، يمرّ هاربا منهما فيجد نفسه يواجه ناصر. عبد الحميد هو الآخر يدير رأسه متجنّبا يحيى، فيجد نفسه في مواجهة مينا الذي يدير رأسه نحو طاولة الدّيلي الشّاغرة، فيبتسم لغيابه ويحيّيه بحبّ.

يعود يحيى إلى احتساء منقوعه متردّدا في النهوض، يهمُّ بالوقوف ثمّ يجلسُ. مينا يقفُ ويغيّر مكانه بحيث يديرُ ظهرهُ لطاولة الدّيلي، ويبقي على بعضِ الرّؤيا المناسبة لطاولتي عبد الحميد وناصر ويحيى، منطق السياسيّ الذي نما فيه يدفعهُ إلى مراقبة كلّ من حوله. ناصر يتفحّصُ المكان بلا نظّارات ويضعُها مجدّدا، كأنّه يريد أن يعرف وجه العالم خلف زجاجه وبعينه، وأيّ فرق بين العالمين؟ أما عبد الحميد فهو يمضغ فمه كأنّهُ هرمٌ منذ وضع طقم الأسنان الجديد، لقد جعل أحرفهُ تُصفّر، ومخارج الحروف التي ظلّ يصرّ عليها مهزوزة، يعود إلى التدرّب مجدّدا كتلميذ مجتهد.

يمرّ فاتح بقامته ولا يتحدّث أو يُلقي التحيّة، يضعُ هاتفه على أذنه ويغرقُ في المحادثة، كان الموضوعُ بالغَ الأهميّة، لهذا فقد اتكأ على عمود من أعمدة المقاهي، وانطلق يلوّحُ بيد ويجمع أصابعهُ شارحاً، ولا ينفكُّ يُبعدُ الهاتف عن أذنه وينفخُ منزعجا، ثمّ يعيدُهُ إلى أذنه، ولا يتوقّفُ عن إلقاء عينه نحو مينا في كلّ مرّة، ومينا يتظاهر أنّه لا يراهُ.

في طاولة حزينة يجلسُ رجل نحيلٌ بلا امرأة كانت تجالسهُ في عليّة مقهى الأمير، ويعرفُ الدّيلي من الحوار الذي يدور بين النّحيل

ونفسه أنّ زوجتهُ قد تركتهُ وتزوّجت من آخر، وهو بلا مأوى ولا زوجة ولا عمل يشعُرُ بكثير من النّدم، لا يأسى من أجله الدّيلي بل يشعرُ بالسّعادة من أجل السّمينة جزيلة الكرم والطّيبة.

النادل الفوضويّ لا يكفُّ عن التنقّل ويضعُ أكواب الماء أكثر من أيّ مشروب آخر، وفي كلّ مرّة ينادي أحدهم على كأس شاي أو فرارة أو شعرة أو حار أو منقوع أعشاب، يسلّمه كوب الماء البلاستيكيّ، ماء لا يعوزه بعض الوسخ العالق منذ أسابيع. الماء كالغيبة في تلك المقاهي جماعيٌّ، يشربُ منه الجميع دون تعفّف، ولا يكتشفونَ قذارة السُّلوك إلا مساءً عند المغادرة.

يقول عبد الحميد لناصر: «ما الذي يجري؟». يلتزم ناصر الصّمت، ويدور برأسه عاقفا حاجبيه، ثمّ يعودُ يحدّق في وجه عبد الحميد. يُطلق تنهيدةً طويلة: «لا أعرفُ لقد فشلنا، الجميعُ فشل، لكن لا أحد يقول ذلك». كان عبد الحميد يعرفُ أنّ الفشل هو آية هذا البلد، وكان الفشلُ يعرف أنّه آلهة يقدّسها الحكّام ويقدّمون لها الشّعبَ قُرباناً، لهذا فهو مقيم هنا. هل تحمل شيئا داخل الجريدة؟ يسأل عبد الحميد.

- نعم إنها قصيدة جميلة.
- لمن هي؟
- لبشير الديلي.
- بشير الدّيلي؟ الكرّوش؟
- نعم بشير الدّيلي، بشير الكرّوش.
- منذ متى يكتُبُ الدّيلي الشّعرَ.
- منذ كتب هذه القصيدة.

- هناك خللٌ في الحكاية يا ناصر.

- أيّ خلل! بشير كتبَ قصيدة، وهي جميلة وناضجة ومميّزة؟

- الزّين قال منذ أزيد من أربعين عاما إنّ بشير يكتب الشّعر وسخرتُ منهُ.

- لم أسمع هذا، لكنّنا جميعا نعرفُ علاقتهُ بالشّعر.

- بشير الدّيلي؟

بشير الدّيلي نعم، كتب، وسأقرأ القصيدة لتسمعها.

ردّدَ عبد الحميد اسم الدّيلي أكثر من مرّة وهو مشدوهٌ، كان حدثًا كبيرا أن يكتب قصيدةً بعد نصف قرن من المحاولة. أراد بشير الدّيلي أن يصرخَ: «إنّها كبيضة الدّيك فلا تبخلوا عليّ بالفرح». قال عبد الحميد إنه يريد أن يقرأها، وقال له ناصر ستسمعُها منّي طالما الدّيلي يرفضُ أن يلقيها. تململَ عبد الحميد، ومدّ يده ليسحبها، أراد أن يرى خطّهُ، تملّكه الشكُّ، لعلّهُ يريدُ أن يفتّش لغتهُ وأسلُوبهُ وبلاغتهُ وأوزانهُ، حركاته وسكناته وما علق من روحه. كان بوجهِ طفلٍ، فاغرا ينظر إلى ناصر الذي وقف، وشرعَ يقرأ، فينتبهُ الجميع تباعًا مستوضحين ما يقول الرّجلَ، وكلّما استمرّ في القراءة اندمجَ كأنّهُ كاتب القصيدة، وأصبحَ المقهى وما اقترب منه في حالة إصغاء عظمى للنّص الموعود، القصيدةُ التي انتظرتها القرابة والجلفة خمسين سنة كاملة، يا له من حظّ أن يكون كاتبها حاضرًا! أصابهُ الذّهول من روعة النّص الذي راحَ ينطلق من شفاهِ ناصر، لم يكن حاقدا عليه، وإلاّ كيف أحبّ قصيدتهُ؟

كان رواد المقهى يتحوّلون إلى تماثيل كأنّ القصيدة تلتهمُ ألبابهم، وعيونُهم مشدودة نحو ناصر، هو لم يتوقّف عن تحريك يديه وجسده كلّه منتفضا مع مخارج الجمل. عبد الحميد أمسكَ رأسه بيديه

وأغرق في الطّاولة مغمض العينين، أصابَ الوجوم الجميع، هذه هي القصيدة المنذورة إذن. امتلأ الشّاعر حدّ الاختناق، وهمّ بالبكاء أو الصراخ ، أراد أن يذرع هذا المسرح الذي يؤدّيه، أن يُعدّل الأمر كلّه ويبدأ من قصيدته هذه إلى الخونية فمينا، أن يستعيد نفسهُ في صورته التي أضاع وفي طريقه التي أخطأ، أن يقتلعَ خطاه من مهبط اللّعنات ويطير، لو كان بوسعه التعديل والتأصيل، لبدأ من هذا المشهد، لو كان لهُ أن يموت، لاختارَ هذا المشهد خاتمة، إذ لا حياة بعدهُ كما لا حياة قبلهُ. «هل كنّا نحتاج قصيدة أيّها الوطنُ؟ هل كنّا نحتاج امرأة؟، كم كنّا جناة وقساة ونحن ننفر منّا باسم اللامعنى، كم كنّا كاذبين ونحنُ نكتبُ حكايات أخرى غير حكاياتنا». كان صوتُ الشيخ الأبيض الرّائي يعلو المكان، ولا وجه له إلا الذي علق في ذهن الدّيلي قبل القصيدة: «**اعلم يا بشير. أعزّكَ الله وزيّنَ رؤاك. أنّ الصّدق منجاةٌ، فكن صادقًا ما بقيَ لك. والحبّ مأساةٌ ليست تزول بغير الوصل. والوحدةَ مكرُ الفكرة، لا تروق إلا المجانين أو العارفين. والوطن قداسةٌ لا يصلحُ بوضيع ولا يضيعُ به**». هدّ الشيخ الأبيض الرّائي ما أقنعتهُ به التجارب، لكنّهُ ابتسمَ لهُ، هدّدَ وحدتهُ وحبّهُ وتصوّرهُ للوطن، ولم يكن محبطا، فهو لم يَعد وحيدا بعد قصيدته، واتّسع الوطنُ أكثر مذ خرجت للعلن في مقهى تقليديّ رثٍّ، كأنّها امرأة اكتملت جمالا وأنوثة، واستقام أمرُ حبّه، فما عادَ تائها ضائعا أمام العارفة، ولا عاد يخيفهُ جيش الحيرة الذي يرابطُ على مشارف عقله. ها هو أكبر قليلا من مريد لها، وأقلّ من عارف مثلها. لقد استعاد اتّزانهُ وحكمتهُ وحياتهُ، ولا يعنيه الزّمنُ، فساعةٌ كفيلة بمباهج الدّنيا والرّوح في حضرة القصيدة، في حضرة العارفة، وها هو منذور القصيدة منذورٌ مرّة أخرى، لكن لتذوّق الحياة وتقدير الأسرار.

صدى قصيدته يعلو مجدّدا، يرى كأنّهُ عاش بلا رؤيا، يتنفّسُ كأنّهُ عاش بلا صدر، ويسمعُ كأنّ العالم كان مكتوما، «ما أبطأ المعنى!»، ترصّده وتربّصَ به منذ عقود، لا يحلّ ولا يُرسلُ خبرا، كلّ الأبواب الممكنة فتحها، لا نوافذ تُغلق، والجدران أزالها، صحراء فعلت به ما يمكن وما لا يمكن، فقط ليرى حلول المعنى، ولكنّه لم يصل ولا يبدو أنّه واصل، ما أبطأ المعنى وما أعجز القصيدة حين تُقال! ما أقصرها عمّا يكابدُ! كانَ قد تأكّدَ تماما أنّهُ بعض معنى، أنّ اكتمالهُ مستحيلٌ، وأنّه لا اكتمال على هذه الأرض، لا اكتمال في غير بهاء النّقصان.

كأنّهُ لم يكن إلا موقد رغبات وفشل، ثمّ صار موقدا للحبّ والحكمة، كأنّهُ لم يكن أبدا ثمّ صارَ، لولا القصيدة لكان مجنوناً. لقد أدركَ أخيراً أنّهُ بانقضاء الحكاية، باقتراب النّهاية تصبح الحيرةُ مملكتهُ، وتتّسعُ أكثرَ حتّى يُضيّعَ أسبابهُ كلّها، وفي هذه المرحلة يكتفي فقط بالابتسامة. يمضي ساهما فيما تبقّى، ويتحسّسُ الوقت كمنشار، والحياة كشجرة. يرى الوجوه كلّها ويسمعُ الأصوات تتداخل. الحسُّ يغني وتمحو أغنيته العارفة بقصائد وأناشيد، حتّى يحيى لهُ صوتهُ الذي يعلو الصّخبَ، بل هو صاحب الصّوت الأهمّ، لكنّ الأصوات والمشاهد تخفتُ وتخبو تدريجيّا، يَفقدُ وضوحها، ثمّ لا يجدها إلا في الذّاكرة. يقتربُ كثيرا من المجهول، وسينتهي صامتا غير مرئيّ، سيكتفي بفرحهِ الصّغير، لقد صار لهُ قصيدة وحكاية.

يعيدُ تأمّل المقهى الذي احتفى بقصيدته، فلا يرى إلا وجه مدني يتكرّرُ في كلّ جهة. كان مدني يستولي على المقهى متعدّدا يشربُ قهوةً، يُدخّنُ سيجارةً، يرتشفُ شاياً، يسقي شجرة يتّكئ عليها كرسيّ بلاستيكيّ متّسخٌ، يحكُّ شعرهُ، يعدّلُ جلستهُ، يقفُ، يجلسُ، يمرُّ يعانقُ نفسهُ، يرغي ويزبد، يضحكُ بصوتٍ يمحو السّمعَ، يملك ظلالا كثيرة،

وروحا مجزّأة. كان مدني شعباً كاملا في المقهى، ولا أحدٌ هناك إلا القصيدة في قلب الدّيلي. لم يصدّق بشير أنّ مدني عاد ليكون النّاس كلّهم، لا يمكن أن نكون مجرّد صورة واحدة بلعنات وأحلام.

قبل أن يختفي، سحبَ قطعة من عشرين دينار، فركَ وجه الأسد على ظهرها، ومنحها للنّادل الذي ألقاها في جيبه دون أن ينتبهَ إلى الأسد، هذا تمامًا ما حصل معهُ. النّاس لا ينتبهون دائما لكلّ ما يصادفون، لا يدري بعدها نحو أيّ مكان مشى، وكان يرتدي حذاء السّايح الذي أهدتهُ أرملته، لقد لاحظتِ أنّ حذاءهُ قد انفصل ولم يعد يصلُحُ للبقيّة، وضعتهُ في كيس أنيق وقرعت البابَ، وعندما فتحَ لها أبهجهُ وقوفها على بابه بأنوثة ما بعد الخمسين ونضجها، وأدخلتهُ هديّتها دوّامة فرح. مشى بخطى جاره الميّت، لا يدري إلى أين! التفتَ يُودّعُ المكان، ووقعت عينهُ على ساعة مقابل السّاحة الكبرى للمدينة، كان الوقتُ يكذبُ ليرضيَ الشّيخ الذي كان إياه ويقول لهُ إنّها العاشرة، فيبتسمُ ويُصدّقهُ، بينما يحاولُ أن يتذكّر شيئا ممّا مضى، فيسلبهُ الشّيخُ الأبيضُ الرّائي ذاكرتهُ المتخمة.

* * *

يقول الشّيخُ الأبيضُ الرّائي بلغة أقلّ من بلاغة الأحلام، ودون رموز وإشارات: «ها أنت ذا تملكُ القصيدة والحكاية، وتوجعُ الحبّ والشّعرَ، ماذا أردت؟ أ حكاية التّالية ويحيى ما يسعفُ فشلكَ وخيبتكَ وضياع الحبيبة؟ أ هو الحبُّ في العصر الموالي لتعارض به حبّك في العصر المنقضي؟ لقد كانت حكايات الحبّ جميعها خيبات متتالية. لو أنّك أعدت قراءة عبد الحميد وضياء لكان أفضل، هما نُقصان الحكاية ضدّ أيّ اكتمال. أيُّها الدّيلي، لم تكن فوزية بنت سالم الميكانيكي لابنك

مينا، ليس لأنّك أورثته الخيبة أو جزّأت لعنتك معهُ، لا لأنّهُ أقلّ أو لأنّها تزدريه، لكنّها كانت حبيبة مسعود بلخضر. والحبُّ ـ يا أبا إبراهيم ـ مثلَ الرّوح لا يمكن استبدالهُ، ما يستبدلُ هو الشّغفُ. كانت عينهُ التي ينظرُ بها، وقلبهُ الذي يخفقُ، وروحهُ التي تسري في القرابة، فلو أنّها نسيتهُ بعد مقتله، لكان نسيا منسيّاً. لقد أسكنتهُ عمقها كما فعلتَ مع الخونية، ورغم أنّ فاتح الباقي سطا على رواية (بقع غامقة في حياة بيضاء) بحسن نيّة، وحرم العاشقةَ من آخر رسالة لمسعود، حرمهُ من آخر رسائلها، إلاّ أنّها ظلّت تفتحُ النّافذة وتدفعُ الشبّاك وتطلقُ يدها البيضاء كحمامة تتلمّسُ الرّواية، ولا تعثرُ عليها أبداً. أتريدُ ـ أيّها الدّيلي ـ أن تنسى فوزية جُرحها الفاغر أبداً وتشرعَ في فرح مع مينا؟ حتما لست الذي يرضى هذا، لو أنّ يحيى نُزِعَ عنه العقد الّذي ألبسهُ مسعود وسلّمهُ فوزية لكان أدّى واجبا مقدّساً، إذ ارتداه سنوات لا يعرفُ أنّ الحرفين اللّذين طوّقا عنقهُ هما فاء فوزيّة وميم مسعود. ولعلّكَ ـ كما الكثيرين ـ تتساءل عمّا حصل بعد مقتل العجوز في رواية (بقع غامقة في حياة بيضاء)، ويؤسفني أن أخبرك أنّ الرّواية المفقودة انتهت برسالة من الكاتب الشّابّ إلى الكاتب العجوز، وممّا جاء فيها: ((أيّها الكاتب العجوزُ القتيلُ، لا أجدُ تحيّةً تناسبُ الموقف الذي نحنُ فيه، فأنت ميّتٌ وأنا شبهُ حيّ، وفي كلّ الحالات أكون أنا أفضل منك بكثير، أنا أقرب إلى الحياة، طبعا هذه المفاضلة لا يدركها أحد غيرنا نحن الاثنين، أمّا باقي المعجبين والمولعين بأدبك وقيمك، القرّاء وغير القرّاء من الذين يصطفّون لتوقّعَ لهم رواياتك المكرّرة، هؤلاء لا يعلمون أيّ خيبة تموت الآن، وأيّ غبطة أعيش، وبما أنّهُ لا تحيّة يمكن أن أفتتحَ بها الرّسالة فدعني أذكّركَ بالنّهاية التي اقترحتها عليك، لقد منحتكَ خاتمة بشللٍ وجلطتين متتاليتين، تكفّ بعدها عن الفعل

المخزي الذي داومته لعقود، تكفّ عن التظاهر بأنّك كاتب حقيقيّ، لكن لبؤس النّص ستكون نهايتك فجائعيّة وصادمة ودراميّة جدّاً، ربّما هو حظّكَ، أو نوع من الإنقاذ لمصيرك والتّعويض لك عن عذاب الزّيف والتّمثيل، ألا يتعذّبُ المزيّفون بزيفهم والممثّلون بأدوارهم، ثمّ ها أنت تستحوذُ على الاهتمام، أليسَ غايتك العظيمة؟ تماما كما أردت دائما حيّا، أمّا أنا فأنتظرُ أن أصيرَ عجوزاً لأتلوّثَ بما يكفي من الشّهرةِ والزّيف والكذب، لأنظّر للحبّ وأمارسَ الحقد، وأمثّل الحكمة، مثلك تماما سأتحدّثُ عن القيم وأتجاوزها، أبشّر بالحبّ والسّلام، وأهدمُ أركانهما، أليست تلك الطّريقة لأصبح مثلك علامة وأيقونة؟...)).

كانت تلك الرّسالة تحوي بعض رسالة فوزية إلى حبيبها الشّاعر مسعود بلخضر، لقد اتّفقا أن يسطّرا بالقلم الرّصاص كلمات، ويقرآ من خلالها رسائلهما لبعض. كانت تلك الرّواية القاسية تحملُ حكايتهما، كأنّهما أعادا كتابتها غير مرّةٍ، وجمّلا الدّرجة الكبيرة من النّفاق والإجرام والخداع التي كانت عليها، كأنّ الحياة ترتيب فقط للكلمات، رصفٌ للمعاني، إن شئت كتبت الجمال والخير، وإن شئت كتبت القبح والشرّ، كأنّ النّص الشرّير يحملُ معنى النصّ الخيّر فقط بإعادة ترتيبه. أيّها الدّيلي، هناك عبارة جميلة تركتها فوزية حبيبة مسعود بلخضر ضمن رسالة الكاتب الشابّ للكاتب العجوز، لقد سطّرت تحت الكلمات التي تشكّل: ((أبشّر بالحبّ والسّلام غيرنا، أيّ غبطة أعيش ونحن الاثنين أقرب إلى الحياة! تلك الحكمة غايتك العظيمة)). ضيّعَ يحيى الرّواية بعد أن أعارها لناصر، ولم يُعرف عن ناصر أنّهُ يهمل كتبا ويتركها بلا قراءة، لكنّهُ أعادها ليحيى سريعا ولم يبد أيّ تحفّز لها، ولم يجد يحيى سببًا للاحتفاظ بها، فوضعها لدى مكتبيٍّ منحهُ مقابلها ثلاثين دينارًا، ثمّ اشتراها مينا من سوق الجمعة

بخمسين دينار، محمولُ الحبّ والسرّ الذي بها لم يكن لهُ سعرٌ، لكنّ الجميع جهلوا ذلك.

يا بشير بن إبراهيم الكرّوش، أتعرفُ أنّ أباك لحظة موته لم يفكّر إلاّ فيك، راح يكرّرُ صورتك بينما كان ينزفُ من رصاصة شقّت كتفهُ وأخرى خاصرتهُ، رصاصتان كفلتا سبع دقائق من التّفكير فيك، أقسى دقيقة كانت الأخيرة، حيث تكثّف وجهك وامتلأت عيناه بالدّموع، ثمّ فاضت روحهُ بهدوء، ولم يلتفت ليرى قاتلهُ خشية أن تكون خيبتهُ أكبر ثقلا من موته، والحقيقة أنّهُ كان يكذّبُ نفسهُ ليعتقد أنّ قاتله هو العدوّ الفرنسيّ المستعمر. أتدري يا بشير، ظلّ قاتلهُ رمزاً إلى غاية موته بعد مرض قصير، ولم ينعم بحياته، إذ طلع إبراهيم في كوابيسه أثناء مرضه وعذّبهُ كما لم يكن يتصوّر، هكذا انتهى الرّجلُ بلا شرف ودون جنازة رسميّة وبلا خبر عن انتقاله إلى رحمة الله أو إلى غير رحمته. أيّها الرّجل الذي كتب قصيدة الآن، لا تفعل شيئا، فقط امتثل للحياة وتمثّلها فيما تبقّى».

افتراض

(بمثابةِ المنفذ)

كانت المقاهي غيرِ مكترثة بضوضاء مرتاديها. سحبَ ناصر قصيدة «الموفد»، وقرأ بصوتٍ جميل، كان وما زال يتقنُ الإلقاء، وعندما فرغ من إلقاء القصيدة كان قد خلص إلى بعض ناصر. ضمُر وصغر وأصبح بالكاد يُرى، ولم يكلّف أحد نفسه التصفيق أو الوقوف. واصلَ كلّ منهم ما بدأه، من قَطَع كلمة أوصلها بنصفها، ومن كان بصدد الجلوس أطلق جسمه على الكرسيّ، ومن ألقى بخطوة علّقتها قصيدة الموفد أكملها، لم يحدث أيّ شيء بعد كلّ تلك السنين. كتبَ الدّيلي قصيدتهُ وقرأها ناصر ولم يحدث شيءٌ في العالم.

قال مينا لجلسائه إنّهُ عائدٌ. وقف من مكانه واتّجهَ صوب ناصر، سلّم عليه وقال له: «قاموسك هذا مأخوذ من فم الخونية». نظر ناصر إلى عبد الحميد الذي كان يطلقُ دمعة سريّة، ويدركها بيده قبل أن تقع داخل قهوته الباردة، وردّ على مينا بأنّها تركتْ قاموسها في قلب الدّيلي. انصرف مينا دون أن يعود إلى أصحابه، واختفى في فوضى المدينة.

أعاد فاتح هاتفهُ إلى أذنه وقد هدأ تماما، سحبَ كرسيًا حديديًا بارداً ،كان مهملا على يساره، ويدهُ اليمنى تثبّتُ الهاتف على أذنه اليسرى. جلسَ وأنهى المكالمة بابتسامة، ثمّ شبك يديه فوق بعضهما، وغرق في تفكير عميق، وأهملهُ النّادل.

في اليوم الموالي كانت قصيدة الديلي حديث شعراء ومثقّفي المدينة، كانوا أكثر سلبية من أن ينقدوا شاعرا هرما، أقلّ حيلة من أن يفهموا موضع الشّعر والثّقافة، لهذا اكتفوا في التّشكيك، وارتادوا مقاهي الانترنيت وبيوتهم بحثا عن مصدر القصيدة.

انتهى الدّيلي إلى قبر الخونية، وقرأ مجدّدا القصيدةَ. كان يسمعُها وهي تردّد معه أبياتا كاملة وتصمت عن البقية. شعر أنّها كتبتها معه. كان على عتبةِ الرّابعة والستّين حين كتب قصيدته الأخيرة، وقرّر بعدها أن يتحوَّل من الشّعر إلى العرفان سرّا. عادَ من رحلته منهكًا، ولم يسعهُ أن يفعل شيئا واضحا سوى التأمّل.

أمضت التالية ليلةً كاملةً تقرأ القصيدة، وأمضى يحيى أيّاما يختار مقاطع منها ويحوّلها إلى لوحات فنيّة. أمّا ضياء فقد سمعت القصيدة من عبد الحميد وحدهما في فِناء منزلهما المحاذي للطّريق الوطني رقم 1، وبكى وشهق كثيرا وهو يقرأ القصيدة، قال لها وهي تواسيه: «لقد تركناهُ وحيدا طوال نصف قرن يا ضياء»، وقالت له: «كان يبتعد عن الجميع مؤخّرا».

ناصر اعتزل بين كتبه يفسّر جزئيات القصيدة، ويسعى لقراءة تاريخهِ وتاريخ الدّيلي وعبد الحميد والزّين من خلالها، بل وقراءة الحياةَ والوجود في القرابة، في حين كان الزّين يفكّر في طباعتها في كتاب مرفقٍ بشهادات لأساتذة وباحثين، مستغلّا نفوذه وعلاقاته.

منذ أيّامٍ، يحاول صحفيّ من إذاعة الجلفة الاتصال ببشير الدّيلي ولا يفلح، أعطوهُ رقم مينا فردّ عليه أنّه لا علاقة له بالجانب الثقافي والشّعري للدّيلي، وأن علاقتهما أبويّةٌ ولا يمكنه أن يتحدّث في شأن كهذا. في النهاية اكتفت الإذاعة ببثّ مقطع من القصيدة، يغنيه العيد الحسّ دون أن يحترم كثيرا القصيدة، لكنّه منحها انتشارا أوسع من إلقاء ناصر المهذّب والانفعاليّ.

وجد الهدوء أخيرا وهو يرتاحُ تدريجيا. أصبحت حركاته قليلة، وتحوّل من طفل نشط إلى شيخ حكيم، يبتسم كثيرا ولا يغادر بيته إلا قليلا. أنكرَ كلّ شيء في الحياة سوى الابتسام للآخرين، ولم يرفض

الأكل الذي كان يصلهُ من جيرانه بالقرابة، لكنّه قنّنهُ، فأصبح كلّ يوم يحصل على وجبة من بيت. تصالح أخيرا مع القرابة ومع نفسه ومع المدينة. زاره عبد الحميد، وجلسا معا أمام البيت. قال له عبد الحميد: «أتدري يا الدّيلي، لم أشعر كيف وصلت إلى هذا العمر، ولا أدري كم يلزمني من الوقت لأتأمّل كلّ الخطى التي ألقيتها دون أن أنتبه لها، هل تشعر بالوحدة والعجز؟»، ضحك الدّيلي ضحكة مرهقةً وتعبة، وأجابه: «لا أشعرُ أني عجوز، ولا أني شابّ، أشعر أني فشلت تماما، فقط لأني بدأت البحث عنّي من الجهة الخطأ، أشعر أنّ الوطن يعيش وضعي أيضا».

الآن يتّجه بشير صوب باب بيته الذي ألبسه الأخضر، يدفعهُ فيفتح عن آخره، يودّع عبد الحميد بابتسامة، ويقول له: «ربي يجيب الخير، وعلى رأي معاوية يا حميد سلّك يا سلّاك»، ويردّد عبد الحميد «سلّك يا سلّاك»، ويدخل قلب البيت، ويترك الباب مفتوحا، وكان صوت عجوزٍ من أحد البيوت يلاحقُ فراغ زقّاقه وهي تداعب طفلا، فيضحكُ عالياً: «قد النملة، قدّ الفأر، قدّ عجيّز تقدي النّارّ».

* * *

أطلق الدّيلي الوحش ثمّ أصابهُ الوهن. اكتفى حين كتبَ قصيدتهُ، وكان على أحدهم أن يتدخّل ليقيّده ويعيدهُ إلى قمقمه الذي طلع منه، ربّما لم تعد هناك حاجة لذلك، فالوحشُ مرهقٌ، يذوي ويشعرُ باقتراب النّهاية. بدأ الدّيلي من التالية ويحيى، ليداري حكايته والعارفة وابنهما مينا.

كان «الموفد» آخر ما كتب بشير، وسيعيشُ بعدها حياة عادية، يقلّ فيها حديثه إلا مع مينا. أمّا باقي السكّان فقد واصلوا انتشارهم في

الأرض، وكانت مصائر بعضهم كالآتي:

التالية: تعمل منذ سنتين في مركز التكوين المهني للبنات بحيّ عين الشّيح. توسّط لها عيسى الجرديني، وهي تربّي ابنها شوقي الذي تأقلم تماما مع القرابة، تنتظر بلوغه السنّ القانونية للإفراج عن ميراثه. ما تزالُ تعيشُ في بيت والدها الذي مات بعد معاناة مع الزهايمر، وحضرت السعدية الجنازة التي اختفت عن الحيّ، ولم يكن أحد يعرفُ أنّها كانت زوجتهُ بعض الوقت. شقيقها منصور أصبح صاحب مقهى في أحد أحياء الجلفة، وتزوّجَ جويدة بنت السّعدية، ولا يُعرف كيف عثر عليها. شقيقتها منى اكتشفت أنّها تميلُ إلى المسرح، وهي تدرسُ في قسم الفنون بجامعة الجلفة، وهو تخصّصها الخامس.

يحيى: أنجبت زوجته بنتا ثانية وسمّاها عيدة، وهو يعمل بجدّ في مقرّ محافظة السّهوب، وقد حوّل أرضهُ بقبب العطايا إلى جنّة صغيرة. ابنته أحلام كبرت، وهي تدرسُ مع شوقي في المدرسة ذاتها. ربيب زوجته سليمان يدرسُ في متوسّطة قريبة من القرابة، وهو ضخمٌ وطيّب، وما زال يناديه: «خويا» حين يتحدّثُ عنه. زوجتهُ رقيّة استثمرت في صناعة البرانس والقشابيات والزّرابي، وكوّنت ثروة صغيرة مكّنتها من شراء منزلين بالقرابة. أمّا ابن أخته إدريس فقد شفيَ، ولم يعد يظهرُ عليه الجنون. في النّهاية لم يكن مجنونا، كان يعاني من صدمة عنيفة تسبّبت له في انهيار عصبيّ، ورغم ذلك إلا أنّه لم يستعد ما كان عليه، وملامحه مليئة بالدّهشةِ والحيرة. وفيّالة أمّ إدريس تتعاونُ مع رقيّة وتنالُ حظّها من مداخيلها.

مينا: تصرّفَ في الكثير من قوائم السّكنات الاجتماعيّة، يستخدمُ علاقاته لقضاء حاجات أصدقائه وسكّان القرابة، يحضر الأفراح والجنازات، ويساعد بما يستطيع، يسلك طريق زين العابدين، لكن

بأسلوب إنسانيّ، يريد الزّين التخلّص منه، وتريد الأحزاب ضمّه؛ لأنّ له قاعدة انتخابية بعد سنوات من التنقّل بين أحياء الجلفة وأزقّة القرابة، لا يزور والده بانتظام، لكنّه يهاتفهُ كلّ يومين أو ثلاثة، ويرسل إليه كلّ ما يحتاجه، ولا يستغلّ كون والده مثقّفا وشاعرا ناشئا في تسلّق سلّم المناصب السياسيّة، لأنّ هذا الأمر- كبطولة جدّه الشهيد المجهولة- لا أهميّة له في منطق السياسة.

فاتح: عاد كما هاجر من الجلفة والقرابة، وهو يرتّبُ حياته منذ سنة وأزيد، وقد يلتحق قريبا بالبلدية كعون إداريّ، حسب ما وعدهُ مينا. حبيبته زليخة تزوّجت من رابح أحد الظّلال الثلاثة التي أنقذت يحيى، ويحيى متّهم بأنّهُ دلّ شقيق سعيدة على زليخة. أمّهُ تركيّة مريضة طريحة الفراش، وهو يعتني بها، وقد نسيَ تماما الاعتناء بجدّته شجرة العنب.

ناصر: هدأ ولم يعد بملامح الصّرامة والنّرفزة، اكتسبَ ملامحَ الشّيخوخة، وكلّما زاد عدد أحفاده زاد ليونةً، ما زال يقرأ، أصبح يحكي لأحفاده عن صديق عمره بشير الدّيلي.

عبد الحميد: قلّت حركتهُ وهو يستعدُّ لترك القرابة، بعد أن اقتنى شقّة في حيّ برنادة لصيقة بمسجد؛ ليكمل باقي حياته موزّعة بين ضياء والصّلاة.

زين العابدين: أصغر الشلّة، يعملُ بجدّ لينال منصب وزير، وهو مستعدٌ لأيّ شيء للحصول عليه، وفي باله وزارة الفلاحة؛ لأنّه يملك مستثمرة فلاحيّة، ولأنّهُ ينتمي لمنطقة لا سطوة لها على السّلطة، فسيبقى مجرّد قوّاد صغير للشّبح الكبير.

رحمة: اختفت، وهناك حديث عن تورّط مينا في اختفائها، حيث يكون قد اقتنى لها شقّة في عين معبد وتزوّجها سرّا.

فتيحة: تقيم في بيت زوجها ولا تودّ سماع خبر عن التالية، تخدمهُ بينما ابنها يتربّى عند جدّته في القرابة، يتزوّج زوجها من شابّة تعملُ معه، وتبارك هي الزّواج قسرا.

العيد الحسّ: أصدر ألبومين، وهو يسعى للثالث، لم يحقّق أيّ نجاح، ورفضت معظم الإذاعات بثّ أغانيه، وفي الجلفة قُبلت أغنيتان من آدائه، لكنّ بثّهما يتمّ على فترات متباعدة، وقد أحدث ضجّة لأنّه لم يتلق دعوة لمهرجان الأغنية النايليّة.

فوزيَة: تعيشُ وحيدةً، ولا أحدٌ يهتمُّ لأمرها، ووالدها سالم الميكانيكيّ يعتقدُ أنّ الذي بها سحرٌ، وستبقى على حالها وفيّة لذكرى مسعود بلّخضر، تردُّ خاطبيها حتّى يتوقّفُ قرعهم ويتوقّفُ ماء الحياة، فلا يسري في وجهها الذي يذبلُ.

أمال، فريدة، طمطم، حمّه الكوردوني، عيسى الجرديني، الحفناوي، بلقاسم الحجّام... والآخرون: مسارات عاديّة يمكن للدّيلي أو أيّ كان أن يتخيّلها.

مدني: لا أحد يعرف شخصا بهذا الاسم.

النهاية

مَولَى الحَيْرَة

تحرير (مفتتحٌ بمثابة مداعبة)........ 7
الطّبقة الأوّلى: ما أخلف الغياب!........ 57
1/ معزوفة القصب........ 59
بسط الغياب........ 61
أقفاص العطر........ 79
وجوه........ 91
كبريد لا يقطف........ 101
شرح جديد لغياب قديم........ 111
2/ معجم المنسيّ........ 121
عشرون سنة بحثا عن الحبّ........ 123
ثلاث غيبوبات في قبب العطايا........ 135
دفتر الزّائر........ 149
اللّسان........ 169
ما العالم؟........ 183
صيد الحكاية........ 195
مسعى حفيد العنب (ما عُلمَ من ملهاة فاتح الباقي)........ 213
الطّبقةُ التالية: اقتسام اللّعنة........ 267

1/ خطوات مستعارة 269
ناب الفضّة.. 271
الأب والابن.. 283
في خيمة رحمة.. 295
العمامةُ والشّامة.. 307
أرأيت النّملة تبول؟.. 319
2/أرض النّاجي.. 331
زقاق الحمامة.. 333
اقتفاء الشّاعر.. 345
العرفان.. 359
بلاغات عسيرة.. 373
أنكيدو 387
فصل الحكاية.. 401
افتراض (بمثابة المنفذ).. 415

تم الطبع من طرف متيجة للطباعة
549 شارع مصطفى جعدي براقي الجزائر

إسماعيل يبرير

موال الحيرة

هـا أنت ذا تملكُ القصيدة والحكايـة، وتوجعُ الحبّ والشّعرَ، مـاذا أردت؟ أحكاية التّالية ويحي ما يسعفُ فشلكَ وخيبتكَ وضيـاع الحبيبـة؟ أهو الحبُّ في العصر الموالي لتعارض به حبّـك في العصر المنّقضي؟ لقد كانت حكايات الحـبّ جميعها خيبـات متتالية. لو أنّـك أعدت قراءة عبد الحميـد وضياء لكان أفضل، هـما نُقصان الحكاية ضدّ أيّ اكتمال. أيُّها الدّيلي، لم تكن فوزيـة بنت سالم الميكانيكي لابنك مينـا، ليس لأنّـك أورثته الخيبـة أو جـزّأت لعنتك معـهُ، لا لأنّـهُ أقلّ أو لأنّهـا تزدريه، لكنّهـا كانت حبيبة مسعود بلخضر. والحبُّ - يا أبا إبراهيم - مثلَ الرّوح لا يمكن استبداله، ما يستبدلُ هو الشّغفُ. كانت عينـهُ الـتي ينظرُ بها، وقلبـهُ الذي يخفقُ، وروحـهُ التي تسري في القرابة، فلو أنّها نسيتهُ بعد مقتله، لكان نسيا منسيّاً. لقد أسكنتهُ عمقها كـما فعلتَ مع الخونية، ورغم أنّ فاتح الباقي سطا علـى رواية (بقع غامقـة في حياة بيضاء) بحسـن نيّـةٍ، وحرم العاشـقةَ من آخر رسالة لمسعود، حرمهُ من آخر رسـائلها، إلاّ أنّهـا ظلّت تفتحُ النّافذة وتدفعُ الشبّاك وتطلـقُ يدها البيضاء كحمامـة تتلمّـسُ الرّواية، ولا تعـثرُ عليها أبداً.

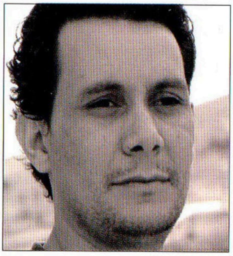

إسماعيل يبرير

روائي جزائري صدرت له عدة أعمال في الجزائر وخارجها، في الرّواية: «وصية المعتوه» (جائزة الطيب صالح العالمية للرواية 2013)، «ملائكة لافران»، «باردة كأنثى».

في الشّعر : «طقوس أولى»، «التمرين أو ما يفعله الشّاعر عادة»، ومسرحية «الرّاوي في الحكاية» (جائزة الإبداع العربي الشارقة 2012).

يعمل صحافيا في وكالة الأنباء الجزائرية ويشارك في الصّحافة الجزائرية والعربية.

مكتبة نوميديا 99

Telegram@ Numidia_Library

ISBN : 978-9931-514-49-7

9 789931 514497

خطوط الغلاف للفنان محمّد بن بوعبد الله

خطر
النسخ يقتل الكتاب

السعر: 900 دج